تمهيد

الثقافة والشخصية

منذ حوالى خمسين سنة ، وفي عام ١٩٣٤ على وجه التحديد ، أصدرت عالمة الانثربولوجيا الامريكية روث بنديكت Ruth Benedict كتابا بعنوان « انماط الثقافة Patterns of Culture » قيض له أن يحتل مكانة مرموقة بين الكتابات الانثربولوجية ، وأن يصبح أحد الأعمال الرئيسية الهامة في هذا المجال ، مع أنه كان في الأصل مجموعة من المقالات المتفرقة التي نشرت في بعض المجلات العلمية ثم جمعتها صاحبتها ، وأدخلت عليها بعض التعديلات واستخلصت منها بعض النتائج ، بحيث باتت تؤلف وحدة متناسقة ، واتخذت بذلك شكل الكتاب المتكامل . وقد يمكن القول ان ظهور هذا الكتاب كان بمثابة البداية لظهور فرع هام من فروع الانثربولوجيا الثقافية الذى يطلق عليه اسم دراسة الطابع القومي أو الشخصية القومية ، وهو اتجاه حديث وطريف يدخل عموما ضمن مايعرف في الكتابات الانثربولوجية الحديثة باسم « الثقافة والشخصية » والطريف في الأمر هنا هو أن روث بنديكت لم تتبع في تأليف الكتاب المنهج الانثربولوجي التقليدى الراسخ ، الذى يحتم على الباحث ان يقوم بنفسه بجمع المعلومات الاثنوجرافية من المجتمعات أو الثقافات التي يتعرض لها ، وما

وما يتطلبه ذلك من اقامة الباحث نفسه فترة طويلة من الزمن في ذلك المجتمع وملاحظة سلوك الناس وتصرفاتهم وعلاقاتهم ، وانما اعتمدت بدلا من ذلك ـ على الاقل في بعض فصول الكتاب ـ على بحوث قام بها غيرها من العلماء الذين كان كل واحد منهم يهتم في بحثه بدراسة وتحليل العلاقة بين نمط الثقافة السائد في احد المجتمعات البدائية وملامح الشخصية العامة كما تنعكس في سلوك أعضاء ذلك المجتمع . وقد اشارت المؤلفة بوجه خاص ـ الى جانب بحوثها هي ـ الى دراسة روث بونزل **Ruth Bunzel** لقبائل الزوني التي تعيش في جنوب غربي الولايات المتحدة والذين يتميزون عموما بالهدوء والدعة والميل الى الألفة والمودة ، والدراسة التي قام بها استاذها فرانزبواس **Franz Boas** لقبائل كواكيوتل في شمال غربي أمريكا ، وهم يمتازون بالتطرف والفردية وشدة التنافس والصراع فيما بينهم ، ثم دراسة ريو فورشن **Reo Fortune** لقبائل دوبو بالقرب من غينيا الجديدة ، وهي قبائل مشهورة بالميل الى الشجار وحب المنازعات ، كما يتصف أفرادها عموما بالتشكيك والارتياب في الآخرين . وحول هذه المجموعات القبلية الثلاث التي تمثل في نظرها ثلاثة انماط ثقافية مختلفة يدور معظم الكتاب .

والقضية الأساسية التي تريد روث بنديكت ابرازها والدفاع عنها ، والتي انتقلت منها بعد ذلك الى الكثير من العلماء ، هي أن السلوك العام السائد في أي ثقافة من الثقافات يمكن فهمه بطريقة أفضل وأعمق في ضوء القيم والمثل والاتجاهات العامة التي تسود في هذه الثقافة ذاتها ، وأن هناك عددا من الضوابط المحددة التي تحكم انفعالات الافراد في كل ثقافة ، مما يعني أن هذه الضوابط تختلف من مجتمع لآخر . وبقول آخر فان سلوك الافراد والجماعات يجب دراسته في ضوء مانعلمه هؤلاء الافراد أو تلك الجماعات على أنه صواب أو خطأ ، وكذلك في ضوء فكرتهم عن السلوك المباح والمحرم ، وبذلك تكون روث بنديكت قد وضعت في هذا الكتاب أسس نظريتها المعروفة باسم « الصيغة الثقافية العامة » ومؤداها أن كل ثقافة تسيطر عليها اتجاهات عامة شاملة تطبعها بطابع خاص يميزها عن غيرها ، وان ذلك يتطلب بالضرورة الاهتمام بدراسة الاتجاهات الاساسية للثقافة أكثر من الاهتمام بدراسة كل سمة من السمات وعلاقاتها بالسمات الاخرى ، التي تدخل في تكوين هذه الثقافة على ما يفعل الوظيفيون (يمكن للقارىء الرجوع في ذلك الى كتابنا عن « البناء الاجتماعي » ـ الجزء الاول ، المفهومات صفحة ٢٣٨) .

هذا الكتاب الممتع العميق الذى كتبته امرأة على جانب كبير من العلم والذكاء وشمول النظرة ، كانت له آثار بعيدة قلما تنبه اليها الباحثون . فلقد ساعد الكتاب على ايجاد بعض الاتجاهات الجديدة في الدراسات الانثربولوجية ، أو على الاقل ابراز أهمية عدد من الاتجاهات التي كانت بوادرها ظهرت من

قبل ، ولم تجد الاهتمام والعناية الكافيين ، فأرسى الكتاب هذه الاتجاهات على أسس منهجية اكثر قوة وصلابة ورسوخا . ويتمثل ذلك بوجه خاص في اثارة الاهتمام من جديد بدراسة بعض الموضوعات المشتركة بين الانثربولوجيا وعلم النفس ، وهي الموضوعات التي تندرج تحت مقولة « الثقافة والشخصية » والتي لها علاقة بالعمليات الادراكية والمعرفية ، والفوارق بين الجماعات السلالية المختلفة في مجال القدرات الخاصة والذكاء ، وصلة هذه الاختلافات بالظروف والأوضاع الثقافية ، وكذلك الموضوعات المتعلقة باختلاف انساق القيم وأثرها على حياة الافراد ، وما الى ذلك . أي ان كتاب بنديكت فتح الباب على مصراعيه امام دراسة الجوانب السيكولوجية في الثقافة ، وبوجه خاص دراسة الشخصية في علاقتها بالثقافة عن طريق تحليل العلاقات بين الثقافة والفرد ، وأثر الثقافة في تكوين الشخصية . وكانت النتيجة من هذا كله أن أصبح بعض العلماء ينظرون الى الثقافة على انها شيء « ذاتي يربط الأفراد الذين يشتركون معا في صيغة ثقافية معينة او نمط ثقافي واحد ، وبذلك بدأ هؤلاء العلماء يعتبرون الأنماط الثقافية تجريدات من السلوك ومن التجربة الثقافية ، وانه ليس لها بالتالي وجود واقعي مشخص بعيدا عن الافراد الذين صنعوها .

وبطبيعة الحال ، لم تسلم آراء بنديكت من النقد والتجريح والتشكيك والاعتراض والتعديل والاضافة اليها .

كانت بنديكت مثلا ترى أن (عقل) الفرد عبارة عن (صفحة بيضاء) يمكن لأي ثقافة أن تؤثر فيها وتطبعها بطابعها الخاص . فلم يكن الفرد في نظرها اكثر من مجموعة ضخمة من الامكانات التي يمكن لأي ثقافة أن تختار منها وتنتقي ما يتلاءم ويتفق مع نمطها الخاص . فموقف الفرد ـ في نظرها ـ كان موقفا سلبيا الى حد كبير فيما يتعلق ويتصل بعمليات التنشئة الاجتماعية او التطبيع الاجتماعي وعمليات التربية والتعليم . وقد أثار ذلك كثيرا من الاعتراضات . فلقد اعترض كاردينر Kardiner وغيره من العلماء الذين عالجوا نفس هذه النقطة وذهبوا فيها الى ان الفرد « يخرج » ـ حسب تعبير كاردينر ـ « لمقابلة » ثقافته اثناء عملية التعليم والتربية وعمليات التنشئة الاجتماعية عموما ، وان يحصل من الثقافة اثناء هذه « المقابلة » على ما يحتاج اليه من اشباع ، مما يؤدي الى ظهور اشكال السلوك الفردي المختلفة التي تضمها الثقافة العامة التي تسود المجتمع الواحد .

وليس المقصود على أية حال الكلام عن روث بنديكت ونظريتها عن الصيغة الثقافية بقدر ما هو محاولة تبين مدى عمق هذا الاتجاه (الجديد) في دراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية بوجه عام ، على

اعتبار ان هذا الاتجاه يمثل نوعا من التقارب العام بين الانثربولوجيا وعلم النفس . ولذا يكفى أن نشير هنا الى ما يقوله الاستاذان أوجبرن Ogburn ونيمكوف Nimkoff في صفحة ٢١٩ من كتابهما : « لقد ظل الانثربولوجيون لسنوات طويلة يهتمون بالتنظيم الصورى للثقافات المختلفة دون ان يهتموا كثيرا بالطريقة التى تؤثر بها الثقافة في الشخصية ، كما ظل علماء النفس ينفقون معظم جهودهم على دراسة السلوك في المعامل التى اعدت خصيصا لهذا الغرض ، ويبعدون تماما عن التأثيرات البيئية رغم مالها من اهمية عالية . ولكن لم يلبث الانثربولوجيون ان اكتشفوا الشخصية في آخر الامر ، كما اكتشف علماء النفس الثقافة ، وبدأ العلمان يتعاونان بشكل فعال في دراسة مشكلة العلاقات المتبادلة بين العوامل الثقافية والعوامل السيكولوجية . فكأن اهمية كتاب بنديكت تتمثل في آخر الأمر في انه ساعد على تحرر الانثربولوجيين الثقافيين من الاتجاهات الصورية في دراسة الثقافة ، والاهتمام بدرجة اكبر بدراسة علاقة الفرد الوثيقة بالثقافة ، مع ادراك أن الفهم الدقيق للثقافة يتطلب دراسة شخصية الفرد الذى هو في آخر الأمر جزء من هذه الثقافة ، يتأثر بها حسب ما تذهب اليه بندكيت ، ويؤثر فيها كما يقول غيرها ، ثم الاهتمام بعد ذلك بدراسات الشخصية القومية التى هي أحد فروع مدرسة الثقافة والشخصية .

وليس ثمة شك في أن ظهور الاتجاه الى دراسة الشخصية القومية وتحديد مداخل هذه الدراسة من أهم النتائج التى ترتبت على الاهتمام بموضوع الثقافة الشخصية . والمميزات الشخصية القومية » تعبير يطلق على الدراسات الانثربولوجية التى تهدف الى تحليل وتفسير المقومات الرئيسية التى تميز شعبا من الشعوب في ذاته . وقد ازدهر هذا الاتجاه في امريكا ابان الحرب العالمية الثانية نتيجة للرغبة في فهم الخصائص العامة التى تتميز بها الشعوب المتحاربة من كلا الطرفين ، اى الحلفاء والمحور على السواء . وقد برع الامريكيون في ذلك بوجه خاص ، ولذا ارتبطت هذه الدراسات بالمدرسة الامريكية بالذات اكثر مما ارتبطت بغيرها من مدارس الانثربولوجيا . وقد استفاد العلماء في هذه الدراسات بغير شك من خبراتهم المباشرة في البحوث الحقلية التى قاموا بها هم انفسهم في المجتمعات البدائية والبسيطة وطبقوها في هذه الدراسات الجديدة ، كما استفادوا من معرفتهم بالحضارات والثقافات القديمة او الزائلة وتلك التى على وشك الاندثار . والطريف هنا أيضا أن أهم دراسة أجريت في هذا المضمار اثناء الحرب العالمية الثانية كانت هي الدراسة التى قامت بها روث بندكيت نفسها على اليابان ، والتى ضمنتها كتابا طريفا آخر لها بعنوان (زهرة الكريزانتيم والسيف) ، عرضت فيه لتراكيب وبناء الثقافة اليابانية وللمزاج والروح اليابانية ، وطابعهم الخاص الذى يجمع بين العنف والقسوة من ناحية والرقة وحب الجمال والروح الفنية الراقية التى تتمثل بوجه خاص في الاهتمام بالزهور وتنسيقها من الناحية الاخرى

وقد استخدم تعبير (دراسة الثقافة عن بعد) للاشارة الى هذه البحوث والدراسات التى كان يقوم بها الانثربولوجيون معتمدين على كتابات غيرهم وعلى الوثائق والشهادات الحية وما اليها دون ان يقوموا هم انفسهم بالبحث الحقلى المباشر الذى تقضى به أصول المنهج الانثربولوجى . وقد تأثر معظم الذين درسوا هذه الثقافات عن بعد بالمناهج المتبعة فى دراسات الثقافة والشخصية ، كما اعتمدوا على نظريات التحليل النفسى ، سواء نظريات فرويد أو نظريات يونج ، فضلا عن نظرية الجشطلت Gestalt وسيكولوجيا التعلم . وبدأت عبارات جديدة تبرز فى الكتابات الانثربولوجية الثقافية نتيجة لذلك ، وهى فى الاغلب عبارات متأثرة بالمصطلحات المستخدمة فى دراسة الشخصية الفردية بعد تحويرها بحيث تتلاءم وتتفق مع اهداف الانثربولوجيين ، وبحيث تميز دراساتهم عن الدراسات السيكولوجية فى مجال الشخصية ، كما انها تشير الى الاتجاهات السائدة فى دراسة الشخصية القومية . وبذلك بدأنا نسمع عن « البناء الاساسى للشخصية » ودراسة « الشخصية المنوالية » ودراسة « الطابع الاجتماعى والثقافى » ، وهى كلها تشير الى اهمية الخصائص السيكولوجية والسلوكية التى تظهر نتيجة للاتصال بالنظم الاجتماعية والانساق الثقافية . فبناء الشخصية مثلا هو نوع من الاشتقاق من المفهوم السيكولوجى للشخصية ، وان كان تحديد (البناء) يتم عن طريق دراسة الثقافة وليس الفرد ، وبذلك فان البناء الاساسى للشخصية يمثل « تجمع او ارتباط كل خصائص الشخصية التى يبدو انها تتطابق مع كل النظم والعناصر والسمات التى تؤلف أى ثقافة من الثقافات » وليس من الضرورى ان يتحقق ذلك البناء الأساسى للشخصية فى كل عضو من اعضاء الجماعة ، بل انه يكفى ان يوجد لدى غالبية الافراد حتى يمكننا التعرف عليه وتحديد الملامح التى تدخل فى تكوينه والتى تعطى المجتمع بالتالى طابعامعينا متمايزا ، خاصة وأن هذا البناء الاساسى للشخصية لايظهر عند الافراد الانتيجة للتجارب السابقة التى يكتسبونها منذ مرحلة الطفولة المبكرة ، بمعنى انه لايظهر تلقائيا نتيجة للغرائز أو الدوافع أو القوى الأساسية ، وانما هو شىء يستمد ويكتسب من الثقافة ذاتها .

(انظر كتابنا صفحة ٢٤١)

وبصرف النظر عن المنطلق النظرى الذى يوجه دراسة الثقافة والشخصية ، وبخاصة الشخصية القومية ، فلا بد للباحث من أن يأخذ فى الاعتبار عددا من الأمور ، لعل اهمها هو ضرورة التعرف على العلاقة بين التراث الاجتماعى والثقافى الشامل الذى يعيش فيه الفرد ويتأثر به بطريقة شعورية أو لاشعورية . فاختلاف التراث الثقافى يؤدى الى اختلاف انماط السلوك السائد فى المجتمع . والمثال الذى أحب أن استشهد به دائما فى هذا الصدد هو اختلاف نظرة الشخص الواحد الى قيمة (الوقت) وتقديره لأهمية ومعنى عنصر الزمن حين تتغير ظروف الحياة العامة فى المجتمع . وهذا واضح ليس فقط

بين تقدير سكان المدن والقرى والصحراء لعنصر الزمن ، بل وأيضا تقدير القروي لهذا العنصر حين تتغير ظروف حياته هو نتيجة للعمل في أحد المصانع مثلا ، اذ تسير حياته حسب توقيت دقيق لم يكن له به عهد من قبل . ومع ذلك فلا يمكن أن يمحو كل الفروق (المزاجية) التي تميز الأشخاص بعضهم عن بعض في نطاق الثقافة الواحدة ، بحيث يصبحون جميعا نسخة واحدة متكررة . ولذا فان تتبع دقائق وتفصيل وتفاصيل السلوك عن الافراد والامكانات والقوى والدوافع والقيم التي تختفي أو تكمن وراء هذا السلوك ، والتراث الذي يوجه سلوك وتصرفات وعلاقات افرادالمجتمع خليقة كلها بان تعطينا في آخر الأمر فكرة عامة عن ثقافة المجتمع وعن الشخصية القومية او الطابع القومي . وهذا يدفع الكثيرين من العلماء الى القول بان الشخصية القومية هي المرادف الدقيق لكلمة ثقافة ، بل ان بعضهم يذهب الى حد القول بانه يمكن وضع اى من المصطلحين مكان الآخر دون أن يطرأ اي لبس اوخطأ على السياق الذي يستخدم فيه احد هذين المصطلحين.

•••

ولقد اعطى علماء النفس في العالم العربي كثيرا من جهودهم لدراسة الشخصية ، وظهرت لهم في ذلك كتابات كثيرة حول نظريات الشخصية ومداخل دراستها والمناهج والاساليب المختلفة التي تتبع في ذلك ، ومقاييس الشخصية ونمو الشخصية وغير ذلك من الموضوعات . وكثير من هذه الكتابات تعتمد على بحوث أصيلة قام بها هؤلاء العلماء بأنفسهم ، والدراسات التي يضمها هذا العدد من المجلة تمثل نماذج من الاسهامات التي يضيفها علماء النفس العرب طيلة الوقت الى هذا الميدان الرحب الهام من ميادين البحث العلمي ، وهي اسهامات ليس لها مع الأسف ما يماثلها حتى الآن على المستوى الانثربولوجي ، وان كانت هناك بعض دراسات متفرقة يمكن ادراجها بشكل او بآخر تحت موضوع « الثقافة والشخصية » . وربما كان اشهر هذه الدراسات تلك الدراسة القيمة التي قام بها حامد عمار في إحدى قرى الصعيد ، والتي ضمنها كتابه الهام الموسوم Growing Up in an Egyptian Village .

ويرجع انصراف الانثربولوجيين في العالم العربي عن هذاالنوع من الدراسات الى اسباب تاريخية صرفة ، تتعلق بالظروف التي لابست دخول الانثربولوجيا الى مصر ، وبالذات جامعة الاسكندرية التي كانت اول من وجه النظر الى الانثربولوجيا كعلم متميز عن علم الاجتماع ، والتي أنشىء فيها اول قسم مستقل للانثربولوجيا في العالم العربي ، والتي تخرج منها معظم الانثربولوجيين العرب أو تاثروا باتجاهها النظري وموقفها المنهجي ، واهتمامها بدراسة البناء الاجتماعي والانساق الاجتماعية اكثر مما

تهتم بدراسة الثقافة . الا أن السنوات الأخيرة شاهدت بعض التغيرات على هذا الموقف تتمثل في اتساع نطاق اهتمامات تلك المدرسة ، بحيث بدأت الاجيال الجديدة من الدارسين تعطى اهتماما اكبر للدراسات الثقافية وللاتجاهات المعرفية والادراكية في تفسير الثقافة ومعالجة موضوعات تدخل في مجال « الثقافة والشخصية » ، وبالذات الشخصية القومية ، والطابع القومي .

وربما كان أهم بحث في هذا المجال هو بحث الشخصية القومية الذى قام به قسم الانثربولوجيا تحت إشرافي منذ أعوام قليلة ضمن مشروع ضخم اضطلعت به جامعة الاسكندرية تحت عنوان (اعادة بناء الانسان المصرى) . ولم تظهر النتائج النهائية لهذا المشروع ، وان كان احد تقارير المتابعة ، وهو التقرير الثالث الذى نشرته تلك الجامعة في ديسمبر ١٩٧٩ ، يعطى فكرة واضحة عن أهم ملامح البحث الانثربولوجي وفروضه ومناهجه . وقد يصلح هذا التقرير لأن يكون مرشدا وموجها ، وبداية للقيام ببحوث اخرى مماثلة في مناطق أخرى من الوطن العربي ، ولذا فانى أعطى نفسى شيئا من الحرية في الاقتباس او النقل من هذا التقرير باعتبارى المشرف على البحث ، كما أنى وضعت خطته وأشرفت على كتابة التقرير .

ولقد كان الدافع الى القيام بالمشروع كله ، وبوجه خاص بدراسة الشخصية القومية المصرية او الطابع القومى المصرى ، هو الشعور بأن مصر تمر في الوقت الحالي بمرحلة حاسمة من تاريخها الطويل تتطلب الاهتمام بفهم الاوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية التى تسود في المجتمع المصرى ، مثلما تتطلب ضرورة التعمق في فهم الشخصية المصرية ومقوماتها وما تتعرض له في الأونة الأخيرة من بعض المظاهر السلبية ، والاحساس بضرورة التعرف على الأسباب الموضوعية لهذه المظاهر الجديدة والسمات الطارئة على الشخصية المصرية ، حتى يمكن معالجتها واتاحة الفرصة للمجتمع وللانسان المصرى لتغيير مسارهما والانطلاق نحو اهداف سامية محددة . والواقع ان الاهتمام بدراسة (الانسان المصرى) جاءت ايضا كنوع من الاستجابة المباشرة للاتجاه العام الذى يسود المجتمع المصرى الآن من التحسر على الماضى وعلى القيم الضائعة وعلى التسيب ومظاهر السلوك السلبي ، والحاجة الى علاج هذه الأوضاع التي تسىء الى صورة مصر والمصريين ، ليس في نظر الآخرين فحسب ، بل وأيضا في نظر المصريين انفسهم . والدراسة من هذه الناحية تختلف عن الغالبية العظمى من الدراسات التى اجريت في المجتمع المصرى ، لأنها تعتبر (الانسان) هو الهدف وليس النظم الاجتماعية او السياسية او الاقتصادية ، وذلك على اعتبار أن (الانسان) هو صانع تلك النظم ، كما انه هو المنفذ لها والذى يتأثر بها من حيث انها تنعكس في آخر الامر في سلوكه وتصرفاته وتحكم علاقاته

داخل المجتمع . وهذا معناه ان الدراسة اتخذت (الانسان) وليس المجتمع نقطة مركزية يدور حولها البحث ، كما انها اخذت في الاعتبار ان يتم تفسير البيانات والمعلومات الاثنوجرافية وتحليلها من هذه الزاوية حتى يمكن الوصول في آخر الأمر الى فهم أعمق للانسان المصرى وعناصر شخصيته الاساسية ومقومات تلك الشخصية والعوامل التي تحكم سلوكه والقيم التي يسترشد بها في حياته ، ونظرته الى العالم ومكانه في ذلك العالم ، والتغيرات التي طرأت على هذا كله خلال السنين الطويلة ، وبخاصة الفترة الأخيرة ، ونواحى الايجاب والسلب في كل تلك المقومات والمكونات ، وافضل الطرق التى يمكن بها تعديل وتغيير نواحى الضعف والسلبية ، بحيث تستبدل بها قوة ايجابية بناءة .

وبقول آخر ، فان التساؤل الرئيسى الذى يدور حوله البحث عن مقومات الشخصية المصرية كان : ما هى العوامل التى ادت الى ظهور هذه الشخصية القومية التى تسود الآن المجتمع المصرى بكل جوانبها ومظاهرها الايجابية والسلبية ؟ وذلك على أمل ان يساعد البحث في هذا المجال والنتائج التى يتوصل اليها في تقوية العناصر الايجابية وعلاج العناصر الضعيفة والسلبية او القضاء عليها تماما . وكان الهدف الأخير هو محاولة وضع سياسة شاملة لتنمية (الانسان) المصرى كمقابل لتنمية (المجتمع) المصرى ، وذلك على اعتبار أن البحوث الانثربولوجية تهتم (بالانسان) بينما تركز البحوث السوسيولوجية على (المجتمع) ، وان كان هناك بالضرورة علاقات متبادلة قوية بين الاثنين من حيث انهما يمثلان وجهين لعملة واحدة .

مثل هذه الدراسة المتشعبة تحتاج الى ان تركز منذ البداية على عدد من الأبعاد التى يلزم بحثها العميق للوصول الى نتائج محددة . ولذا فقد اهتم البحث اهتماما خاصا بالابعاد التالية التى تلقى كثيرا من الاضواء على الطابع القومي المصرى والشخصية المصرية :

اولا ـ البعد التاريخى او الزمانى ـ وذلك على اعتبار ان الشخصية المصرية القومية هى نتاج لتفاعل عدد كبير العناصر التى سادت في المجتمع المصرى لقرون طويلة ، وقد احاطت الدراسة في هذا المجال بالبعد المصرى القديم (التراث الفرعونى والمؤثرات اليونانية والرومانية والقبطية) والبعد الاسلامي والعربي والبعد الافريقى ، والبعد المتوسطى ثم بالتاريخ الاجتماعى لمصر في العصر الحديث وما طرأ على مصر من تغيرات نتيجة للاستعمار التركى والفرنسى والانجليزى ، ثم الاستقلال والحركات الوطنية الحديثة ، وأثر ذلك كله في ظهور شخصية الانسان المصرى المعاصر .

ثانيا ـ البعد الجغرافي او البعد المكانى ـ وهو بعد ناشىء من القول الشائع من أن (مصر هبة

النيل) ، وكان لابد من التعرض هنا لايكولوجيا المجتمع المصرى والخصائص الديموجرافية العامة مع الأخذ في الاعتبار القول الاكثر حداثة من أن (مصر هبة المصريين) . ونظرا لتعدد الثقافات الفرعية وتنوع الجماعات العرقية ووجوب الاحاطة بها حتى تخرج الدراسة شاملة ومتكاملة ، كان لابد من دراسة انماط الحياة الاجتماعية والانساق الثقافية دراسة مركزة في عدد من الجماعات المحلية التى تنتمى الى نمط الحياة الصحراوية ، ونمط الحياة الريفية ، ونمط الحياة الحضرية ، ثم دراسة عدد من الجماعات العرقية المتمايزة مثل سكان واحة سيوه من عرب وبربر ، ودراسة النوبيين وبعض جماعات الغجر وما الى ذلك .

ثالثا ـ **واخيرا فقد كان من الضرورى دراسة التراث الضخم من الكتابات العلمية والادبية والتاريخية والاجتماعية التي تناولت الانسان المصرى في مختلف مراحل التاريخ** . وكثير من هذا التراث يضم معلومات تعطي صورة حية لمقومات الشخصية المصرية خلال فترة معينة بالذات ، وبذلك فان هذه الكتابات تصلح أساسا للمقارنة العلمية الدقيقة وقياس التغيرات التي طرأت على الشخصية المصرية . ويكفي ان نذكر هنا ، على سبيل المثال ، ما كتبه هيرودوت عن مصر وكتابات الجبرتى وكتاب **وصف مصر** الذى خلفته الحملة الفرنسية على مصر وكتاب محمد المويلحى (**عيسى بن هشام**) وهكذا . . . وذلك فضلا عن الروايات الكثيرة التى كتبها عدد من الروائيين المصريين وسجلوا فيها كثيرا من ملامح الحياة في مصر ، وتلك التى كتبها بعض الأجانب من أمثال داريل في رباعيته المشهورة عن الاسكندرية ، أو جان كوكتو في كتابه المشهور (معلهش) وهكذا .

ونظرا لأن البحث اقتصر على دراسة مقومات الشخصية القومية المصرية فان الدراسة ركزت بالضرورة على عدد من الموضوعات الأساسية التى تغطى فيما بينها اهم تلك المقومات والسمات الرئيسية والعوامل التي ساعدت على ظهورها ، والاسباب التي ادت الى حدوث تغيرات فيها ، والدوافع اللاشعورية التى تكمن وراء سلوك الناس وتصرفاتهم . وكان اهم هذه الموضوعات هى : عمليات التطبيع الاجتماعي او التنشئة الاجتماعية ، والثقافة الشعبية ومدى تعبيرها عن الشخصية المصرية ، واهم مقومات الشخصية المصرية (مثل الايجابية والسلبية ـ الموقف من السلطة ـ التفكير الغيبى والنظرة العلمية ـ النظرة الى العمل ـ القيم التقليدية كالصبر وفكرة الشرف والعار والشعور بالانتماء ، ثم الايديولوجيات ونسق القيم ووجهة نظر الناس الى عدد من الموضوعات العامة كالقومية والنزعات الفرعونية والعربية والاسلامية . وحركات التحرر والاصلاح الدينى والاجتماعى ، وموقف المثقفين والمفكرين من الواقع المصرى ، واحداث الحياة وما الى ذلك) .

ويكفى هذا العرض الموجز لاعطاء فكرة عما يفعله الانثربولوجيون حين يعرضون في بحوثهم لأحد الموضوعات المتعلقة بالثقافة والشخصية ، وبخاصة موضوع الشخصية القومية لشعب من الشعوب . والذى أرجوه أن يكون في هذا دعوة الى الاهتمام بدراسة هذه الجوانب التى طال اغفالها بحيث تلحق الانثربولوجيا في مجال دراسات الشخصية ، وان يحقق الانثربولوجيون (الثقافيون) من الانجازات في مجال الثقافة ما حققه الانثربولوجيون (الاجتماعيون) في مجال البناء الاجتماعي والانساق الاجتماعية .

احمد ابوزيد

***

التعلم والشخصية

أنور محمد الشرقاوي(1)

قسم علم النفس - جامعة الكويت

مقدمة :-

يتناول علماء النفس في أبحاثهم ودراساتهم كثيرا من المشكلات ذات الاهتمام الخاص بالنسبة للمربين والآباء ، وبعض مؤسسات التغير الاجتماعي والسلوكي ، وبالبحث عن أصول الكثير من هذه المشكلات نجد ان مظاهرها قد تكونت لدى الاشخاص بفعل عوامل الممارسة ومبادىء التعلم حتى أصبحت هذه المظاهر بمثابة صفات أو خصائص مميزة يمكن ملاحظتها وقياسها بسهولة لدى هؤلاء الأشخاص في كثير من مواقف حياتهم اليومية . وبتكرار هذه المواقف ، وثبات العوامل والأسباب التي أدت الى هذه المظاهر السلوكية ، مع استمرار تعزيزها تتكون العادات السلوكية التي هي بمثابة المكونات النفسية شبه الثابتة في الشخصية .

ويحاول علم النفس مع غيره من العلوم السلوكية الأخرى ان يصل الى تفسير أسباب ودوافع هذه المشكلات ، واثناء البحث والدراسة تظهر امام الباحثين كثير من التساؤلات المرتبطة بهذه المشكلات ، وعلى سبيل المثال :-

(1) أستاذ مساعد علم النفس بكلية التربية - جامعة عين شمس ، وكلية الآداب - جامعة الكويت ... حصل على درجة الماجستير في مجال انحراف الأحداث ، والدكتوراه في مجال سيكولوجية التعلم من كلية التربية - جامعة عين شمس ، كما حضر برنامج الـ Post Doctoral Fellowship لمدة عام في مركز خدمة الاختبارات التربوية Educational Testing Service بولاية نيوجيرسي في مجال القياس النفسي والتربوي له والمشاركة في عدة مؤلفات : التعلم وتطبيقاته ، سيكولوجية التعلم : أبحاث ودراسات ، انحراف الأحداث وأسس علم النفس العام كما اشترك في اعداد بطارية الاختبارات المعرفية العقلية ، واختبار الأشكال المتضمنة القياس بعد الأسلوب الاستقلال عن المجال الإدراكي . عضو الجمعية المصرية للدراسات النفسية والجمعية الأمريكية لعلم النفس (A.P.A).

● ماهي الوسائل الفعالة لمساعدة الشخص على ضبط الانفعالات ، وبعض مظاهر السلوك غير المرغوب لديه مثل القلق ، والغضب ، والعدوان . . ، والتحيز ؟

● ● ماهي الأساليب الأساسية المتوفرة لدى المشتغلين بعلوم النفس والتربية والخدمة الاجتماعيه لاختزال وخفض مستوى بعض العادات السلوكية غير السوية مثل السرقة ، والكذب والخداع ، أو بعض العادات العصبية مثل نوبات الصرع ، أو مص الأصابع ، أو قضم الاظافر ؟

● ● ماهي الأساليب الاجرائية الفعالة التي يمكن ان يستخدمها الاشخاص للاقلال من التدخين ، أو تناول الطعام بشراهة ، او الامتناع عن تعاطي المخدرات والمسكرات ؟

● كيف يمكن أن تخفض من مستوى الأرق ، والأحلام المزعجة ، والوساوس ؟

● ● كيف يمكن تعديل اساليب ممارسة الجنس الخاطئة ؟ أو كيف يمكن خفض درجة الاستثارة الجنسية في المواقف غير المناسبة ؟ أو المثيرات الجنسية غير المرغوبة ؟

● ● كيف يمكن ان نغير من اتجاهات الاشخاص نحو أنفسهم و/ أو نحو الأشخاص الأخرين ؟

● كيف يتعلم الشخص أساليب السلوك الفعالة لتحقيق الهدوء لنفسه ، وضبط الأفكار غير المرغوبة ؟

● ● ماهي الأساليب الاجرائية التي يجب أن يمارسها الأباء في تربية ابنائهم بصفة عامة ؟ وبخاصة لمواجهة مشكلات التدريب على الاخراج ، أو بلل الفراش ، أو مشكلات النمو الأخرى ؟

● وفي مجال التعلم المدرسي ، كيف يمكن ان ننشط من دافعية الطلاب للتعلم ، وكيف نواجه سلوك التخريب ، والعدوان لدى الطلاب ؟ كيف يمكن ان نحقق تفريد التعليم Individualization instruction بقدر ما تسمح به الظروف والامكانيات ؟

● ● كيف يمكن مساعدة الاشخاص المترددين على مكاتب التوجيه والارشاد النفسي طلبا للعون ؟

مجمل القول . . كيف يمكن مساعدة كل هؤلاء حتى يحققوا أعلى مستوى من الكفاية في الأداء في مواقف الحياة المختلفة ؟ (٢)

وتهدف الدراسة الحالية الى تناول العلاقة بين التعلم والشخصية لتوضيح دور عملية التعلم ليس فقط في تكوين واكتساب اساليب السلوك المختلفة التي تشكل مجموعة العادات السلوكية لدى الفرد فحسب ، سواء كانت مرغوبة أو غير مرغوبة ، او مايسمى أحيانا بالسلوك غير السوى ، أو الاضطرابات السلوكية .

ولتحقيق الهدف من هذه الدراسة ، نحاول أن نتناول هذا الموضوع من خلال العناصر التالية :-

أولا : العلاقة بين التعلم والشخصية .

ثانيا : المدرسة السلوكية وتقدم اساليب علاج المشكلات السلوكية .

ثالثا : محاولات علاج اضطرابات السلوك في اطار التعلم .

رابعا : اسلوب تعديل السلوك ، والخصائص التي تميزه ، والمبادىء والعمليات الأساسية التي يعتمد عليها .

العلاقة بين التعلم والشخصية :

لكي نحاول ان نفسر الأسباب أو العوامل والدوافع التي أدت الى وجود مثل هذه المشكلات السابقة في سلوك الأفراد ، وان نجد اجابة واضحةومقنعة الى حد ما عن كل هذه التساؤلات وغيرها مما يوجد في محيط حياة الأفراد ، يتطلب الأمر أولا ان نوضح كيف تكونت أصلا هذه المشكلات السلوكية ، حتى أصبح كثير منها لدى البعض بمثابة خصائص مميزة له تميزه عن غيره من الافراد ، وبالتالي أصبحت هذه الخصائص دالة على شخصية هؤلاء الأفراد .

2 — Mikulas, william L. (1978) "Behavior Modification" Harperand Row, Publishers, New York.

واهتمام الانسان بتأمل ودراسة سلوكه الذاتي ، وسلوك من يحيط به من بشر قديم قدم وعي الانسان بوجوده ، وبوجود الآخرين . وقد كانت محاولات الفلاسفة القدامى من اولى الاجتهادات الفكرية التي حاولت فهم الروح ، والنفس ، والعقل ، والأفعال . ولهذا نجد انهم درسوا كثيرا من الموضوعات التي تدخل في نطاق علم النفس الحديث ، كما نجد انهم قد اثاروا تساؤلات متعددة حول كثير من المشكلات التي يدرسها علم النفس مثل :

التفكير والشعور ، والتعلم ، والمعرفة ، وقد أدت المحاولات التي بذلها المفكرون في ذلك الوقت للاجابة على هذه التساؤلات وغيرها الى وجود حصيلة كبيرة من التراث الفكري .

ويدفعنا البحث والتقصي عن كيفية تكوين المشكلات السابقة المشار اليها في المقدمة الى ضرورة أن نلم بعض الالمام بما يعرف بالتعلم Learning ذلك الفرع الهام من فروع علم النفس . وكأي مفهوم من المفاهيم الأساسية في احد فروع المعرفة ، فان التعلم ليس من السهل تعريفه . والسبب في ذلك اننا لا نستطيع أن نلاحظ عملية التعلم ذاتها بشكل مباشر ، ولا يمكن ان نشير اليها كوحدة منفصلة ، أو ندرسها كوحدة منعزلة . ولكن الشيء الوحيد الذي يمكن في الواقع دراسته هو السلوك . والسلوك يعتمد على عمليات أخرى غير عملية التعلم .

ولذلك ننظر الى التعلم على انه عملية افتراضية Hypothetical process يستدل عليها من ملاحظة السلوك ذاته . وحيث أننا لا نستطيع أن نعزل عملية التعلم بشكل مباشر عن باقي جوانب السلوك ، فاننا نعرف التعلم بانه « عملية تغير شبه دائم في سلوك الفرد ينشأ نتيجة الممارسة ، ويظهر في تغير الأداء لدى الكائن الحي »[٣] .

والتعلم على هذا النحو يتطلب ضرورة ان يتعرض الكائن الحي للموقف السلوكي المراد تعلمه . ولما كان التغير في الأداء لدى الكائن الحي هو الأساس في الاستدلال على التعلم ، فاننا لا نستطيع ان نقول ان كل تغير في الأداء يعتبر تعلما . فقد يكون التعلم في موقف اضطراري ينشأ عنه ان يستمر لفترة قصيرة من الزمن ، كما أن ممارسة الاستجابة ربما تؤدي الى اختزال ، أو نقص الأداء نتيجة للتعب ، او الى زيادة معدل فاعلية الأداء نتيجة لزيادة جهد العضلات او النيورونات العصبية اثناء التمرين . ولذلك لا تعتبر كل هذه الانواع من التغيرات تعلما ، لانها ستزول بزوال المؤثر الذي تسبب في

(٣) انور محمد الشرقاوي (١٩٨١) ، التعلم ونظرياته ، الطبعة [illegible] ، (بدون الطبع) ، دار الثقافة للطباعة والنشر ـ القاهرة .

إحداثها ، سواء كان عدم الاستعمال او راحة الكائن الحي . مما يجعلنا نعتبر ان التعلم يحدث فقط نتيجة لتغير في الاداء يكون شبه دائم في سلوك الفرد .

ولذلك تعبر سيكولوجية التعلم Psychology of learning من أهم فروع علم النفس . ذلك لأننا إذا أردنا أن نفهم السلوك ، والفرق بين مظاهره المختلفة ، يجب أن نفهم أولا كيف تتكون الاستجابات التي تختلف من موقف الى آخر ، ومن حالة الى اخرى ، والعوامل والمتغيرات التي تحكم المواقف السلوكية بوجه عام .

وفي الحقيقة ان الانسان يتعلم كيف يكون انسانا ، حيث ان أغلب ميولنا واتجاهاتنا وآراءنا ومعتقداتنا ، والخرافات التي نتمسك بها ، وخصائص سلوكنا كلها متعلمه . اي اننا نتعلم كيف نكون افرادا متمايزين فيما بيننا . وعلى الرغم من ان الامراض العقلية في بعض الحالات تكون متأثرة وناشئة عن اسباب عصبية (نيورولوجية) فانها تكون في اغلب المواقف نتيجة لتعلم اساليب السلوك غير المتوافق والفشل في تعلم اساليب السلوك المتوافق ، وكذلك الحال في اساليب السلوك الاجرامي والانحرافي، حيث يعتبر الجناح في رأي المدرسة السلوكية عبارة عن استجابة نمطيه مدعمة للتوتر والقلق الناجم عن استمرار عملية الاحباط . كما أن كثيرا من اساليب الجناح تحقق حاجات معينة ، وتشبع دافعا اجتماعيا قويا ومن الواضح ان لعملية التطبيع الاجتماعي أثرها الكبير في تعلم القيم وامتصاصها [4] . حتى سلوك الحرب ، رغم انه في بعض الحالات يتعقد بعوامل كثيرة معقدة ، الا انه يتأثر بتاريخ الافراد المتعلم . ولذلك فان فهم مبادىء وأسس عملية التعلم يساعد مساعدة كبيرة في فهم كثير من استجابات الافراد في مواقف السلوك المختلفة . كما ان عملية التعلم تهم اي فرد يحاول في موقف ما ان يؤثر في تعلم الافراد الآخرين .

وقد اثيرت تساؤلات كثيرة في مجال تفسير السلوك حول ماهو متعلم ، وماهو فطري من السلوك . مما نشأ عنه أن قسم السلوك الى نمطين : النمط الاول ، السلوك المتعلم Learned behavior ، والنمط الثاني السلوك غير المتعلم Unlearned behavior ونشأ هذا التقسيم منذ فترات بعيدة للتمييز بين ماهو طبيعي ، وماهو راجع الى التربية والتنشئة . وذلك في محاولة للاجابة على كثير من التساؤلات حول الذكاء ، وهل يعتمد على الوراثة ، أم يعتمد على البيئة ؟ هل الاضطرابات العقلية والنفسية موروثة أم مكتسبة ؟ هل يمكن تعديل الخصائص السلوكية المتعلمة ؟ . ولكن حينما تنظر الى

---

(4) انور محمد الشرقاوي (١٩٧٧) ، انحراف الاحداث ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة .

الأمور نظرة موضوعية علمية ، فان السلوك لا يمكن تقسيمه الى نمطين منفصلين ، نمط من السلوك غير متأثر بالعوامل والمؤثرات البيئية ، ونمط آخر يعتمد في حدوثه على التعلم . وحقيقة الأمر ان أي سلوك للكائن الحي هو عبارة عن نتاج مشترك لكلا المؤثرات الوراثية والمؤثرات البيئية . فمن الواضح والثابت ان الانسان يتعلم ، الكلام ، ولكن من الثابت ايضا انه المخلوق الوحيد الذي يولد ولديه الاستعداد الطبيعي لهذا النمط من السلوك ، حيث لا يتمكن أي قدر من التمرين ان يعلم القرآن يتكلم .

وكذلك لا يمكن لأي فرد ان يصدر كلمات لها معنى دون تدريب وتعلم . وهذا ما جعل . الانسان يختلف عن باقي الكائنات الاخرى ، ويختلف عن غيره من الافراد الى حد ما نتيجة ما يتعلمه من اساليب السلوك .[*] .

لذلك يعتبر التعلم ضرورة في كثير من مواقف الحياة . كما يعتبر الاساس في تفسير كثير من مظاهر السلوك البشري السوي منها وغير السوي . وبالتالي يؤثر على اغلب مواقف حياتنا . ولما كان المعالجون والمعلمون والآباء لا يستطيعون تغيير كثير من مظاهر السلوك المرتبطة بالنضج ، فان جهودهم تركز بالدرجة الاولى على التعلم ، على اعتبار انه الوسيلة الرئيسية لاكتساب الفرد لكثير من المعارف ، والمهارات ، وتكوين العادات السلوكية ، والاتجاهات والقيم التي تعتبر الهدف من عملية التعلم .

اما عن المتغير الثاني لهذه الدراسة ، وهو الشخصية Personality فهو يعتبر من الموضوعات ذات الاهتمام الكبير في علم النفس الحديث : وتأتي هذه الأهمية من أن الظاهرة النفسية متعددة الابعاد ، متشعبة الجوانب . وان دراسة مستوى التوافق النفسي والاجتماعي للفرد لا يقل في الاهمية عن دراسة مستوى ذكائه ، وقدراته العقلية المتخصصة وكذلك ميوله واتجاهاته . وان الفصل في الدراسة بين الابعاد المختلفة للسلوك إنما هو أمر تعسفي بغرض التحكم الدقيق في ضبط الجوانب النفسية للفرد ، وهو ما تتطلبه الدراسة العلمية المتعمقة للوصول الى الدوافع والأسباب ، والتعرف على المظاهر السلوكية المختلفة للعمليات النفسية التي يمارسها الافراد في مواقف حياتهم المختلفة .

لذلك فان ما يشار اليه في كتب علم النفس بالشخصية ، انما يقصد به جميع السمات والخصائص النفسية والعقلية من ذكاء وقدرات عقلية ، وميول واتجاهات وطرق تفكير وادراك وحل مشكلات ،

(*) مرجع سابق .

التي تميز فردا معينا عن فرد آخر . أي ان الشخصية هي الاطار العام أو الوعاء الذي يضم كل المكونات النفسية للفرد ، والتي تميزه عن غيره من الأفراد الآخرين .[٦]

ولكي تدرك مدى العلاقة الوثيقة بين بُعدي الدراسة وهما التعلم والشخصية تفضل ـ كما فعلنا بالنسبة لموضوع التعلم ـ ان نشيرهنا الى ماهية الشخصية وبعض التعريفات التي تناولتها ، حتى نستطيع ان ندرك اهمية عملية التعلم ليس فقط في تكوين كثير من اساليب السلوك في الشخصية ، ولكن كذلك في تفسير كثير من مظاهرها وفي تغيير بعض العادات السلوكية غير المرغوبة التي قد يتميز بها بعض الأفراد . وبمعنى آخر ، نحاول في هذه الدراسة تحديد دور عملية التعلم في تعديل بعض الخصائص النفسية والسلوكية السائدة في الشخصية حيث يعتبر ذلك هو الهدف الرئيسي لهذه الدراسة .

ويوجد في ميدان دراسة الشخصية تفسيرات متعددة تحاول كل منها تحديد طبيعة الشخصية في ضوء التصورات والأسس التي تقوم عليها كل نظرية أو يقوم عليها كل تفسير . وقد تتفق هذه التفسيرات او تختلف مع بعضها بدرجة أو بأخرى . وبالتالي فليس هناك تعريف واحد يعتبر هو الصحيح والباقي تعريفات خاطئة . فكل تعريف يستند على تصور نظري معين .

ونشير فيما يلي الى بعض هذه التعريفات التي تتفق مع موضوع هذه الدراسة الى حد ما وذلك على النحو التالي : ـ

يعرف « واطسون Watson (١٩٣٠) الشخصية بانها مجموع انواع النشاط التي يمكن ملاحظتها في سلوك الفرد لفترة زمنية كافية ، بحيث يمكن التعرف عليه بدرجة كافية .

وبمعنى آخر ، الشخصية هي الناتج النهائي لمجموعة العادات التي تميز الفرد »[٧] .

في حين يعرفها « جيلفورد » Guilford (١٩٥٩) بانها « نمط السمات التي تميز فردا بذاته »[٨] .

---

6 — Flynn, J. & Herbert, G., (1967) "Assessing Behavior: Reading in Educational and Psychological measurement", Addison - Wesley Pub. Co.

7 — Watson, J. (1930) "Behaviorism" chicago university Press.

8 — Guilford, J.P. (1959) "Personality" New York: McGraw - Hill.

In Lean H. Levey (1970) conceptions of Personality.

Theories and Research, New York: Random House.

ويعرفها « البورت » Allport (١٩٦١) بانها « ذلك التنظيم الدينامي الكامن في الفرد الذي يتضمن مختلف النظم النفسية التي تحدد خصائصه السلوكية وتفكيره » [٩] .

ويحددها « لندين » Lundin (١٩٦١) بأنها « ذلك التنظيم الذي يميز سلوك فرد ما ، والذي اكتسبه خلال مراحل نموه تحت شروط معينه » .

في حين يعرفها « بيرفن » Pervin (١٩٧٠) بانها ذلك التنظيم الذي يمثل الخصائص الثابتة والدينامية لفرد ما ، أو لمجموعة افراد كما تعكس نفسها في الاستجابات المميزة له بالنسبة لموقف معين » . او بمعنى آخر « الشخصية هي ما تمثل الخصائص التي تميز فردا معينا دون الافراد الآخرين » [١٠] .

ويعرفها « سميث » Smith (١٩٧٤) بانها « ذلك الفرد المميز الذي يمكن التعرف عليه بواسطة السمات التي تميزه عن غيره من الافراد الآخرين » [١١] .

اما بالنسبة للمصادر العربية ، فنشير الى بعض التعريفات التي وردت فيها على النحو التالي :-

يعرف « سيد محمد غنيم » (١٩٧٨) الشخصية بانها ذلك التنظيم او تلك الصورة المميزة التي تأخذها جميع اجهزة الفرد المشتركة في سلوكه خلال حياته » [١٢] .

كما يعرفها « محمد عماد الدين اسماعيل » (١٩٥٩) بأنها « ذلك المفهوم ، او ذلك الاصطلاح الذي يصف الفرد من حيث هو كل موحد من الأساليب السلوكية والادراكية المعقدة التنظيم ، التي تميزه عن غيره من الناس ، وبخاصة في المواقف الاجتماعية » [١٣] .

---

9 — Allport, G.W. (1961) Pattern and growth in Personality.
New York, Holt, Rinehart and Winston.
Lundin, R.W. (1961) "Personality: an experimental approach" New York: Macmillan.
10 — Pervin L. A. (1970) "Personality: Theory, Assessment and research". John Wiley & Sons, inc.
11 — Smith, Henery Clay (1974) "Personality Development"
Second Edition, Mc Graw - Hill Book Company.
(١٢) سيد محمد غنيم (١٩٧٥) : سيكولوجية الشخصية : محدداتها ، قياسها ، نظرياتها ، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة .
(١٣) محمد عماد الدين اسماعيل (١٩٥٩) : الشخصية والعلاج النفسي ، النهضة المصرية ، القاهرة .

في حين يعرفها « احمد زكي صالح » بانها « تكوين فرضي ، أو تغير متوسط ، ويقصد به المجموع الكلي للتنظيمات السلوكية الثابتة نسبيا التي تتحد في اطار واحد منسجم ، والتي تميز فردا معينا ، وتقرر الأساليب المميزة لتكيفه مع بيئته المادية والاجتماعية »[١٤] .

وما يهمنا من هذه التعريفات هو ان ندرك العلاقة بين عملية التعلم وموضوع الشخصية . حيث يلاحظ على اغلب هذه التعريفات انها قد حددت الشخصية بالتنظيم الذي هو عبارة عن وحدات من السلوك ، او مجموعة من اساليب الاداء ، يرتبط بعضها ببعض في شكل معين يجعل منها كلا موحدا . وان هذه الأساليب من الاداء يمكن ملاحظتها في سلوك الشخص لفترة زمنية كافية ، مما يجعلها ثابتة نسبيا ، كما انها تميزه عن غيره من الاشخاص الأخرين في المواقف الاجتماعية المختلفة .

ونحن نستدل على وجود تغير شبه دائم في سلوك الفرد من ظهور درجة معينة من الثبات والاستقرار في السلوك المعدل او المكتسب لدى الفرد ، ستستمر فترة من الزمن ، ومن ثم نفترض تكوين العادة السلوكية . ولا شك ان العادة كتنظيم سلوكي هي تكوين معقد يخضع لمجموعة من العوامل الشارطة له . فالميل مثلا وحدة سلوك ، وهو تنظيم سلوكي مكتسب ، لأنه مجموع استجابات القبول ازاء موضوع خارجي معين . وتقاس ميول الفرد ازاء هذا الموضوع عن طريق قياس استجابات القبول او الرفض له . وقد يتغير الميل نتيجة لعوامل متعددة ، اي ان التنظيمات السلوكية التي تعتبر مكونات الشخصية الأساسية هي عادات تكونت خلال حياة الفرد . وهذه العادات رغم ثبوتها النسبي فهي بدورها قابلة للتعديل . ويتوقف مدى تعديل العادة على قوتها ، فالعادات القوية تقاوم التغيير والتعديل ، والعادات الضعيفة تكون مقاومتها أقل .

وهكذا بالنسبة للعادات الانفعالية التي تتحكم كثيرا في سلوك الفرد وتشمل السلوك المرضي ، وخاصة العصابي ، أحد المظاهر الهامة للعادة الانفعالية . حيث ان انماط السلوك غير السوي تعتبر في اصلها عادات سلوكية تعلمها الفرد اثناء احتكاكه بمجالات حياته المختلفة ، وتعلم ان يسلك هذا السلوك ، او ذاك لكي يزيل التوتر الناشىء من بعض دوافعه المرتبطة باحد مواقف هذه المجالات . وبالتالي فان المرض النفسي هو مجموعة عادات تعلمها الفرد للهرب من مواقف معينة ، او هو عبارة عن اسلوب فاشل من اساليب التوافق مع البيئة التي يعيش فيها ، ولذلك فانه يخضع لقوانين التعلم واكتساب العادة ، سواء في تكوينه او في تعديله او تغييره .

---

(١٤) احمد زكي صالح ، علم النفس التربوي ، النهضة المصرية ، القاهرة .

المدرسة السلوكية وتقدم اساليب علاج المشكلات السلوكيه :

لم يقتنع علماء النفس بالاتجاهات النفسية التي سبقت ظهور اتجاه المدرسة السلوكية Behaviorism في تفسير كثير من مظاهر السلوك الانساني . وكان من اهم دواعي عدم الاقتناع ان كثيرا من المفاهيم الاساسية التي تقوم عليها نظريات هذه الاتجاهات لم تكن محددة تحديدا واضحا ، مثل بعض المفاهيم التي وردت في كتابات مدرسة التحليل النفسي كالأنا ، والأنا الاعلى ، والهو ، والعقد النفسية ، وغيرها من المفاهيم الغامضة ، والتي يصعب قياس مظاهرها قياسا دقيقا .

وقد ظهرت في ذلك الوقت كثير من « النظريات » كل منها تفسر سلوك الأشخاص من خلال المكونات التي تقوم عليها هذه النظريات . وكانت أغلب هذه « النظريات » تميل الى تفسير المشكلات السلوكية في اطار بعض الخصائص التي تميز الشخص صاحب المشكلة وليس في اطار الفهم الوظيفي لنماذج السلوك التي تتضمنها هذه المشكلات .

ويمثل الاتجاه الفرويدي (اريكسون Erikson ١٩٦٣ فرويد Freud ١٩٣٥ . رابابورت Rapaport ١٩٥٩) ، والاتجاه النفسي الدينامكي (روجرز Rogers ١٩٥١) اهم هذه الاتجاهات النفسية التي تركز في تفسيرها للسلوك على العمليات النفسية الداخلية لا على المظاهر السلوكية الخارجية (١٥) .

وفي مطلع القرن العشرين ظهر اتجاه السلوكية او الثورة الواطسونية كما ذكر في ذلك الوقت ، نسبة الى عالم النفس « جون واطسون Gohn B. Watson » الذي قاد هذا الاتجاه ، وقاوم بعنف اساليب الاستبطان Introspection والأساليب الذاتية الأخرى في تفسير السلوك ، والتي نادى بها علماء النفس قبل ذلك . وكان اتجاه « واطسون » واضحا ، ويتلخص في انه لم ينكر عدم وجود الوعي أو الشعور Consciousness ، بل زعم انه داخلي ، وغير ملاحظ ، ولا يمكن قياسه بواسطة الاجراءات العلمية الموضوعية . ولذلك اشار واطسون بأن موضوع علم النفس يجب ان ينحصر في دراسة السلوك الخارجي للكائن الحي ، ذلك السلوك الذي يخضع للملاحظة والمشاهدة والقياس . وبذلك يكون علم النفس ، علما موضوعيا ومحددا .

15 — Mehrabian , A. (1978) "Basic Behavior Modification" Human Science Press, New York.

ولذلك يدين علم النفس اليوم بدرجة كبيرة الى « واطسون » الذي ساهم في وضع علم النفس بين العلوم الموضوعية . وعلى الرغم من أن الاتجاه السلوكي ليس هو الاتجاه الغالب بين علماء النفس اليوم ، الا أن الأغلبية منهم قد اختارت الأسس التي وضعها واطسون في دراسة السلوك الخارجي دراسة موضوعية . ومن خلال وجهة النظر السلوكية بدأت دراسات التعلم في محاولة الكشف عن الأسس التي يقوم عليها السلوك المتعلم . وكما حدث في العلوم الطبيعية ، فقد بدأ علماء النفس في مجال التعلم بدراسة بعض الاستجابات المحددة لدى بعض الكائنات البسيطة في محاولة كشف أسس التعلم التي قد تكون عامة لدى جميع الكائنات ، أو عامة بالنسبة لجميع أنماط التعلم (١٦) .

ثم عزز « سكينر Skinner (١٩٧٤) اتجاه المدرسة السلوكية بالدعوة الى اتجاه جديد متطرف يعرف بالسلوكية الراديكالية Radical Behaviorism ، والذي يدعو الى التعرف على الأحداث أو الوقائع العقلية ودراستها على انها نماذج من السلوك الباطني .

محاولات علاج اضطرابات السلوك في اطار التعلم :

وهكذا اقتنع السلوكيون وخاصة في الفترة من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٣٠ بأن علاج كثير من المشكلات النفسية انما يخضع لعملية التعلم . كما انهم اكدوا على ان اسس الاشتراط البسيط او ما يطلق عليه الاشتراط الكلاسيكي Clasical conditioning ، او الاشتراط الاستجابي Re-spondent Conditioning ، والتي تطبق على السلوك السوي ، يمكن ان تطبق كذلك بنفس الدقة على كثير من انماط السلوك غير السوي . وكانوا مقتنعين تمام الاقتناع بأن طرق العلاج التي تقوم على اتجاهات التحليل النفسي تعتبر غير مناسبة ، كما انها تعتبر مضللة الى حد ما ، لذلك يجب ان تستخدم اساليب التعلم بدلا منها في علاج هذه المشكلات . اي ان يقوم العلاج على اساس مبادىء التعلم وليس على اساس مبادىء التحليل النفسي (١٧) .

وقد وجه كثير من الباحثين من انصار المدرسة السلوكية اهتمامهم الى دراسة العلاقة بين الاشتراط Conditionig واكتساب السلوك المرضي . وكانت دراسات « واطسون وراينر » Watson & Rayner (١٩٢٠) أولى الدراسات الرائدة في ذلك . حيث اشارا الى ان المثيرات التي تستدعي

16 — Tarpy, Roger M. (1975) "Basic Principles of Learning" Scott, Foresman and Company .

17 — Mc Laughlin, B. (1978) "learning and Social Behavior" The Free press NEW YORK .

استجابات الخوف يمكن ان تستخدم كمثيرات غير شرطية Unconditional Stimuli في تكوين استجابة الخوف الشرطي لمثيرات « محايدة » neutral غالبًا ما توجد في المواقف السلوكية . اي ان استجابة الخوف الشرطي تنشأ نتيجة ارتباط مثير محايد موجود في الموقف السلوكي ، وليكن حيوانا اليفا او لعبة ، أو أي شيء آخر ، بمثير آخر له قوة استدعاء هذه الاستجابة ، وليكن هذا المثير صوتا مرتفعا . وبعد عملية اقتران قوي بين المثير المحايد (المثير الشرطي) . Conditioning Stimulus ومثير الصوت المرتفع (المثير غير الشرطي) Unconditioning Stimulus ، يكتسب المثير المحايد خصائص وفاعلية المثير غير الشرطي في استدعاء استجابة الخوف ، والتي تسمى بعد ذلك باستجابة الخوف الشرطية [١٨] .

كما كان دراسات « سميث وجاثري Smith & Guthrie » (١٩٢٢) من عوامل إضعاف اتجاه مدرسة التحليل النفسي في تفسير كثير من المشكلات السلوكية . فقد اشارا الى ان ـ كثيرا من مظاهر السلوك التي يردها « فرويد » Freud الى الغريزة الجنسية مثل سلوك الاستعراض Exhibitionism ، انما تكتسب لأي عادات سلوكية اخرى خلال عملية الاشتراط [١٩] .

ويعتبر الأسلوب الذي استخدمه « موورير وموورير Mowrer & Mowrer (١٩٣٨) ـ و « مورجان ووتمر » Morgan & Witmer (١٩٣٩) في تجنب عملية التبول اللاارادي لدى الاطفال احد التطبيقات الهامة لنظرية الاشتراط . فقد استخدم « موورير » ملفا كهربائيا صغيرا موضوعا تحت قطعة قماش سميكة توضع تحت مكان نوم الطفل . وهذا الجهاز متصل بجرس . وعندما يبدأ الطفل في التبول اثناء النوم ، فان الدائرة الكهربائية بهذا الملف تكتمل ويدق الجرس . وحينئذ يستيقظ الطفل لكي يستكمل عملية التبول . وكان افتراض « موورير » قائما على اساس ان التبول اثناء النوم هو نتيجة لتدريب خاطىء على امكانية الطفل تمييز الاحساس بامتلاء المثانة اثناء الليل . ولذلك فهو يعتبر ان هذا الشكل من التبول اللاارادي مكتسب ، ولا يرجع لعوامل عضوية كما يحدث في بعض الاحيان .

---

18 — Watson, J.B., & Rayner, R. (1920) "Conditional emotional reaction" Journal of Experimental psychology, 3. Lh MC Laughlin, B. : Learning and Social Behavior, (1978) the Free Press, NEW YORK.

19 — Smith, S., & Guthrie, E.R. (1921) "General psychology in termes of behavior". Appleton-century. In Mc Laughlin, b. Learning and social Behavir, (1978). The Free press.

والشكل التالي يوضح ذلـــــــك .

(شكل رقم - ٢) يبين عملية الاقتران بين المثيرين ، الشرطي وغير الشرطي :



ويحدث ذلك بعد اقتران صوت الجرس كمثير غير شرطي (م ط) بالمثير الشرطي (م ش) وهو امتلاء المثانة عدة مرات وبدرجة كافية حتى تقوى عملية الاقتران بين المثيرين . بعد ذلك يصبح للمثير الشرطي (م ش) قوة وفاعلية المثير غير الشرطي (م ط) في استدعاء الاستجابة الطبيعية (س ط) وهي التبول والتي تسمى بعد ذلك بالاستجابة الشرطية . أي أن الطفل يستيقظ للتبول لاستجابة شرطية (س ش) بمجرد الاحساس بالمثير الشرطي وهو امتلاء المثانة (م ش) وبالتالي يتعلم الطفل الاستيقاظ بمجرد الاحساس بامتلاء المثانة بعد ذلك لتجنب التبول اثناء النوم[٢٠] .

وقد استفاد الباحثون بعد ذلك من الاسلوب الذي اتبعه « ماورر » في علاج بعض حالات التبول اللاارادي . فقد استخدم تيرنر وتيلور Turner & Taylor(١٩٧٤) هذا الأسلوب في علاج نفس الظاهرة لدى الكبار[٢١] . كما اضيفت بعض التعديلات على هذه الطريقة تشمل زيادة ضبط عملية كف الاستجابات غير المرغوبة ، واكتساب عادة الاستيقاظ مبكرا ، وتنظيم تعزيز استجابات التبول الطبيعي ، والتصحيح الذاتي لاستهداف الأفراد للحوادث ، والتدريب على عملية الاخراج ، وخفض معدل استجابات التبول اللاارادي في أقل فترة زمنية ممكنة بعد فترة تدريب مكثف[٢٢] .

وهكذا اقتنع السلوكيون الأوائل بأن أغلب انماط السلوك ، وخاصة المرضي منه ، انما يخضع للتعلم خلال عملية الاشتراط .

وكما يتم تكوين الاستجابات الانفعالية غير السوية عن طريق عملية التعلم ، فانه يمكن كذلك العمل على استبعاد هذه الاستجابات من حياة الفرد عن طريق عملية الانطفاء Extinction وهو نقص أو اختزال في قوة الاستجابة يحدث بعد مرور الوقت نتيجة عدم التعزيز Reinforcement منذ آخر عملية اقتران بين المثيرين ، الشرطي وغير الشرطي . مما يؤدي الى اختفاء الاستجابة غير المرغوبة في مجال العلاج النفسي . كما يشار في دراسات الاشتراط البسيط الى ظاهرة اختفاء الاستجابة الشرطية لدى الأشخاص بالنسيان Forgetting نتيجة عدم الممارسة .

وبذلك يمكن تطبيق مبادىء السلوك والتعلم ليس فقط في تكوين عادات سلوكية مرغوبة ، ولكن كذلك في علاج كثير من الاضطرابات النفسية .

---

20 — Mowrer .H., (1950) "Learning Theory and personality Dynamics" The Ronaldress Company, N.y.

21 — Turner, R.K. & Taylor, P.D., (1974) "Conditioning treatment of nocturnal enuresis in adults: preliminary findings" Behavior Research and Therapy, 21, 41—25.

22 — Az rih, N.H., Sneed, T.G., & FOXX,R.M., (1974) "Dry- bed Training : Rapid elimination of child hood enuresis" Behavioir Reserh and Therapy, 21, 741- 651.

وقد استخدم كثير من الباحثين عملية انطفاء الاستجابات غير المرغوبة في علاج بعض الاضطرابات السلوكية . مثال ذلك استطاع « جونز » Jones (١٩٢٤) استبعاد استجابات ـ المخاوف المرضية لدى بعض الأطفال بواسطة تغذية الطفل في حضور المثيرات المسببة للقلق لديه ، وذلك باظهارها امامه تدريجيا ، ولفترة معينة لا تتعدى حد الاحتمال أو نقطة التحمل Point of telerance . وتدريجيا خلال جلسات العلاج تزداد فترات ظهور مثيرات الخوف مع تزايد حد الاحتمال ، حتى تنطفيء تماما استجابات الخوف من المثيرات التي أدت اليه[٢٣] .

كما تمكن دنلاب « Dunlap » (١٩٣٢) من علاج بعض الانحرافات السلوكية بواسطة اسلوب الممارسة السالبة negative practice . التي يقوم على عدم تعزيز الاستجابات غير المرغوبة والمطلوب كفها[٢٤] . وقد استخدم « فشمان » Fishman (١٩٣٧) نفس الاسلوب في علاج بعض صعوبات الكلام[٢٥] .

وتناول « ماكس » Max (١٩٣٥) عملية الانطفاء بطريقة مباشرة في علاج سلوك الجنسية المثلية Homosexual behavior حيث استخدم صدمة كهربائية قوية كمثير منفر aversive Sti-mulus في علاج أحد المرضى والذي كان يقوم بعملية الجنسية المثلية عقب التعرض لمثيرات معينة ارتبطت لديه باستثارة الدافع الجنسي ، وبواسطة استخدام الصدمة الكهربائية في حضور هذه المثيرات اثناء جلسات العلاج ، استطاع « ماكس » أن يعمل على استبعاد أثر هذه المثيرات في الاستثارة الجنسية ، واطفاء سلوك الجنسية المثلية لدى الشخص[٢٦] .

والشكل التالي يوضح عملية انطفاء الاستجابة الشرطية نتيجة عدم تعزيزها بالمثير الشرطي (م ط) (٣) .

---

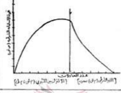
23 — Jones, M.C. (1924) "The elimination of children's fears" Journal of Experimental psychology, 7, 382-90

24 — Dunlap, K., (1932) "Habits, their making and unmaking" New York. Liveright,. In MC. Laughlin, : Learning and social Behavior, (198), The Free press, N.y.

25 — Fishman, H.C., (1937) "A study of the efficiency of negative practice as a Corrective for Stammering learns ofspeech Disorders, 2,. in MC Laughlin, B., :

Learning and Social Behavior, (1978) The Free press, N.Y.

26 — Max, L.W. (1935) "Breaking up a homosexual fixation by the conditioned reaction technique : A case study" Psychological Bulletin, 32 734.



وعلى الرغم من تعدد الأساليب السابقة في علاج بعض مظاهر . السلوك غير السوي لدى الأشخاص ونجاح هذه الأساليب في كثير من المواقف في تحقيق الهدف الذي تسعى اليه ، فان الاهتمام السائد والمشترك لدى أغلب علماء المدرسة السلوكية في ذلك الوقت هو اخضاع اسلوب علاج اضطرابات السلوك الى التجارب العملية التي تقوم على أساس التعلم ، وليس مجرد الاستفادة من المعلومات والأفكار التي خرجت بها نظريات التعلم في علاج المشكلات السلوكية . وحتى عام ١٩٦٠ لم يكن هناك محاولة منتظمة متكاملة تستخدم كنموذج سلوكي في ممارسة العلاج النفسي . حيث كان الشعور السائد لدى الباحثين في هذا المجال آنذاك أن هناك حاجة ماسة الى بحوث أكثر وأشمل قبل أن يحدث أي تقدم في مجال العلاج النفسي[٢٧] . وفي هذا الصدد اشار « كاليش » Kalish (١٩٦٥) الى أن السبب في تأخر ظهور تطبيقات الأساليب السلوكية في علاج اضطرابات السلوك انما هو محاولات العلماء في ترجمة نموذج العلاج النفسي التقليدي الى لغة نظرية التعلم[٢٨] .

---

27 — MC Laughlin, B. (1971) "Learning and social Behavior" The Free Press, New york.

28 — Kalish, H. I. (1965) "Behavior Therapy"
HanH book of clinical Psychology, Mc Graw — Hill, N. Y.

اتجاه نظرية التعلم في علاج اضطرابات الشخصية :

بعد المحاولات العديدة السابقة لتفسير الاضطرابات السلوكية في اطار مبادىء السلوك والتعلم ، ظهر اتجاه آخر أكثر شمولا وتكاملا ، يشار اليه باتجاه نظرية التعلم في العلاج النفسي Learning — theory approach to Psychotherapy ويعتبر الاتجاه في الحقيقة من أهم النتائج المباشرة لنظرية « هل » Hull في التعلم ومن المعروف أن « دولارد وميلر » Dollard & Miller من أكثر تلاميذ « هل » الذين تناولوا مبادىء نظريته في التعلم ، وما خرجت به من نتائج ، وحاولوا الاستفادة منها في مجال علاج اضطرابات الشخصية .

وقد كان الاتجاه السائد لدى « دولارد وميلر » هو وصف وتفسير الأحداث أو الوقائع التي تدور خلال عملية العلاج النفسي في اطار ، أو في مصطلحات نظرية التعلم . ولم ينكر انصار هذا الاتجاه ومنهم « دولارد وميلر » نموذج التحليل النفسي التقليدي الذي كان سائدا لفترة طويلة ، ولكنهم اعتمدوا في تفسير السلوك على مبدأ رئيسي وهو أن ما يحدث اثناء العلاج يجب أن يفسر على أساس من نظرية التعلم ، ويكون في ذات الوقت داخل اطار هذا النموذج التقليدي . هذا رغم أوجه النقد التي توجه الى هذا الاتجاه ككل وهو ما سنشير اليه بعد ذلك .

وأهم ما يتضمنه هذا الاتجاه من مبادىء في تفسير الاضطرابات السلوكية نعرض له بايجاز في الجزء التالي :

لقد ظهرت المحاولات الأولى لدولارد وميلر في الاستفادة من مبادىء نظرية « هل » في التعلم في كتابهما « التعلم الاجتماعي والتقليد Social Learning and imitation (١٩٤١) . حيث كان هدفهما تكوين نموذج نظري في التعلم الاجتماعي يقوم اساسا على المبادىء والأسس التي وضعها « هل » في نظريته . وتعتبر هذه المحاولة بمثابة اختبار تجريبي بالفعل لتكوين هذا النموذج النظري . حيث قد تناولت كثيرا من الأسس التي يتم عليها بعد ذلك تفسير العديد من مظاهر السلوك السوي وغير السوي . ومن ذلك اعتبار أن التعلم أساسي بالنسبة للسلوك الانساني . وبدون عملية التعلم لا يستطيع الفرد أن يأخذ مكانه كعضو فعال ومؤثر في المجتمع الانساني . وكما أن اللغة سلوك متعلم ، فان السلوك السوي وغير السوي كذلك كلاهما يخضع لعملية تعلم . حتى توافق الاشخاص بعضهما الى البعض الآخر داخل الأسرة وخارجها في المجتمع المحيط ، وما به من مؤسسات اجتماعية أخرى ،

انما يحتاج لعملية تعلم ، ولذلك يتطلب تحليل السلوك الاجتماعي المعرفة الدقيقة بمبادىء التعلم والأسس التي يقوم عليها .

وكان من رأي « دولارد وميللر » أن ذلك ما يجعل فرع سيكولوجية التعلم ذا أهمية كبيرة بين فروع علم النفس . ولكن ذلك لا يتم بصورة جيدة الا في حالة مساعدة العلوم الاجتماعية الأخرى . لأن علماء التعلم في حاجة ماسة الى فهم الظروف الاجتماعية والثقافية السائدة في المجتمع والتي في ضوئها يحدث التعلم الانساني بالنسبة لكثير من انماط السلوك الاجتماعي . والدليل على ذلك ما يلاحظ بوضوح في الاستجابات السلوكية التنافسية والعدوانية في المجتمع . حيث يوجد الصراع بين الأفراد من أجل التقدم الاجتماعي . ويمكن أن تكون هذه الاستجابات ذات أثر فعال ومعزز لسلوك الأفراد . كما يمكن أن تكون من ناحية أخرى مصدرا من مصادر العقاب ، ومن عوامل اضعاف السلوك . ويعتمد ذلك على طريقة ومستوى استجابة الأفراد الآخرين في المجتمع على درجة كبيرة من الأهمية في التنبؤ بدرجة فاعلية التعلم والحالة التي سيكون عليها . فهل ستكون هذه الانماط عاملا مساعدا في تكوين عادات سلوكية سوية مرغوبة ؟ أم سيترتب على وجودها عادات سلوكية غير مرغوبة تظهر في شكل بعض الاضطرابات النفسية ؟[٢٩].

ويقوم اتجاه نظرية التعلم لدى « دولارد وميللر » في تفسير السلوك بوجه عام ، والاضطرابات السلوكية بوجه خاص على أربعة مبادىء أساسية هي الحافز ، والدلالة ، والاستجابة والمكافأة . ويفضل أن تفسرها بايجاز على النحو التالي : ـ

١ ـ الحافز : Drive

قد تكون الحوافز فطرية ، كما قد تكون مكتسبة والحوافز الأولية أو الفطرية Primary drives هي تلك المثيرات التي يبدو انها تكون الأساس الأول لأغلب انماط سلوك الدافعية . ومن هذه الحوافز الشعور بالالم ، والعطش ، والجوع ، والجنس . وتكون هذه الحوافز واهنة غير متسلطة على السلوك الأنساني في التنظيمات الاجتماعية الحديثة . ولا تظهر في كامل قوتها وتأثيرها الا في ظروف خاصة مثل الحروب ، والثورات ، والمجاعات . وعلى العكس من ذلك تشكل الحوافز الثانوية أو المكتسبة Secondary drives الاطار الاجتماعي للأنسان المتمدين الذي يعتمد بدرجة كبيرة على حماية

29 — Miller, N. E., & Dollard, J. (1941) " Social Learning and imitation " New Haven : yale university Press.

المجتمع له ، وعلى تحقيق أكثر مطالبه الحياتية في اطار التقدم الاجتماعي والنفسي الذي وصل اليه المجتمع الحديث ، والحوافز المكتسبة يتم تعلمها على أساس من الارتباط بالحوافز الفطرية .

ومن المحتمل أن يكون الخوف أو القلق أقوى هذه الحوافز . ويستطيع أي مثير أن يكون له قوة الحافز وفاعليته في السلوك ، اذا كان هذا المثير على درجة كبيرة من الشدة تتيح له دفع الفرد الى العمل .

٢ ـ الدلالة : Cue

هي عبارة عن مثير يحقق وظيفة هامة ، وهي توجيه الاستجابات الصادرة عن الكائن الحي في المواقف السلوكية المختلفة ، مما يساعد على تحديد خواص الفعل . والمثيرات عادة يكون لها قيمة حافزية drive value تعتمد على شدة هذه المثيرات في الموقف السلوكي . كما يكون لها قيمة دلالية Cue value تحقق توجيه السلوك . وتعتمد هذه القيمة على الخاصية التمييزية لهذه المثيرات . وكلما ازداد تمايز المثير ، ساعد ذلك على تكوين الاستجابات المحددة . والمتنوعة التي ترتبط بهذا المثير . ولذلك ليس من الضروري أن تكون الاستجابة نتاج مثير واحد فقط ، ولكن قد تكون نتيجة لنمط من المثيرات . وبالتالي قد يكون هذا النمط من المثيرات مكونا من هذه مثيرات حافزة ، واخرى لها وظيفة الدلالات Cues . مثال ذلك كما في حالة الفرد الجائع ، فانه يستجيب لمثير حافز الجوع ، كما يستجيب الى الدلالات التي تظهر في البيئة المحيطة به ، كرائحة الطعام ، أو لعنوان المطعم ، أو الى أي دلالة أخرى ترتبط بمثير حافز الجوع . لذلك فان الدلالات لها خاصية على جانب كبير من الأهمية ، وهي أنها تحدد متى وأين يستجيب الفرد ، وما هي الاستجابات التي سيصدرها من حيث الشكل والمستوى . وهكذا فان المثير الحافز drive Stimulus ، والمثيرات والدلالات تعمل معا في نسق متواز في اصدار الاستجابة المناسبة .

٣ ـ الاستجابة : Response

والاستجابات هي كل ما يصدر عن الكائن الحي من أعمال ، أو افعال ، أو حركات أو انفعالات نتيجة لوجود مثير أو موضوع ، أو مجموعة مثيرات أو موضوعات يتعرض لها الكائن الحي في هذا الموقف ، وتحدد موضوعها في هذا السلوك الصادر عنه . ويسهل تعلم أي نمط من الاستجابات اذا اعقبها مكافأة . حيث أن مكافأة الاستجابة من شأنه أن يقويها ويعززها ، ويجعل احتمال حدوثها في

المرات القادمة أكبر من احتمال عدم حدوثها . كما أن تعزيز الاستجابة يجعلها تحتل مكانة هامة نسبيا في « التنظيم الهرمي الأولي للاستجابات » ـ initial hierarchy of responses . ويختلف وضع الاستجابات في هذا التنظيم من حيث احتمال حدوثها ، ودرجة فاعليتها . فالاستجابة المعززة تكون الأكثر فاعلية وسيادة في هذا التنظيم . وقد يغير التعلم من نظام وضع الاستجابات في التنظيم . حيث يشار الى الاستجابات التي تتكون نتيجة الاكتساب والتعلم « بالتنظيم الهرمي المكتسب resultant hierarchy ، في حين يشار الى الاستجابات التي تتكون غالبا نتيجة العوامل الوراثية ، وليست نتيجة الخبرة والتعلم « بالتنظيم الهرمي الفطري » innate hierarchy .

٤ ـ المكافأة : Reward

ولها أثر كبير في عملية التعلم . حيث أن الاستجابات التي تكافأ تكون أكثر احتمالا في الظهور في المواقف التالية المشابهة للموقف الذي تمت فيه المكافأة ، من الاستجابات التي لا تكافأ . وبالتالي تحقق المكافأة عملية التعزيز Reinforcement بالنسبة للاستجابات المطلوب تعلمها . ويعتبر « دولارد وميللر » ان احتمال تكرار الاستجابات ، أو احتمال أن تغير من نظامها في التنظيم الهرمي للاستجابات ، انما يعتمد على ما اذا كانت الاستجابة معززة أم لا . فاذا لم تكافأ الاستجابة فان شدة الحافز لدى الفرد من شأنها أن تنخفض . وتبعا لذلك يزداد ميل الفرد الى تكرار نفس الاستجابة الى نفس المثيرات . وهكذا يؤدي تعزيز الاستجابات الى خفض الحافز ، وبالتالي خفض درجة التوتر الناشىء عن الحافز مما يساعد على التعلم[٣٠] .

وبعد هذا العرض السريع للمبادىء الأربعة الأساسية التي يقوم عليها التعلم في نظر دولارد وميللر ، نعرض لاتجاه العلاج الذي يقترحانه في ضوء هذه المبادىء على النحو التالي : ـ

يعتبر دولارد وميللر أن أسلوب العلاج الذي يقوم على نظرية التعلم يعتمد أساسا على عمليتين من أكثر العمليات النفسية أهمية في مجال تعلم العادات السوية ، وكف العادات السلوكية غير المرغوبة ، وكذلك محو تعلم unlearning بعض الاضطرابات السلوكية مثل الخوف والقلق . والعمليتان هما التعميم والتمييز .

ومن المفضل أن نشير الى كل منها بكلمة صغيرة قبل أن نبين دورهما في تكوين أسلوب العلاج الذي تبناه دولارد وميللر .

---

30 — Ibid.

أولا : التعميم : Generalization

ويعني أنه حينما يتم اشتراط الاستجابة الى مثير معين ، فان المثيرات الأخرى المشابهة للمثير الأصلي ، يصبح لها القدرة على استدعاء نفس الاستجابة .

مثال ذلك في حالة تعلم الطفل من بعض الحيوانات ، فان استجابة الخوف تظهر لديه حينما يشاهد الحيوانات الأخرى المشابهة ، خاصة في السنوات الأولى من العمر لعدم قدرته على التمييز بين المثيرات التي تظهر في الموقف السلوكي . ويرجع ذلك الى أن المثيرات الجديدة الأكثر تشابها ، والأقرب الى المثير الأصل ، يصبح لديها القدرة بدرجة أكبر من غيرها على استدعاء الاستجابة الشرطية . وبالتالي تعتبر عملية التعميم من الأسس الهامة في تفسير السلوك حينما يعيد الفرد في المواقف الجديدة تكرار بعض الاستجابات التي حدثت في المواقف السابقة بنفس الأسلوب . ويحدث ذلك بمقدار ما هناك من أوجه التشابه بين هذه المواقف الجديدة والمواقف السابقة . وكلما كان التشابه بين المواقف الجديدة ، والمواقف السابقة كبيرا ، كان احتمال حدوث التعميم أكبر .

ثانيا : التمييز : Discrimination

ويعتبر عملية مكملة لعملية التعميم . فبينما التعميم يعتبر استجابة الى التشابهات ، بمعنى أن الكائن الحي يستجيب الى كل المثيرات التي تشبه المثير الأصل ، فان التمييز يعتبر استجابة الى المختلفات . اي أن الكائن الحي يستطيع في هذه العملية أن يميز بين المثيرات الموجودة في الموقف ولا يستجيب الا للمثير المعزز . وهكذا لا تبقى الا الاستجابة المعززة ، بينما تنطفيء الاستجابات الاخرى لعدم تعزيزها .

ويعتبر التمييز عملية متقدمة بالنسبة الى التعميم . حيث ان الطفل لا يستطيع ان يقوم بعملية التمييز الا بعد مرحلة متقدمة من النمو . ولذلك فانه في المراحل المبكرة من العمر يعمم استجابة الخوف الى كل المثيرات المشابهة للمثير الأصل الذي تسبب في تكوين هذه الاستجابة . بينما في المراحل التالية يستطيع أن يميز بين المثيرات التي توجد في الموقف السلوكي .

وهكذا بعد أن كان الطفل يخاف من جميع الحيوانات التي تشبه الحيوان الذي كون نحوه استجابة الخوف ، فانه يبدأ بعد ذلك في إصدار استجابات الخوف الى نفس الحيوان فقط ، وليس الى جميع

الحيوانات المشابهة . وتصبح عملية التمييز أكثر تخصصا كلما تقدم في النمو ، مما يؤدي الى ظهور عملية أخرى هي عملية التمايز بين الاستجابات[٣١] .

وقد تناول « دولارد وميللر » (١٩٥٠) عمليتي التعميم والتمييز ، والمبادىء الأساسية للتعلم السابق الأشارة اليها في كيفية ظهور وعلاج بعض الاضطرابات السلوكية كالعصاب والخوف مثلا .

وتبدو مظاهر هذه الأساليب السلوكية غير السوية من خلال عمليتي الصراع Conflict والكبت Repression . ولما كان الصراع الانفعالي الحاد يعتبر أساسا لكثير من الاضطرابات السلوكية ، فقد تناول دولارد وميللر الصراع اللاشعوري الذي يؤدي الكبت دورا رئيسيا في تكوينه .

وينشأ الصراع في رأي اصحاب النظرية نتيجة عملية اكتساب وتعلم خاطىء لأساليب التوافق مع البيئة . ويتم اكتساب وتعلم هذا النمط من السلوك خلال مرحلة الطفولة المبكرة ، حيث تساهم الظروف الاجتماعية التي يعيش فيها الطفل ، وما يرتبط بها من عوامل ثقافية معينه في تكوين الصراع . ويكتسب الطفل الصراع من الأشخاص المحيطين به . وبخاصة الوالدين . فممارسة الوالدين لأساليب التربية الخاطئة في معاملة وتربية الطفل قد ينشأ عنها ذلك الصراع . ويتكون الصراع لدى الطفل نتيجة التعارض بين استجابات اشباع الدوافع (الحوافز) البيولوجية ، وبخاصة دوافع الجوع وضبط الاخراج وضبط الجنس وبين الاستجابة لمثيرات البيئة ، وما فيها من قيم أو عوامل ثقافية معينة تحول دون اشباع مثل هذه الدوافع ، مما قد يؤدي الى بعض مشاعر الخوف والغضب والشعور بالذنب . ولكي يتجنب الطفل هذا الصراع الناشىء عن التعارض بين هذه الاستجابات ، فانه يلجأ الى الكبت علاجا لهذا الموقف . ويعتبر اتجاه الوالدين من اشباع الطفل لدوافعه الأولية من الأسباب الرئيسية التي قد تؤدي الى تكوين الصراع . فقد يترتب على عقاب الوالدين لطفلهما للعبث باعضائه التناسلية ، ان يصبح الدافع الجنسي مثيرا للخوف ، مما يجعل الطفل يقع في حالة صراع بين شدة الدافع من ناحية ، والخوف من اشباعه من ناحية اخرى ، مما قد يؤدي الى حالة الصراع ، والتي تسمى في مثل هذا الموقف بصراع الاقدام والاحجام Approach - avoidance.

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد ، فطبقا لعملية التعميم السابق الاشارة اليها ، قد تعمم استجابة الخوف على الأب على اساس انه اقترن بعملية للعقاب . والأكثر من ذلك قد يشمل التعميم المكان

31 — Olson, R.D. & smith, R.K. (1971) "Learning in the classroom theory and Application". Publishing Corporation.

الذي تم فيه العقاب ، وكذلك وسيلة العقاب وغير ذلك من المثيرات المشابهة للمثير الأصلي الذي كون استجابة الخوف ، والتي اقترنت بظروف العقاب [٣٢] .

وهكذا غالبا ما يؤدي التلازم بين الصراع والكبت الى ظهور الاعراض العصابية **neurotic symptoms** التي تخضع في تكوينها لعملية التعلم ، وتبدو أهم مظاهرها في سوء تكيف الفرد مع نفسه ، ومع الأخرين ، والمعاناة الشديدة من الصراع والتهديد والشعور بالتعاسة .

مثال آخر يوضح كيف تؤدي هذه العمليات النفسية دورا هاما في كثير من الاضطرابات السلوكية . والمثال هذه المرة لشاب يعاني من ظاهرة الاعتماد العصابي **neurotic dependence** حيث انه يمارس سلوك الاعتماد الزائد على امه في كثير من امور حياته . مما يجعل هذا النمط من السلوك يوصف بعدم التوافق . ذلك لان صاحبه لا يتمكن من ممارسة امور حياته العادية مستقلا عن امه . فلا يستطيع ان يتخذ قرارا في اختيار مجال العمل الذي يفضله ، أو ممارسة نواحي النشاط الذي يميل اليه ، كما لا يستطيع اختيار شريكة حياته . ويفسر دولارد وميللر اسباب هذه الحالة في ضوء الصراع الذي يعاني منه هذا الشاب ، والذي ينشأ من الشعور بالعداء والكراهية للأم ، والشعور بالذنب في نفس الوقت . وعندما لا تجد هذه المشاعر متنفسا لها ، غالبا تتحول الى حالة كبت وانكار . يتبع ذلك ظهور بعض اعراض الخوف والقلق التي قد يلازمها احيانا بعض اعراض الأمراض السيكوسوماتية **psychosomatic illnesses** [٣٣] ومن شأن هذه الاعراض جميعها ان تزيد من اعتماد الشاب على امه ، وتجعله يحجم عن اتخاذ قراراته .

ويكون علاج هذه الحالة في رأي دولارد وميللر في محاولة حل الصراع الكامن لدى الشاب ، وهو التعلم **unlearning** بالنسبة لاستجابات الكبت اللاشعورية التي يمارسها لمواجهة اعراض الصراع ، واستبدال هذه الاستجابات باخرى مدركة ومميزة . ولما كان الشاب لا يدرك ان مشاعر الكبت لديه هي التي ادت الى الخوف وتسببت في حالة الصراع ، فانه يجب خلال جلسات العلاج ان تتاح له فرصة التعبير عن هذه المشاعر ، وذلك بمناقشة اتجاهاته نحو امه حتى يصبح قادرا عن الافصاح عما تتضمنه هذه الاتجاهات من جوانب سلبية . وعندما يكتشف الشاب ان الحديث بحرية عن هذه

---

32 — Dollard, J. & Miller, N. E. C (1950) "Personality and Psychotherapy" Mc Graw—Hill, New york.

(٣٣) حالات مرضية جسمية الظهور ، نفسية المنشأ ، مثل بعض حالات قرحة المعدة والربو النفسي ، وضغط الدم العالي ، والتهاب المفاصل ، وبعض أمراض القلب .

المشاعر السالبة لا يقابل بالعقاب من المعالج ، فان الاحساس بالذنب ، ومظاهر القلق المرتبطة بمشاعر العداء والكراهية نحو امه تأخذ تدريجيا في الانطفاء ، ثم ينتقل الانطفاء الى المشاعر السالبة الأخرى من خلال عملية التصميم [٣٤] .

وهكذا يتم علاج مثل هذه الحالات اذا اصبح الشخص مدركا ومميزا للمثيرات المسببة لسلوكه ، والمكونة لاستجاباته ، واعيا بالأسباب والعوامل التي ادت الى استجاباته الانفعالية غير السوية . وحينئذ يكون سلوكه مضبوطا ، ومتسقا مع الواقع .

ويلاحظ من العرض السابق لاتجاه نظرية التعلم الذي أخذ به دولارد وميللر في تفسير الشخصية ، وما قد تتضمنه من بعض الاضطرابات السلوكية ، ان هذا الاتجاه يتميز بالدقة العلمية بدرجة اكبر مما سبقه من الاتجاهات أو المحاولات . وكان من ابرز مميزات هذا الاتجاه انه اعتمد في هذه المحاولة على القوانين المعملية ، مستندا في ذلك على القواعد والمبادىء التي تحكم عملية التعلم . ولكن ما يؤخذ على هذا الاتجاه ان اسلوب تناول الظاهرة النفسية وما يعتمد عليه من قوانين أو اسس اكتساب السلوك كان في اطار نظرية التحليل النفسي وما تشتمل عليه من وجهات نظر في تفسير السلوك .

اسلوب تعديل السلوك والأسس التي يقوم عليها

يقصد بتعديل السلوك Behavior Modification ببساطة التطبيق الفعلي لمبادىء السلوك على مشكلات السلوك . تلك المبادىء والأسس التي توصل اليها علم النفس تجريبيا . واغلب هذه المبادىء هي نتاج الدراسات والابحاث الحديثة والمتنوعة التي أجريت في مجالي التعلم والدافعية ، على الرغم من ان اسلوب تعديل السلوك لا ينحصر فقط في هذين المجالين ، بل يمتد الى مجالات اخرى من علم النفس .

لذلك عندما يستخدم اسلوب تعديل السلوك في مجال علم النفس العيادي Clinical psychology مثلا ، يشار اليه بالعلاج السلوكي Behavior therapy او بالعلاج الاشتراطي Conditioning therapy واحيانا اخرى يطلق على تعديل السلوك ، الاشتراط الاجرائي التطبيقي Applied Operant Conditioning الذي هو في الحقيقة جزء من تعديل السلوك كما قد يشار اليه بالتحليل التجريبي للسلوك Experimental analysis behavior .

34 — Ibid.

وحتى سنوات قليلة مضت غالبا ما كان بعض الكتاب يستخدمون مصطلح تعديل السلوك للاشارة الى اي نوع من الممارسة من شأنه ان يغير من السلوك الانساني . ولكن ذلك كان يجانب الصواب ، حيث ان تعديل السلوك على وجه الدقة لا يعني مطلقا أنه عمل من اعمال غسيل المخ Brain Washing أو ضبط التفكير . كما ان الباحثين المختصين بتعديل السلوك لا يستخدمون اي نوع من انواع الجراحة ، كما انهم لا يلجأون الى ما يسمى بالعلاج بواسطة الصدمات الكهربائية electroshock therapy ونادرا ما يستخدمون بعض العقاقير كوسائل معينه بصفة مؤقتة للمساعدة في تغير بعض الاجراءات السلوكية .

وانما تعديل السلوك يقوم اساسا على مبادىء التعلم ، وما تقله من تكوين المهارات وأساليب السلوك الجديدة ، واختزال وكف الاستجابات والعادات السلوكية غير المرغوبة . كما ان الأشخاص الذين يخضعون لأسلوب تعديل السلوك غالبا ما يصبحون أقوى دافعية لتقبل التغيرات الجديدة المرغوبة .

ويقوم تعديل السلوك اساسا على التجريب . حيث ان الاساس الذي يعتمد عليه المشتغلون بعلم النفس هو ان هذا العلم يقوم على مجموعة من القوانين تفسر العوامل النفسية التي تؤثر على سلوك الشخص . مما يجعل احداث أي تغير في سلوك شخص ما ، بغض النظر عن تسمية اسلوب التغيير ، سواء كان تعديلا أو تحليلا للسلوك ، او ارشادا غير مباشر nondirective counseling ، من الضروري ان يتم اساسا على خصائص هذه القوانين . هذا بالاضافة الى ان اجراءات التعديل في السلوك التي يتناولها هذا التغير يجب ان تستخدم هذه القوانين حتى تكون هذه الاجراءات اكثر فاعلية في تحقيق الهدف المطلوب .

ويعتبر الباحثون في مجال علم النفس التجريبي ان المعلومات التي تم الوصول اليها من الدراسات التي اجريت حتى الآن بمثابة ركيزة أساسية لممارسة اسلوب تعديل السلوك بالنسبة لكثير من المشكلات السابق الاشارة اليها في مقدمة هذه الدراسة . ومع تزايد الوصول الى قوانين ومبادىء جديدة تفسر السلوك الانساني ، ينمو ويتطور اسلوب تعديل السلوك [٣٥] .

المدرسة السلوكية وأسلوب تعديل السلوك :

واتجاه المدرسة السلوكية الذي يعتمد عليه اسلوب تعديل السلوك يختلف بدرجة كبيرة عن المتحمي

35 — Ibid.

الذي اشار اليه سكينر وبعض انصار هذه المدرسة . فهو اتجاه لا يسعى الى محاولة اخضاع كل اساليب السلوك الانساني الى بعض الانعكاسات البسيطة ، أو محاولة تفسير هذه الأساليب على اساس بعض الارتباطات التي تنشأ بين المثير والاستجابة ، ولكنه اتجاه ينظر الى السلوك الانساني على انه سلوك معقد بدرجة كبيرة ومحاولة فهمه وتفسيره لابد وان يكون في اطار العلاقات المتبادلة والمتشابكة بين مكونات كل نمط من انماط السلوك المختلفة . ومحاولة تفسير السلوك في اطار مكوناته لا يعني تفتيت السلوك الى اجزاء ، ولا ينتقص من فهم الانسان ككل . بل ان ذلك يسهل على المهتمين بتعديل السلوك وضع برامج فعالة لتغيير نماذج السلوك غير المرغوبة . حيث ان اسلوب تعديل السلوك لا ينظر الى مكونات السلوك في اطار العلاقة بين استجابات محددة ارتبطت بمثيرات محددة ، ولكنه ينظر الى هذه المكونات على انها نماذج من السلوك تم تعلمها في اطار مواقف معينة .

وبالتركيز على السلوك ذاته الصادر عن الشخص ، والقابل للملاحظة والقياس ، يؤدي اسلوب تعديل السلوك دورا هاما في تقديم معلومات في شكل اساليب عملية عما يجب ان يحدث في المواقف السلوكية الحقيقية . مثال ذلك : ماذا يجب ان يفعل ممارس اسلوب تعديل السلوك حينما يأتي اليه احد العملاء يشكو من الضعف الجنسي الذي يسبب له شعورا بالاحباط ؟ . والمدرس الجديد ربما يكون لديه معلومات وافرة حديثة عن اساليب التدريس وتفريد التعليم ، ولكن ماذا يفعل بالضبط حينما يواجه الفصل الدراسي لأول مرة كمسئول عن مجموعة من التلاميذ مختلفين في الميول والقدرات ، متباينين في بعض النواحي مثل الحالة التعليمية ، أو الاجتماعية ، أو الاسرية وهكذا بالنسبة لكثير من المشكلات السلوكية الأخرى والتي سبق الاشارة اليها في مقدمة هذه الدراسة .

وفي كثير من الأحيان يعتبر فهم الشخص للمشكلة ، او معرفته لماذا يتصرف على وجه معين في موقف معين بمثابة مساعدة له على التعامل مع عناصر هذه المشكلة . وقد يكون لدي الشخص المهارة والخبرة الكافية لكي يتغلب على المشكلة التي تواجهه بمجرد فهمه لها . ولكن عادة لا يكون ذلك كافيا في مواقف اخرى . كما قد لا يكون ذلك متوفرا لدي كثير من الأشخاص . لذلك لا يعتمد تعديل السلوك على فهم ، أو استبصار ، أو على امكانية تفسير السلوك على اساس نموذج نظري معين لتحقيق التغيير . فقد يكون الأشخاص في حاجة ماسة الى تعلم انماط سلوك بديلة ، أو اكتساب مهارات معينة لا يكون قدر استطاعتهم ممارستها قبل مقابلة ممارس تعديل السلوك .

ولا يعني ذلك ان اسلوب تعديل السلوك لا يتضمن كلا عمليتي الفهم والاستبصار ، ولكن ذلك وحده لا يكفي لتحقيق الأهداف التي يسعى اليها تعديل السلوك . بل ان العميل غالبا ما يشجع اثناء

ممارسة تعديل السلوك على ملاحظة وفهم دوافع واتجاهات سلوكه . وهذا النمط من الادراك ، أو تعلم التمييز Descrimination Learning غالبا ما يكون ضروريا بدرجة كبيرة خلال عملية التقويم الشامل لسلوك الشخص . وقد يكون ذلك بمثابة الخطوة الأولى في مساعدة الشخص لكي ينمي عملية ضبط الذات . Self - Control بالنسبة لبعض انماط سلوكه غير المرغوبة .

والعمل في مجال مشكلات السلوك غالبا ما يتطلب الاستعانة بمساعدات مختلفة من مصادر متنوعة ، قد تكون من المجالات الأخرى غير مجال علم النفس . ففي بعض الحالات مثلا قد يتطلب الأمر المساعدة من مجال التربية لتصحيح بعض المفاهيم او الافكار الخاطئة لدى الشخص ، او مساعدة طبية . وقد يحتاج العميل الى الشجاعة كمواجهة موقف معين ، او قد يكون في حاجة الى تدريب مهني معين ليرفع من مستوى ادائه في العمل . ولكن علاوة على ذلك كله ، وغيره من المساعدات الأخرى ، فان برنامج تعديل السلوك يكون له اسلوب عملي واضح ومحدد فيما يفعله العميل ازاء مشكلة معينة ، وما يتطلبه حلها من اختزال ممارسة بعض اساليب السلوك ، أو تعلم انماط سلوك جديدة[٣٦] .

مجالات اهتمام اسلوب تعديل السلوك :

من المسلمات الأساسية لدى المشتغلين بالعلوم السلوكية ان السلوك الانساني يتأثر بكثير من المتغيرات مثل المتغيرات الوراثية ، والاضطرابات الفسيولوجية ، والتغذية . وغيرها من المتغيرات الأخرى المتعددة . وعلاج المشكلات الناتجة عن بعض هذه المتغيرات قد يتضمن تغيير نظام التغذية ، او ازالة بعض الآثار الجسمية او الفسيولوجية أو العصبية المترتبة على وجود هذه المشكلات .

اما عن المشكلات الناشئة عن عوامل فسيولوجية مثل بعض اشكال الفصام ، Schizophrenia ، اضطراب استجابات الجهاز العصبي ، عدم الاتزان البيوكيمائي في المخ ، والتخلف العقلي Mental retardation فقد تبين بوجه عام انه من الصعب علاج هذه المشكلات بشكل مباشر في الوقت الحاضر . كما ان هذه المشكلات في ذاتها تعتبر من عوامل اعاقة تحقيق الهدف من اسلوب تعديل السلوك الى حد ما[٣٧]

36 — Mikulas, William L. (1978) " Behavior Modification " Harper and Row, Publishers, New york.

37 — Mikulas, William L. (1974) " Concepts in Learning " W. B. Saunders, Philadelphia.

ورغم ان اسلوب تعديل السلوك ربما لا يستطيع ان يزيل آثار التخلف العقلي مثلا ، الا انه يستطيع مساعدة الأشخاص المتخلفين عقليا على تحقيق اكبر قدر ممكن من التكيف مع واقعهم . وهكذا بالنسبة لكثير من المشكلات التي كان ينظر الى علاجها في وقت مضى على انه يعتمد على الأساليب الطبية الخالصة ، فقد تغير النظر اليها الآن على اساس اعتماد العلاج على قدر كبير من التزاوج والمشاركة بين الأسلوب الطبي واسلوب تعديل السلوك [٣٨]

اما بالنسبة للمتغيرات النفسية والاجتماعية التي يتأثر بها السلوك الانساني ، فانه بالنظر الى المشكلات السابق الاشارة اليها في مقدمة هذه الدراسة ، يمكن التوصل الى ان المتغيرات الرئيسية المسئولة عن اغلب هذه المشكلات هي متغيرات مرتبطة ارتباطا وثيقا بمجالي التعلم والدافعية . وقداشار بعض الباحثين امثال « دولارد وميللر » Dollard & Miller (١٩٥٠) ، « فرنش » French (١٩٣٣) ، « كمبل » Kemble (١٩٦١) ، « كراسنر » Krasner (١٩٦٢) ، « شوبن » Shoben (١٩٤٩) الى ان كثيرا مما يدور في الأساليب المختلفة للعلاج والارشاد النفسي يمكن ان تفسر على اساس مبادىء التعلم [٣٩] . مما يؤكد على اهمية نظرية التعلم بوجه عام بالنسبة لأسلوب تعديل السلوك .

وفي بعض الأحيان تتضمن المشكلات السلوكية نماذج من اساليب السلوك المتعلمة في وقت ما ، او في مواقف معينة . ولكن هذه النماذج من السلوك تصبح غير مرغوبة في وقت آخر ، أو في مواقف اخرى غير تلك التي تم فيها تعلم هذه الأساليب . وهكذا بالنسبة لكثير من المشكلات وآثارها لا تلاحظ الا في مراحل متأخرة . وذلك مثل ممارسة بعض المراهقين التدخين لتحقيق بعض الأدوار الاجتماعية المعينة . ولكن بعد عدة سنوات يكتشف هؤلاء الأشخاص انهم قد تعلموا عادة التدخين المعقدة ، والتي يصعب كفها ، او اختزال ممارستها الا بعد فترة زمنية ليست بقصيرة ، وربما لا يتم تعديل هذا النمط من السلوك غير المرغوب .

ومن جهة اخرى ، قد توجد مشكلات من نوع آخر ، تتضمن ممارسة بعض انماط من السلوك لم يتم تعلمها . ويرغب الأشخاص في تعلمها مثل :

---

38 — Knapp, T. J. and Peterson, L. W. (1976) " Behavior management in medical and nursing Practice ". In W. E. Craighead, A. E. Kazdin, and M. J. Mahoney (eds.) Behavior Modification : Principles, issues, and applications. Houghton Mifflin.

39 — Ibid.

ما هي افضل اساليب الاستذكار

كيف يمكن ان نحقق اختزال القلق والتوتر ؟

كيف يمكن ان يكون الشخص اكثر حزما في مواقف معينة ؟

تلك المشكلات ، وغيرها من المشكلات المتشابهة التي اشرنا اليها في مقدمة هذه الدراسة هي محور اهتمام وامكانية اسلوب تعديل السلوك الذي يهدف اساسا الى مساعدة الأشخاص على اختزال انماط السلوك المتعلمة غير المرغوبة والتخفيف من آثارها ، وتعلم انماط سلوك جديدة مرغوبة .

كل ذلك يؤكد على أهمية اسلوب تعديل السلوك في علاج كثير من المشكلات السلوكية على اساس اتجاه التعلم ـ الدافعية . هذا رغم ان المهتمين باسلوب تعديل السلوك يدركون تماما ان علم النفس يزخر بكثير من نظريات الشخصية والأساليب الكلينيكية التي تعتبر بمثابة بدائل لأسلوب تعديل السلوك في تفسير كثير من المشكلات موضع اهتمام علم النفس ذلك لان نموذج التعلم الدافعية الذي يقوم عليه اسلوب تعديل السلوك يحقق كثيرا من المزايا ، منها ان مكونات هذا الاتجاه تعتبر محدده تحديدا واضحا ، مع اقل درجة من التداخل المعق وكثرة الارتباطات ، وذلك بالنسبة لغيره من الاتجاهات الأخرى في علم النفس . كما ان هذا الاتجاه ـ اكثر من أي اتجاه آخر ـ يستند على العلاقات المركبة للمكونات المتعددة التي يتضمنها ، مما يحقق فهم وعلاج كثير من المشكلات الانسانية ذات الأبعاد السلوكية المتعددة .

الخصائص الرئيسية التي يتميز بها اسلوب تعديل السلوك :

مما سبق نوجز الخصائص التي يتميز بها اسلوب تعديل السلوك وتجعله في وضع يختلف عما سبق من اتجاهات او محاولات في تفسير وعلاج الاضطرابات السلوكية في النواحي التالية :ـ

١ ـ ان تعديل السلوك اسلوب « لا تاريخي » ahistorical بمعنى انه لا يهتم بالدرجة الأولى بتاريخ حياة الشخص صاحب المشكلة ، ولا بخبرات الطفولة التي مر بها ، او متى اكتسب الاضطرابات السلوكي الذي يعاني منه . بل انه يهتم بدرجة كبيرة بالاعراض الحالية ، وما يلاحظ من سلوك على

الفرد . كما ان اهتماماته تنحصر بدرجة اكبر في تحديد نماذج السلوك الخاطىء الذي يمارسه الفرد حاليا ، وماذا يمكن ان يقدم ممارس تعديل السلوك في هذا الموقف في ضوء ما يلاحظ من سلوك .

وليس معنى ذلك ان اسلوب تعديل السلوك لا يعطي اي اعتبار للمعلومات التاريخية عن حياة الفرد . فقد تكون هذه المعلومات في كثير من المواقف ضرورية ومطلوبة ولكن ما يجب ان يؤخذ في الاعتبار ، ان هذه المعلومات التاريخية تستخدم كعامل مساعد في تحديد المتغيرات الحالية المؤثرة على سلوك الفرد . وقد لا تكون هذه المعلومات مطلوبة في مواقف معينة ، مما يجعلها ليست موضع اعتبار بالنسبة للممارس .

٢ ـ يتجنب اسلوب تعديل السلوك تصنيف الأفراد الى فئات معينة ، او وضعهم تحت عناوين مميزة ، كما يتحاشى استخدام المفاهيم والمصطلحات الغامضة غير المحددة مثل « غير سوي » abnormal « ومنحرف » daviant او « مريض عقليا » memtally ill . لان هذه الصفات التي تطلق على الأشخاص لا تفيد كثيرا في التحليل الوظيفي للسلوك موضع اهتمام هذا الأسلوب ، الذي يعتبر ان السلوك ـ بغض النظر عن كيفية تصنيفه الى سوي وغير سوي ، او غير ذلك من التصنيفات ـ يخضع لعملية الاكتساب ، وذلك بدون اعتبار الى شكل هذا السلوك سواء كان مقبولا او غير مقبول بالنسبة لطبقة من الناس ، او لحضارة معينة . فتلك اعتبارات ثقافية ، لا وزن لها بالنسبة للاجراءات التي تتبع مع الأشخاص .

٣ ـ يعتمد اسلوب تعديل السلوك على الادراك والوعي والاقتناع باجراءاته ، سواء من جانب الأفراد أصحاب المشكلات السلوكية ، أو المدرسين ، أو الآباء ، أو غيرهم . حيث ان ذلك يحقق نتائج أفضل لهؤلاء الأفراد ، كما أنه يزيد من حماسهم ودافعيتهم للتعاون في حل المشكلات .

٤ ـ ومن أهم خصائص هذا الاسلوب أنه لايحتاج الى علاقة مباشرة وجها لوجه بين ممارس تعديل السلوك الذي يخطط ويشرف على تنفيذ البرنامج ، والعميل . ولذلك يستطيع أخصائي تعديل السلوك وتدريب المدرسين أو غيرهم من العاملين في مجالات الرعاية الاجتماعية والنفسية على القيام بتنفيذ البرامج التي تطبق على التلاميذ ، أو على غيرهم من الأفراد . كما يمكن تدريب الآباء على تنفيذ برامج تعديل السلوك على الأطفال (٤٠) . وقد تبين فاعلية هذه البرامج ، خاصة اذا كان الآباء أو المدرسون

---

40 — Berkowitz, B. D. & Graziano, A. M. (1972) " Training Parents as behavior therapists : A review " Behavior Research and Therapy, 10, 297 — 317 .

لايدركون في كثير من الأحيان مسؤوليتهم عن نماذج السلوك الخاطىء الذين يرغبون في تغييره [٤١] للذلك أمكن اعداد بعض الكتيبات التي تحتوي على برامج خاصة لتدريب الأفراد على تنفيذ خطط تعديل السلوك ، وخاصة للمدرسين ، الاخصائيين العاملين في بعض مجالات الرعاية الاجتماعية . حيث تحقق هذه البرامج الخاصة عدة أهداف أهمها امكان تفرغ الممارس المتخصص في تعديل السلوك لتناول المشكلات الخاصة التي تحتاج الى تدريب عال وخبرة متعمقة ، ومواجهة مباشرة مع العميل . كما أن هذه البرامج توفر اعدادا لابأس بها من الفنيين المتدربين العاملين في المؤسسات الاجتماعية على تنفيذ برامج تعديل السلوك [٤٢] .

● ـ يعتمد تعديل السلوك بدرجة كبيرة على أساليب ضبط الذات Self — Control التي تحقق تعليم الأشخاص كيفية القيام بتنفيذ برامج التغيير على أنفسهم ، مما يساعد على تحقيق فاعلية برامج تعديل السلوك ، وخاصة عندما يدرك الأشخاص أنهم هم المعنيون بتغيير السلوك ، وأنهم المستفيدون من هذا التغيير .

واكتساب أساليب ضبط الذات تتطلب تعليم الأفراد بعض القواعد العامة التي يمكن تطبيقها في عدة مواقف سلوكية من تحديد نوعية ومستوى المشكلات مبكرا ، الى انها تساعد الأفراد على تجنب الوقوع في هذه المشكلات . وبذلك يمكن تحقيق هدفين رئيسين بتنفيذ هذه البرامج الأول وقائي ، والثاني علاجي . كما يمكن تعليم الأفراد مهارات تطبيق هذه القواعد والأسس من خلال عدة وسائل يشرف عليها ممارس تعديل السلوك مثل البرامج الخاصة ، والكتيبات ، والبرامج التلفزيونية أو خلال عملية الارشاد النفسي [٤٣] .

وقد أمكن بالفعل بواسطة الباحثين في هذا المجال تنفيذ بعض برامج ضبط الذات في علاج بعض المشكلات ، مثل تحسين عادات الاستذكار والدراسة [٤٤] ، وانقاص الوزن ، وضبط عملية القلق

---

41 — O'Dell, S. (1974) "Training Parents in Behavior Modification: A Review" Psychological Bulletin, 81, 418 — 433.

42 — Loeber, R. & Weisman, R. G. (1975) "Contingencies of therapist and trainer performance : A review". Psychological Bulletin, 82, 660 — 688.

43 — Mikulas, W. L. (1976) " A televised self—control clinic " Behavior Therapy, 7, 564 — 566.

44 — Beneke, W. M. & Harris, M. B. (1972) " Teaching Self — control of Study behavior " Behaviour Research and Therapy, 10, 35 — 41.

لدى الذكور إتجاه ممارسة الجنس [٤٥] . وقد كشفت نتائج الدراسات التي تناولت تنفيذ هذه البرامج عن فاعليتها في علاج هذه المشكلات .

المبادىء والعمليات الأساسية التي يقوم عليها اسلوب تعديل السلوك :

يعتبر اسلوب تعديل السلوك في ضوء ما سبق من خصائص يتميز بها دون سابق الأساليب والاتجاهات الأخرى ، بمثابة اطار شبه متكامل ضمن ما توصل اليه علم النفس الحديث من طرق وأساليب يتناول بها تفسير وعلاج اضطرابات الشخصية والتي تظهر في كثير من أساليب السلوك .

وسنحاول في هذا الجزء عرض أهم المبادىء والعمليات النفسية التي يستند اليها هذا الاسلوب في تحديد اجراءاته ، حيث لا يتسع المجال لعرض كل جوانب هذا الاسلوب .

أولا : الاشتراط الاستجابي : Respodnent Conditioning

لقد رأينا فيما سبق من الحديث عن المحاولات الأولى لعلاج اضطرابات السلوك في اطار التعلم انه بظهور المدرسة السلوكية بدأ كثير من الباحثين من أنصار هذه المدرسة يوجهون اهتمامهم الى دراسة العلاقة بين عملية الاشتراط الاستجابي واكتساب وتعديل بعض أنماط اضطرابات السلوك . وكانت دراسات « واطسون وراينر » Watson & Rayner (١٩٢٠) ، وما بعدها من دراسات ، أهمها على وجه الخصوص دراسات « ماورر وماورر » Mowrer & Mowrer (١٩٣٨) ، ودراسات « دولارد وميللر » Dallard & Miller (١٩٥٠) بمثابة نقاط الارتكاز الأساسية التي أقيم عليها كثير من التجارب والدراسات التي استخدمت عملية الاشتراط في تفسير كثير من أساليب السلوك ، ولتعديل بعض الأساليب السلوكية الخاطئة التي أخذت شكل العادات السلوكية غير المرغوبة .

وقد أدت الدراسات والأبحاث التجريبية التي أجريت في مجال الاشتراط سواء على السلوك الحيواني ، أو على السلوك الانساني الى وجود ذخيرة كبيرة من المعلومات والمبادىء والقوانين التي دعمت نظرية التعلم الشرطي . ومن ذلك الطرق التي يتم بواسطتها تكوين الاستجابة الشرطية ، والتي تؤثر كل منها بدرجة معينة على نمط وقوة الاشتراط .

45 — Lowe, J. C. & Mikulas, W. L. (1975). " Use of Written material in learning self—Control of premature ejaculation. " Psychological Reports, 37, 295 — 298 .

وتعتبر العلاقة الزمنية بين تقديم أو ظهور المثير الشرطي (م ش) ، وتقديم أو ظهور المثير غير الشرطي (م ط) هي العامل الرئيسي المؤثر على قوة الاقتران ، تكوين الاستجابة الشرطية ، والعامل المشترك بين هذه الطرق جميعا .

وقد استفاد اسلوب تعديل السلوك من طرق تكوين الاستجابة الشرطية في تفسير كثير من مظاهر السلوك . وتشكل هذه الطرق أربعة نماذج رئيسية هي : -

١ - الاشتراط المتزامن : Simultaneous Conditioning

ويتم فيه تقديم أو ظهور المثير الشرطي (م ش) في نفس وقت تقديم أو ظهور المثير غير الشرطي (م ط) . وقد تبين من الدراسات التجريبية التي أجريت أن تأثير الاشتراط المتآني على التعلم يكون ضعيفا ، لأن الكائن الحي لاتتاح له الفرصة الكافية للتصرف في هذا النموذج على المثير الشرطي في وجود المثير غير الشرطي في زمن واحد في الموقف السلوكي .

٢ - الاشتراط المتقدم : Forward Conditioning أو ما يشار اليه أحيانا بالاشتراط المرجأ De-layed Conditioning والذي يقدم أو يظهر فيه المثير الشرطي (م ش) قبل تقديم غير الشرطي (م ط) بفترة قصيرة ، ويستمر وجوده حتى تقديم المثير غير الشرطي (م ط) . وقد يتم سحب المثير الشرطي من الموقف اما خلال وجود المثير غير الشرطي ، أو عقب ظهوره في الموقف ولايتأثر تكوين الاستجابة الشرطية بذلك .

٣ - اشتراط الأثر : Trace Conditioning

ويقدم فيه المثير الشرطي ، ويتم سحبه من الموقف قبل تقديم المثير غير الشرطي . وبالتالي توجد فترة زمنية بين تقديم المثيرين أطول ما يوجد في نموذج الاشتراط المتقدم .

٤ - الاشتراط المتأخر : Backward Conditioning أو ما يشار اليه أحيانا بالاشتراط العكسي ، حيث يقدم أو يظهر المثير الشرطي في هذا النموذج عقب تقديم أو ظهور المثير غير الشرطي . أي أن ظهور المثير غير الشرطي يتقدم على ظهور المثير الشرطي . ولذلك فان التعلم في هذا

النوع من الاشتراط يكون ضعيفا . وبالتالي فليس من المستبعد في هذا النموذج عدم ظهور الاستجابة وذلك لانعدام حالة التوقع التي تؤدي دورا هاما في تكوينها [٤٦]

وقد اعتمدت الطرق المبكرة في علاج ادمان المسكرات alcoholism على الاشتراط المتأخر ، وذلك بجعل المدمن في حالة اعياء (م ط) بوسيلة أو بأخرى ثم يقدم له بعد ذلك مشروب مسكر (م ش) . وقد وجد بالفعل أن هذا النموذج غير فعال بدرجة كافية في علاج هذه الظاهرة وبالتالي تم العدول عنه [٤٧] .

كما قد يحدث في بعض المواقف بالنسبة لبعض الأشخاص تكوين الاستجابة الشرطية في اطار نموذج الاشتراط المثالي ، وخاصة فيما يكون هناك صعوبة بالغة في فصل الشخص عن أحد الخصائص التي تميزه ، مما يجعل الموقف مهيئا لتكوين الاستجابة الشرطية .

وقد كشفت الدراسات التجريبية ومنها دراسة « روس روس » Ross & Ross (١٩٧١) التي اجريت على مجموعة من طلبة الجامعة لقياس اشتراط جفن العين وكذلك دراسة « ولسون » (١٩٦٩) التي أجراها على اشتراط معدل ضربات القلب ، أن الاشتراط يكون في أقوى نماذج الاشتراط المتقدم ، والاشتراط الأثر مما يكون في الاشتراط المتأخر [٤٨] .

ومما يجب أن يلاحظ بعناية ويؤخذ في الاعتبار في عملية الاشتراط ، أن فاعلية وقوة الاستجابة الشرطية يعتمد بدرجة أساسية على مستوى قوة المثيرين ، الشرطي (م ش) ، وغير الشرطي (م ط) قبل عملية الاقتران بينهما ، والتي تتأثر بقوة كل منهما ، وبدرجة تشابه الاستجابات التي يكونها ، وبعدد مرات الاقتران بين المثيرين في الموقف السلوكي .

وكما تتناول عملية الاشتراط تكوين بعض أساليب السلوك التي تأخذ شكل العادة السلوكية ، سواءا كانت مرغوبة أوغير مرغوبة ، فان اسلوب تعديل السلوك يعتمد بدرجة كبيرة على كيفية تكوين

---

(٤٦) مرجع سابق .

47 — Ibid.

48 — Ross, s. M. & Ross, L. E. (1971) " Comparison of Trace and Delay classical eyelid Conditioning as a function of Interstimulus interval " Journal of Experimental Psychology, 91, 165 — 167.

الاستجابة الشرطية في تغيير أو محو تعلم السلوك غير المرغوب وهو ما يعتبر أحد الاهداف الرئيسية التي يسعى اليها هذا الاسلوب في علاج الاضطرابات السلوكية . ويستند اسلوب تعديل السلوك في ذلك على عمليتين أساسيتين هما الانطفاء ، وتكوين الاستجابة الشرطية المضادة . ونعرض لها على النحو التالي : ـ

ثانيا : الانطفاء Extinction

عرضنا اثناء الحديث عن المحاولات الاولى لعلاج اضطرابات السلوك في اطار التعلم عن بعض المواقف التجريبية التى استفادت من خاصية عملية الانطفاء في محو تعلم اساليب السلوك غير المرغوب . والانطفاء كما ذكرنا ، يعنى نقص او اختزال في قوة الاستجابة الشرطية يحدث بمرور الوقت نتيجة عدم تعزيز هذه الاستجابة منذ آخر عملية اقتران بين المثير الشرطي (م ش) ، والمثير غير الشرطي (م ط) مما يؤدي في النهاية الى تلاشي او اختفاء الاستجابة الشرطية سواء كانت مرغوبة او غير مرغوبة .

وقد تعود الاستجابة الشرطية الى الموقف السلوكي الذي ظهرت فيه مرة اخرى بعد فترة . وتسمى هذه الحالة بظاهرة الاسترجاع التلقائي Spontaneaus Recovery الا ان الاستجابة الشرطية في هذا الموقف عادة ما تكون اضعف من الاستجابة التي سبقت عملية الانطفاء ، حيث تؤثر عملية الانطفاء على قوة الاستجابة حتى لو ظهرت بعد ذلك مرة اخرى .

وبالاضافة الى ما سبق ذكره عن عملية الانطفاء ، وبعض المحاولات التجريبية التي استخدمت هذه العملية في محو تعلم بعض اساليب السلوك غير المرغوب ، نعرض للطرق الرئيسية التي تشتمل عليها هذه العملية ، والتي استفاد منها اسلوب تعديل السلوك ، وهي :

١ ـ الانطفاء التدريجي : Qradual Extinction

ويعنى العمل على خفض فاعلية الاستجابة الشرطية حتى تختفي تدريجيا من الموقف السلوكى وذلك بالتحرك في خطوات متتابعة تدريجيا نحو الموضوع او المثير او الموقف الذي ينشىء الاستجابة الشرطية . والمثال التالي يوضح ذلك : اذا كان احد الأطفال يشعر بالخوف من الاقتراب من شاطىء البحر .

فلازالة هذا الخوف باستخدام طريقة الانطباق التدريجي ، يتطلب الامر اقتراب الطفل نحو البحر تدريجيا . ولتكن اولى الخطوات لحل هذه المشكلة ، ان يلعب الطفل على شاطىء البحر على مسافة ٢٠ قدما من الماء لفترة زمنية معينة يعقب ذلك ان يلعب على مسافة ١٠ اقدام من الماء ، ثم يلي ذلك الاقتراب اكثر وليكون بالقرب من حافة الماء وهكذا حتى تصل اقدام الطفل الى الماء ، وهكذا الى ان يمكث الطفل في الماء فترة من الوقت .

وعلى الرغم من انه يمكن استخدام عملية الانطفاء مع اى نمط من انماط السلوك الشرطى الاستجابي ، الا انه غالبا ما تستخدم هذه العملية في حالات الخوف والقلق . فكثيرا ما يتعرض الاطفال والاشخاص الكبار في حياتهم اليومية الى مواقف تدعو الى الخوف او تستثير القلق . ويعتمد الانطباق التدريجي للقلق او للخوف على عدة خطوات رئيسية هي :

أ ـ من الضرورى في بداية تنفيذ هذه الطريقة تكوين نظام متدرج ومتتابع الخطوات نحو موضوع الخوف اومثير القلق . ومن الأفضل ان تكون مراحل او مراتب هذا النظام متعددة الخطوات ، لا ان يكون في خطوات قليلة .

ب ـ من المفضل ان يشجع الشخص ، وان تستثار دوافعه او ان يكافأ سلوك الاقدام نحو هذا التتابع ، كما يعزز الاداء بعد كل مرحلة من مراحله ، مما يساعد على خفض درجة الخوف او القلق لدى الشخص .

جـ ـ من المفيد معاونة الشخص على خفض درجة التوتر او الخوف لديه اثناء ممارسة الخطوات السابقة ، وذلك بتدريبه على كيفية ممارسة سلوك الاسترخاء ، او تخيل بعض المواقف او المناظر التي تدعو الى السرور والابتهاج . او ان يتظاهر بأنه لا يخاف او يقلق من المواقف المشابهة للموقف الذي يسبب له الخوف او القلق . كل ذلك وغيره من اساليب التشجيع والتعزيز وتنشيط الدافعية الاخرى يساعد على خفض التوتر او الخوف حتى تتلاشى تدريجيا الاستجابة الشرطية بفعل عملية الانطفاء .

٢ ـ الانطفاء غير التدريجي : Non — gradual Extinction

ويطلق عليه احيانا الانطفاء الفوري ، وهو البديل للانطفاء التدريجي ، حيث لا تمر عملية الانطفاء باغلب الخطوات الوسيطة لحل المشكلة . وبالتالى تتم مواجهة النهائى او الموضوع المثير مرة واحدة دون

تدرج او تتابع . واذا اخذنا المثال السابق الذي اشرنا اليه في الانطفاء التدريجي . فانه طبقا لخواص الانطفاء غير التدريجي ، يجب وضع الطفل مباشرة في الماء دون المرور بالخطوات التي تتطلبها عملية الانطفاء التدريجي . اى ان حل المشكلة يتطلب مواجهة مباشرة ، للموقف المخيف او المثير الذي يستدعي استجابة الخوف او القلق فاذا سقط طفل اثناء تعلمه ركوب الدراجة ، ونتج عن ذلك بعض الجروح البسيطة فيجب ان نجعل الطفل يعاود الركوب مرة اخرى عقب الوقوع مباشرة ، وهكذا حتى مع الكبار .

ولكن ما يجب ان يلاحظ بعناية ان هذه الطريقة قد يكون لها مضارها بل والأكثر من ذلك ، قد تكون نتائج هذه الطريقة اشد ضررا من النتائج التي تترتب على وجود مثير الخوف او القلق في الموقف السلوكي ، مما قد يترتب عليه ان تصبح استجابة الخوف او القلق اقوى مما كانت عليه . لذلك فانه من المفضل اتباع طريقة الانطفاء التدريجي فهي اكثر أمنا ، ولو انها تحتاج الى بعض الوقت .

وهكذا تتلخص طريقة الانطفاء غير التدريجي في وضع الشخص في موقف المواجهة مع المثيرات المنشئة للخوف او للقلق ، والعمل على ابقائه في موقف الخوف أو القلق دون هروب اذا كانت حالة الشخص تسمح بذلك . وهذه الطريقة هي مما يطلق عليها طريقة « الغمر » Floodinq والتي سنعرض لها بعد ذلك

وبذلك يؤدي الانطفاء الاستجابي Respondence Extinction كما يطلق على الاجراءات السابقة ـ دورا هاما في محو تعلم كثير من انماط السلوك غير المرغوب ، وذلك بتقديم او ظهور المثير الشرطى (م ش) في الموقف بدون حالة اقتران مع المثير غير الشرطي (م ط) عدة مرات حتى تتلاشي او تختفي تدريجيا الاستجابة الشرطية (س ش) [٤٩] ، [٥٠] .

ثالثا : الاشتراط المضاد : Counterconditioninq

ويعني العمل على تكوين استجابة شرطية جديدة مرغوب فيها تكون غير متسقة ، او غير منسجمة مع الاستجابة التى نشأت اصلا بواسطة المثير الشرطىّ (م ش) ويتم تكوين الاستجابة الشرطية المضادة بعدة خطوات اساسية هى :

49 — Gotestam, K. C. & Mello, L. (1974) "Covert extinction of amphetamine addiction". Behavior therapy, 5 90-92.

50 — Cautela, J. R. (1971) "covert extinction" Behavior therapy, 2, 192-200 .

١ ـ تحديد الموقف السلوكي الذي ينشىء الاستجابات غير المرغوبة كرؤية العنكبوت مثلا التي تسبب قلقا زائدا عند بعض الاشخاص .

٢ ـ تحديد الأسلوب او الطريقة التي تتكون بها الاستجابة غير المتسقة مع الاستجابة الشرطية غير المرغوبة ، بحيث تصبح هذه الاستجابة بعد ذلك لها صفة السيادة على الموقف السلوكي . ولتكن الاستجابة غير المتسقة في هذا الموقف احد اشكال الاسترخاء والهدوء من قلق رؤية العنكبوت .

٣ ـ واخيرا العمل على تكوين العلاقة الاشتراطية بين الاستجابة غير المتسقة وهي الاسترخاء والمثيرات التي تنشىء الاستجابة غير المرغوبة وهي رؤية العنكبوت . كما يحدث بين المثيرات المكونة للاسترخاء التي تقترن بمثيرات العنكبوت .

ويستمر ظهور الاستجابة الشرطية المضادة حتى تبدأ الاستجابة الشرطية الأصلية وهي الاستجابة غير المرغوبة في التناقص والتضاؤل حتى تتلاشى نهائيا من الموقف السلوكي للشخص (٥١) .

وغالبا ما يستخدم الاشتراط المضاد في خفض او اختزال الاستجابات الانفعالية غير المرغوبة مثل القلق ، والغضب ، والغيرة ، والخوف . والمثال التفصيلي التالي يوضح استخدام عملية الاشتراط المضاد في خفض استجابات الخوف . وكما رأينا في المثال السابق ، يتطلب الأمر تكوين استجابة شرطية جديدة مرغوب فيها تكون غير متسقة او غير منسجمة مع الاستجابة الشرطية الأصلية التي نشأت اصلا بواسطة المثير الشرطي . وهذه الاستجابة الشرطية الجديدة تكون بمثابة اتجاه مضاد بالنسبة لمثير الخوف ، بحيث يمكن ان يصاحب هذا الاتجاه بتقديم مثير غير شرطي (م ط) سار وليكن هدية مثلا مع ظهور المثير الشرطي ، وهو مثير الخوف . وبالتالي تنشأ استجابة شرطية جديدة يكون لها صفة السيادة على الاستجابة الشرطية الأصلية . وحتى يقترب الطفل من الحصول على هذه الهدية لا بد له من ان يقترب من مثير الخوف . فاذا كان المثير غير الشرطي الجديد مرغوب فيه بدرجة كافية ، فان الطفل سيقترب منه ، ويكتشف ان المثير الشرطي وهو مثير الخوف ليس ضارا على الاطلاق . وبعد عدة مرات من الاقتران ينعدم تأثير المثير الشرطي ، وبالتالي تضعف استجابة الخوف حتى تختفي من سلوك الفرد (٥٢) .

---

51 — Ibid

52 — Ibid

ومن العوامل الهامة في تكوين الاشتراط المضاد ان تكون الاستجابة الشرطية المضادة او ما تسمى بالاستجابة غير المتسقة Incompatible Response في حالة قوية بحيث يتضمن يصبح لها صفة السيادة على الاستجابة الشرطية الأصلية في الموقف السلوكى . ولكى يتم ذلك يجب ان يعد الموقف السلوكى بحيث يتضمن ما يشبه التنظيم الهرمى او التدرج الهرمي Hierarchy لمكونات الموقف من حيث مستوى درجة استثماراتها للشخص . وهذا التنظيم او التدرج يشبه التدرج الذي سبق ان اشرنا اليه عند الحديث عن الانطفاء الاستجابى التدريجي .

وهكذا يحدث تكوين الاشتراط المضاد في شكل تتابع غير سريع لعناصر ومكونات هذا الموقف حتى يتم الاقتراب من الموضوع ، او من المثير الذي ينشىء الاستجابة غير المرغوبة . ففي حالة الشخص الذي يخاف من رؤية العنكبوت مثلا نبدأ باولى مراحل هذا التدرج الهرمي ، ولكن ان يسمع الشخص كلمة « عنكبوت » بل ذلك ان تعرض عليه صورة العنكبوت ، وبعد ذلك تتاح له فرصة رؤية العنكبوت مجسما ، ثم في النهاية يعرض عليه العنكبوت حيا مع الاقتراب منه .

ويقوم هذا التتابع على افتراض ان تأثير الاشتراط المضاد يحدث له تعميم الى المثيرات المشابهة في التنظيم الهرمي ، وهي تلك الخطوات السابقة ، واولها سماع كلمة عنكبوت حتى رؤية العنكبوت والاقتراب منه . وبالتالي تنخفض قوة الاستجابة غير المرغوبة تدريجيا . وهى القلق من رؤية العنكبوت ، وذلك بفعل سيادة او تفوق الاستجابة الشرطية الجديدة ، وهي استجابة الاسترخاء ، وما يطلق عليها في الاشتراط المضاد بالاستجابة غير المتسقة . ولو لم تكون استجابة الاسترخاء في اول التتابع عقب سماع كلمة عنكبوت لما اصبح لهذه الاستجابة السيادة على الاستجابة الأصلية . كما ان دقة التتابع في التنظيم الهرمي ، ودرجة التشابه بين المثيرات في مراحل هذا التتابع لها اثر كبير في تسهيل عملية التعميم بين هذه المثيرات ، مما يؤدي في النهاية الى سرعة تكوين الاستجابة الشرطية وسيادتها .

وقد كشفت نتائج الدراسات التي قامت بتطبيق اسس الاشتراط المضاد عن فاعلية هذه العملية في علاج كثير من الاستجابات الانفعالية غير المرغوبة ومنها ما يسمى بمخاوف الفصل الدراسي -Clas sroom Phobia التي تنشأ من مقاومة التلاميذ للعودة الى المدرسة بعد فترة انقطاع معينة . وخاصة بعد انتهاء الاجازة الاسبوعية . وتحدث مخاوف المدرسة كنتيجة لقلق الانقطاع . فمع الانقطاع كمثير غير شرطي (م ط) ينشأ القلق لاستجابة غير شرطية (س ط) مصاحبا للمدرسة كمثير شرطي (م ش) والذي يعمل على ظهور الخوف . وعلاج هذه الظاهرة يتضمن العمل على تشجيع حضور

التلميذ ، وذلك بمكافأته بعد حضوره اليوم الدراسي كاملا . وطالما يتم تعزيز الحضور ، فان الاستجابة الشرطية المضادة وهي الاستجابة غير المتسقة مع الاستجابة الشرطية الاصلية ، تأخذ في التكوين . لان المثير الأصلي (م ش) وهو المدرسة يصبح مقترنا بالحضور الذي يؤدى الى المكافأة بدلا من الخوف .

وهكذا يمكن علاج الاستجابات الانفعالية الأخرى نحو المدرسة ، والتى قد ترتبط بالمدرسة ، او زملاء المدرسة ، اوبعملية التعلم ذاتها ، وذلك عن طريق الاقتران بالمثيرات المرغوبة ، او على الاقل تجنب ارتباطها بالمثيرات غير المرغوبة [٥٣] .

رابعا : الاسترخاء Relaxation

وهو من العمليات الهامة التي يعتمد عليها اسلوب تعديل السلوك ، وخاصة في علاج كثير من الاستجابات الانفعالية غير المرغوبة ، كالقلق ، والخوف . وقد رأينا عند الحديث عن الاشتراط المضاد كيفية خفض القلق الناشيء عن بعض المثيرات المنفرة بواسطة تكوين استجابة جديدة غير متسقة مع استجابة القلق وهي استجابة الاسترخاء عند رؤية هذه المثيرات المنفرة . لذلك كثيرا ما يستخدم الاسترخاء في كثير من مواقف القلق او الخوف في عملية الاشتراط المضاد .

ويعتبر تعليم الاشخاص الذين يعانون من بعض الاضطرابات السلوكية كيفية ممارسة عملية الاسترخاء من الأمور الهامة في اسلوب تعديل السلوك بصفة خاصة ، كما ان تعلم الاسترخاء في ذاته يعتبر الآن من متطلبات العصر ، وما يتسم به من استمرار ظهور عوامل الاستثارة العصبية والنفسية التى تؤدى في النهاية الى اكتساب كثير من انماط السلوك غير المرغوب الذي يلازم الافراد فترات طويلة . وشكوى الأفراد من القلق والاضطراب النفسي ، والخوف ، وغيره من اشكال السلوك غير المرغوب مستمرة ومتزايدة . وقد يكون بعض هذه الاشكال مرتبطا بمثيرات معينة او مواقف محددة في حياة الشخص . كما قد يكون منها ماله علاقة وثيقة ببعض المشكلات الفسيولوجية ، مثل بعض امراض البرد ، والقرحة والسرطان [٥٤] ، [٥٥] .

---

53 — Ibid

54 — Seliqman, W.E.P., (1975) "Helplessness : on depression, development, and death" San francisco : W.H. Freeman. inn Mikulas W.L. (1978) Behavior Modificaion, harper and and row, publishers.

55 — Holmes, T.H. & Masuda, M., (1972) "Psychosomatic syn drome" Psychology Today, April, In Mikulas, W.L. (1978) Behavior Modificaion .

وهكذا قد تتعدد العوامل المسببة لهذه الاضطرابات السلوكية ، ولكن في جميع هذه الاحوال يصبح التدريب على الاسترخاء عاملا مشتركا في كثير من برامج العلاج والرعاية النفسية .

وتركز برامج التدريب على الاسترخاء التي يتناولها اسلوب تعديل السلوك بدرجة كبيرة على كيفية تعليم الاشخاص وممارسة الاسترخاء واستخدامه كأحد مهارات ضبط الذات . ويتضمن ذلك كيفية التصرف عند بداية الاحساس بالقلق وبالتالي كيف يمارس الشخص الاسترخاء في هذا الموقف وغيره من المواقف المشابهة . كما تشتمل هذه البرامج على تعليم الاشخاص كيفية مواجهة مواقف الاستثارة النفسية والعصبية التي تسبب التوتر والاجهاد النفسي . كما انها تتضمن كيفية اختزال أو العمل على خفض المظاهر النفسية والعصبية لبعض المشكلات الخاصة مثل التوتر الناشىء عن الصداع ، والحركات أو الانماشات الناشئة عن اضطراب الجهاز العصبي والقلق الناشىء عن اخطاء وتحريف التعلم والادراك في بعض المواقف الخاصة (٥٦) ، (٥٧) .

وقد كشفت الدراسات التجريبية التي اجريت عن فاعلية تعلم الاسترخاء كأحد المكونات في برنامج لعلاج بعض مظاهر الارق . وتوصلت هذه الدراسات الى نتيجة هامة ، وهي أن أفضل إجراء لتحقيق الاسترخاء في كثير من مواقف الاضطراب النفسي ، هو اكتساب وتعلم الشخص مهارة ممارسة عملية الاسترخاء بنفسه ، مما لو حصل الشخص على بعض الخدمات او المساعدات التي تحقق له الاسترخاء (٥٨) .

ومن اكثر برامج التدريب على الإسترخاء المستخدمة في اسلوب تعديل السلوك ، البرنامج الذي اقترحه اصلا « جاكوبسون » Jacobson (١٩٣٨) . ويقوم هذا البرنامج على عدد من الخطوات ، حيث يتضمن العميل بممارسة شد ارخاء العضلات بالتناوب ، بينما يركز انتباهه على ..

56 — Goldfried, M.R. & Trier, C.S. (1974) "Effectiveness of relaxation as active coping sill". Journal of abnormal psychology, 83, 348 - 355 .

57 — Hutchinqs, D.F., et al. (1980) "Anxiety manaqement and applied relaxation in reducinq qeneral anxiety" Behaviour Research And Therapy. Vol. 181-190 .

58 — Borkovec T.D., Kaloupek, D.G., & Slama, K.M., (1975) The facilitative effect of muscle tension-release in the relaxation treatment of sleep disturbance
Behavior therapy, 6.

مشاعره المختلفة وبعد فترة معينة من التدريب وممارسة هذه الاجراءات ، يتعلم العميل كيفية ممارسة الاسترخاء بنفسه دون مساعدة ، مدركا بداية الشعور بالقلق او التوتر العصبي ، مما يساعده على تحقيق ضبط الذات الذي يؤدي دورا هاما في عملية الاسترخاء وبذلك يصبح العميل اكثر وعيا واحساسا بحركة العضلات ، مما يؤدي الى خفض مستوى كثير من المشكلات التي يعاني منها ، مثل الصداع الناشيء عن توتر عضلات الرقبة ، او بعض الارتعاشات اللا ارادية في اللسان ، او بعض حركات الوجه الزائدة(٥٩)

خامسا : الاشتراط المضاد المنفر : Aversive Counterconditioninq

رأينا فيما سبق ان الاشتراط المضاد يعني تكوين استجابة غير متسقة مع الاستجابة الشرطية الأصلية المطلوب انطفائها وشرط تحقيق عملية الاشتراط المضاد أن تصبح هذه الاستجابة الجديدة اقوى من الاستجابة الشرطية ، بحيث يصبح لها صفة السيادة على الموقف السلوكى حتى يتحقق انطفاء الاستجابة غير المرغوبة .

وذكرنا ان اغلب المواقف التي يحدث فيها الاشتراط المضاد هي مواقف القلق والخوف ، والغيرة وما الى ذلك اي ان الاستجابة غير المتسقة تسعى لخفض او اختزال استجابة غير مرغوبة ذات طبيعة سالبة مثل استجابات الخوف او القلق .

في حين تهدف عملية الاشتراط المضاد المنفر الى خفض او اختزال الاستجابات غير المرغوبة ذات الطبيعة الموجهة بالنسبة للفرد . اي ان عملية الاشتراط المضاد المنفر تسعى الى تكوين استجابة منفردة مضادة للاستجابة الشرطية الأصلية المرغوبة من الشخص ، والتي عادة تكون غير مرغوبة في نظر الاشخاص الآخرين . وبمعنى آخر يعتمد الاشتراط المضاد المنفر في اجراءاته على تكوين استجابة شرطية جديدة غير سارة تكون هي الاستجابة غير المتسقة ، والتي يصبح لها صفة السيادة على سلوك الفرد بعد ذلك (٦٠) .

59 — Bernstein, D.A. & Borkovec, T.D., (1973) "progressive relaxation training : A manual for the helping professions" champaign, Ill. : Research press. In Mikulas, W.L. (1978) Behavior Modification.

60 — Hallam. R.S. & rachman, S. (1976) "Current status of aversion therapy in Hersen, M., eisler, R.M. & Mer, P.M. (eds.) progress in behavior modification . vol 2. New York. Academic press.

والمثال التالي يوضح تكوين الاستجابة الشرطية المضادة المنفرة . بالنسبة لمدمن المخدرات او المسكرات ، او التدخين يكون لديه بعض الارتباطات الموجبة لكثير من مظاهر ما يدمن عليه ، مثل الارتباطات السارة التي تكونت لديه من تعاطي هذه المخدرات في ظروف معينة ، مثل التعاطي في مكان معين ، او مع بعض الأصدقاء المعنين ، او حالة الانسحاب من الواقع وما يتضمنها من شعور بالهدوء والراحة بعيدا عن مواجهة المشكلات . هذه النماذج من الارتباطات الايجابية يزيد تعزيزها كلما اقبل الشخص على التعاطي في المرات التالية ، وبالتالي تقوى ممارسة التعاطي . وجوهر عملية الاشتراط المضاد المنفر تكمن في احداث عملية الاقتران بين المواقف التي تنشىء الاستجابة الايجابية غير المرغوبة من الآخرين (الارتباطات السارة للشخص المدمن) والمثيرات التي تعمل على انشاء الاستجابة السائدة غير المتسقة ، وهى الاستجابة المنفرة ، مثل الاستجابة الناشئة عن صدمة كهربائية خفيفة .

وتسير الخطوات في الاشتراط المضاد المنفر على النحو التالي :

١ ـ ان نحدد المثيرات ، او المواقف ، او الموضوعات التي تنشىء الاستجابة غير المرغوبة ، وهى كما في المثال السابق الاستجابة السارة للفرد المدمن مثلا والناشئة عن تعاطي المخدر .

٢ ـ ان نعمل على انشاء الاستجابة غير المتسقة ، وهي الاستجابة المنفرة التي يكون لها صفة السيادة على الموقف السلوكي بعد ذلك .

٣ ـ ان نعمل تدريجيا على تكوين الاشتراط المضاد ، ويفضل ان يكون ذلك في تتابع متدرج لكى نضمن سيادة الاستجابة غير المتسقة ، وهى الاستجابة المنفرة .

وقد لا يكون هذا التدرج في تكوين الاشتراط المضاد ضروريا اذا رأينا ان الاستجابة المنفرة ستكون اقوى من الاستجابة الشرطية الاصلية ، وهى الاستجابة غير المرغوبة . ثم تستمر عملية الاقتران حتى يشعر العميل بالحياد نحو المثيرات ، اي تصبح المثيرات في حالة متوازنة ، وبالتالي لا يكون لأى منها خاصية انشاء الاستجابة بمفرده أو ان يشعر العميل بالكراهية والنفور من المثيرات مما يؤدى في النهاية الى انخفاض فاعلية الاستجابة غير المرغوبة بفعل الاستجابة الجديدة التي تكونت ، وهى الاستجابة المنفرة غير المتسقة مع الاستجابة غير المرغوبة .

واغلب المواقف السلوكية التي يستخدم فيها الاشتراط المضاد المنفر ، هي مواقف سلوك مكافأة الذات Self — Rewardinq Behavior حيث يكافىء مدمن المخدرات ذاته ، اي يعزز ذاته بواسطة النتائج التي يحصل عليها من تعاطي المخدر ، وهي حالة السرور والنشوة والغيبوبة . كما ان الشخص الذي يستثار جنسيا بواسطة مثيرات معينة مثل ممارسة الجنس مع افراد من نفس النوع Homosexual او مع الأطفال الصغار ، او رؤية الملابس الداخلية مثلا ، انما يعزز ذاته بالاستثارة الجنسية وما يتبعها من بعض التخيلات او التصرفات الجنسية ولذلك غالبا ، لا يصلح في مثل هذه المواقف من سلوك مكافأة الذات طرق العلاج القائمة على الارشاد النفسي . حيث تحتاج هذه الحالات الى العلاج السلوكي الذي يتضمن تكوين عملية اشتراط مضاد منفر لكي تخفض من اثر الارتباطات الموجبة الناتجة عن المصدر الطبيعي للتعزيز . كما يمكن مساعدة العميل على تنمية وتكوين نماذج سلوكية معززة بديلة ، مثل العمل على تكوين استجابة شرطية مضادة منفرة بواسطة صدمة كهربائية خفيفة تقترن برؤية صور بعض الأطفال مثلا وبذلك يعمل الاشتراط المضاد المنفر على تكوين ارتباطات جديدة منفرة بالنسبة للمثيرات التي سبق وارتبطت مع الاستجابات غير المرغوبة .

وغالبا ما يستخدم في اسلوب تعديل السلوك اكثر لزيادة فاعلية العلاج في كثير من المواقف السلوكية التي يستخدم فيها الاشتراط المضاد المنفر . فقد تتضمن اجراءات العلاج طريقة « سلب الاحساس » (٦١) Desensitization مثلا ، او التدريب على ممارسة بعض المهارات الاجتماعية ، او التدريب المهني او تدريب الأشخاص الذين يعانون من ممارسة سلوك الجنسية المثلية ليس فقط على خفض درجا الاستثارة الجنسية للأشخاص الآخرين من نفس النوع ، بل مساعدتهم كذلك على تنمية استثمار سلوك الجنسية الغيرية Heterosexuality والمهارات الاجتماعية اللازمة لذلك .

وتستخدم الصدمات الكهربائية الخفيفة والعقاقير في اغلب مواقف وحالات الاشتراط المضاد المنفر لتكوين الاستجابة الشرطية المنفرة . ولكن تستخدم الصدمات الكهربائية بشكل اكثر من العقاقير . حيث يمكن ضبط المتغيرات الكثيرة التي قد تؤثر على عملية الاشتراط مثل بداية تأثير الصدمة ، ونهايتها ، ومدتها ، وشدتها . عكس العقاقير فمنها ما يؤدي الى القيء الذي غالبا ما يسبب عدم

---

(٦١) احدى الطرق التي تستخدم في اسلوب تعديل السلوك ، وتتضمن عملية الاشتراط المضاد مع استخدام الاسترخاء في سلب احساس الشخص لمثيرات الخوف او مثيرات القلق التي تسبب حالة الاضطراب السلوكي .

الارتياح للعميل والمعالج . هذا بالاضافة الى ان العقاقير قد يكون لها بعض الآثار الجانبية على الجهاز العصبي المركزى ، وبالتالي يؤثر ذلك على تعلم الاستجابة مما يقلل من فاعلية اسلوب العلاج[٦٢] .

وقد كشفت نتائج الدراسات التجريبية التي استخدمت طريقة الاشتراط المضاد المنفر عن فاعلية وسائل اخرى غير الصدمات الكهربائية والعقاقير كمثيرات منفرة فقد استخدم دخان دافىء له رائحة دخان السجاير لخفض ممارسة التدخين بواسطة نفث الدخان بشدة في وجه العميل اثناء التدخين[٦٣] . كما استخدم التدخين ذاته كمثير منفر بالنسبة لغير المدخنين الذين يكرهون رائحة التدخين وذلك لخفض ظاهرة تناول الطعام بكميات كبيرة ، وبين الوجبات الرئيسية . وقد كشفت نتائج العلاج بواسطة المعالج ، والعلاج الذاتي بالمنزل عن فاعلية هذا الاجراء في انقاص الوزن بشكل ملحوظ[٦٤] . كما استخدمت بعض الروائح الكريهة كمثير منفر علاج الجنسية المثلية لدى بعض الأشخاص حيث تضمنت اجراءات العلاج استرخاء وتخيل العميل للخبرة الجنسية غير المرغوبة واقترانها بالمثير المنفر . وبعد فترة معينة من العلاج تكونت الاستجابة المضادة المنفرة وتضاءلت الاستجابة الشرطية الأصلية غير المرغوبة حتى تم انطفاؤها[٦٥] .

الخلاصة :

هذه بعض المبادىء والعمليات الأساسية التى يعتمد عليها أسلوب تعديل السلوك في تناول الاضطرابات السلوكية . ولم يتسع المجال لعرض كل ابعاد هذا الأسلوب الذي يعتبر من اكثر الأساليب والاتجاهات تكاملا في علاج المشكلات السلوكية ، ضمن الأساليب الأخرى الحديثة التى يستخدمها علماء النفس الآن في العلاج النفسى ، منها الاتجاه المعرفي ، والاتجاه التكاملي الذي يعتمد على اكثر من اسلوب من اساليب العلاج .

62 — Lubetkin, B.S. & Fishman, S.T. (1974) "Electrical aversion therapy with a chronic heroin user". Journal of Behavior therapy and Experimental psychiatry. 5, 193-195

63 — Lichten, E. et. al. (1973) "comparison of rapid smokinq, warm smoky air, and attention placepo in the modification of smokinq behavior." Journal of consultinq and clinical psychology, 40, 42-98.

64 — Morganstern, K.P. (1974) "Ciqarette smoke as a noxious stimulus in self- Manaqed aversion therapy for compulsive eatinq" Behavior therapy, 5, 255-260

65 — Colson, C.E. (1972) "Olfactory aversion therapy for homosexual behavior". Journal of Behavior therapy and experimental psychiatry, 3, 185-188.

ومن خلال هذا العرض للمحاولات المختلفة في تفسير الاضطرابات السلوكية في اطار عملية التعلم ، وما تقوم عليه من اسس وقوانين والتي بدأت مبكرا قبل ظهور المدرسة السلوكية . وما اعقبها من محاولات شبه متكاملة ظهرت في ابحاث واجراءات دولارد وميللر ، وموررو وموررير ، وغيرهم من الباحثين الذين اهتموا بتطبيق نتائج ابحاث ودراسات وتجارب التعلم في مجال علاج اضطرابات الشخصية . والتي ادت جميعها وساهمت في ظهور اسلوب تعديل السلوك . تبين من كل هذه المحاولات ، والاتجاهات او الاساليب التي اشتملت عليها مدى اهمية عملية التعلم بما تتضمن من مبادىء وقوانين ، وما تعتمد عليه من اجراءات ، ليس فقط في تكوين اساليب السلوك الصحيح او الخاطىء ، ولكن كذلك في تفسير كثير من الاضطرابات السلوكية التي اخذت شكل العادات السلوكية شبه الدائمة في حياة الافراد . هذه العادات التي تعتبر بمثابة تنظيمات او وحدات أساسية في الشخصية وهكذا يعتبر التعلم المدخل الرئيسي لفهم كثير من جوانب الشخصية . كما انه يعتبر في نفس الوقت اساسا لتعديل بعض هذه الجوانب .

ومع هذا فهناك بعض نواحي النقد التي توجه الى هذا الاسلوب . ومن اهم اوجه النقد الموجهة الى اجراءات اسلوب تعديل السلوك ، انه يتعامل مع الاعراض السلوكية فقط ، وليس مع الاسباب او الدوافع والعوامل المؤدية الى هذه الاعراض او الاستجابات السلبية التي تأخذ بعض اشكال السلوك المرضي او غير المرغوب من الآخرين .

***

المراجع

أولا : المراجع العربية :

١ - احمد زكي صالح ، علم النفس التربوي ،
الطبعة العاشرة - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة

٢ - انور محمد الشرقاوي (١٩٧٧) ، انحراف الأحداث ،
دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة .

٣ - انور محمد الشرقاوي (١٩٨٢) ، التعلم وتطبيقاته ،
الطبعة الثالثة (تحت الطبع) - دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة .

٤ - سيد محمد غنيم (١٩٧٨) ، سيكولوجية الشخصية : محدداتها ، قياسها ، نظرياتها .
الطبعة الثانية - دار النهضة العربية - القاهرة

٥ - محمد عماد الدين اسماعيل (١٩٥٩) ، الشخصية والعلاج النفسي ،
مكتبة النهضة المصرية - القاهرة

ثانيا : المراجع الاجنبية :

(6) Allport, G.W., (1961) **"Pattern and grouth in personality,,** New York, Holt, Rinehart and winston.

(7) Azrin, N.H., sneed, T.J., & Foxx, R.M, (1974) **"Dry-bed training Rapaid elimination of childhood enuresis,,** Behaviour Research and Therapy, 12, 147-156.

(8) Beneks, W.M. & Harris, M.B., (1972) **"Teaching self-control of study behaviour,,.** Behaviour Research and Therapy, 10, 435-41.

(9) Berkowitz, B.D. & Graziano, A.M. (1972) **"Training parents as behaviour therapists :** A review, Behaviour Research and Therapy, 10, 297-317.

(10) Bernstein, D.A. & Borkovec, T.D., (1973) "**Progressive relaxation training Amanual for the helping professions,,** Champaign, III. : Research Press. In KMikulas, W.L.(1978). Behaviour Modification Harper and Row, publishers.

(11) Borkovec, T.D., Kaloupek, D.G., & Slama, K.M., (1975). "**The facilitative effect of muscle tension-releas in the relaxation treatment of sleep disturbance,,** Behaviour therapy, 6, 301-309.

(12) Cautela, J.R., (1971 "**Covert Extinction,,** Behavior Therapy, 2, 192-200

(13) Colson, C.E. (1972) "**Olfactory aversion therapy for homosexual behavior,,** Journal of Behavior Therapy and Experimental psychiatry, 3, 185-187.

(14) Dollard, J., & Miller, N.E., (1950) "**Personality and psychotherapy,,** McGraw Hill, New York.

(15) Dunlap. K., (1932) "**Habits their making and unmaking,,** New York : Liveright, in Mclaughlin, B., : Learing and social Behavior, 1978, The Free Press N.Y.

(16) Fishman, H.C., (1937) "**A study of the efficiency of negative practice as a corrective for stammering,,** Journal of speech Disorders, 2, in McLaughlin, B., : Learnign and social . Behavior, 1978, The Free Press, N.Y.

(17) Flynn, John and Herbert Garber (1967) "**Assessing** Behavior : **Reading in Educational and Psychological** Measurement,, Addison - Wesly Publishing company.

(18) Gold fried, M.R. & Trier, C.S., (1974) "**Effectiveness of relaxation as active coping skill.,** Journal of Abnormal Psychology, 83,348-355.

(19) Gotestam, K.G. & Melin, L. (1974) "Covert extinction of amphetamine **addiction,,** Behavior Therapy, 5, 90-92.

(20) Guilford, J.P., (1950) "**Personality,,** New York : McGraw - Hill. In Leon H. Levy (1976) Conceptions of Personality, Theories and Research, New York : Random House, Academic Press.

(22) Holmes, T.H. & Masuda, M ., (1972) "**Psychosomatic syndrome,,** Psychology Toda April. In Mikulas, W.L (1978) Behavior Modification, Harper and Row, Publishers.

(23) Hutchings, D.F., Denney, D.R. & Basgall, J. (1980) "**Anxiety management and applied relaxation in reducing general anxiety,,** Behavior Research And Therapy, vol. 18, 181-190.

(24) Jones, M.C. (1924) "**The elimination of children,s f ars,,** Journal of Experimental Psychology, 7, 382-390.

(25) Kalish, H.L (1965) "**Behavior therapy,,** Handbook of clinical psychology, McGraw-Hill,N.Y.

(26) Knapp. T.J. and paterson, L.W. (1976 "**Behavior management in medical and nursing practice,,** in W.E. craighead, A.E. Kazdin, and M.J. Mahoney (eds.) **Behavior modification : Principles'** issues, and applications - Houghton Wifflin

(27) Lichtenstein, E. Harris, D.E., Birchler, G.R., Wahl, J.M., (1973),,"Comparison of rapid smoking' warm smoky air, and attention placebo in the midification of smoking behavior,, Journal of consulting and Clinical Psychology, 40, 92-98.

(28) Loeber, R. & Weisman, R.G., (1975) "Contingencies of therapist and trainer performance: Areview,,. Psychological Bulletin, 82, 660-688.

(29) Lowe, J.C. & Mikulas, W.L. (1975) "use of written material in learning Self-Control of premature ejaculation,, Psychological Reports, 37, 295-298.

(30) Lubetkin, B.S. & Fishman, S.T. (1974) "Electrical aversion therapy with a chronic heroin user,, Journal of Behavior Therapy and Experimental Psychiatry, 5,.193-195.

(31) Lundin, R.W., (1961) "Personality : an experimental approach,, New York : Macmillan.

(32) Max, L.W. (1935) "Breaking up a homosexual fixation by the conditioned reaction technique: A case study,, Psychological Bulletin, 32.

(33) MCLaughlin, B. (1978) "Learning and social Behavior,, The Free Press, New York.

(34) Mehrabian, A. (1978) "Basic Behavior Madrfication,, Human sciences Press, New York.

(35) Mikulas, William L. (1978) "Behavior Modification,, Harper and Row, Publishing, New York.

(36) Mikulas, W.L., (1976) "A televised Self-control clinic,, Behavior Therapy, 7, 564-566.

(37) Mikulas, William L. (1974) "Concepts in learning,, Philadelphia : W.B. Saunders. In Mikulas, W.L. (1978) Behavior Modification Harper and Row, Publishers, N.Y.

(38) Miller, N.E., & Dollard, J. (1941) "Social Learning and imitation,, New Haven : Yale University Press.

(39) Morganstern, K.P. (1974) "Cigarette Smoke as a noxious stimulus in Self-managed aversion therapy for compulsive eating,,. Behavior Therapy, 5, 255-260.

(40) Mowrer, O. Hobart, (1950) "Learning Theory and Personality Dynamics,, The Ronald Press company, New York.

(41) O' Dell, S. (1974) "Training Parents in behavior modification : A Review,,. Psychological Bulletin, 81, 418 - 433.

(42) Olson, R.D. & Smith R.K., and o'lson G.A., (1971) "Learning in the classroom' Theory and Application,, publishing corporation.

(43) Pervin, Lawrance A. (1970) "Personality : Theory, Assessment and Research.,, John Wiley & Sons, Inc.

(44) Ross S.M. & Ross, L.E., (1971) "Comparison of Trace and delay classical eyelid conditioning as a function of interstimulus interval,, Journal of Experimental Psychology, 91, 165-167.

(45) Seligman, M.E.P., (1975) "Helplessness: on depression' development, and death,, San Francisco : W.H. Freeman. In Mikulas, William, L. (1978) Behavior Modification, Harper and Row, Publishers,

(46) Smith, Henery clay (1974) "Personality Development,, second Edition, McGraw - Hill Book Company.

(47) Smith, S., & Guthrie, E.R. (1921) " **General Psychology in terms of behavior,,** Appleton-Century in McLaughlin, Barry : Learning and Social Behavior, 1978, The Free Press.

(48) Tarpy, Roger M. (1975) **Basic Principles of Learning,,**Scott, Foresman and company.

(49) Turner, R.K., & Taylor, P.D., (1974) **Conditioning treatment of nocturnal enuresis in adults Preliminary findings,,** Behavior Research and Therapy, 12, 41-52.

(50) Watson, J.B., & Rayner, R. (1920) "**Conditioninged emotional reaction,,** Journal of Experimental Psychology, S. in Mclaughlin, Barry : Learning and Social Behavior, 1978, The Free Press, New York.

(51) Watson, J., (1930) "**Behaviorism,,**Chicago University Press.

* * *

الشخصيّة السَويّة

طلعت منصور

يفترض البحث في الشخصية ، في صحتها ومرضها ، « أن معظم الناس (وفقا للمتوسط كمفهوم إحصائي) تتشكل على أساس التصميم الفطري للطبيعة ، وهو تصميم سوي بطبيعته »[1] . فالسواء النفسي بذلك ينبغي أن **يكون هو الصفة الغالبة المميزة لمعظم الأشخاص.**

ومن ناحية اخرى ، يؤكد « ماسلو » على حقيقة الطبيعة الانسانية ، وهي طبيعة سوية ومبدعة ؛ ويرى في ذلك « الخاصية الأساسية المميزة للطبيعة الانسانية العامة ـ وهي إمكانية تعطى لكل الكائنات الانسانية عند الميلاد »[2] . ومن ثم ، **فان الطبيعة الانسانية ـ وفقا لماسلو ـ لا تتميز بالسوية فحسب ، وانما بالابتكارية أو الا بداعية كذلك .**

لهذا ، قد نتوقع ان جُل البحث في الشخصية الانسانية سوف يكون موجها الى دراسة الشخصية السوية أكثر من دراسة الشخصية المرضية . ولكن الواقع مغاير للتوقع ـ فيبدو أن الانسان قد استهواه البحث في مرض الشخصية أكثر من البحث في صحتها وسوائها لذا طفق يرى في نفسه وجهه العابس والصورة القاتمة لبنائه النفسي أكثر من أن يدرك فيها وجهه الباسم والصورة المشرقة له ، وذلك هو الأعم والأهم .

(1) Royce, J.E. **Personality and mental health** (rev. ed.). Milwaukee : Bruce, 1964, p. 49.

(2) Maslow, A.H. **Motivation and personality.** New York : Harper & Row, 1954 (2nd ed : 1970), p. 223.

لقد صار معظم اهتمام العلوم السلوكية والممارسات الكلينيكية في دراساتها لديناميات السلوك والشخصية ، موجها الى الجوانب المرضية . واذ ظلت هناك نقاط هامة كثيرة تتطلب مزيدا من البحث والدراسة ، فقد توفرت معلومات تجريبية كثيرة ونظريات قيمة تتعلق بمفاهيم الشخص المنحرف ، والمريض ، والقلق ، والعصابي ، والمضطرب ، والسيء التوافق . وعلى العكس من ذلك ، لا توجد الا معلومات قليلة ووضوح تصوري أقل عن طبيعة السواء النفسي Psychological Normality . بل وهناك من يذهب حتى الى أنه لا يوجد ذلك الشيء الذي تسمية بالانسان السوي [3] .

فلعل من الأسهل تناول ظاهرات الشخصية المرضية وقضايا علم النفس المرضى أكثر من تناول الشخصية السوية والصحة النفسية . فالسواء أو الصحة ـ مصطلح مركب غامض الى حد كبير ، بقدر ما يرتبط بالتصور النظري للطبيعة الانسانية ويتعدد نظريات الشخصية ، وبالأطر الثقافية المتباينة ، وبحالات المرض والشفاء وبدرجة هذه الحالات . والواقع أن الكثير من المعرفة السيكولوجية بالشخصية السوية مستوحى بشكل أو بآخر من البحث في الشخصية المرضية ، ومن نظريات العلاج النفسي ومن الخبرات والممارسات الكلينيكية لعلماء النفس ، كما لو أن الشخصية السوية ، بخصائصها وديناميامها وشروط بنائها ، هي « عكس » الشخصية المرضية !

إن علم النفس مطالب بأن يكون أكثر توجها نحو تناول الانسان السوي من منظور أكثر صحية ، تناول الانسان بكامل إنسانيته Fully Luman ، وبأن يكون أكثر توجها نحو تركز البحث في شروط ومقومات وديناميات وأشكال السواء النفسي وفي ضمانات تدعمه واستمراره ، وبأن يكون أكثر توجها نحو بناء طرق للبحث تهدف الى الكشف عن الجوانب الايجابية ، البنائية ، الا بداعية في الشخصية ، وبأن يكون أكثر توجها نحو تبني استراتيجيات تهدف الى تنمية الانسان ـ الشخصية .

فرغم الانجازات العظيمة لعلم النفس ، الا انه مطالب ، الآن وأكثر من اي وقت مضى ، بأن يكون أكثر سوية في بحثة للانسان السوي ، وبأن يقدم للعلم تحليلا علميا دقيقا لحقيقة الشخصية السوية ، يضاف الى ما أسداه ويسديه للانسانية من مقومات لحياة إنسانية أكثر استحقاقا وفعالية وإبداعية . هذا التوجه نحو البحث في السواء النفسي والشخصية السوية تمليه عدة اعتبارات ، منها :

---

(3) Shoben, E.J. Toward a concept of the normal personality. **American Psychologist'** 1957, 12, 183 - 189.

رغم ان التنظير والبحث في الشخصية السوية قد أفاد بالفعل من البحث في ديناميات الشخصية المرضية ، الا أن فهمنا لسواء الشخصية لا يزال في معظمه مستمد من نتائج البحث في أمراض الشخصية .

رغم توفر بعض الكتابات والدراسات عن الشخصية السوية ، الا انها لا زالت في معظمها مجرد تصورات نظرية أو حتى فلسفية تتطلب تحقيقا تجريبيا .

رغم أن عدد الأشخاص الأصحاء نفسيا اكثر من عدد مرضى الشخصية (على الاقل من الناحية الاحصائية وفقا لقاعدة التوزيع الاعتدالي) ، الا أن حجم البحوث في هذا الميدان قليل في جملته .

رغم أن عدد الاشخاص الأصحاء نفسيا لايزال يفوق عدد مرضى الشخصية ، الا أن البيانات والاحصاءات تشير الى أن ثمة تناقصا باديا في معدل الأشخاص الأصحاء نفسيا ، وتزايدا في عدد الاشخاص الذين يعانون من أشكال اضطرابات الشخصية المختلفة .

ورغم أن عصرنا الحاضر ، وهو عصر الثورة العلمية التكنولوجية ، قد توفرت فيه منجزات حضارية فذة ، الا أنها تحمل في طياتها أيضا الكثير من الآلام والمتاعب النفسية ، والكثير من مقومات التدمير والتخريب ، وبالتالي الكثير من الشقاء الانساني ؛ وهذا يستلزم بناءا للشخصية أقدر على مواجهة ضغوط هذا العصر ومتطلباته ، وأكثر استجابة لمقومات التقدم والارتقاء .

●●●

والدراسة الحالية تعرض بالتحليل العلمي للمفاهيم المختلفة للسواء النفسي في سياق أطر وتصورات نظرية متباينة ، ولمظاهر وخصائص الشخصية السوية كما كشفت عنها النظريات والأبحاث الرئيسية التي توفرت في هذا الميدان أو يمكن أن تفيده . ومن هذا « التحليل » المتعمق نحاول استخلاص « تركيب » لنموذج الشخصية السوية من حيث تمايزها وتفردها .

ومن المفيد في مدخل هذه الدراسة ايضا أن نقدم لها بالتعريف بطبيعة الشخصية الانسانية .

فالشخصية ، كما يحددها قاموس علم النفس ، هي تنظيم متكامل وديناميي للخصائص الجسمية (مثل وظائف الجهاز العصبي المركزي وخصائصه المورفولوجية ، ووظائف الحواس والغدد وغيرها) ، والخصائص العقلية المعرفية (كالقدرات العقلية ، والوظائف العقلية العليا من احساس

وادراك وتفكير وذاكرة وتخيل . . . .) ، والخصائص المعنوية (كالقيم والمثل . . .) ، والخصائص الانفعالية الاجتماعية (كنوع الأنفعالات السائدة ، والاتجاهات الاجتماعية ، ودور الفرد في الجماعة ومركزه فيها . . . .) ـ هذا التنظيم يتضح في تفاعل الفرد مع الاشخاص الآخرين وفي الحياة الاجتماعية المبنية على الأخذ والعطاء . والشخصية بتحليل أكبر تتضمن الحوافز الطبيعية والمكتسبة والعادات والاهتمامات والميول والعواطف والمثل والأفكار والمعتقدات ، كما تتضح في علاقة الفرد مع وسطه الاجتماعي [4] .

واذا استعرضنا معظم المفاهيم الرئيسية للشخصية ، نجد انها تتفق بشكل او بآخر مع هذا التعريف (*) .

يكشف « جوزيف نوتان » ، رئيس المنظمة الدولية لعلم النفس عن الفترة ما بين المؤتمر الدولي العشرين (طوكيو ١٩٧٢) والمؤتمر الدولي الحادي والعشرين لعلم النفس (باريس ١٩٧٦) ، عن طبيعة الشخصية الانسانية وما تنطوي عليه من إمكانات النماء والصيرورة : [5] .

يفهم علماء النفس كقاعدة ، الشخصية على أنها تنظيم داخلي للسمات والاتجاهات والاستعدادات والاتساقات السلوكية . حقيقة ، الشخصية هي ذلك التنظيم الداخلي ، ولكن الخاصية الأساسية المميزة للشخصية ، أكثر من أية خاصية أخرى ، تختفي في ذلك المفهوم . **الشخصية أساسا بنية تتجاوز تنظيمها الداخلي** . فأبرز معالمها المميزة تتمثل في تلك الحقيقة بأن النظرة الى العالم والتعرض له والانضواء فيه ، تكون متضمنة في تكوينها . الشخصية طريقة للوجود والسلوك **Way of being and behaving** في عالم يوجد بالنسبة للذات . فالنظرة الى العالم أو الموقف الحياتي مكون ضروري للشخصية ذاتها . بهذا المعنى تكون **البنية الأساسية للشخصية هي « وحدة الأنا ـ العالم »** . وفي الحقيقة ، أن الشخصية تتألف من أنماط مختلفة من علاقات الأنا ـ العالم ، تلك العلاقات اللازمة بالفعل لتوظيف الشخصية **Personality Functioning** ، ليس على مستوى التفاعل البيو ـ كيميائي بين الكائن الحي ـ البيئة فحسب ، ولكن ايضا على مستوى العلاقات المعرفية والوجدانية بين الأنا ـ العالم [6] .

---

(4) Drever, J. **Dictionary of psychology**. Penguin books, 1973.

(5) Nuttin, J. Consciousness, behavior, and personality. **Psychol.** Rev. 1955,62,349-355.

(6) Ibid.

(*) يمكن الرجوع في ذلك الى بعض المصادر العربية مثل :

● محمد عماد الدين اسماعيل : الشخصية والعلاج النفسي . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩ .

● سيد غنيم : سيكولوجية الشخصية . القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٢ .

● محمد عبد الرحمن : السلوك الانساني . الكويت : مكتبة الفلاح ، ١٩٧١ .

● هول ، ك . ولندزي ، ج : نظريات الشخصية . ترجمة : فرج أحمد وآخرين . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١ .

تحديد طبيعة الشخصية على هذا النحو ينطوي على مفهوم آخر لجانب أساسي من جوانب الشخصية ، وهو الوعي ، الذي يضفي كافة أركانها ، ويرشد سلوكها ، ويستلهم انطلاقاتها وتساميها . والوعي لا يشير أساسا ، خلافا للنظرة الاستبطانية ، الى عالم داخلي يتكون من تمثيلات ومعاني ، فالوعي هو الحضور الفوري للعالم ذاته ؛ هو التعرض الى العالم السلوكي الحقيقي . والانفتاح عليه ، وليس انحصارا في عالم داخلي من التمثيل **Represenation** . وبالوعي « التأمل » يكون الانسان حاضرا بالنسبة لنفسه . ويؤدي حضور الانسان بالنسبة لنفسه الى تمكينه من النظر الى نفسه والى العالم من زوايا مختلفة ، والى أن يعمل على إعادة تشكيل شخصيته ذاتها . هذا الحضور يمكنه من التدخل ، بقصد ، في مسار نموه لكي يعيد بناء علاقاته مع البيئة . تلك هي الوظائف « العليا » للوعي التي تحرر الشخصية من الانغلاقية . وتلك هي الامكانية الانسانية التي تعتبر أساس تلك الاشكال الراقية من السلوك كالعلم والجهود القصدية الرامية الى تحسين الذات [٧] .

●●●

مفاهيم الشخصية السوية

من المشكلات الرئيسية في ميادين دراسة الشخصية والصحة النفسية وعلم النفس المرضي تلك الصعوبة الكبيرة التي تكتنف مفهوم « السوية **Normality** » ، وهي مشكلة قد آلت بدورها الى صعوبات بالغة بالنسبة للبحث العلمي في هذه الميادين [٨] .

تعني كلمة **norm** معيار قاعدي **authoritative standard** ، وبالتالي تعني كلمة (سوى **normal**) الالتزام بهذا المعيار . وتكون الشخصية السوية بذلك هي الشخصية التي يساير سلوكها ذلك المعيار القاعدي والشخصية غير السوية هي التي لا يتفق سلوكها مع ذلك المعيار . والواقع ان محاولات تحديد هذا المعيار قد آلت الى انواع مختلفة من المعايير التي يجري استخدامها في تعيين مفهوم الشخصية السوية وتمييزها عن الشخصية غير السوية ، كما يتضح من العرض التالي :

المعيار الاحصائي :

يشير مفهوم السوية الى تلك القاعدة الاحصائية المعروفة بالتوزيع الاعتدالي **normal distribution** التي تقوم على التوزيع ذي الحدين **binominal distribution** فيأخذ التوزيع

(7) Ibid.

(8) Scott, W.A. Research definitions of mental health and mental illness. **Psychol. Bull.** 1958,55,29-45.

شكل المنحنى الجرسي . هذا المنحنى طرفاه متناسقان بحيث لو قسمناه عند المنتصف بخط رأسي فاننا نحصل على نصفين متكافئين غالبا . وعلى هذا المنحنى يقع حوالي ٦٨٪ من عدد الأفراد في المستوى المتوسط من السمة التي نقيسها ، في حين يتضمن طرفا المنحنى (الطرف الموجب والطرف السالب) ١٦٪ من التوزيع في كل طرف من الطرفين . والسوية هي المتوسط العام لمجموعة الخصائص والأشخاص ، في حين يشير الانحراف على طرفي المنحنى الى اللاسوية اوغير العادية . وتعني اللاسوية بذلك انحراف سلوك الفرد عن الآخرين أو عن الأنماط السلوكية العادية . والشخص غير العادي او اللاسوي هو الذي ينحرف عن المتوسط العام لتوزيع الأشخاص او السمات او السلوك .

هذه المظاهر اللاسوية ، من منظور المرغوبية الاجتماعية **social desirability** قد يأخذ بعضها طابعا إيجابيا ـ مثل الذكاء المرتفع والعبقرية والابتكار والخلق الطيب ـ وهو ما يعرف بـ « **اللاسويات الايجابية** » positive abnormalities، في حين ان المظاهر اللاسوية الأخرى قد تكون ذات طبيعة سلبية كالأمراض العصابية (النفسية) والأمراض الذهانية (العقلية) والاضطرابات السلوكية والتخلف العقلي واضطرابات الخلق وغير ذلك مما يعرف بـ « اللاسويات السلبية » **negative abnormalities**[9].

قياسا على هذا المعيار الكمي الاحصائي ، يمكننا ان نطرح السؤال التالي : **هل يمكن تحديد عدد الاشخاص ذوي الشخصيات السوية ؟** والواقع ان تحديد عدد الأشخاص ذوي الشخصيات السوية أصعب كثيرا من تحديد عدد الأشخاص الذين يعانون من اضطرابات او أمراض الشخصية . يعزي ذلك الى سببين رئيسين :

السبب الأول ، هو عدم وجود سجلات للأشخاص الأصحاء نفسيا ، في حين أن سجلات الأشخاص ذوي الشخصيات المرضية متيسرة في المؤسسات والمصحات والعيادات النفسية ، وفي المدارس والكليات ، وفي التقارير المهنية . ورغم ما يشوب هذه السجلات من نقص ، إلا أنها تعطي فكرة الى حد كبير عن النسبة المئوية لذوي الشخصيات المرضية باختلاف درجات انحرافها .

أما السبب الثاني ، فهو الغموض الذي يكتنف محكات الشخصية السوية . فالبعض قد يعتبر الشخص الذي لا يكون مزعجا والذي يتوافق مع الآخرين ومع مواقف الحياة عامة شخصا سويا . ولكن هذه المحكات تخفق في أن تضع في الاعتبار ذلك المطلب الرئيسي بأن التوافق عند الشخص

(9) Szasz, T. **The Myth of mental illness.** New York : Harper & Row Pub., 1961.

ينبغي أن يكون مصحوبا بالرضا عنده وبتوافقه مع نفسه . ويعتبر آخرون أن مصطلحات مثل « صحي » و « سوي » و « مثالي » و « خاصية المتوسط » على أنها مترادفات ، وأن « السواء » و « الصحة » تعني غياب أي شكل من أشكال المرض أو أي درجة من درجاته . ولكن ، من المشكوك فيه ، كما هو الحال بالنسبة للصحة الجسمية ، أن نجد شخصا خاليا من درجة ما من الاضطراب النفسي [10] .

المعيار القيمي

من الصعب تحديد مفهوم السوية بمعزل عن النظام القيمي . هذا المعيار القيمي او الأخلاقي قد يتعارض في بعض الأحيان مع تصورات بعض علماء النفس والطب النفسي اللذين يسعون الى التوصل الى تعريفات لا تولي أهمية كبيرة للمعايير القيمية والأخلاقية .

فمن المنظور القيمي أو الأخلاقي ، يستخدم مفهوم « السوية » لوصف مدى اتفاق سلوكنا مع المعايير الاخلاقية في المجتمع وقواعد السلوك السائدة فيه ، وكيف يكون سلوكنا مقبولا بالنسبة لأنفسنا وللآخرين . وعلى هذا النحو ينظر الى السوية على أنها « مسايرة » او « اتساق » او « أخلاقية » [11] .

تعني السوية كمسايرة conformity موافقة السلوك للأساليب او المعاني التي تحدد التصرف او المسلك السليم في المجتمع . ويعتبر الاسلوب الاتفاقي مقبولا لذاته ، لأن الممارسات العامة لمعظم الناس في مجتمع من المجتمعات هي الأساس السليم لتحديد معايير السلوك لدى الفرد بصفة عامة .

ويشير مفهوم السوية كاتساق consistency الى معايير القبلية acceptability standards للقيم من وجهة نظر الفرد ذاته ، فالشخص السوي هو الذي يتسق سلوكه مع المعايير القيمية . بهذا المعنى يعتبر السلوك سويا اذا كان يقابل محكات ثلاث :

(١) التبصرية intelligibility أي تدرك بأننا نفهم طبيعة سلوكنا والدوافع الكامنة وراءه .

---

(10) Mc Cammon, R.W. The concept of normality. Ann. N.Y. Acad. Sci. 1966,134,559-562. Simonson, E. The concept and definition of normality. Ann. N.Y. Acad. Sci.' 1966, 134,541,-558.

(11) London, p. & Rosenhan, D. The meaning of abormality. In "Foundations of Abnormal psychology,, N.Y,' 1968.

(٢) التنبؤية predictability ان ندرك بأن سلوكنا يمكن التنبؤ به على أساس ما نعرفه عن ذواتنا .

(٣) الضبط control أي الوعي بأن سلوكنا يخضع لرغباتنا ومقاصدنا لكي نأتي بسلوك ما أو لكي نمتنع بارادة عن فعل سلوكي معين .

أما النظر الى السوية كأخلاقية morality، أي في ضوء مبادىء أخلاقية أو قواعد سلوكية تقرها ثقافة المجتمع ، فيتحدد بمعايير التقبلية التي لا ترتبط بالممارسات العامة ولا بتوقعات الفرد بالنسبة لذاته ، وانما يتحدد أساسا بالمعايير المعنوية أو المثالية التي يعتقد بأنها تميز كل تفكير سليم ، وكل مشاعر طيبة ، وكل عمل جيد . وينطلق هذا التصور ، على سبيل المثال ، من عدة مبادىء مفادها أن الناس « ينبغي » أن يسلكوا على نحو ما ، وأن يراعوا ما تفرضه قيم المجتمع من أوامر ونواه وقواعد للسلوك . فمن السواء أن تحب وأن تعمل وأن تؤمن بالله عز وجل ، وأن لا تكون منسحبا او خجولا أو متهورا او عدوانيا او حاقدا . . . . الخ .

النظام القيمي لتحديد مفهوم السوية يقوم اذن على جوانب ثلاث : التوجه الاجتماعي socially oriented، والتوجه الذاتي self - oriented، والتوجه المعنوي المستمثل idealized moral oriented للشخصية الانسانية .

والواقع ، أنه بصرف النظر عن المفهوم الذي يتبناه عالم الشخصية للسوية ، فان هذا المفهوم يؤول غالبا الى حكم مستمد من نظام قيمي معين . وقد يعتقد الاخصائي الكلينيكي أن القيم لا تدخل في علاقاته العلاجية مع المرضى ، ومع ذلك ، لا يستطيع الاخصائي الكلينيكي أن يقوم بالعلاج دون ان يتبنى لنفسه ، بطريقة صريحة او ضمنية ، نظاما ما من القيم (١٢) . بل ان مجرد قول المعالج للمريض عبارة مثل ، « سوف لا أخبرك بما تفعله ولكن سوف أساعدك على اختيار البدائل حتى تستطيع أنت ان تتخذ قرارك » ، لا يعتبر وسيلة لاستبعاد القيم من العلاقة العلاجية .

مفهوم السوية بين المعيارين الاحصائي والاخلاقي ؟

لقد آل تحديد مفهوم الشخصية السوية على أساس معيارية السلوك التي تبنى تصورين مختلفين ـ

(12) Glad, D.D. **Operational values in psychotherapy.** New York : Oxford University Press, 1959.

أحدهما إحصائي والآخر قيمي أخلاقي ، الأول يركز على المتوسط او المألوف أو الاعتيادي ، والثاني على المرغوب أو على القيمة .

والواقع أن هذين المعيارين ليسا مختلفين فحسب ، ولكنهما كثيرا ما يتعارضان مع بعضهما تعارضا شديدا . فعلى سبيل المثال ، من المألوف او الاعتيادي بالنسبة للناس ان يحملوا في طبيعتهم بعض النزعات السلبية أو الهدامة ـ مثل بعض أمراض الجسم ، وبعض دلائل العصبية ، وبعض العادات السلوكية المحبطة للذات ؛ ولكن هذه النزعات رغم أنها عادية او مألوفة أو في معدل المتوسط إلا أنها غير صحية . فما هو مألوف او اعتيادي قد لا يكون هو المرغوب ؛ وما يكون سويا في ناحية قد لا يكون سويا من ناحية أخرى . ولا شك أنه لا يوجد نظام أخلاقي في العالم المتمدين يتمسك بفكرة الانسان العادي average man كنموذج مثالي للتنشئة الاجتماعية للاطفال . فليست « الحقائق الواقعية » للطبيعة الانسانية وانما بالأحرى « إمكاناتها » هي التي تزودنا على نحو ما بمعيار للشخصية السليمة او الصحية .

ان هذا المعنى المزدوج لمفهوم السوية لم يكن يمثل مشكلة بالنسبة لعلم النفس في مطلع هذا القرن ، مقارنة بما ينطوي عليه اليوم من صعوبات بالغة . لقد كان الاهتمام الأساسي لعلم النفس في تلك الفترة هو اكتشاف المعايير العادية average norms لكل وظيفة من الوظائف العقلية . وغدت مفاهيم إحصائية مثل المتوسط والمنوال والأس تحتل مكانة كبيرة ، وصار لعلم النفس الفارقي مركز الصدارة . ولذا لقيت فكرة منحنى التوزيع الاعتدالي من علماء النفس قبولا ، فاعتبروها مقياسا معقولا للسوية . وفي ذلك أيضا شهدت هذه الفترة تقريبا ، وخاصة في العشرينات من القرن الحالي ، نمو فكرة « التوافق النفسي » وقوامه السلوك العادي او المألوف . ولكن الموقف الآن قد تغير ـ فاهتمام معظم علماء النفس موجه الى تحسين السلوك الانساني العادي ، لأنه من المشكوك فيه كثيرا بقاء الانسان العادي او المتوسط mediocre man . فكلما انتشر « الأنومي » الاجتماعي social anomie (انعدام المعايير الاجتماعية) ، وكلما أصبح المجتمع ذاته أكثر مرضية ، فاننا نشك في أن الانسان العادي أو المتوسط سوف يهرب من المرض العقلي والجنوح ، او سوف يقي نفسه من بطش المستبدين والدكتاتوريين . وكما نرى ، لا يقدم لنا منحنى التوزيع الاعتدالي أي أمل للخلاص من هذا الموقف . فنحن بحاجة الى مواطنين أسوياء وأصحاء بمعنى أكثر ايجابية . والعالم بحاجة الآن الى مثل هؤلاء المواطنين .

ولهذا السبب يسعى علماء النفس الى البحث عن تعريف جديد للسواء واللاسواء ، وعن محكات جديدة تتجاوز المجال التقليدي لفلسفة الاخلاق . ويدرك علماء النفس أيضا ان الفلاسفة قد أخفقوا

في إقرار معايير قاعدية لما يؤلف الحياة السليمة ـ وهي تلك الحياة التي ينبغي أن يسعى المربون والآباء والمعالجون الى تشكيلها . لذلك يحاول علماء النفس ان يدفعوا البحث في هذا المجال بطريقة جديدة ، وأن يتجنبوا ـ اذا استطاعوا ـ المزالق التقليدية لعلم القيم .

المعيار الطبيعي :

ثمة محاولات لاشتقاق مفهوم السوية (بالمعنى القيمي) من حقيقة الانسان (بالمعنى الطبيعي) . والهدف من هذه النظرة الطبيعية هو استنباط مفهوم للسوية **naturalistic derivation** من البحث عن القواعد الاخلاقية استخلاصا من البيولوجيا وعلم النفس ، وليس من نظرية القيم مباشرة . هذه النظرة تسعى بشجاعة الى البحث عن « الينبغيات ، **the oughts** (وهي الهدف الذي ينبغي ان يتوجه المعلمون والمرشدون والمعالجون الى تحقيقه) من « ماهية ، **the is** الطبيعة الانسانية . تتمثل هذه النظرة في تصورات عالم النفس الامريكي « شوبان ، وعالم الاجتماع الانجليزي « هالموس » .

يتساءل « شوبان » ما هي الفروق النفسية الرئيسية بين الانسان والحيوانات الدنيا ؟ [١٣] يحدد شوبان خاصيتين إنسانيتين متميزتين . وهو وإن كان لا يزعم بأن إجابته كاملة في هذا التحديد ، إلا أنه يأتي بافتراض زائد في سيكولوجيته **extra psychological assumption** مؤداه أن الانسان ينبغي أن يصل بخصائصه التي يتفرد بها كانسان الى المستوى الاقصى .

الخاصية الاولى ، هي مقدرة الانسان الفريدة على استخدام اللغة الرمزية **propositional language** (المقدرة على الترميز **symbolization**) بهذه الامكانات التي يتفوق بها الانسان على الحيوان ، يستخلص شوبان عدة مؤشرات نوعية للسوية . فبفضل اللغة الرمزية ، يستطيع الانسان ، على سبيل المثال ، أن يرجىء حاجاته وإشباعاته ؛ وأن يحتفظ في عقله بهدف بعيد ، وبإثابة مرجأة ، وبهدف قد يحققه فقط في نهاية حياته او ربما لن يصل اليه على الاطلاق . وبفضل اللغة الرمزية ، يستطيع أن يتخيل مستقبلا لنفسه أفضل كثيرا من حياته الحاضرة . وهو يستطيع بذلك أيضا أن يكون نظاما متينا من المفاهيم الاجتماعية يساعده على اقامة كل العلاقات الممكنة مع الآخرين ،

(13) Shoben, E.J. Towars a concept of the normal personality. Amer. Psychologist' 1957,12,183-189.

تفرق كلية مع الطقوس الجامدة للتعايش rigid symbiotic rituals التي تعرف بها مثلا بعض الحشرات الاجتماعية .

ان المقدرة الرمزية للانسان هي التي تجعله هكذا المخلوق الوحيد الذي يستطيع « النظر الى الأشياء في حضورها وغيابها ، والتطلع الى ما هو مستحيل » . فالكلام الرمزي يمكنه من التعلم ليس من خبرته الشخصية فحسب ، ولكن أيضا من خبرات الآخرين في أوقات وأماكن أخرى ، ومن التنبؤ بنتائج سلوكه ، ومن أن تكون له مثله وقيمه . هذه الامكانات الرمزية الثلاث (« أ » الاستعداد للافادة من الخبرة ـ بما فيها خبرة الآخرين ـ عبر الزمن ، « ب » المقدرة على التبصر وبعد النظر وعلى الضبط السلوكي النابع من الداخل من خلال توقع نواتجه ، « جـ » المقدرة على تخيل عوالم أخرى يقربها الى قلبه) تؤلف المجموعة الرئيسية للامكانات الانسانية المتميزة .

أما الخاصية الثانية التي يتميز بها الانسان ، فهي طول فترة الطفولة عند النوع الانساني بسبب عدم الاكتمال البيولوجي النسبي عند الطفل ، وهي فترة قد تطول أكثر كلما أصبحت الثقافة أكثر تعقيدا . هذه الخاصية تحدد شرطين أساسيين للحياة الانسانية : الشرط الأول هو ان بقاء الفرد واشباع حاجاته وشعوره بالرضا يتطلب حتمية الاعتماد على الآخرين . أما الشرط الثاني فهو مسؤولية الكبار وتعاطفهم وخيرهم التي تعتبر شرطا ضروريا لبقاء الانسان . ويقوم المجتمع الانساني على علاقة تبادلية بين الاعتماد والمسؤولية ؛ هذا الاعتماد التبادلي يعطي للحياة الانسانية خاصية اجتماعية لا نجدها في المملكة الحيوانية .

من هذين النمطين للامكانات الانسانية الفريدة (المقدرة الرمزية ، والطبيعة الاجتماعية للحياة الانسانية) ، يستخلص « شوبان » تصوره للسوية على أساس نموذج معياري Normative model أو نموذج مثالي Ideal model للشخص السوي أو للشخص النامي على نحو ايجابي أو للشخص المتوافق على نحو تكاملي . يطلق شوبان على تصوره « نموذج التوافق التكاملي » (model of integrative adjustment) : فالشخص السوي يتسم بالاحساس بالمسؤولية الشخصية لأن المسؤولية مقدرة مميزة نابعة من الاحتفاظ في عقله بصورة رمزية عن المستقبل ، ومن ارجاء اشباعاته ومن قدرته على السعي والكفاح وفقا لتصوراته عن أفضل مبادىء وسلوك بالنسبة لنفسه . كذلك تعتبر المسؤولية الاجتماعية من المعالم المميزة للشخص السوي ، فكل هذه المقدرات الرمزية يمكن أن : تتفاعل مع ذلك العامل الفريد وهو الثقة أو الغيرية . ويرتبط بذلك محك الاهتمام الاجتماعي الديمقراطي . وفقا لهذا التحليل الطبيعي أيضا ، يعتبر اكتساب المثل

والمقدرة على ضبط الذات من معالم الشخصية السوية . ويشير شوبان بحق الى أن الاحساس بالذنب هو نتيجة حتمية لاخفاق الانسان في أن يعيش وفقا للنموذج الانساني المتميز ، ومن ثم ينبغي أن يتضمن مفهومنا للسوية كذلك معايير الاحساس بالذنب وأساليب التكفير عنه بطريقة بناءة .

ذلك هو تصور « شوبان » للشخصية السوية . وهو وان كان يلقى تقديرا بالغا من علماء النفس ، الا أنه قد يقابل باعتراض من وجهة النظر الفلسفية : فاننا لا نستطيع أن نستخلص « ما ينبغي أن يكون عليه الانسان » من « ماهية » الطبيعة الانسانية . فما هو إنساني بشكل متميز ليس بالضرورة أن يكون طيبا وخيرا .

أما المحاولة الثانية للوصول الى معيار طبيعي للسوية ، فتتمثل في كتاب بول هالموس « نحو مقياس للانسان » ، حيث يبدأ تصوره بطرح السؤال التالي « ما هو الحد الأدنى للشروط اللازمة للبقاء »(١٤) ؟

يقرر « هالموس » ان ما يكون دون مستوى الحد الأدنى ، فإنه يقع في نطاق اللاسوية ويؤدي الى الموت والدمار . ويطلق على ذلك محك اللا سواء أو الشذوذ abnorm ، ويعتقد أن بإمكاننا تحديده ، حتى وإن كنا لا نستطيع تحديد السوية ، لأن الناس بصفة عامة تتفق على ما هو سيء بالنسبة للانسان أكثر مما تتفق على ما هو حسن وخير بالنسبة له .

يحدد « هالموس » الحاجة الى البقاء بحاجتين رئيسيتين : الحاجة الى النمو Need for growth والحاجة الى الترابط الاجتماعي Need for social cohesion يعني النمو الاستقلالي وعملية التفرد ، أما الترابط فهو الحقيقة الاساسية للاعتماد الاجتماعي المتبادل الذي يتضمن ، على الأقل بالنسبة للانسان ، الثقة والتبعية والزواج وتأسيس أسرة .

ويذهب « هالموس » الى أننا ربما نستطيع تحديد « اللاسواء » أو « الشذوذ » ، وذلك عن طريق اعداد قائمة بالشروط أو الظروف المعطلة للنمو والترابط . في مقدمة هذه الشروط الاضطرابات المتعلقة بتدريب الطفل . ويقول إن « الاعاقة المستمرة » أو المتكررة للتقارب الفيزيقي بين الأم والطفل » ، أو « النبذ الانفعالي » للطفل بواسطة الأم تمثل شروطا تؤدي بقاء الفرد والجماعة . هذا المحك الأولي للاسوية يكمن وراء « الحيلولة دون تحول الترابط الى حب » . ومعظم ما هو غير سوي يتبعه ويرجعه الى الاخفاق في مبدأ الترابط ، لأن الطفل يصير لحوحا وكثير المطالب وقسريا بشكل زائد . ويتفق ذلك مع دراسات وكتابات « بولبي » و « اريكسون » و « ماسلو » .

(14) Halmos, P. Towards a measure of man : The frontiers of normal adjustment. London : Routledge & Kegan Paul, 1957.

ويقبل « هالموس » تضمين قائمته الخاصة بـ « اللاسواء » زملات الأعراض التي يقرها الأطباء النفسيون . فمن اللا سواء ، مثلا ، إذا كان السلوك يتكرر بصرف النظر عن الموقف ولا يتعدل بواسطة ما يترتب عليه من نتائج ، واذا كانت الانجازات التي يحققها الفرد أقل باستمرار من امكاناته ، وكذلك إذا كانت الاحباطات النفسية الجنسية تعوق كل النمو والترابط .

ومما تجدر ملاحظته ان الوظائف الرئيسية للنمو والترابط كما قررها هالموس قد أكدت عليها الكثير من الكتابات السيكولوجية .

يعد « بيرجسون » و « يونج » و « آنجوال » من بين المفكرين الذين يوافقون على أن « السوية » تتطلب توزانا بين الفردية والجماعية ، بين الاستقلالية والتبعية . وقد لقيت هذه المفاهيم تأييدا لدى كثير من العلماء . يقول « ويرنر وولف »(١٥) :

« حينما يوجد شخص نفسه بدرجة مفرطةمع جماعة ، فالنتيجة أنه يفقد قيمته ، ومن الناحية الأخرى، يترتب على العجز الكلي للفرد في التوحد أن البيئة تفقد قيمتها بالنسبة له ، في كلتا هاتين الحالتين المتطرفتين ، تختل العلاقة الدينامية بين الفرد والبيئة . فالشخص الذي يسلك على هذا النحو هو ما يسمى بـ « العصابي » . أما في الجماعة السوية فيحتفظ كل عضو بفرديته ولكنه يتقبل دوره كمشارك في الجماعة كذلك »

والواقع ، أنه بينما يوجد اتفاق كبير على أن الشخصية السوية ينبغي ان تستقر على توازن بناء بين النمو كفرد والترابط مع المجتمع ، الا أننا لانملك بعد محكا واضحا ، به نحدد متى تكون هذه العوامل في توزان بناء ومتى لاتكون كذلك ، وكيف نحدد التوازن الأمثل بين الترابط والنمو داخل الشخصية الواحدة ؟

المعيار الثقافي :

الشخصية الانسانية هي بدرجة كبيرة انعكاس للواقع الثقافي الذي يعيشه الفرد . فالمجتمع وثقافته ، بما يخلقانه من أشكال التفاعل الانساني وبما ييسرانه من ظروف لنمو الشخصية وتشكلها ، يمثلان محددات رئيسية لبناء الشخصية .

(15) Wolf, W. **The threshold of the abnormal.** New York : Hermitage House, 1950,pp.131F.

فالانسان (الشخصية) كائن حي ، اجتماعي وتاريخي ، يشتق الكثير من حياته من التركيبات الاجتماعية والتاريخية ، وهو كائن محكوم ببعدي الزمان والمكان ، يكون أسلوب حياته انعكاسا لثقافة عصره .

وعادة ماينطوي مفهوم الشخصية السوية على بيئة صحية خالية الى حد كبير من عوامل الضغط والشدة . مثل هذه البيئة تيسر مقومات النمو السوي وتقلل من عوامل التأزم والاضطراب النفسيين . ويؤدي الجو الاجتماعي الذي تغلب عليه عوامل الضغط والتوتر الزائدين الى تثبيط واهدار جهود الافراد في التمكن من أنفسهم وفي السيطرة على بيئاتهم . فمثلا ، لاحظ علماء عديدون أن التباين بين مستوى الطموح وفرص تحقيق المطامح في بعض الجماعات يعتبر مصدرا للضيق والتوتر النفسيين (١٦) . وهم يقررون أنه اذا اتسم أسلوب حياة الجماعة (وهو الثقافة) بعوامل الصراع والتنافس والفردية وقلة الفرص المتاحة لكي يحقق الأفراد ذواتهم ، انما تكثر فيه ردود الأفعال المرضية ومظاهر النشاط المضاد للمجتمع (١٧) . لذا ، فان تحديد مفهوم الشخصية السوية لاينفصل عن الاطار الثقافي وعما يستحسنه ويثبته من أنماط السلوك وعما يقره من قواعد ومعايير للسلوك والعلاقات .

فوفقا للمعيار او المفهوم الثقافي للشخصية السوية ، حكمنا على السلوك في اطار الجماعة المرجعية للفرد . هذا المفهوم الثقافي أقرب الى المفهوم الاحصائي ، فيما عدا أن المعايير الثقافية للحكم على السوية تكون كثيرة ومتعددة وفقا لكثرة وتعدد الثقافات .

ولعل من الصواب ، لذلك ، أن نتناول **الشخصية السوية كمفهوم ثقافي** على أساس معايير النسبية الثقافية Cultural relativism ـ فما هو سوي في جماعة قد يعتبر شاذا أو مرضيا في جماعة أخرى . ويعني ذلك أن الحكم على السوية لايمكن التوصل اليه الا بعد دراسة ثقافة الفرد وتحليلها الى الثقافات الفرعية المختلفة .

هذا المفهوم الثقافي للسوية ينطوي على مبالغة زائدة في الاخذ بمعايير « المسايرة » : فالاشخاص المسايرون للجماعة ولأسلوب حياتها هم الاسوياء ، في حين أن غير المسايرين هم غالبا من غير

---

(16) Parker,S. & Kleiner, R. Mental illness in the urban negro community. New York, 1966.

(17) Horney, K. The neurotic personality of our time. New York, 1939.

الاسوياء. ورغم ما للمسايرة من أهمية في عملية التوافق ، الا انها قد تفتح المجال أمام الانتهازية وايثار المصالح الذاتية وعدم تبلور الهوية والتقبل غير الناقد لأوضاع غير سليمة ، وقد تغلق الباب في وجه البعض من غير المسايرين الذين يجتهدون ببصيرة في سبيل بناء المجتمع وتطوره وقد يعانون في سبيل ذلك ، ناهيك عن أن المسايرة الزائدة هي بذاتها سلوك مرضى .

المعيار الذاتي (الظاهري) :

وهو السوية كما يدركها الشخص ذاته في نفسه . فبصرف النظر عن المسايرة او التوافق اللذين قد يبديها الشخص على أساس المعايير السابقة ، فالمحك الهام هو ما يشعر به الشخص وكيف يرى في نفسه الاتزان أو السعادة . أي أن السوية هنا احساس داخلي ، خبرة ذاتية . فاذا كان الشخص يشعر بالقلق أو التعاسة ، فانه يعد وفقا لهذا المعيار الذاتي غير سوى .

رغم ما لهذا المعيار الظاهري (الفينومينولوجي) من أهمية في اختبار السوية ذاتيا experiencing ، الا أن علماء النفس والطب النفسي يقررون أن بعضا من المرضى النفسيين والعقليين يعطون تقريرات ذاتية وانطباعات شخصية عن هدوئهم واحساسهم بالسعادة . بالاضافة الى ذلك ، كثيرا ما يخبر معظمنا حالات من الضيق او القلق .

ولاشك أن مجرد الخلو من الضيق أو القلق ليس هو محك السوية . واذا لم يكن الأمر كذلك ، فما هو مقدار الضيق الذي يمكن أن نسمح به لأنفسنا من منظور السوية ، ولأي فترة من الوقت ؟ وغني عن القول ، أن الحياة والوجود تتضمنان وبالضرورة بعضا من الاحباط أو الضيق أو التوتر . ومن الصعب ، بأي معدل أو معيار ، ان نتخيل مجتمعا لايخلق قدرا معينا من عدم السعادة ، فما بالنا بالمجتمعات المعاصرة وما تفرضه على الانسان من مطالب وضغوط وتوترات .

المشكلة اذن ليست هي الصراعات والضغوط والتوترات من عدمها ، فهي مفروضة على الانسان بحكم طبيعة العصر ، انما المشكلة هي مقدرة الانسان على « مواجهة » هذه الضغوط وتنمية هذه المقدرة على المواجهة بما لا يخل بالتوازن النفسي للفرد .

المعيار الكلينيكي (١٨)

قد يتحدد مفهوم السوية او الصحة في ضوء المعايير الكلينيكية لتشخيص الاعراض المرضية : فالسوية او الصحة تتحدان على اساس غياب الاعراض والخلو من مظاهر المرض اما اللاسوية ،

(18) Affer, D. & Sabshin, M. Norm[illegible] : Theoretical and clinical concept of mental health. New. York : Basic Books, Inc., 1956.

فتتحدد بوجود اعراض المرض او الاضطراب . واذا تقبلنا هذا المعيار السلبي للسوية او الصحة فان بعض القضايا المنافية للعقل تصير ممكنة مثل : فلان كان سليما (خاليا من الاعراض) بالنسبة للقلب ، ولكنه توفي بالسرطان . وبنفس الطريقة ليس من المنطقي ان نقول ان شخصا قد استرد صحته النفسية (من الفصام مثلا)، ولكن يستمر بقاؤه نزيلا في احدى المصحات العقلية (بسبب الجنون الدوري : جنون الهوس والاكتئاب) . من الواضح بذلك اننا نستخدم مصطلح « الصحة » او « السوية » لنعني به الخلو العام من الاعراض ، اكثر مما يعني الخلو النوعي منها .

فالخلو العام من الاعراض مفهوم سلبي للصحة او السوية ، كما انه مفهوم ضيق ومضلل : فمن الصعب غالبا ان تفصل هذا المفهوم عن التضمين الايجابي للسوية لأنه لا يكفي ان يخلو الشخص من الاعراض المرضية لنعتبره سويا ، وانما ينبغي ايضا ان تلقى اهدافه وطاقاته وخبراته توظيفا فعالا في مواقف الحياة المختلفة فيحقق ذاته على نحو بناء . لذا فان المعيار الكلينيكي او السلبي لا يحدد الصحة او السوية على نحو ايجابي وذي معنى .

معيار النمو الامثل :

ادى قصور المعيار الكلينيكي وهو معيار طبي سلبي الى تبني نظرة اكثر ايجابية في تحديد معيار الشخصية السوية . يستند هذا المعيار الى تحديد « منظمة الصحة العالمية » لمفهوم الصحة على انها « حالة من التمكن الكامل ، الجسمي والعقلي والاجتماعي وليس مجرد الخلو من المرض او العجز » .

وفقا لهذا المعيار وهو معيار طبي ايجابي ، يتجاوز مفهوم الشخصية السوية ما هو ابعد من « المتوسط » او « العادي » . فهذا المعيار يؤكد على النمو الامثل optimal development اي على « تحقيق امكانات الفرد » وعلى « تحقيق الذات » كمحكات للشخصية السوية .

ورغم ما ينطوي عليه مفهوم النمو الامثل من قيمة بالغة في تحديد مفهوم الشخصية السوية الا انه من الصعب ان نحدد اي نموذج من السمات او الانماط السلوكية يشكل النمو الامثل . فما يعتبره الناس مرغوبا وامثل يعكس ثقافة المجتمع كما يعكس المعتقدات والقيم الشخصية للفرد الذي يصدر احكامه بشأن المستوى الامثل من نمو الشخصية ، ومن ثم فان مفهوم النمو الامثل مبدأ عام وليس محكات يمكن تحديدها وقياسها بدقة .

المعيار النظري

ثمة اتجاه يعمد الى اشتقاق معايير الشخصية السوية من اطار مرجعي نظري يستند الى تصور او

نموذج خاص للانسان , فنظرية التحليل النفسي على سبيل المثال تقدم اطارا مرجعيا تصوريا عاما لتقييم بناء الشخصية ونموها في عمليات متتابعة خلال مراحل نفسية جنسية (ليبيدية) وعلى اساس نمو الانا والانا الاعلى , ويذهب علماء التحليل النفسي الى ان الخلو من الكبت دليل على التوافق ويستنفد المحلل النفسي ساعات علاجية كثيرة مع مريضه لكي يجعل ما هو لا شعوري شعوريا ويدخله في بؤرة وعيه ، ولكن اذا طبقنا الاطار المرجعي للتحليل النفسي على مواقف كثيرة فقد يكون نقص التعلم وليس الكبت هو المسئول مثلا عن السلوك المضاد للمجتمع او عدم السعادة او الضيق واليأس .

من ناحية اخرى قد يقوم الاطار المرجعي للشخصية السوية او التوافق السليم على نظرية التعلم الاجتماعي social learning theory (١٩) . ووفقا لذلك ، يعتبر الشخص متوافقا على نحو سليم اذا كان يعطي لاهدافه في الحياة قيمة عليا ولديه توقعات عالية بان انماطا سلوكية معينة سوف تنجح في تحقيقها وسوف تلقى استحسانا وتدعيما اجتماعيين.

والواقع إنه من المتعذر ان لم يكن من المستحيل ان نفصل البحث في الشخصية وفي معايير سوائها وصحتها عن النظريات او النماذج او التصورات التي يتبناها علماء الشخصية ويطورونها ، ولكن المشكلة في تحديد معايير السوية والصحة النفسية تكمن في الاقتصار على اطار مرجعي نظري بعينه وفرضه بالقسر على كل جوانب الشخصية ، فلا تستطيع نظرية سيكولوجية باطارها النظري وبادواتها وطرقها في البحث ان تدعي لنفسها انها تمثل النموذج الوحيد الذي يحيط بكل شخصية وبكل الشخصية.

الشخصية السوية مفهوم متعدد المعايير :

« من الواضح ان موضوع الشخصية قد تناوله علماء عديدون يمثلون اكثر من اتجاه نظري واحد ، ويستخدمون ادوات مختلفة للبحث ، ولذلك فمن الصعب كثيرا ان تحدد اي نظرية في الشخصية اكثر فائدة من الاخرى ، فكل النظريات مفيدة ولكن لا توجد نظرية واحدة كافية ، ومن ثم فان افضل تناول للشخصية هو من وجهات نظر كثيرة رغم انها غالبا ما تكون متعارضة (٢٠) . ان تحديد معايير متعددة (احصائية ، قيمية ، طبيعية ، ثقافية ، فينومينولوجية ، كلينيكية ، مثالية ، نظرية) لمفهوم الشخصية السوية لا يعني ان كل معيار منها يناقض الآخر او يجبه ، كما لا يعني اننا نفاضل فيما بينها . يعزى هذا التعدد الى ان الشخصية ذاتها ، شأنها في ذلك شأن معظم وحدات الدراسة في علم

(19) Rotter, J.B. Social learning and clinical psychology. Englewood cliffs, N.J. : Prentice - Hall, Inc., 1954.

(20) Wiggins, J.S., et al. The psychology of personality. London : Addison-Wesley Pub. Co., 1971, p. 4.

النفس ، بنية معقدة ، وان ما يحدد سوية الشخصية عوامل ومتغيرات عديدة متداخلة ، ولذلك فرغم تحديد هذه المعايير كمحكات منفردة الا ان المتمعن فيها يجد انها متداخلة فيما بينها ، بل ، ويصعب كثيرا ان نفصلها عن بعضها .

ومن هنا ، فان تقييم الشخصية وفقا لمعيار بعينه من معايير السوية انما هو اتجاه ينطوي على مخالفة لـ « طبيعة الاشياء » وعلى نظرة ضيقة مجتزأة لحقيقة الشخصية وللحكم على مدى سويتها . فالنظرة العلمية الى فهم الشخصية السوية تتطلب منا ان نضع في الاعتبار تكامل هذه المعايير التي يمثل كل منها منظورا نرى من خلاله الشخصية ونقيمها منه ، ومع ذلك فقد تملي طبيعة البحوث والدراسات في هذا الميدان والمنحى الذي تأخذه اهتماما بمعيار معين تتبناه اكثر من غيره من المعايير الاخرى .

عندئذ يبقى السؤال قائما : « ما هي الشخصية السوية ؟» والواقع ان الاجابة المحددة على هذا السؤال تستلزم منا تناول الشخصية السوية في ضوء الصحة النفسية ومعاييرها ، وبالتالي يمكن التساؤل بشكل اخر : من هو الشخص ذو الصحة النفسية؟ للاجابة على هذا السؤال الذي طرحناه بصيغتين مختلفتين نجد انه من الصعب كثيرا وضع حدود قاطعة بين الشخص السوي المتمتع بصحة نفسية سليمة والشخص غير السوي او سيء الصحة النفسية ، فالسوية ليست مفهوما مطلقا وانما هي بالأحرى مفهوم نسبي (٢١) .

فالشخص ذو الشخصية السوية او ذو الصحة النفسية السليمة لا يخلو تماما من التوتر او القلق او مشاعر الذنب ولكنها لا تستحوذ عليه ولا تغمره ، فلا يكون مغلولا بها ، فهو قادر على ان يكون حرا من سطوة قيودها وعلى مواجهتها بطريقة بناءة . وفي معظم الاحوال يستطيع حل مشكلاته دون ما اخلال بتركيبه الذاتي الداخلي .

أما الشخص غير السوي اوالشخص سيء الصحة النفسية ، فتملكه مشاعر الذنب في معظم الحالات ، وما يخبره من قلق ليس من النوع البناء ، وانما هو من النوع الغامض والمعمم والمهدد لكل توازنه النفسي . وهو لا يرى طريقة واضحة لحل صراعاته ، وعادة ما يعجز عن تناول أزماته بطريقة ناجحة ، وعدم القدرة هذه تسلبه ثقته بنفسه واحترامه لذاته . وقد يتفاقم احساسه بالتهديد بحيث ينمو معه اضطراب في السلوك ، تتراوح درجته من الشكل البسيط الى الخطير والحاد . فالاختلاف بين

(21) Klee, J.B. The absolute and the relative : Two aspects of dynamic experience. Darshana International, Moradabad (India), 1964, Vol. IV, Nos. 1 & 2.

الشخصية السوية والشخصية غير السوية ، او بين الشخص حسن الصحة النفسية والشخص سيء الصحة النفسية ، هو في حقيقته « اختلاف في الدرجة وليس في النوع »(٢٢) .

يعني ذلك ايضا ، ان الشخصية السوية او الصحة النفسية مفهوم نسبي ، وان تقييم الشخصية يتحقق على نحو أفضل في اطار معايير نسبية السوية او نسبية الصحة النفسية . فمفاهيم الصحة والمرض ليست بمصطلحات تشير الى معايير ومعاني مطلقة ، ولكنها دلائل مميزة متفق عليها فحسب ، نستخدمها لتحديد الحالات المختلفة بطريقة نسبية . بيد أنه لاينبغي أن يفهم من هذا أنه لاتوجد صورة عامة للشخصية السوية يتفق عليها علماء النفس ، وهو ما نوضحه فيما يلي .

●●●

خصائص الشخصية السوية

لقد استطاع علماء الشخصية Personologists ، من الدراسات الوفيرة التي أجريت على أشخاص من مستويات عمرية مختلفة ، ومن كلا الجنسين ، ومن خلفيات اجتماعية اقتصادية وثقافية متباينة ، أن يحددوا عددا من الخصائص التي وجدوها في الاشخاص الذين يتصفون بشخصيات سوية . واذا كان لايوجد شخص من يتصف بالشخصية المريضة Sick personality يعاني من كل أشكال مرض الشخصية ، كذلك لايوجد شخص من يتصف بالشخصية السوية او الصحية والمتمتعة بالصحة النفسية Healthy personality يتسم بكل الخصائص المميزة للأشخاص الأصحاء نفسيا . وفيما يلي نعرض بالتحليل لابرز هذه الخصائص المميزة للشخصية السوية :

تقبل الذات

يعني تقبل الذات Self — acceptance ، الدرجة التي يكون عندها الفرد قادرا على ، وراغبا في ، أن يعيش مع خصائصه الشخصية التي تلقى منه تقديرا واعتبارا »(٢٣). وتفسر جيرسيلد ، ذلك(٢٤) « بأن الشخص المتقبل لذاته يتصف بتقدير واقعي لمصادره مقترنا بتقديره لجدارته واستحقاقه ،

(22) Carroll, H.A. Mental Hygiene. London, Toronto, Tokyo : Prentice-Hall, Inc., 1969, P.4.

(23) Pannes, E.D. The relationship between self-acceptance and dogmatism in junior-senior high school students. J.educ. Sociol. 1963,36,419-426.

(24) Jersild, A.T. The Psychology of adolescence. 2d ed. New York : Macmillan, 1963.

ويتأكيد على معاييره واعتقاداته الخاصة دون أن يكون عبدا لآراء الآخرين ، وبتقييم واقعي لحدوده دون اقلال غير معقول من شأنه . والاشخاص المتقبلون لذواتهم يعترفون بمصادر قوتهم ، وهم في نفس الوقت متحررون من الاعتماد عليها حتى ولو لم تكن كلها مرغوبة . وهم ايضا يعترفون بنواقصهم بدون توجيه اللوم غير الضروري الى ذواتهم » .

ويرتكز تقبل الذات الى بعض المقومات الرئيسية كما يلي :

فهم الذات وهو ادراك للذات يتصف بالصدق لا بالادعاء ، بالواقعية لا بالوهم ، وبالحق لا بالزيف ، وبالصراحة لا بالخداع ، وبالمواجهة لا بالالتواء . وفهم الذات Self — understanding ليس مجرد الاعتراف بالحقائق ولكن ايضا التحقق من مغزى هذه الحقائق .

ويتوقف فهم الفرد لذاته ليس على قدراته العقلية فحسب ولكن ايضا على فرص اكتشافه لذاته self — discovery فينبغي أن تتاح له فرصة اختبار قدراته دون أن يلقى حماية زائدة من الآخرين ، وأن يسمح له بأن يختبر مهاراته وقدراته في تمايزها في مقابل مهارات وقدرات الآخرين لكي يعي موقعه بالنسبة لهم .[25]

وقد يأتي نقص فهم الذات من الغباء أو العماء ، أو من الجهل ، وقد يأتي من نقص فرص اكتشاف الذات ، او من نزعة الشخص الى أن يرى نفسه كما يود أن تكون عليه فحسب ، لا كما هي عليه . واذا كان الشخص في غمامة ازاء مايفعله ويعمى عن أن يرى واقعه ، فانه يندمج في نوع من الخداع الذاتي self — deception لكي يخفي مايراه حتى تتفق رؤيته مع ما يتوق اليه .

ان فهم الذات وتقبل الذات هكذا يرتبطان بعضهما ارتباطا وثيقا . فبقدر ما يكون فهم الشخص لذاته سلبيا ، يكون تقبله لذاته سلبيا أيضا ، والعكس صحيح . ويؤدي نقص الذات الى تباين بين مفهوم الشخص عن ذاته كما يود أن يكون عليه (مفهومه عن ذاته المثالية) والصورة التي يدركها عن نفسه من خلال تفاعله الاجتماعي مع الآخرين (مفهومه عن ذاته الواقعية) .

فهم الفرد لذاته يمثل بذلك مقوما هاما من مقومات السواء النفسي ، فمن خلال الفهم نتمكن من

(25) Broon, P. Relationship of [illegible] ted in self-understanding [illegible] Psychol.' [illegible]

أن تكون لدينا بصيرة أفضل بأفكارنا وأفعالنا ومشاعرنا ، وكذلك بأفكار وأفعال ومشاعر الآخرين . بهذا الفهم نكون أكثر واقعية مع انفسنا ومع الآخرين ، وأكثر ادراكا لأسباب السلوك ومحركاته وموجهاته ، وأكثر قدرة على حل مشكلاتنا وعلى حماية أنفسنا من سوء التأويل الذي يهدد سلامة العقل والعلاقة مع الآخرين .

وقد درس بعض الباحثين العلاقة بين فهم الفرد لنفسه وليئته ، ووجدوا أن الأشخاص الذين يميلون الى أن يكونوا « في موقف دفاعي » ، وهو من دلائل سوء التوافق ، يكونوا أقل دقة وأكثر خطأ في رؤيتهم لأنفسهم وللآخرين ، وأقل توفقا مع أنفسهم ومع الآخرين ، والعكس صحيح بالنسبة للأشخاص الأقل دفاعية ، فهم أكثر إدراكا لأنفسهم وللآخرين ، وأفضل توافقا مع أنفسهم ومع الآخرين[٢٦] .

التوقعات الواقعية : حينها تكون توقعات الشخص للانجاز واقعية ، يكون أداؤه متفقا مع توقعاته ، وتكون توقعاته أكثر قابلية للتحقيق والتطبيق . وهذا بدوره يسهم في رضاء الفرد عن نفسه ، وهو شرط ضروري لتقبل الذات .

وتميل التوقعات الى أن تكون واقعية حينها يحددها الشخص نفسه دون أن يكون خاضعا الى حد كبير لتأثير الآخرين ، وحينها يكون لديه فهم كاف لذاته يمكنه من التعرف على حدوده وامكاناته . فقد تكون أهداف الشخص واقعية ، ولكنه قد تنقصه المعرفة أو المهارات اللازمة لتحقيق هذه الأهداف ، وينتج عن هذا الموقف « احباطات » تهدد سلامة الشخصية . وهذا يستلزم تضييق الفجوة بين ذاته الواقعية وذاته المثالية ، ومن ثم يكون الشخص أكثر تقبلا لذاته .

عدم وجود معوقات من الخارج : قد يعزى عجز الشخص عن تحقيق أهدافه الواقعية الى معوقات بيئيه لايملك حيلة في التحكم فيها ، مثل التفرقة القائمة على السلالة أو الجنس أو الدين . في هذه الحالة ، يجد الشخص الذي يعرف امكاناته أنه من الصعب عليه أن يكون راضيا عن نفسه وواقعه ، وبالتالي يقل تقبله لذاته . وحينها يلقى تشجيعا وتأييدا من الآباء والمعلمين والزملاء لتحقيق النجاح الذي تؤهله له امكاناته ، فانه يجد فرصا مواتية لاكتشاف ذاته ولمعرفتها ولتقبلها .

---

(26) Chodorkoff, B. Self-perception, perceptual defense, and adjustment. Journal of Abnormal and Social Psychology 1942,49,508-512.

ولما كانت اتجاهات أعضاء الجماعة نحو الفرد هي التي تشكل وتعدل من اتجاهاته نحو نفسه ، فاننا نتوقع أن الشخص الذي يخبر اتجاهات اجتماعية مرغوبة يكون متقبلا لذاته . ومما يساعده على ذلك : عدم وجود معوقات بيئية ، وتمكن الفرد من المهارات الاجتماعية التي تساعده على التوصل مع الآخرين ، وتقبله لأهداف الجماعة ولمعاييرها .

ويؤدي غياب الضغط الاجتماعي الانفعالي على الفرد الى تمكينه من أن يبذل أقصى جهده ويعمل بأقصى طاقاته ، والى أن يكون أكثر توجها خارج ذاته ، والى أن يكون مرتاحا بدلا من أن يكون متوترا ، والى أن يكون سعيدا بدلا من أن يكون محبطا ، عدوانيا ، ناقما .

عدم وجود معوقات من الداخل : يعني ذلك تحرر الفرد من المعوقات الذاتية او الشخصية النابعة من داخله ، والتي تحول دون تقبله لذاته على نحو صحي سليم . هذه المعوقات تثبط من الهمة وتنتقص من الطاقة وتقلل من فعالية قدرات الفرد ومهاراته . ومن أخطر هذه المعوقات الداخلية مشاعر الذنب والخوف التي تستنفد الحيوية النفسية عند الفرد .

فالشخص يتملكه شعور مهدد بالتعاسة يعوق نجاحه نتيجة الخوف من الأذى الذي قد يصيبه بسبب الاحساس المؤلم بالذنب عما يعتقد أنه عمل خاطئ قام به . وقد يشعر بالذنب عندما يتحقق من أن أفعاله لاتتفق مع مايعتقد أنه من الواجب عليه عمله ، أو حينما لاتلقى استحسانا من الآخرين . والثابت ان الوالدين والمعلمين والزملاء يشاركون في معاونة الطفل بالتدريج على تكوين مقومات التحكم والتوجيه الذاتيين . ولكن ، قد يحاول بعض الكبار اخجال الطفل عندما يتصرف او يعمل على غير مايفضلون له ان يفعل ، وقد يتجاهل الطفل مثل هذا الضغط أو يقاومه ، ولكنه قد يشعر بالقلق والاضطراب اذا لم يستطع الاستجابة الى مطالب الكبار الذين يسعى الى اكتساب حبهم واحترامهم . وفي بعض الأحيان يتسبب الكبار في خلق مشاعر الخوف والذنب عند الطفل بهدف فرض حدود جامدة على سلوكه ، ويفوتهم في هذا أن فرض القيود قد يسبب من المشكلات الحادة مايفوق في نتائجه اخفاق الطفل في مراعاتها . وهكذا ، فان مثل هذه المعوقات الداخلية الذاتية أو الشخصية هي نتاج شروط أو ظروف غير مواتية في فترة الطفولة خاصة .

ومن ناحية أخرى ، ثمة شروط تكمن وراء تحرر الشخص من المعوقات الداخلية الذاتية ، في مقدمتها : ظروف أسرية مواتية للنمو الصحي لشخصية الطفل ، التوحد مع نماذج سوية من الكبار ، خبرات النجاح لدى الطفل ، استقرار مفهومه عن ذاته .

فالشخص الذي يتوحد مع أشخاص أسوياء يكون أكثر استعدادا لأن يكوّن اتجاهات ايجابية نحو الحياة ، ومن ثم يسلك على نحو يساعد كثيرا على تقبله البناء لذاته . ورغم ان التوحد او التقمص قد يتم بقوة في أي مرحلة عمرية ، الا أن ذلك يتحقق خاصة في الطفولة ، وهي الفترة التكوينية التي ترسي فيها دعائم الشخصية . وهذا يفسر لماذا تعتبر البيئة الاسرية هي المجال الرئيسي الذي يزود الطفل بمصدر ايجابي بناء للتوحد أو التقمص يسهم في نمو الشخصية السوية . ومن ثم بقدر مايكون النموذج الوالدي سويا ، فانه يكون مصدرا للتوحد الطفلي يؤثر بقوة في نموذج شخصية الطفل .

ومن شأن رجحان كفة خبرات النجاح عند الطفل أن يؤدي الى حسن تقبله لذاته ، في حين أن غلبة خبرات الفشل تؤدي الى رفضه لذاته . ويكون رجحان كفة خبرات النجاح كميا أو كيفيا : فقد يفوق العدد الحقيقي لخبرات النجاح على عدد خبرات الفشل ، وقد تكون خبرات النجاح أكثر أهمية ومغزى من خبرات الفشل التي قد تفوق في مقدارها خبرات النجاح .

اما مفهوم الذات المستقر أو الثابت فهو المفهوم الذي فيه يرى الشخص ذاته بنفس الطريقة معظم الوقت . واذا كان مفهوم الذات المستقر مرغوبا ، فان الشخص يكون أكثر استعدادا لتقبل ذاته . ومن ناحية أخرى ، لايساعد عدم استقرار مفهوم الذات على تزويد الفرد بصورة واضحة عن حقيقته ، فيتناقض بشأن ذاته ، يتقبلها أحيانا ويرفضها أحيانا أخرى . واذا كان للشخص أن ينمي عادة تقبله لذاته ، فينبغي أن يرى نفسه في ضوء مرغوب معظم الوقت لتدعيم مفهوم ذاته حتى يصير تقبل الذات عادة سلوكية .

تقبل الذات والتوافق الشخصي - الاجتماعي :

من الثابت في الدراسات النفسية تلك العلاقة الوثيقة بين تقبل الفرد لذاته وتوافقه مع نفسه ومع الجماعة :

التوافق الشخصي : ان الشخص المتقبل لذاته لايعتبر نفسه على أنه مثال الكمال . فبدلا من ذلك ، يكون على بصيرة بذاته يدرك من خلالها امكاناته واستعداداته بطريقة موضوعية ويكون أقدر على تبني مستويات موضوعية للطموح وعلى تحقيقها ، وبالتالي يكون أقدر على تجنب مواقف الاحباط بطريقة بناءة . وهو شخص يعترف بقوته وكذلك بضعفه ، وبايجابياته وكذلك بسلبياته وأخطائه . ومن

خصائص الشخص حسن التوافق أنه يعترف عادة بخصائصه الطيبة ، وبايجابياته قبل أخطائه ويركز على جوانب القوة في نفسه بدلا من جوانب ضعفه .

ويتصف الشخص المتقبل لذاته بالثقة بالنفس واحترام الذات . فهو أكثر ميلا الى تقبل النقد من الشخص الأقل تقبلا لذاته ، الذي يتجنب مواجهة واقعه وما قد يكون فيه من نقص أو خطأ . والشخص المتقبل لذاته ، وان كان قد لايحب النقد ، الا انه يتقبله ويفيد منه ، بل ويأتي بتقدير ذاتي ناقد يساعده على الاعتراف بضعفه وتصحيحه بهدف تحسين نفسه .

ويصاحب تقبل الذات الاحساس بالأمان . ويشجع ذلك الشخص بأن يعتقد في قدرته على تناول مشكلات الحياة ، وفي أنه يلقى قبولا واستحسانا من الآخرين في حياته ، ويشجعه ذلك أيضا على أن يرتكن الى مبادئه وقيمه في توجيه سلوكه بدلا من الاعتماد على آراء ومعايير الآخرين .

التوافق الاجتماعي : ويصاحب تقبل الذات تقبل الآخرين ، وهذا بدوره يصاحب غالبا بالتقبل من الآخرين . فالشخص المتقبل لذاته يشعر بالأمان بدرجة من الاهتمام بالآخرين ، ومن أن يبدي استشعار Empathy بهم أي القدرة على ان يتفهم أفكار ومشاعر وأفعال الشخص الآخر . ونتيجة لذلك ، يأتي بتوافق اجتماعي أفضل من الشخص الذي يكون متوجها نحو ذاته بسبب مشاعر النقص وعدم الكفاية .

والشخص المتقبل لذاته أكثر تحملا للآخرين وأكثر بصيرة بضعفهم ، بينما الشخص الرافض لذاته يستجيب للآخرين بطريقة عدوانية . ويصاحب تحمل الآخرين بالرغبة في مساعدتهم . « فالاشخاص المتقبلون لذواتهم متحررون في أن يكونوا كأنفسهم ، وفي ان يحققوا امكاناتهم ، وفي ان يساعدوا الآخرين على تحقيق ما لديهم من امكانات كذلك » .(٢٧) والشخص الذي يتعلم كيف يتقبل نفسه والآخرين يستطيع ايضا تقدير نفسه والآخرين ؛ أي ان احترام الذات واحترام الآخرين يرتبط بتقبل الذات وتقبل الآخرين .(٢٨)

---

(27) Brandt, R.M. The accuracy of [illegible] - estimate : A measure of self concept reality. Genet. Psychol. Monogr.' 19[illegible], [illegible]-99.

(28) Stock, D. The self-conce[illegible] and feelings toward others. J.Consult. Psychol.' 1494,13, 176-180.

ولايؤدي ادراك الشخص حسن التوافق بأنه موضع تقبل وتقدير الآخرين الى تنمية مفهوم ذات مرغوبة لديه فحسب ، ولكن يؤدي أيضا الى مشاركة اجتماعية أكبر . فالشخص حسن التوافق يرى نفسه على أنه كفء يستطيع مواجهة التحديات والمطالب والتوقعات والمسؤليات الاجتماعية ، ومن ثم فهو أكثر ميلا الى المشاركة في النشاط الاجتماعي وأكثر قدرة على التوحد مع الآخرين .

والشخص حسن التوافق ليس بحاجة الى التباهي او الاستعراض او غير ذلك من اشكال السلوك المميز للأشخاص سيء التوافق اللذين يحاولون بآلياتهم الدفاعية الحصول على تقبل اجتماعي . فالشخص حسن التوافق يمكن ان يكون طبيعيا ، متحررا ، صدوقا في علاقاته مع الآخرين ، وكل هذا يزيد من تقبله الاجتماعي .

ونجد في المبدأ الذي وضعه « إيريك بيرني » صاحب نظرية التحليل التبادلي **Transactional analysis** في علم النفس ، وهو :[29]

« أنا بخير ـ وأنت بخير » (**I'm O.K. — Youare O.K.**) ـ تأكيدا على اهمية الاعتراف المتبادل بين الاشخاص لبعضهم البعض ، والتقبل والتقدير والاحترام والحب والمعاضدة لبعضهم البعض ـ وذلك بالنسبة لسلامتهم النفسية .

الواقعية :

من الخصائص المميزة للأشخاص الاسوياء نزعتهم الى تقبل الواقع بدلا من الهروب منه . وهم وإن كانوا قد يبدون بعضا من عدم الرضا ازاء الواقع ، الا أنهم يتعلمون تقبل حدودهم ، ويسعون الى تحسين أنفسهم في اتجاه جوانب القوة فيهم . اما الاشخاص سيئو التوافق ، فهم على العكس من ذلك ينمون في أنفسهم عقدة الاستشهاد **Martyr complex** ـ فيعتبرون أنفسهم ضحية للواقع الخاطيء ـ فيحسون بالأسى لذلك من أنفسهم أو يلومون أنفسهم والآخرين على الظروف غير المواتية .

(29) Berne, E. Games people play. NewYork : Grove press, 1911
Berne, E. What do you after you say hello. New York : Grove press, 1972.

والشخص السوي يتقبل الحقيقة بأن الحياة صعبة في الغالب . ويعتبر بأن نجاحاته وارضاءاته تعوض الى حد كبير من اخفاقاته وخيبة أمله . يقرر « لاوتون » :(٣٠) ان الشخص حسن التوافق لايغير ، حتى وان كان يستطيع ، من الحقيقة بأن الحياة كفاح لاينتهي ، فيها ترتطم أهداف الانسان بقوى مقاومة خارجية ، انسانية وطبيعية . والشخصية تنمو وترتقي وتبدع من خلال محاولات حل المشكلات .

والشخص الذي يتقبل الواقع يعرف ان أحدا لايستطيع ان يدير عقارب الساعة الى الوراء أو ينصرف عن الحاضر لينتقل الى المستقبل . فهو يعرف انه ينبغي ان يعيش الحاضر ، بالرغم من شعوره بأن الماضي أو المستقبل قد يكونا أكثر اشراقا . والواقع أن الشخص السوي ينضوي بسرور في الخبرات التي تنتمي الى كل مرحلة عمرية من المراحل المتتابعة التي يمر بها ، فلا يتشبث على الماضي ولا يحلم بالمستقبل فحسب . **فالشخص السوي « لايهب زمانه » ، فلا يعتبر الحاضر من « الزمان العاتي » والماضي أو** المستقبل من « الزمان المواتي » ، وانما يعيش زمانه الذي فيه استمرار **لماضيه وتطلع لمستقبله .**

يلاحظ ان الاطفال والمراهقين غالبا ما يعيشون في توقع للوقت الذي سوف يكبرون فيه ؛ وهم في ذلك يتخيلون كل المسرات والحريات التي يتمتع بها الكبار ويغفلون عن المسؤوليات المنوطة بعالم الكبار . وقد يتوق بعض الناس في المرحلة الوسطى من العمر الى الايام التي سوف يحالون فيها الى التقاعد كي يرتاحوا من المسئوليات والمتاعب ، ولكن لايدركون ما قد يكون في هذه الفترة من احساس بالوحدة والعجز .

كذلك قد يحن بعض الناس الى الماضي ؛ فيمضون وقتهم في ذكريات وأحلام ، ويجترون لهو وانتصارات الشباب .

هذا « النكوص » الى الماضي قد يقف حجر عثرة أمام حسن توافقهم . يقول « بريين » :(٣١)

« ان الحنين الى الماضي **Nostalgia** ربما يصبح عقارا مخدرا ، وشكلا من أشكال افساد الذات او الاستهواء الذاتي **Self — abuse**، ووهما لاستعادة الماضي كبديل للعفو عن الاخفاق في الحاضر» .

---

(30) Lawton, G. Aging successfully. New York : Columbia, 1951.

(31) Brien, H. Looking back at the future. The New York times' Nov. 17, 1963.

فبصرف النظر عما قد يوجد في العالم الواقعي من أشياء غير مستحبة ، فان الشخص السوي لايحاول الهرب الى عالم الخيال والاوهام حيث قد يجد كل شيء مستحبا ووديا . فهو ، بدلا من ذلك ، « يتقبل سلطة الواقع ، حيث يجد اشباعاته في الحياة في انجازاته وخبراته التي تحدث في العالم الحقيقي وليس في عالم الايهام وأحلام اليقظة .(٣٢)

ولا يعني هذا بطبيعة الحال ان الشخص السوي لايعيش أحيانا في أحلام وخيالات ، وانما يعني أن الهروب الى أحلام اليقظة ليس أسلوبه المميز في التوافق مع المواقف الواقعية الصعبة او غير السارة في الحياة . واذا راودته أحلام يقظة ، يكون أمد هروبه قصيرا ، أو سرعان مايعود الى العالم الحقيقي ليواجه مشكلاته بموضوعية ومسئولية .

التوجه في الحياة وفقا لفلسفة غنية بالمعاني :

يرتكز الشخص السوي في توجيه حياته على فلسفة تساعده على تكوين خطط بناءة وانتهاج أسلوب حياة رشيدة يتفق مع نظام أهدافه وقيمه ويحققها بطريقة تلقى استحسانا اجتماعيا . فتبني الشخص لنظام من الاهداف والقيم يجعل الحياة بالنسبة له غنية بالمعاني Meaningfulness ـ فيبدو اكثر غنى وحيوية ، وأكثر آمالا واكتمالا ، وأكثر استحقاقا واشراقا . والشخص السوي تكون حياته هكذا ذات معنى (*) . اما الشخص غير السوي او غير الناضج فحياته جدباء من المعاني Meaninglessness ـ فاللا معنى في الحياة هو الاحساس بالفراغ ، وباللاهدف ، وباللاقيمية(٣٣) .

هذه الفلسفة الغنية بالمعاني التي يرتكن اليها الشخص السوي في توجهه في الحياة ، قد ترتكز على معتقدات دينية ، أو على معايير مثالية ، أو على خبرات شخصية .

ان الشخص سيء التوافق يفعل ما يريده دون أن يضع الآخرين في اعتباره ، أو يفعل ما يحثه الآخرون عليه حتى وان كان يعرف ان افعاله خاطئة ولا تلقى استحسانا من جماعته . وعلى العكس من

(32) Lawton, G. op. cit.
(33) Frank, V.E. Man.s search for meaning. New York : Washington square press 1963.
Frank, V.E. The Will to meaning : Foundations and applications of logotherapy. New York : World, 1969.

(*) ارجع الى كتاب : فيكتور فرانكل . الانسان يبحث عن المعنى . (ترجمة : طلعت منصور ، مراجعة الدكتور عبد العزيز القوصي) ، تحت الطبع .

ذلك ، فان الشخص حسن التوافق يتمتع بزاد أخلاقي معنوي يوجه سلوكه في المواقف الاجتماعية المختلفة ويحدد علاقاته بالآخرين .

ولقد تبين ان الفلسفة الموجهة لحياة الاشخاص الاسوياء كثيرا ما تتأثر بالعقيدة الدينية ، ان لم تكن مستندة عليها بالفعل . وهم يعتبرون الدين خبرة شخصية تغني حياتهم وتشبع حاجتهم . اما الاشخاص غير الاسوياء أو سيئو التوافق ، فيميلون الى رفض الدين ويدعون الى الالحاد ، أو يتعلقون ببعض الدعاوي أو التيارات الدينية المتطرفة التي ترتكز أكثر على الشكل لا على جوهر الدين ، أو تركز على الممارسات والطقوس الدينية أكثر مما تركز على المبادىء الدينية[34] . فالدين بالنسبة لهم غالبا ما يكون تكأة لمشاعر عدم الامان او عدم السعادة او ميكانزما هروبيا من هذه المشاعر[35] .

ويمكن ان نميز بين التوجه الهادف **Goal orientation** عند الأسوياء وغير الأسوياء في ناحيتين : فالأسوياء يتبنون أهدافا واقعية ، في حين تغلب اللاواقعية على اهداف غير الأسوياء في الحياة . ويعني ذلك بالنسبة للأسوياء خبرات نجاح وانجاز ، بينما يعني بالنسبة لغير الأسوياء خبرات احباط وخيبة أمل . ومن ناحية اخرى ، يتضح الفارق في أن الأسوياء يحاولون مهمتهم الرئيسية اكتساب الخبرات والمعلومات والمهارات اللازمة لتحقيق أهدافهم . وهم يسعون الى تحسين خبراتهم ومعارفهم ومهاراتهم ، أو يخفضون من مستويات أهدافهم حتى تصير أكثر واقعية وأكثر قابلة للتحقيق . بقول آخر ، تعتبر أهداف الأشخاص الأسوياء في الحياة أهدافا موجهة الى النمو والتقدم . اما الأشخاص غير الاسوياء ، فلا ينظمون جهودهم وظروفهم حتى يحققوا أفضل استخدام لامكاناتهم واستعداداتهم الطبيعية . ولكنهم ، بدلا من ذلك ، يحققون طموحاتهم اما بواسطة محاولة الحصول على مساعدة من الآخرين أو يحققونها في الخيال والوهم .

(34) Clark, W.H., & C.L. Warner. The relation of church attendance to honesty and kindness in a small community.
Relig. Educ.' 1955,50,340-342.
Keene, J.J. Religious behavior and neuroticism, spontaneity and world-mindedness. **Sociometry**' 1967,30,137-157.
Lowe, W.L. Religious beliefs and religious delusions. **Amer. J. Psychother.**' 1955,9,54-61.

(35) O'Reilly, C.T. Religious practice and personal adjustment of older people **Sociol. Soc Res.**' 1958,42,119-121.

الشخص السوي اذن شخص جيد التنظيم ـ فهو يكامل بين وظائفه وأدواره المختلفة في الحياة ويوجهها وفقا لنموذج متسق وواضح ومحدد . ويمكنه ذلك من تحقيقه لذاته .

الاستقلالية والتوجيه الذاتي :

يتميز الشخص السوي باستقلالية في الفكر والعمل ، تتبدى في مقدرته على التوجيه الذاتي التي تتضح في تخطيطه لمجرى حياته لكي يرفي بحاجاته ومطالبه . يقول « باريت » في دراسة له عن « الشخص الناضج » ، « أن الشخص الناضج يثق في مقدراته ويعتمد عليها في تنظيم وتفسير البيانات الخاصة بخبرته . وهو يحرك بحرية مساره في الحياة[٣٦] .

فالشخص السوي أكثر تحررا في تقرير مصيره اعتمادا على نفسه وثقته في مقدراته . وبقدر ما يكون الشخص أكثر توجيها لنفسه كأن يعول على مقدراته في جمع الحقائق وتقييمها ، يكون اكثر مقدرة على « التحرر من التوجيه من الخارج » ، أي يكون متحررا من الاعتمادية غير الناضجة على آراء وتوجيهات الآخرين . هنا يكون الشخص في موقع افضل ، يزداد فيه فهمه لنفسه وثقته فيها واحترامه لها . وكلما يزداد ادراكه لحقائق الحياة وتعلمه لكيفية معالجة مشكلها ، يتعاظم توجيهه لنفسه وتحمله للمسؤولية ازاء قراراته وعلاقاته .

اما الشخص غير الناضج ، فهو غير قادر على تقرير مصيره وتوجيه مسار حياته ، لأنه قد توجهه من الداخل « حتمية الحاجات البيولوجية » ، ومن الخارج « حتمية الادوار الاجتماعية » ؛ فلا سبيل أمامه في الغالب لأن يخبر تلك الموجهات الاساسية للشخصية الناضجة وفي مقدمتها « الحرية » و « الاختيار » و « المسؤولية » وغير ذلك من مقومات « التوجيه الشخصي المسؤول » . وبالتالي ، فان الشخص غير الناضج يعيش وجودا قدريا محتوما ، يلعب فيه الادوار المعينة له ويشبع حاجاته المادية والجسدية ، بلا احساس واع بمعنى الوجود وتحقيقه .

والشخص الموجه لذاته أقدر على احترامه لنفسه وللآخرين ، لأن نموذج حياته نابع من اختيار ذاتي مسؤول ؛ وذلك خلافا للشخص الذي يخاف من الاستقلالية بسبب شعوره بالتهديد من النقد او بسبب مشاعر عدم الكفاية في تحمل المسؤولية .

(36) Barrett-Lennard, G.T. The mature person. Ment.Hyg.' 1952,46,98-102.

والشخص السوي يبدي استقلاليه بطرق شتى : ففي اتخاذ القرارات ، يكون قادرا على « ان يتخذ قرارات هامة بأقل قدر ممكن من القلق أو الهموم أو الصراعات أو البحث عن النصيحة أو غير ذلك من أنماط السلوك غير الناضج . وبعد ان يصل الى اختيار ، فانه يلتزم به ، الى ان تدخل في الصورة عوامل جديدة ذات أهمية رئيسية » .[٣٧]

ويبدو الاستقلالية في ان الشخص يكون مدفوعا من داخل ذاته **self — motivated** ، فلا يعتمد على الأخرين حينما يكون قادرا على أن يكون مستقلا . فمن الخصائص المميزة للشخص حسن التوافق « تلك الدرجة التي عندها يتوصل الى حل لاعتماديه ويكون في مقدوره أن يقوم بوظائفه مستقلا عن التأثيرات الاجتماعية »[٣٨] . وهو قادر بذلك على ان يكون اهتمامات جديدة ، وصداقات جديدة ، وخبرات جديدة ، ومهارات جديدة ؛ ثمة قوى دافعة من داخله موجهة الى المزيد من نمو شخصيته وارتقائها .[٣٩]

واذا كان « جيلفورد » قد توصل ، من تحليله لنتائج مجموعة الدراسات التجريبية ، الى تحديد بُعْد من أبعاد الشخصية يطلق عليه « الاعتماد على النفس في مقابل الاعتماد على الأخرين »[٤٠] **Self - reliance ver sus dependence** ، فان الشخص السوي ، استنادا الى ثقته بنفسه ومقدرته على توجيه دفة حياته ، يعتمد أيضا على الأخرين في سياق تبادل الأدوار الاجتماعية لاشباع بعض حاجته أو تجنب الاحباط أو العقاب أو للتعاون معهم في تحقيق مهام اجتماعية . يعني ذلك أيضا أن الشخص السوي « يساير » الجماعة التي يتوحد معها ، فيكون عضوا بناءا فعالا فيها دون ان يفقد احترامه لذاته ودون ان تميع هويته .

الارادة :

تتجسد فاعلية السلوك ، التي تستدعيها الحاجات النفسية ، في ادامات متعددة تتحقق بفضلها

---

(37) Lawton, G. **Aging successfully**. New York : Columbia, 1951.

(38) Brower, D. Child psychology : A look at tomorrow.
J. Genet. **Psychol**., 1963,102,45-50.

(39) Havighurst, R.J. Personality and patterns of aging. **Gerontologist'** 1968,8,20-23.
Havighurst, R.J., & Albrecht, R. **Older people**. New York : Longmans, 1963.

(40) Guilford, J.P. **Personality**. New York : Mc Graw-Hill, Inc., 1959.

عملية سيطرة الانسان على الواقع المحيط به وعلى نفسه ، وتغييره وترقيته لهذين الواقعين الداخلي والخارجي ، لواقعه الذاتي والموضوعي ، وما بينهما من تفاعل . هذه الفاعلية في السلوك قوامها ، بجانب عوامل أخرى ، آليات (ميكانزمات) الارادة عند الشخص السوي .

والارادة ، كظاهرة نفسية ، نعتبرها ركيزة أساسية لعمليات الضبط والتوجيه الذاتيين ، رغم ان البحث في سيكولوجية الارادة لم يلق اهتماما من علماء النفس . لذا علينا أن نتساءل : ما الارادة والسلوك الارادي ؟ وما هي آليات العملية الارادية ؟ تكشف الاجابة عن هذين السؤالين بالتالي عن مكانة الارادة في البناء النفسي للشخص السوي .

يرى بعض علماء النفس أن الخاصية الرئيسية المميزة للارادة هي ما يتصف به السلوك من وعي . لذا تعتبر أي فاعلية يبديها الشخص ، بقدر ماتفترض وعيا بالهدف ، سلوكا اراديا . ولكن الوعي بهدف السلوك ويطرق تحقيقه يمثل نشاطا يرتبط باعمال الفكر والعقل أساسا . ومن ثم يمكن أن تسمى السلوك في هذه الحالة سلوكا واعيا أو عقليا ولكنه ليس بالارادة . فرغم أن الوعي مكون رئيسي للارادة ، الا أن توحيد السلوك الارادي بالسلوك الواعي فيه مجانبة للصواب . فقد يكون الفرد في حالة من الوعي حينما يأتي بالخطأ أو حتى بأعمال الغواية والضلال ، أو يجهل بخطئه ، أو تصدر عنه تصرفات عن غير ارادة ، وغير ذلك مما يجعلنا نقرر أن كل سلوك واع ليس بالضرورة أن يكون سلوكا اراديا[٤١] .

وقد يربط البعض مفهوم الارادة بالسلوك الاندفاعي ، وهو الأداءات التي تخضع لتوجيه الانفعالات والعواطف في معظم الحالات أكثر مما تخضع للوعي . ولكن السلوك الارادي ، خلافا للسلوك الاندفاعي ، يقوم على الوعي والضبط والتوجه نحو الهدف . فتوحيد السلوك الارادي بالاندفاعي ، أي اعتبار الاندفاعية كمكون من مكونات عمليات الضبط والتوجيه الذاتيين ، يعني اغفال مقدرة الانسان على ادارة وتوجيه نشاطه بوعي [٤٢] .

كذلك ، فان تصور السلوك الارادي على أنه يتحقق بواسطة « قوة الارادة » يعتبر فهما خاطئا لحقيقة هذه الظاهرة النفسية . فالانسان لايستطيع بواسطة قوة مباشرة ضبط سلوكه وتوجيهه ، شأنه في ذلك

(41) Tchkharitchvily, Sh. The problem of will in psychology. Journal of soviet psychology' 1967. No. 4.

(42) Ibid.

شأن « الظل الذي لايستطيع ان يحمل الحجر » . فنمو العمليات الارادية يتأتى كنتيجة لاتقان العمليات المختلفة التي تكمن وراء السلوك ، ولتعبئة الطاقات النفسية عند الفرد لتحقيق أهدافه(٤٣)

يحدد « لوريا » الارادة على أنها القدرة على خلق مثيرات من داخل الفرد ، وعلى اتباع هذه المثيرات ومتابعتها ، أي القدرة على الاستثارة الذاتية self — stimulation الموجهة نحو تنظيم السلوك وضبطه . وتستند الأفعال السلوكية الارادية على وعي الفرد بأهدافه ، وعلى تصوره وتدبره للعمليات والاجراءات التي يمكن ان تضمن تحقيق الاهداف ، وعلى ما يباشره من سلطة واعية على نفسه ومن ضبط لنزعاته وحفزاته ، وعلى مغالبة الصعوبات والمعوقات التي قد تقف في طريق تحقيق الاهداف ، وعلى اتخاذ القرارات البناءة الحاسمة في حياته (٤٤) . وفي ضوء ذلك يمكن تحديد بعض آليات العملية الارادية كما يلي

__الفعالية الداخلية__ : وهي حالة تنشيط الجهد الذاتي ، وشحذ طاقات الفرد وتعبئتها في سبيل مغالبة الصعوبات والمعوقات ، وبالتالي مواجهة مايعترض تحقيق أهدافه وبرنامجه ، سواء كانت خارجية تفرضها الظروف المحيطة به ، أو معوقات أو مثبطات داخلية ذاتية كالنزعات السلبية والدفاعات والخوف والوهن والتردد والأنانية والضحالة المعرفية وغير ذلك مما قد يهدر من طاقات الفرد ومن توظيفها .

__توجيه الاوامر الى الذات__ : وهو من الآليات المميزة للسلوك الارادي . فاذا كان الشخص قد تعود أن يأمر بذاته ، فان ذلك يعني أنه قد حقق درجة عالية من الضبط والتوجيه النابعين من داخله . ومن شأن « توجيه الاوامر الى الذات » self - ordering ، أنه يسمح للفرد بأن « يحقق عن مبدأ وبقوة أهدافه وبرامجه التي يلتزم بها ، وينجز خططه ، وينظم سلوكه » . (٤٥)

تذخر الأعمال الأدبية بأمثلة عديدة عن دور « توجيه الأومر الى الذات » في مواجهة المواقف الصعبة التي قد يمر بها الفرد . فمثلا ، يصف « ليو تولستوى » هذا الدور الذى كان يقوم به أبطاله وخاصة في المواقف الحربية :(٤٦)

(43) Luria, A.R. **The nature of human conflicts : An objective study of disorganization and control of human behavior.** New York : Liveright Inc. Pub., 1932, p.p. 401-403.

(44) Ibid.

(45) Agaphonofe, IT. **Psychology of self-ordering.** Moscow : Krasnadar Pub., 1959,p.65.

(46) Tolostoi, L. **Selected works.** Moscow : Mir Pub., 1952, vol. 4.p. 238.

« وانهالت القذائف من فوقه واحدة تلو الأخرى ، وتملكته رعشة عارمة حالما عاد الى قواعده ، ثم جالت بخاطره فكرة أخذت تدفعه الى الخوف والتردد ، ولكن نفس هذه الفكرة اخذت تنقشع من ذهنه مرة أخرى ، وأنهضته لتوه . . . « لا ، لايمكن أن اخاف » . وأخذ يفكر ، بجزم أمره ، ثم انطلق بحصانه في خضم قعقعة السلاح » .

وأمثلة هذه المواقف كثيرة في الحياة اليومية ، حيث قد يراود الفرد تردد أو وهن بشأن اتخاذ قرار حاسم . ويعني ذلك أن ثمة علاقة وثيقة بين أن نأتمر بانفسنا وان ننطلق في سبيل تحقيق اهداف كبار في حياتنا .

<u>مقاومة الغواية والاغراء</u> : يحدد « سيرز وآخرون » ثلاث معايير لقوة الضمير وللضبط والتوجيه الذاتيين(٤٧) :

(اولا)مقاومة الغواية والاغراء resistence of temptation (ثانيا) التهذيب الذاتي ـ self instructionلاتباع قواعد السلوك السليم ، (ثالثا) الدلالة الواضحة للشعور بالذنب حينما يكسر الفرد هذه القواعداو تراوده نزعات الى ذلك . هذه المعايير السلوكية دالة للضبط الذي استدخله الطفل من نظام المبادىء والأحكام الخلقية ، المعايير الاجتماعية (internalized control) ، وهو ضبط قد مارسه واعتاده بواسطة مانعرض له من قبل من اثابة وعقاب .

تعني مقاومة الغواية والاغراء القدرة الداخلية للفرد على العزوف عن الاستجابة للمؤثرات الخارجية التي قد تغويه أو تغريه لكي يأتي بسلوك لاتقره المرغوبية الاجتماعية ولايقره ضميره وزاده الأخلاقي المعنوي رغم عدم افتضاح أمره او انكشاف فعلته ، كما تعني مقاومة الغواية والاغراء قدرة الفرد على مغالبة المؤثرات والالحاحات الداخلية التي قد توعز اليها نفس أمارة بالسوء » ، وعلى طرد الأفكار والهواجس التي تراوده بشأن فعل أو نزعة لاتقرها أخلاقيات الجماعة ولايأباها ضميره الواعي .(٤٨)

(47) Sears, R.R., et al. **Patterns of child rearing.** New York : Harper & Row Pub., 1957.

(48) Hill, W.F. Learning theory and the acquisition of values. **Psychol.** Rev., 1960,67,317-331 Breckenridge, M.E., & Vincent, E.L. **Child development.** Philadelphia, London : Saunders Co., 1966, P. 386.

الاقتناع الذاتي : فما يتبناه الفرد من أهداف ومن أساليب تحقيقها تتطلب تدعيما بالأدلة والبراهين والمعلومات التي من شأنها أن تجعل ارادته واعية . يرتبط ذلك بتبني الفرد لفلسفة في الحياة غنية بالمعاني ، وباستقلاليته وتوجيهه لذاته كما سبق ان ذكرنا .

هكذا ، يتضح ان الارادة وماتنطوي عليه من آليات تعتبر ركيزة أساسية للشخصية السوية .

المسئولية :

الشخص السوي أو حسن التوافق شخص مسئول ، أما الشخص غير السوي أو سيء التوافق فهو اما ان يكون كسولا أو مترددا في تقبله للمسئولية وتحمله لها ، أو يكون قعودا باحساسه بعدم الكفاية في الاضطلاع بالمسئولية .

فالشخص السوي يدرك ثقته في قدرته على مواجهة الحياة ومشكلاتها وعلى الاضطلاع بالمسئوليات الملائمة لعمره ولمستوى قدرته ولحجم معارفه وخبراته ومهاراته .

وهو واقعي لدرجة أنه يعترف بأنه لاينبغي أن يقدم على تحمل مسئولية بعض المهام التي لايكون مهيئا للاضطلاع بها بنجاح ، وهو يعرف أنه اذا فعل فانه سوف لايجني عدم استحسان الجماعة على اخفاقه فحسب ، ولكنه سوف ينتقص أيضا من ثقته بنفسه الى الحد الذي قد يجعله يتردد في تقبل المسئوليات في المستقبل . ومع ذلك فهو يتقبل التحدي لقدراته ، ولكنه ليس مدفوعا بطريقة قسرية الى المبالغة في تقديرها .

وهو يتقبل المسئولية ازاء نفسه وسلوكه . فاذا أخطأ ، فانه يتقبل النقد ، ويكون راغبا في تصحيحه لذاته . واذا واجهته مشكلة ، فانه يضطلع بمسئولية التصدي لها والسعي الى حلها . فهو يواجه المشكلات التي تتطلب حلا بدلا من أن يجد وسائل الهروب منها ، بل انه يستمتع بالمواجهة وبتحطيم الصعوبات التي تقف في طريق نموه وسعادته ، طالما أنه قد اقتنع بأنها معوقات حقيقية وليست وهمية[٤٩] . وهو يلتزم بموقع في الحياة أو بدور معين فيها ، وهو يدرك أنه مطالب بأن يملأ هذا الموقع ويثري هذا الدور بتقبله للمسئوليات واقباله على الخبرات التي تلائم موقعه ودوره »[٥٠] .

---

(49) Lawton, G. **Aging successfully**. New York : Columbia, 1951

(50) Ibid

لكل هذا أيضا يعتبر الشخص المسئول شخصا يمكن الاعتماد عليه ، حيث يعرف الآخرون مدى التزامه بما يقوله وبما يوكل اليه من مهام ، وذلك خلافا للشخص سيء التوافق الذي يبدي عذراء لكل شيء ، والذي تكون حياته متاهة من الوعود المنكوثة والاعمال غير المكتملة .

التوجه خارج الذات :

يعتبر الأسوياء أكثر توجها خارج ذواتهم ، بينما يميل الأشخاص غير الأسوياء أو سيئو التوافق الى ان يكونوا أكثر توجها داخل ذواتهم أو تقيدا بعالمهم الداخلي .

فالشخص السوي ، المتوجه خارج ذاته ، يبدي اهتماما بالناس وبالمواقف وبالاشياء ، كما يبدي اقبالا على موضوعات الحياة . وهو يستخلص لذة واشباعا من اتصالاته الاجتماعية أكثر مما يستخلصها م اتصاله مع نفسه ومعايشته لعالمه الذاتي . ويختلف ذلك عن الشخص المتوجه داخل ذاته - inner oriented أو المقيد بذاته bound — self الذي يبدي اهتماما أكبر بنفسه .

والشخص الذي يتسم بالتوجه خارج ذاته outer orientation يتسم أيضا بعدم الأنانية ، فهو يرى صالح الآخرين ويسعى الى تقديم العون والسند لهم . وهو بذلك يتصف بصفتين رئيسيتين : (اولا) الاستشعار empathy (*) ، أي القدرة على أن يحس بمشاعر الآخرين وأن يفهمها (ثانيا) . المشاركة sympathy (*) اي القدرة على التعاطف مع الآخرين وعلى تبادل المشاعر معهم دون ماشعور بالحسد او الحقد ازاء نجاحاتهم او بالشماتة او الازدراء ازاء اخفاقاتهم .

وثمة خاصية مميزة للشخص السوي وهي مايتصف به من مقدرة متزنةوناضجة على بذل الحب وتلقي الحب ، على أن يحب وأن يكون محبوبا . ولايعني ذلك أنه يفتن بالآخرين ويتيم بهم بطريقة " " ، ولايعني انه يمطر بالحب والعطف أولئك الاشخاص الذين يبدون اهتماما ضئيلا به ، كما لايعني ذلك سعيه الى طلب الحب والاهتمام من أولئك الاشخاص الذين يعجب بهم بصرف النظر عن شعورهم نحوه . يعني ذلك ، بالاحرى ، عطاء وأخذا ناضجين للحب مع الأشخاص الذين يتبادل معهم الاعجاب والاحترام والتواد .

ومن شأن الاهتمام بالناس والاقبال عليهم أن يساعد الشخص السوى على أن يكتسب استبصارا كافيا بنفسه بقدراته ، مقارنة بقدرات الآخرين ، وبالتالي لاتنمو عنده أوهام الاستعلاء او

(*) Pathos كلمة يونانية تعني الوجدان او الشعور او العطف .

العظمة . وهو لذلك يكون قادرا على أن يتعرف على مشاعره وردود أفعاله وعلى أن يعترف بها ، وبالتالي يكون أقدر على التغير في الاتجاه الصحيح .

ولما كان الشخص السوى متحررا من داخله ، أي متحررا من الأوهام والدفاعات والمخاوف والذنب والنقص والتعصب والعداوة وغير ذلك من المعوقات الذاتية فانه يكون بالتالي مرنا في تفكيره . فهو لايتشبث برأيه ، فلا يعتقد أنه دائما على الصواب وأن من لايتفق معه فهو دائما على باطل . وعلى العكس من ذلك ، فهو امين مع نفسه ، ويقدم نفسه للاخرين كما هو .

وهو لا يبدي لذلك قساوة على الآخرين وانما تتسم ردود افعاله حيالهم بالشفقة ، حتى ولو لم يكونوا شفوقين معه . ولا يعني ذلك ابداء الضعف ازاء ردود افعالهم او اغفال قساوتهم ، وانما بالاحرى النظر اليهم بعين العطف اكثر ما هو بالغضب .

والشخص المتوجه خارج ذاته بحبه واحترامه للآخرين وثقته في نفسه وفي الآخرين ، يكون تواقا الى ان يكشف لهم عن افكاره ومشاعره ، ومن ثم تعتبر الدرجة المعقولة من الكشف عن الذات self - disclosure خاصية مميزة للاشخاص الاسوياء ، ولا يعني ذلك الكشف عن النفس بطريقة غير مميزة او غير مشروطة ، وانما بالاحرى انكشاف الذات لأولئك الاشخاص الذين يحبهم ويحترمهم كاصدقاء ، ولقد تبين من بعض الدراسات ان الاشخاص سيئي التوافق ، الذين يتصفون بعدم الثبات الانفعالي غالبا ما يكشفون عن انفسهم بدرجة اكبر مما يفعله الاشخاص الذين يتصفون بالاتزان الانفعالي ، كذلك فان الشخص سيء التوافق اقل تمييزا في انتقاء الاشخاص الذين يكشف لهم عن نفسه ، ومن ناحية اخرى يشيع نقص الكشف عن الذات بين اولئك الاشخاص الذين يتصفون بسوء التوافق والذين يعانون من الاشكال المختلفة من اضطرابات الشخصية[٥١] .

فالشخص السوي يكشف عن افكاره ومشاعره ومطامحه فقط لأولئك الاشخاص الذين يعتقد انهم سوف يبدون فهما له وتعاطفا معه والذين يبادلهم ثقة بثقة[٥٢] .

يلخص « باريت ـ لينارد » في دراسته عن الشخص الناضج خصائص الشخص المتوجه خارج ذاته على النحو التالي :[٥٣] .

---

(51) Jourard, S.M. A study of 'self-disclosure. Scient. American' 1958,198,no.5,77-82. Pederson, D.M., & V.J. Breglio. Personality correlates of actual self-disclosure. 'psychol. Rep.' 1968,22,495-501

(52) Jourard, S.M. Healthy personality and self-disclosure. Ment. Hyg.' N.Y.,1959,43; 499-507.

(53) Barrett-Lennard, G.T. The mature person Ment. Hyg.' N.Y., 1962,456,98-102.

« الشخص المتوجه خارج ذاته ينزع بصدق الى تقدير وتقييم الآخرين كما يقدر ويقيم ذاته . وهو يبدي ارتياحا للاخرين وانفتاحا عليهم لأنه مرتاح ومنفتح مع نفسه وهو ليس بمحاذر او بمدافع عن نفسه لأنه لا يوجد لديه ما يخفيه . وهو لا يمسخ نفسه لكي يرضي الآخرين كما لا يستخدمهم على انهم كباش فداء لعدم رضاه عن نفسه » .

النضج الانفعالي

يمثل مقوما أساسيا للشخصية السوية . فبقدر مايكون الشخص ناضجا انفعاليا ، تكون قدرته على أن يحيا حياة سعيدة نافعة فعالة ، وأن يواجه عوامل الضغط والشدة وما يرتبط بها من احباطات وقلق في العالم المحيط به .

والشخص الناضج انفعاليا يتسم بالضبط الانفعالي ، فهو يضطلع بمسئولية اخضاع انفعالاته تحت ضبطه وسيطرته حتى لايسبب ايذاء لغيره او لنفسه ، فهو قادر على مواجهة الاحباطات دون عنف او تدمير .

والشخص الناضج انفعاليا يستطيع ان يعيش مع انفعالاته في ارتياح ، بدون أن تسيطر عليه ، وبدون أن تلون تفكيره وتوجه سلوكه ، وبدون أن يجد انه من الضروري أن يكون في حرب معها بصفة مستمرة . وهو مقتدر في ذلك لانه قد نمت فيه درجة من تحمل الضغط او الشدة stress tolerance تحمل القلق ، الاكتئاب ، الاحباط ، تحمل الألم والحرمان . واذا لم يكن كذلك ، فانه سوف يتعرض باستمرار للا ضطراب الانفعالي حتى اذا تعلم كيف يقمع انفعالاته الى درجة أن الآخرين قد يعتبرونه ناضجا انفعاليا .

يحدد « فرانز الكسندر » مضمون النضج الانفعالي بأنه قهر للاحساس بعدم الأمان ، واتزان في المشاعر والاستجابات الانفعالية . والنضج الانفعالي يتضمن بذلك اختبارا لمقدرات الفرد ازاء حقائق الحياة ومعرفة بماهية هذه المقدرات ، وبالتالي فان الشخص الناضج انفعاليا يكون قد أثبت نفسه للآخرين ، وهو راض عن نفسه ، فلا يستحوذ عليه عالمه الذاتي ، بل يقدر على أن يحول اهتمامه الى خارج ذاته تجاه بيئته الاجتماعية والمادية (٥٤) .

(54) Alexander, F. Emotional maturity. Mental Health Bulletin of Illinois Society for Mental Hygiene' 1948, 26, 1-4.

والشخص الناضج انفعاليا ناضج اجتماعيا في الغالب ـ فهو قادر على اقامة علاقات اجتماعية سليمة تقوم على الاخذ والعطاء البنائين مع الآخرين ، وهو فعال منتج في عمله ، وهو اذ يحقق ذاته في العمل يسعى الى تحسين عمله وتنمية دوره فيه .

وهو يتميز بالمرونة والمواءمة ، فيستطيع مواجهة حقائق العالم الخارجي ، ويتقبل حقيقة الظروف المتغيرة ، ولايثبت على أن « يعيش في الماضي » ولايتمسك بنمطية جامدة من السلوك . ويعني ذلك أيضا مقدرته على مواجهة المواقف الصعبة على اساس من الوعي والسعي والتحمل وبذل الجهد [٥٥] .

اما الشخص غير الناضج انفعاليا ، فتسيطر عليه انفعالاته ، وبالتالي فهو أقل سيطرة عليها وضبطا لها . وهو يتسم بالخجل ، وحدة الاستثارة ، والتناقض الوجداني ، والتقلب المزاجي ، والنزعة الى العدوان ، ويوجه حياته الوجدانية مبدأ السعي وراء اللذة أساسا . وهو شخص جامد ، قليل الحيلة ، يشعر بالتوتر ازاء أبسط المشكلات التي كثيرا مايهرب منها أو يعالجها بطريقة غير بناءة . ويتسم سلوكه بالمحدودية التي لاتتلاءم الا مع الأشخاص الأصغر منه سنا ، وبالتالي فهو يبدي عجزا في الحصول على الاشباعات المرتبطة بسلوك الراشدين [٥٦] . ويرتبط الضبط الانفعالي بالضبط المعرفي عند الشخص السوي . فمقدرته على التحكم في انفعالاته تخضع أيضا لوعيه المعرفي ولثراء خبراته ومعلوماته . ولذلك فهو أقدر على تنظيم وضبط انفعالاته ودوافعه .

يطلق « كلاين » على هذه المقدرة مصطلح « الضبط المعرفي » cognitive control ، مؤكدا بصفة خاصة على أهمية الانتباه الانتقائي selective attention ـ أي الانتباه للجوانب ذات الأهمية الأكبر ، وليس لكل الجوانب في البيئة ـ في تنظيم السلوك وضبطه [٥٧] . وقد توصل « لازاروس وآخرون » الى أن الكثير من اضطرابات الشخصية يعزى الى تضاؤل آليات الانتباه الانتقائي والضبط المعرفي للدوافع والانفعالات [٥٨] .

---

(55) Ibid.

(56) Cantril, H. **The "why,, if man,s experience.** New York : Macmillan, 1950,p.128.

(57) Klein, G.S. **Need and regulation.** In M.R. Jones (Ed.), **Nebraska Symposium on Motivation.** Lincoln : Nebraska Univ. Press 1954.

(58) Lazarus, R.S., et al. Personality and psychological stress. **Journal of personality'** 1957, 25,559-577.

اما « زيمباريو » في كتابه « الضبط المعرفي للدافعية » cognitive control of motivation، فيؤكد على الدور الذي تباشره المعارف في تنظيم الجانب الدافعي ـ الانفعالي من بناء الشخصية ، وبالتالي في تعديل السلوك وضبطه وتوجيهه .[٥٩]

تحقيق الذات :

يسيطر على معظم نظريات الدافعية مفهوم الاتزان homeostasis ويعني الاحتفاظ بحالة من الثبات ، ومايتضمنه ذلك من التغلب على القصور والعجز ، واختزال التوتر ، واستعادة حالة التوازن . ولكن هذا المفهوم لايفسر سلوك المكتشفين والعلماء والمبدعين والطموحين والانجازيين ، كما لايقدم تفسيرا كافيا لاستمرار الفرد في النمو والارتقاء .

فالانسان يسعى الى ان ينمو ، وأن يتحسن ، وأن يصير أكثر مقدرة ، وأن يعبر عن نفسه ـ أي أن يحقق امكاناته وأن يثبت ذاته ككائن انساني . يوضح « هكسلي » ذلك فيما يلي : [٦٠]

« ان الحياة الانسانية كفاح ـ ضد الاحباط ، والتجاهل ، والمعاناة ، والشر ، والقصور بصفة عامة ، ولكنها أيضا كفاح من أجل شيء ما ويبدو أن مصطلح تحقيق ، اكثر من أي كلمة أخرى ، يصف الجانب الايجابي من النمو الانساني والارتقاء الانساني ـ أي تحقيق الامكانات الكامنة بواسطة الفرد والامكانات الجديدة بواسطة الجنس البشري ، واشباع الحاجات ، النفسية والمادية ، ونمو خصائص جديدة للخبرة يستمتع بها الفرد ، وبناء الشخصية » . فالهدف من السعي الى تحقيق الذات actualization strivings ليس هو الاحتفاظ بحالة التوازن أو الوضع الراهن ، وانما هو التحسن والنمو .

يضع « ماسلو » تحقيق الذات على قمة النظام الهرمي للحاجات الانسانية الرئيسية (الحاجات الجسمية ، حاجات الأمن ، حاجات الحب ، حاجات الاحترام والتقدير ، الحاجة الى تحقيق الذات) . يرتبط تحقيق الذات بما يحفز الفرد الى الانجاز والتحصيل والتعبير البناء عن الذات : ان

(59) Zimbarbo, P.G. **The cognitive entrol of motivation.** Illinois : Scott, Foresman and Co., 1969, P. II.

(60) Huxley, J. **Evolution in action.** New York : Harper, 1953, pp. 162-163.

يكون مبدعا ومنتجا ، ان يقوم بأفعال وتصرفات تكون مفيدة وذات قيمة له وللاخرين ، أن يحقق امكاناته ويترجمها الى وقائع سلوكية حية[٦١] .

فالحاجة الى تحقيق الذات هي « رغبة الانسان في مطابقة الذات self —fulfillment ، أي ميلة الى أن يصبح مالديه من امكانات potentials محققا ، وبالتالي صيرورة طاقاته الداخلية الكامنة حقيقة واقعة »[٦٢] .

لذلك فان الشخص المحقق لذاته هو الذي يتصف بـ« الشخصية كاملة التوظيف » [٦٣] fully functioing personolity (روجرز) أو « الذات كاملة التوظيف »[٦٤] fully functioning self (كيل) . ويعني ذلك أن الامكانات الكامنة في الشخص المحقق لذاته تكون في حالة من التوظيف الأمثل ، وفي مستوى أمثل من الصيرورة . وبذلك يقل الفاقد في فعاليته في الوجود ، لأنه يشغّل امكاناته وينميها ، يعمل وظيفيا بأقصى ماتؤهله له طاقاته .

هذا يعتبر « ماسلو » : الأشخاص المحققين لذواتهم self - actualizing persons : مكتملي النضج ، ومكتملي الانسانية fully - human . فهم أشخاص قد تحقق لهم بالفعل وبطريقة ملائمة اشباع في كل حاجاتهم الرئيسية (الى الانتماء ، والعطف ، والاحترام ، واحترام الذات) . ومن ثم فهم يتسمون بالشعور بالانتماء وبالتأصل rootedness ، وهم مشبعون في حاجاتهم الى الحب ، ولديهم أصدقاؤهم ، ويشعرون بالحب ، وأنهم مستحقون للحب وأهل له love - worthy ، وهم يحظون بمكانة وبموقع في الحياة باحترام الآخرين لهم ، ويتمتعون بشعور عاقل بالجدارة او الاستحقاق واحترام الذات »[٦٥] .

هكذا ، يعتبر أصحاب « التوجه الانساني في علم النفس » الشخصية السوية او الصحية هي الشخصية المحققة لذاتها .

---

(61) Maslow, A.H., **Motivation and personality**. New York : Harper & Row pub., 1954, Ch. 5.

(62) Ibid, pp. 91-92.

(63) Rogers, C.R. **On becoming a person**. Boston : Houghton Miffin, 1961.

(64) Kelly,E.C. The fully fuctioning self. **Inperceiving' behaving' becoming**. Yearbook of Association for Supervision and Curriculum Development, 1962.

(65) Maslow, A.H. A theory of meatamotivation : The biological rooting of the value-life **Journal of Humanistic Psychilogy'** 1967, Fall, 93-127.

الاستمرار في النمو الشخصي :

من الخصائص المميزة للانسان بصفة عامة وللشخص السوي بصفة خاصة قابليته المستمرة للتعلم المتعاظمة على الخبرة ، وبالتالي استمراريته في النمو والارتقاء .

يتضمن النمو الشخصي بالضرورة تتابعا « حلزونيا » يقوم على التفاضل والتكامل : تزايد في المعارف والمهارات والخبرات والمقدرات كما وكيفا ، واستيعابها في مستويات من تكامل الشخصية أكثر تعقيدا وارتقاء . هذا النمو الشخصي يرتكز الى مقومات محددة ، تقع في وحدة أو اكثر من الفئات التالية :(٦٦)

١ ـ استقلال ذاتي متزايد ـ التغير في اتجاه المزيد من الاعتماد على النفس ، ومن اعتبار الذات ، ومن توجيه الذات . ويتضمن ذلك تحررا من المؤثرات الاجتماعية غير الملائمة ، وتزايدا في القدرة على اتخاذ القرارات وتحمل المسئوليات بشأن نتائج هذه القرارات ومواجهة مترتباتها .

٢ ـ اطار مرجعي أكثر كفاية ـ التغير في اتجاه استيعاب المزيد من المعلومات الاكثر دقة عن ذات الفرد وعن عالمه . هذا التغير يؤول الى واقع اكثر اقبالا واشباعا ، والى فهم معنى أعظم ، والى مقدرة أكبر على حل المشكلات واتخاذ القرارات .

٣ ـ هوية ذاتية أكثر ملاءمة ـ النمو في اتجاه احساس متمايز لدى الفرد بذاته كشخص كفء ومقتدر ، وكشخص خالق لأفعاله ومسئول عنها . ومن الاهمية كذلك في هذا الشأن ، مايقوم به الشخص من تقييم واع لقدراته ولجوانب ضعفه ، مع تبني الشخص لمستوى واقعي من الطموح يقوم على الانسجام المعقول بين مفهوم الذات والذات المثالية .

٤ ـ اقتدار متزايد ـ التغير في اتجاه المزيد من الاقتدار العقلي والانفعالي والاجتماعي . مثل هذا التعلم يؤدي الى مقدرة أكبر على التمكن من مواجهة مشكلات الحياة ، ومن تنفيذ خطط الفرد وبرامجه في الحياة . وينطوي على تحسن في علاقات الفرد ، عمقا وثراءا ، مع بيئته الاجتماعية .

---

(66) Coleman, J.C. **Psychology and effective behavior.** Bombay : Taraporevala Sons & Co., 1971, pp. 446-447.

• ـ حل الصراعات ـ فك الدفاعات وحل الصراعات ، بحيث يتمخض عن ذلك تحرر الفرد « من الداخل » ، وانفتاح متزايد على الخبرة ، ومزيد من الانسجام أو الاتساق الداخلي ، ومزيد من تحمل التوتر ، ومزيد من المرونة العامة .

هذه المقومات التي يرتكز عليها استمرار الشخص في نموه وبالتالي في صيرورة ارتقائيه ، تكون هكذا في اتجاه المزيد من تحقيق الشخص لامكاناته الكامنة . وهي تغيرات تؤ ول بالفرد الى التعبير الخلاق عن الذات ، والى اتجاهات أكثر ايجابية نحو الذات ونحو الآخرين ، والى علاقات قائمة على الدفء والحب ، والى احساس أكبر بالانتماء الى الانسانية جمعاء .

ومن ثم ، لايكفي للشخص ان يحقق ذاته ، وانما استمراريته في تحقيق الذات . فالنمو بحاجة الى المزيد من النمو ، والصحة النفسية بحاجة الى مزيد من الصحة النفسية . فليس المهم أن يصل الفرد الى القمة وانما الاهم ان يحتفظ بها • . هكذا يتعاظم ارتقاء الشخصية ، وصولا بها الى مستوى « التسامي بالذات » .

خلاصة وتعقيب

عرضنا بالتحليل لأبرز الخصائص التي تتميز بها الشخصية السوية ، وهي خصائص متعددة ، ومتداخلة فيما بينها ، بل وكثيرا مايتعذر الفصل بينها على نحو قاطع .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن : « هل الشخص السوي يتصف بالضرورة بكل هذه الخصائص ؟

ان الشخصية السوية لا تتصف بالضرورة بكل الخصائص السابقة الذكر ـ فليس هناك من خاصية واحدة ترتبط بحسن توافق الفرد مع نفسه ، ومع الآخرين ، ومع الحياة بصفة عامة . كذلك لايعني غياب خاصية أو أكثر من هذه الخصائص أنه دالة بالضرورة على سوء التوافق أو مرض الشخصية .

واذا كان الباحثون في « علم الاعراض » symptomatology لايعتمدون في تشخيصهم لمرض

(•) راجع في هذا الصدد كتاب : طلعت منصور : التعلم الذاتي وارتقاء الشخصية . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ ، ص١٩ ـ ٢١ .

معين ، جسمي اونفسي اوعقلي ، على عرض بعينه ، اوعلى بعض الأعراض غير المترابطة فيمابينها ، وانما يعتمدون على مايعرف بـ « التشخيص الفارقي » differential diagnosis اي يعولون في تشخيصهم لمرض معين ، تمايزا عن أي مرض آخر ، على « تجمع » clustering مجموعة مترابطة من الأعراض . فالتشخيص الفارقي لايعتمد على عرض معين أو على أعراض منعزلة ، وانما على « زملة » syndrome من الاعراض ـ وهي مجموعة متزاملة من الاعراض تميز مرضا عن آخر .

قياسا الى ذلك ، فان خصائص الشخصية السوية عند شخص ما ليس بالضرورة أن تكون هي نفس الخصائص المميزة لشخص سوي آخر . يدعونا ذلك الى التحليل النوعي للشخصية السوية ، ليس وفقا لخصائص مطلقة ، وانما وفقا لما يمكن أن يطلق عليه « زملة الشخصية السوية »[٦٧] (heal thy personality syndrome) ـ أي على أساس تزامل مجموعة من الخصائص تحدد « تفرد » الشخصية عند شخص سوي عن شخص سوى آخر .

ومع ذلك ، ثمة صورة عامة تتضمن عددا من الخصائص المشتركة التي تتفق عليها معظم النظريات والدراسات النفسية كخصائص مميزة للشخصية السوية بصفة عامة ، وكمحكات تستخدم غالبا في تقديرها . وفي ذلك تقدم « جاهودا » ملخصا بالخصائص الرئيسية العامة المميزة للشخصية السوية كما اتفقت عليها معظم الدراسات النفسية فيما يلي :[٦٨]

اتجاهات نحو الذات : مفهوم واقعي للذات ، الموضوعية نحو الذات ، واحساس واضح بالهوية ، تقبل الذات .

النمو ، الارتقاء ، التحقيق : دافعية نحو النمو والارتقاء ، تحقيق الامكانات الكامنة .

التكامل : انسجام واتساق بين الجوانب المكونة للشخصية ، فلسفة محددة للحياة ، تحمل للضغط والشدة .

---

(67) Buhler, C.A. Brind, and A. Horner. Old age as a phase of human life. **Hum. Develpm.'** 1968, 11,53-63.

(68) Jahoda, M. **Current concepts of positive mental health.** Joint commission on Mental Illness and Health.

Monograph Series No. 1. New York : Basic Books, 1958.

الاستقلال : توجيه ذاتي ، مع إدراك للذات على أنها جزء لا ينفصل عن كل أكبر .

ادراك الواقع : ادراك موضوعي ، التحرر من الحاجة الى المسخ والتشويه ، مقرونا بحساسية اجتماعية .

التمكن من البيئة : الكفاية في الحب ، والعمل ، واللعب ، مع القدرة على حل المشكلات الجديدة . ويلخص « بين » أيضا الخصائص الرئيسية للشخص السوي على النحو التالي : [٦٩] .

« الشخص السوي يفكر ، ويعمل ، ويشعر وفقا لما هو متوقع منه ومسموح له به داخل مجتمعه . . . .

وحياته التي يقودها هو تلقى منه رضا وتخلق فيه استثارة . وهو قد اعتاد السعادة ، وعنده عادة تكوين العادات واستبعاد عادات بفاعلية . وهو ليس يخالف بشكل غير ملائم من المستقبل ، ولا يشدود الى الماضي . . . . وهو لا يعاني من احساس بالخطيئة ولكنه يفيد من الخبرة . وهو لديه إحساس ثابت بالمرح يجعله يضحك مع الناس ، لا عليهم

وهو يعرف حدوده ومقدراته ، ويسلك وفقا لذلك ، وهو لديه حكم دقيق سديد عن الآخرين وعن نظرتهم اليه . . . وهو يحدد أهدافه ومثله على أساس اتساقها مع معرفته عما هو « ممكن » ، وهو متفتح الذهن بشأن ما هو ممكن ومحتمل . وهو يحترم نفسه لأنه يحترم الآخرين . . . . وهو يسعى الى ما يحقق امكاناته طالما ان ذلك لا يحول دون تحقيق الآخرين لذواتهم » .

يقدم « ادوارد جوزيف شوبان » [٧٠] : نموذجا للصورة العامة للشخصية السوية يطلق عليه : نموذج التوافق التكاملي **Integrative adjustment** ـ وهو توافق ايجابي يرتكز على الضبط الذاتي ، والمسئولية الشخصية ، والمسئولية الاجتماعية ، والاهتمام الاجتماعي الديمقراطي ، والمثل العليا . هذا النموذج يستبعد التصور المستحيل للشخص السوي على أنه ذلك الشخص الذي يكون

(69) Bain, R. Making normal people. **Marriage fam. Living'** 1954, 16,27-31.

(70) Shoben, E.J. Toward a concept of the normal personality. **American Psychologist'** 1957, 12, 183-189.

سعيدا دائما ، خاليا من الصراع ، وبلا مشكلات . اما الشخص الذي يتفق مع هذا النموذج ، فهو الشخص الذي يتمتع بدرجة عالية من الاتساق الداخلي ، ومن احترام الذات ، والذي يستثير في الآخرين ردود أفعال ايجابية ودافئة .

ان الخصائص الرئيسية التي يمكن ان تؤلف الصورة العامة للشخصية السوية هي تحقيق لأصالة إنسانية الانسان وبجوهر طبيعته الانسانية . والشخص السوي بذلك يتميز باحساس واضح بذاته ، بأصالته .

الاحساس الواضح بالهوية : يتسم الشخص السوي بوضوح رؤيته عن نفسه وباحساسه الواعي بهويته . يتوصل « كورت جولد شتين » ، في كتابه (الطبيعة الانسانية في ضوء علم النفس المرضى) ، الى نتيجة عامة تؤكد أن الانسان تحركه من الداخل قوى أصيلة لكي ينطلق في الحياة ، ولكي يوظف إمكاناته وطاقاته وفقا لأحسن مستوى تؤهله له ، ولكي يحقق وجوده على الرغم مما قد يواجهه من معوقات . ومن ثم فان توجه الانسان السوي في الحياة ينطلق من سعيه الأكيد لأن « يكون كنفسه »[٧١] .

هذا الاحساس الواضح بالهوية يجسد مبادىء هامة في فهم الشخصية السوية ، مثل « التمايز » و « التفرد » بين شخص سوي وآخر .

يقول « كارل روجرز »[٧٢] :

يبدولي ، من خلال تتبعي لخبرة مرضى (عملاء) كثيرين في سياق العلاقة العلاجية التي نسعى الى خلقها معهم ، أن كل مريض (عميل) لديه نفس المشكلة . فتحت مستوى الموقف المشكل الذي يشكو منه الفرد ـ أي وراء الصعوبات أو المشكلات المتعلقة بدراسته أو زوجته أو عمله ، أو بسلوكه الشاذ او الذي لا يملك حياله قدرة على ضبطه ، أو بمشاعره الباعثة على الخوف ـ تكمن نزعة رئيسية الى البحث عن الهوية . فيبدو لي أنه في القاع من البناء النفسي للمريض تبدى تساؤلات مثل : من أنا حقيقة ؟ كيف أستطيع التوصل الى هذه الذات الحقيقية ، التي تكمن وراء كل سلوكي الذي يطفو على السطح ؟ كيف أستطيع أن أصير كنفسي ؟ »

(71) Goldstein, K. **Human nature in the light of psychopathology**. Camb. Harvard Univ., 1940.

(72) Rogers, C.R. **Becoming a person**. Austin : Univ. of Texas, 1958, pp. 9-10.

يؤكد ذلك أيضا « كلارك موستاكاس » في دراسته عن « الاحساس بالذات »[٧٣] ، وهو إحساس يكشف عن عظمة الخبرة الانسانية أو الخبرة الذروية - وهي الخبرة الكلية ، حيث يكون الانسان إنسانا ، وحيث يندمج كل عنصر في الآخر ، وحيث يعطي كل جانب معنى للجانب الآخر ؛ هذه الخبرة الكلية في وحدتها وتكاملها تخلق كيانا أصيلا متمايزا ، يقوم على الاحساس الخلاق بالذات - إحساس الشخص السوي بالانسجام الداخلي ، وبالتكامل الشخصي ، وبالمعنى الانساني لحياته . وهو إحساس بالذات ، كما تنمو ارتباطا بمصادرها الداخلية واتفاقا مع الطبيعة والذوات الأخرى . وهو إحساس يشعر فيه الشخص السوي بسلام مع نفسه ، وبتلقائيته وبكينونته كنفسه .

فالشخص السوي بإحساسه الواضح بهويته ، خلافا لتميع الهوية عند غير الأسوياء ، أعظم اقتدارا في توظيفه لامكاناته وطاقاته وفي تحقيقه لذاته ، وأكثر توجها نحو تكامل شخصيته ، وأكثر إبداعا في انتهاجه لأسلوب حياة رشيد قائم على التوجيه الذاتي المسؤول ، وأكثر انفتاحا على الخبرة وانضواء فيها ، وأكثر استمرارية في نموه وتقدمه .

***

(73) Moustakas, C. The sense of self. Journal of Humanistic psychology" 1961,1(1), 20-34.

الأساليب المعرفية الإدراكية وعلاقتها بمفهوم التمايز النفسي

نادية محمود شريف

كلية التربية - جامعة الكويت

قسم علم النفس التربوي

تعتبر عملية الادراك من العمليات العقلية المعرفية التي يتحدد على اساسها اسلوب تنظيم العلاقات المتضمنة في موقف من المواقف ، سواء كان تنظيم تلك العلاقات يتم في اطار نظرة كلية شاملة لعناصر الموقف ، أو في إطار نظرة تحليلية لعناصر هذا الموقف . ويعتبر الاتجاه المعرفي في تفسير السلوك بوجه عام الأسلوب الاكثر ملائمة لفهم الكثير من اساليب النشاط العقلي التي يمارسها الانسان في كثير من مواقف حياته ، مما جعل لعلم النفس المعرفي في الوقت الحاضر أهمية قصوى بين علماء النفس والمشتغلين بالدراسات السلوكية . ويشير مصطلح معرفة **Cognition** الى جميع العمليات النفسية التي بواسطتها يتحول المدخل الحسي **Sensory input** فيطور ويختصر ويختزن لدى الفرد الى ان يستدعي استخدامه في المواقف المختلفة . ومن أهم العمليات النفسية التي تتعرض لها المدخلات الحسية ، عمليات الادراك والتحليل ، والتذكير ، والاستدعاء ، والتخزين ، والتحويل ، والتفكير وغيرها من العمليات النفسية المختلفة ، ويتضح من ذلك ان المعرفة تدخل في جميع ما يمكن للانسان ان يعقله او يمارسه في حياته بصفة عامة ، كما يتبين كذلك ان كل ظاهرة نفسية لدى الانسان هي ظاهرة معرفية .

ولما كان الادراك احدى هذه العمليات النفسية (العقلية المعرفية) فقد اهتم عدد كبير من

علماء النفس بدراسته ، ليس باعتباره وسيلة من وسائل تحديد الفروق بين الافراد في قدرتهم العقلية « الذكاء » فقط ، وانما باعتباره من الوسائل الهامة لتحديد الفروق المختلفة التي تعكس أساليب معرفية Cognitive styles أوسع واشمل من مجرد الفروق في الذكاء ، وقد تخطى مفهوم الأساليب المعرفية الحدود التقليدية التي سارت في التصورات النظرية للشخصية الى آفاق أبعد وأعمق ، حيث تعتبر النظرة الى الشخصية من خلال هذا المفهوم نظرة كلية شاملة لا تتجزأ ، فلا ينظر الى الجوانب المعرفية للشخصية على حدة ، والجوانب الانفعالية على حدة ، واساليب التكيف وفهم الذات على حدة ، وانما ينظر اليها على انها كل متكامل الأجزاء ، ومن هذا المنطلق فقد استخدمت تلك الاساليب المعرفية كأساس للتمييز بين الافراد اثناء تفاعلهم مع المواقف الحياتية المختلفة ، إلا ان هذا التمييز ليس تمييزا كميا يحدد مقدار ما يملكه الفرد من سمة من السمات او قدرة من القدرات ، وانما هو تمييز كيفي يعتمد على الاسلوب (Style) الاكثر تفضيلا لدى الفرد ، والذي يسلكه اثناء تفاعله وتعامله مع المواقف المختلفة ، والذي يتميز بانه على درجة عالية من الثبات النسبي .

لذلك سوف تتناول هذه الدراسة التعرف على بعض النقاط الاساسية في هذا المجال وتشمل : .

١ - مفهوم الاساليب المعرفية (Cognitve styles)

٢ - التصنيفات والأبعاد المختلفة للاساليب المعرفية

٣ - كيف درست الاساليب المعرفية في الادراك (بعد الاستقلال - الاعتماد الادراكي)

٤ - مدى الاستفادة من تحديد الاسلوب الادراكي المعرفي في دراسة الشخصية في المواقف الاجتماعية او التعليمية .

اولا - مفهوم الاساليب المعرفية : (Cognitive Styles)

يقصد بالاساليب المعرفية الوان الاداء المفضلة لدى الفرد لتنظيم ما يراه وما يدركه حوله وفي اسلوبه في تنظيم خبراته في ذاكرته ؛ وفي اساليبه في استدعاء ماهو مختزن بالذاكرة ، بمعنى آخر فانها الاختلافات الفردية في أساليب الادراك والتذكر والتخيل والتفكير ، كما انها ترتبط بالفروق الموجودة بين الافراد في طريقتهم في الفهم والحفظ والتحويل واستخدامات المعلومات وفهم الذات (Messick , 1976)

. وقد يتبادر الى الذهن في هذا الصدد سؤال هام هو : ما الفرق بين مفهوم الذكاء الذي يشتمل على مثل تلك العمليات وبين مفهوم الأساليب المعرفية ؟

يتضح الفرق الرئيسي بين كلا المفهومين عندما نعرف أن مفهوم الذكاء او القدرات العقلية يعنى بالدرجة الاولى بمستوى المهارة (Level) او الاداء . بمعنى انه كلما زادت الدقة والمهارة في اداء عمل من الاعمال أو حل موقف من المواقف عبر ذلك عن مستوى عال للذكاء او القدرة ، وكان ذلك افضل او أكثر تعبيرا عن قدرة اكبر لما يمتلكه الفرد من الصفة التي نحن بصددها . في حين أنه كلما انخفض مستوى الأداء او مستوى الدقة في موقف من المواقف كان ذلك دليلاً على ضعف القدرة العقلية او الذكاء ، أو معبرا عن قدرة اقل لما يمتلكه الفرد من صفة من الصفات (Messick, 976)

اما الأساليب المعرفية فانها تهتم بالدرجة الأولى بحالة (manner) او شكل form النشاط المعرفي الذي يتم به اكتساب او اداء سلوك ما . فهو مفهوم يتعلق بشكل النشاط المعرفي الممارس وليست بمحتواه . وبالتالي فهو يشير الى الفروق الفردية في الطريقة او الاسلوب الذي يدرك به الافراد كل ما يدور حولهم ، او عندما يتكرون كل ما يواجههم من مشكلات . وقد اشرنا من قبل الى ان مفهوم الاساليب المعرفية مفهوم يستخدم في الوقت الحاضر كأساس لتحديد الفروق بين الافراد ولكن بطريقة تختلف كثيرا عما هو شائع في مجال دراسة الفروق الفردية

فقد ألف الناس ان يصف الافراد حسب ما يتصفون به او ما لا يتصفون به من سمات فيقال إن شخصا له موهبة موسيقية ، وآخر له موهبة الرسم او الرياضة او غير ذلك ، ويتم هذا التصنيف او التمييز بين الافراد بناء على اعتبارات عملية خالصة . فالشخص الذي يمتلك قدرا معينا من القدرة الموسيقية تصبح امكانية تقبله في مهنة الموسيقى اكبر واكثر احتمالا . اما إذا كانت درجته دون هذا الحد الادنى فانه لا يعتبر موسيقيا . كذلك تعودنا على ان نصف الفرد حسب خواصه وقدراته البارزة ، بينما نتجاهل ببساطة السمات التي يقترب فيها الانسان من المعيار المتوسط ، علما بأن أي مهمة من سمات الشخصية يمكن توزيعها على طول مقياس متدرج ومستمر . لذلك كان من غير الملائم أن نصف الافراد الى انماط متمايزة اشد التمايز كما يتضح من هذا الاسلوب الكمي ، كما انه ينبغي عدم الاعتماد على تحديد القدر او الكمية التي يملكها الفرد لسمة من السمات بحيث يتحدد مصيره سواء في حياته العملية او التعليمية على أساسها . واذا كان استخدام مفهوم الأساليب المعرفية في الوقت الحاضر كأساس للتمييز بين الافراد يقوم على أساس تجميع الخصائص الفردية من انماط كلية متمايزة ، فان هذا التصنيف ليس بغرض المفاضلة بين نمط وآخر ، وانما بغرض تحديد مجموعة الخصائص والمواصفات

الكلية الشاملة التي تميز بين ذوي الأساليب المعرفية المختلفة في تعاملهم مع الموضوعات الحياتية المختلفة ، ولذلك فانه يعتمد على تحديد الطريقة او الشكل الذي يمارس به الفرد اي نشاط من الانشطة ومدى الثبات النسبي الذي يمكن ملاحظته في مختلف الانشطة التي يقوم بها الفرد . لذلك فانه يقال ان الاساليب المعرفية لاتهتم بمحتوى النشاط ومقداره بقدر اهتمامها بالعمليات النفسية والطريقة الخاصة التي يمارس بها الفرد ذلك النشاط . (Witkin, 1974)

كذلك يختلف مفهوم الأساليب المعرفية واستخدامه كوسيلة لتحديد الفروق بين الافراد عما كان شائعا في وقت من الأوقات ، والمعروف باسم نظريات الانماط التي كان كل تركيزها هو محاولة تحديد العلاقة بين السمات الجسمية والنفسية وتصنيف الأفراد تبعا لواحد منها . فبالرغم من ان نظريات الانماط قد استقبلها الناس في وقت من الأوقات بشغف شديد وقبول كبير باعتبارها طريقة مختصرة لتفهم الطبيعة الانسانية الا ان اهم مايؤخذ عليها هو استخدامها للتقسيم الثنائي بين نمطين تكوينيين متعارضين ، فمن الناحية الجسمية تفرق النظريات النمطية بين الجسم الطويل الذي له اطراف طويلة نسبيا ، والتكوين الغليظ القصير الذي له جذع كبير واطراف قصيرة . ومن ناحية الشخصية نجد في احد الطرفين الشخص الاجتماعي الذي يكون مع غيره علاقات منسقة بسهولة ويسر وفي الطرف الآخر الشخص غير الاجتماعي (Anastas, 1965)

ومن النظريات التي اثرت تأثيرا كبيرا في دراسات الشخصية في مرحلة من المراحل نظرية كرتشمر للانماط حيث صنف الافراد على أساس النواحي الجسمية الى اربعة انواع (المكتنز والرياضي والواهن ، والمشوه البنية ،) وحاول ان يوجد علاقة بين انماط الجسم وبين النواحي المزاجية ، فالمكتنزون يميلون الى ان يكونوا اجتماعيين ، واقعيين ، في حين ان النحيفين يميلون لان يكونوا هادئين متحفظين ، وميالين الى الوحدة .

كذلك اظهرت محاولة شلدن انه يمكن تقسيم الناس الى مجموعات تبعا لثلاثة مكونات .

(١) المكون الحشوي (٢) المكون الجلدي (٣) المكون العقلي . ويقابل كل منهم خصائص مزاجية خاصة .

كذلك ظهر تقسيم آخر قدمه كارل يونج للأفراد تبعا لخصائصهم ، وحيث صنف الافراد على

اساس المنطوي ، والمنبسط وارتبط بكل نمط منها خصائص وسمات معينة ، فقد اشار يونج الى ان المنطوي يميل الى الانسحاب ، والاختلاء بنفسه ، ويفضل العمل الانفرادي ، في حين ان المنبسط يميل الى الاقبال والاجتماع بالآخرين ، ويفضل العمل في وسط الجماعة ، وعلى الرغم من التشابه الذي يمكن ملاحظته بين نظريات الانماط وبين الاساليب المعرفية باعتبارهما اساليب لتصنيف الناس الا ان هناك فروقا جوهرية فيما بينها تتضح فيما يلي :-

١ ـ ان نظريات الانماط المختلفة تعتمد في تصنيفها للافراد على التطرف والتميز في النواحي الجسمية وعلاقة ذلك بالنواحي المزاجية للشخصية ، في حين أنه الدراسات والبحوث المختلفة اظهرت وجود ارتباط ضعيف وقليل بين التكوين الجسمي والتكوين المزاجي .

٢ ـ ان نظريات الانماط تنظر الى الشخصية الانسانية كنتيجة للدراسة البيولوجية وهذا ما يتضح من اعتماد تلك النظريات على الخصائص الجسمية بالذات ، وبالرغم من اهمية الجسم للشخصية الا ان الشخصية بصفة عامة تتضمن العلاقات بين الناس ، والآثار الثقافية ، وآثار التنشئة الاجتماعية حيث تلعب جميعها دورا هاما في تحديد خصائص الشخصية وسماتها المختلفة .

٣ ـ ان التصنيف تبعا للأسلوب المعرفي يؤكد على انه ليس تصنيفا ثنائيا للافراد في انماط متمايزة ، وانما يقصد به ان الافراد يتوزعون على سلم متدرج ومتصل وانه توزيع اعتدالي بحيث يصبح للبعد المعرفي الواحد متوالا واحدا وليس متوالين كما تعني نظرية الانماط . بمعنى اخر فان توزيع الناس الى (مستقل ادراكيا ـ معتمد ادراكيا) انما يمثل تدرجا متصلا وانهما ليس الا طرفين لمقياس واحد . فهما يختلفان كما يختلف الطويل عن القصير ، او يبعد احدهما عن الآخر في اتجاهين مختلفين بالنسبة لنقطة متوسطة ، وانه حينما تحلل نتائج الاختبارات التي تقيس تلك الجوانب المعرفية المختلفة تحليلا عامليا فاننا يمكننا ان نتوصل الى عوامل كثيرة Messick, 1976 وبناء على ذلك فانه يمكننا ان نجمل اهم الخصائص التي تميز الاساليب المعرفية وتجعلها اسلوبا يختلف عن الاساليب الأخرى التي تعمل على تجميع الخصائص الفردية في انماط كلية فيما يلي :

١ ـ ان الاساليب المعرفية هي ابعاد مستعرضة ، تمكننا من النظر الى الشخصية بطريقة كلية .

فالاساليب المعرفية لا تقتصر على الجانب المعرفي من الشخصية فقط ، بل هي اساس يتحدد عليه جميع جوانب الشخصية الأخرى . بالاضافة الى ذلك فان قياس تلك الاساليب المعرفية والذي يعتمد

على استخدام الاختبارات او الوسائل غير اللفظية يمكنه ايضا ان يقيس ويحدد جوانب غير معرفية للشخصية .

٢- ان مفهوم الاساليب المعرفية يتعلق بشكل النشاط الممارس وليس بمحتواه ، فهو فروق ترتبط بالطريقة التي يدرك بها الافراد ويفكرون ويحلون مشكلاتهم ، ولذلك فان الاساليب المعرفية تتحدد في عبارات العمليات النفسية (Psychological Pro Usses)

٣- على الرغم من ان مفهوم الاساليب المعرفية قد يوحي بانه مفهوم ثنائي القطب الا ان ذلك مخالف للواقع . فتبعا لهذا المفهوم لا يكون لدينا نمطان متمايزان في اساليب الادراك ، بل هو توزيع متصل يبدأ من أحد الطرفين وينتهي بالآخر . واذا كانت تلك الخاصية وهي « الاستمرارية » موجودة ايضا في مفهومنا للفروق الفردية بصفة عامة إلا أنها لا تظهر بهذه الصورة في الممارسات التي تعتمد على قياس الكم الذي يملكه الفرد لسمة من السمات . فمثلا كلما زاد ذكاء الفرد او زادت قدرة معينة لديه كان ذلك افضل او معبرا عن مستوى أفضل ، اما بالنسبة للاساليب المعرفية فان كل قطب له قيمته في ظل شروط خاصة .

٤- واخيرا فان الاساليب المعرفية تعتبر اساليب ثابتة نسبيا لدى الافراد ، وان كان ذلك لا يعني انها غير قابلة للتعديل او التغيير تماما ، بل يمكن تعديلها وتوجيهها ، وانما ليس بصورة سريعة او مفاجئة في حياة الفرد العادية . ومن هنا كانت وسيلة في التنبؤ بسلوك الافراد في المواقف التالية . (gooale-nough av karp, 1967, (Wilkin, 1974)

ثانيا ـ التصنيفات والأبعاد المختلفة للأساليب المعرفية :-

اشرنا من قبل الى ان مفهوم المعرفة (Cogniton) يشير الى جميع العمليات النفسية التي بواسطتها يتحول المدخل الحسي فيطور ويختصر ويختزن لدى الفرد في تنظيمه العقلي المعرفي ، وان هذه العمليات العقلية المعرفية تتضمن الادراك والتذكر ، والاستدعاء والتخزين ، والتفكير وغيرها ولقد اختلفت التسميات المستخدمة في الحديث عن الأساليب المعرفية فظهرت تسميات مثل الاساليب المعرفية (Cognitive Styles) واساليب التحكم المعرفي ، (Cognitive Contral)

والاستراتيجيات المعرفية (Cognitive Strategies) والواقع ان كل هذه التسميات وما تبعها من تصورات كان راجعا الى اختلاف النظرة الفلسفية او التصور النظري وراء كل باحث اكثر من كونها اختلافات في شرح او تفسير الظاهرة نفسها .

ومهما تكن الاختلافات في التسميات إلا انه أمكن للعلماء امثال دمكن ، هرمان ، كوجان ، وميسك وغيرهم من تحديد مجموعة من الاساليب المعرفيه التي تميز الافراد في تعاملهم مع مواقف الحياة المختلفة ، والتي تعتبر اساسا يعتمد عليه بدرجة كبيرة من الدقة في التنبؤ بألوان سلوك الافراد من مواقف الحياة المتنوعة ، وفي تفسير كثير من جوانب الشخصية ، وقد افترض المهتمون بكل اسلوب من تلك الاساليب المعرفية بان التعرف على الاسلوب المعرفي للفرد والذي يعتبر اكثر تفضيلا لدى صاحبه يساعد بطريقة أو بأخرى في فهم الوان السلوك الانساني بصفة عامة ، كما تمدنا بالمعلومات اللازمة عن خصائص الشخصية وبنائها ، وقد اشار ميسك (١٩٧٠) الى ان هناك عشرة انماط اساليب معرفية يمكن استخدامها مجتمعة ، او استخدام كل منها على حدة للتمييز بين الافراد ، إلا أن بعض هذه الانماط قد نال عناية واهتمام علماء النفس وابحاثهم ، في حين أن بعضها الآخر مازال غامضا ويحتاج الى كثير من الدراسات والبحوث

ويمكن اجمال هذه الأساليب المعرفية بأبعادها المختلفة فيما يلي :-

١ـ بعد الاستقلال ـ الاعتماد الادراكي (Fielol — Independant, Fielol —Dependant)

ويرتبط هذا الاسلوب المعرفي بمدى الفروق الموجودة بين الافراد ومدى الثبات النسبي الذي نلاحظه في سلوك كل منهم في تفاعله مع عناصر الموقف المحيط به . حيث يظهر ان هناك افرادا لديهم القدرة على عزل وانتزاع الموضوع المدرك بما يحيط به في المجال ، في حين ان هناك آخرين لا يستطيعون التعامل مع ميزات الهيئة بصورة منعزلة او غير معتمدة على المجال ، علما بان تصنيف الافراد تبعا لأسلوبهم الادراكي المعرفي (مستقل ـ معتمد) لا يعني الثنائية ، وانما هو توزيع متصل ، كما يرتبط بكل بعد من البعدين خصائص وسمات معينة ترتبط بالوان التفضيل المهني والاجتماعي والعلمي . ويعتبر هذا الاسلوب المعرفي في بعديه (المستقل ـ المعتمد) من اكثر مجالات الاساليب المعرفية دراسة وبحثا ، وستقتصر دراستنا الحالية للتعرض لهذا الاسلوب المعرفي فقط . وسيجيء ذلك بعد استعراض سريع للاساليب المعرفية الاخرى (Witken Oltman, 1973)

٢ ـ بعد التريث ـ الاندفاع :ـ Reflection Versus Impulsivity

ويرتبط هذا البعد بالفروق الموجودة بين الافراد في سرعة استجاباتهم للمواقف المختلفة . ويرتبط بذلك أيضا مدى كفاءة البدائل التي يقدمها الفرد كفروض او أسس لحل المواقف او المشاكل التي تصادفهم .

فالافراد الذين يطلق عليهم مصطلح اندفاعي (**Lmpulsive**) يميلون الى اصدار وتقديم اول استجابة تطرأ على اذهانهم والتي غالبا ما تكون غير صحيحة ، في حين ان من يطلق عليهم مصطلح **Seflective** (متريث) يميل الى معالجة مختلف البدائل وتقديم الفروض والتحقق في الاستجابة قبل اصدارها او قبل اتخاذ قرار ما . (Kayn and Kogan, 1970 Kogan and Messen 1975)

٣ـ بعد تكوين المدركات (Conceptua Lizing Styles)

ويرتبط هذا البعد بذلك الثبات النسبي الذي يلاحظ في اداء الافراد وتعاملهم مع الخواص المختلفة للمثيرات المختلفة . وفي اسلوبهم في تكوين المدركات ، حيث يتضح ان هناك مجموعة من الافراد يعتمدون في تكوين مدركاتهم على العلاقة الوظيفية الموجودة بين المثيرات **Zelational Con Coptualizing** في حين توجد مجموعة أخرى من الافراد يميلون الى تكوين مدركاتهم عن طريق تحليل الخصائص الوصفية الظاهرية للمثيرات (Analytic Descripltive Conceptuali zing) والتعامل معها بناء على خصائصها الظاهرية . وان هناك مجموعة ثالثة وهم الذين يعتمدون في تكوين مدركاتهم على قدرتهم في استنباط واستنتاج مستويات للعلاقات (Categorical in- terechal Conceptualizing) بين المثيرات المختلفة (Kagan,noss Vsigal, 1960, 1963) (Wallash Kogan 1965)

٤ ـ بعد ترتيب الثبات (ثابت ـ شاحذ الصقل (الشحذ) Leveling Vevsus Sharpening

ويقصد بها الفروق الموجودة بين الافراد في الاساليب المعرفية المرتبطة بمدى استيعاب الذاكرة ، فهناك افراد يتميزون بأنه يصعب عليهم استرجاع الخبرات الموجودة بالذاكرة ويصبح ما هو مختزن

بالذاكرة صعب استدعاؤه بصورة مطابقة لما حدث . ويقع هؤلاء الافراد في اقصى طرفي هذا البعد ويطلق عليهم مصطلح (رتيب (Leveling حيث يجد هؤلاء الأفراد صعوبة في الاستفادة من المعلومات المتشابهة المختزنة لديهم وبحيث يتعاملون مع الاشياء او الاحداث الحاضرة دون ـ الرجوع او البحث في الاحداث الماضية المختزنة في العقل . بل ان الاختلافات في الاشياء المختزنة تميل لأن تضيع وتمحى من أثر الذاكرة .

أما الطرف الآخر من هذا البعد فيوجد أولئك الذين يطلق عليهم مصطلح (شاحذ (Sharpening) وهؤلاء الافراد يكونون عادة اقل عرضة للتشتت بالتشابه الموجود بين الاشياء المختزنة لديهم ، وانهم قد يعظمون ويوسعون من حجم الفروق الموجودة بين اثار الذاكرة المتشابهة ، وبالتالي يزيدون ويبالغون في الفروق الموجودة بين الماضي والحاضر ، مما يساعدهم بصورة أوضح على التعامل مع الموقف الجديد (Holzman Rousey, 1971)

٥ ـ بعد ـ الفحص والتدقيق

ويرتبط هذا البعد بالفروق الموجودة بين الافراد كسعة وشدة الانتباه التي تجعل الافراد يختلفون في مدى وضوح الخبرات التي تمر بهم وسعة هذا الادراك ، فالافراد الذين يمكن وصفهم بأنهم من ممعني النظر **Scaming** يتميزون بشدة التدقيق فيما تحيط بهم ويهتمون بالتفاصيل كما يتميزون بحدية الانتباه مع سعته بحيث يتسع انتباههم ليشمل قدرا واسعا من الميزات المحيطة بهم **(Holtzman, 1966, 1971)**

٦ـ بعد الشمولية ـ القصور (Inclusivness - Versws Exclusiveness)

ويرتبط هذا الاسلوب المعرفي بذلك الثبات النسبي الذي يتضح في ميل بعض الافراد في تصنيف مواقف الحياة والمثيرات المختلفة بصورة شاملة ، في مقابل أولئك الذين يتعاملون مع المواقف بصورة ضعيفة « او بنظرة قاصرة » ويعكس هذا الاسلوب المعرفي مدى قدرة الفرد على تحمل التناقض الكبير المتضمن في المواقف المختلفة ، بحيث يتضح ان هناك افراداً يتميزون بالقدرة على تحمل التعامل مع المواقف ذات الطبيعة المتناقضة او المتعددة المثيرات ، في حين ان هناك أفرادا آخرين لا يمكنهم تحمل مثل تلك التناقضات **Messick and Kogan, 1963**

٧ ـ البعد المعرفي البسيط ـ المعرفي المعقد : Cognitve Simpili city Versui Cognitive Complexity

ويرتبط هذا البعد المعرفي بالفروق القائمة بين الافراد في ميلهم لتفسير العالم المحيط بهم وبخاصة في جانبه الاجتماعي ، إما على اساس ابعاد متعددة او على اساس ابعاد متميزة ومحددة ، فالفرد الذي يتميز بالاسلوب المعرفي المعقد يتميز بانه اكثر قدرة على التعامل مع ابعاد الموقف الاجتماعي المتعددة ، واكثر قدرة على ادراك ما حوله بصورة اكثر تحليلية ، كما ان لديه القدرة للقيام بعمليات التكامل لما يراه من حوله ، وذلك عكس الشخص الذي يتميز بالاسلوب المعرفي البسيط . ويرتبط بهذا البعد ايضاً التمييز بين الافراد من حيث امكانية تعاملهم مع الاشياء المجردة وبين أولئك الذين يحتاجون الى التعامل المحسوس .

٨ ـ بعد المخاطرة في مقابل بعض الحذر Risk taking versus cautiousness

ويرتبط هذا البعد المعرفي بمدى الفروق القائمة بين الافراد في مدى إقبالهم على المجازفة واقتناص الفرص لتحقيق هدف من الاهداف في مقابل اولئك الذين يميلون الى الحصول على ضمانات مؤكدة قبل الدخول في أي مغامرة . فمثلا هؤلاء المغامرون نجدهم اكثر اعتمادا على التخمين في المواقف ذات البدائل المعقدة ، كما انهم يتميزون بروح المغامرة في حين إن الافراد الحذرين يتسم سلوكهم بعكس ذلك تماما . بمعنى آخر كان من يتميز بروح المخاطرة هم اولئك الذين يقبلون الدخول في المجالات التي تتميز بأنها ذات مردود عال وكبير ، بالرغم من ان احتمالات النجاح بسيطة وضعيفة وانهم لا يقبلون الدخول في الموضوعات او المجالات التي تتميز بان مردودها ليس كبيرا مهما كانت احتمالات نجاحها اكثر تأكيدا **(Kogan Morgan 1969)**

٩ ـ بعد التحمل Tolerance for incongvuous

ويرتبط هذا البعد بالتمايز الاستعدادي لتقبل ما يحيط بالفرد مهما تباينت الموضوعات المدركة مع الخبرات التقليدية ، ففي إحدى طرفي هذا البعد نلاحظ أولئك الافراد الذين لديهم استعداد لتحمل وتقبل الاحداث والافكار التي تختلف كثيرا عن المألوف او الشائع ، كما يمكنهم اتخاذ خطوات ايجابية تقدمية وابداء آراء غير واقعية أو أفكار غريبة . أما في الطرف الآخر فيوجد اولئك الذين لا يتحملون الجديد او الغريب ، والذين يفضلون كل ماهو واقعي وكل ما هو تقليدي .

(Klein, Gavalner amd schlesenger, 1962)

١٠ـ بعد التزمت ـ المرونة Constricted vs flexible control

ويرتبط هذا البعد بالفروق القائمة بين الأفراد في تعاملهم وتأثرهم بالمتناقضات أو التداخلات المعرفية الموجودة في الموقف . ويتضمن هذا البعد ايضا مدى قدرة الفرد على الانتباه الى المميزات المرتبطة بالموقف مباشرة ، مع قدرة على إيصال المشتات الأخرى الموجودة في الموقف وإبطال تأثيرها على نشاطه او استجاباته (Jonsen and Rohwer, 1966

وهكذا يتضح من هذا الاستعراض السريع لمفاهيم الأساليب المعرفية وتسمياتها المختلفة مدى التفاوت القائم بين كل بعد من الابعاد ومدى التشابه الموجود بين بعضها الآخر . كما يتضح أيضا انه من الممكن إدماج بعض هذه الأبعاد نظرا للتشابه فيا بينها . والواقع ان هذه التسميات المتعددة للأساليب المعرفية قد ترجع الى اختلاف النظرة الفلسفية او الاسلوب المنهجي المتبع في دراسة كل منها . بل انه يمكن القول ان مثل هذه الاساليب المتعددة قد تستدعي في بعض الاحيان ضرورة دراسة مدى الارتباط الذي يمكن ان يوجد بين بعض هذه الأساليب وبعضها الآخر .

وكما سبق ان اشرنا فان هذه الأبعاد المعرفية العشرة لم تلق حظها من الدراسة والبحث بدرجة واحدة من القوة والعمق . فبعض هذه الأبعاد نال العناية والدراسة المتعمقة وبحيث أصبح يعتمد على نتائجه في التعرف على كثير من جوانب الشخصية ، كما أصبح وسيلة للتمييز بين الافراد واداة من ادوات تحديد الفروق الفردية في الشخصية بجوانبها الكلية . في حين ان بعضها الآخر مازالت تجري عليه الدراسات والبحوث . فمثلا يعتبر بعد الاستقلال ـ الاعتماد الادراكي من اكثر المجالات دراسة وبحثا ، كذلك الحال في بعد التريث ـ الاندفاع ، في حين ان باقي المجالات المعرفية الاخرى لم تتم عليها الدراسات بالدرجة التي يمكن الاعتماد على نتائجها في دراسة وفهم جوانب الشخصية بصفة عامة .

لذلك فسوف نتعرض في هذه الدراسة الى بعد واحد فقط من هذه الابعاد المعرفية وهو بعد الاستقلال ـ الاعتماد الادراكي . فكيف درس هذا البعد المعرفي وماهو الاساس النظري الذي يستند عليه تصنيف الافراد تبعا له ؟

كيف درست الاساليب المعرفية في الادراك ـ « بعد الاستقلال ـ الاعتماد الادراكي »

الواقع ان الجهد الذي يبذل والدراسات التي تمت في مجال الاساليب المعرفية Cognitive styles

ولا سيما بعد الادراك يعادل خمسة وعشرين عاما تم معظمها على يد وتكن **Witken** وهرتزمان **Hertzman** وميسك **Messick** ووارنر **Warner** وذلك منذ عام ١٩٥٤ . وقد تمكن هؤلاء العلماء من تقييم العديد من المواقف الاختبارية التي استطاعت ان تقيس الخصائص المعرفية الادراكية لدى الافراد المختلفين ، كما استطاعوا ان يخرجوا العديد من الحقائق والمعلومات عن مدى الارتباط القائم بين الاسلوب المعرفي الادراكي للفرد وبين جوانب الشخصية المختلفة ، سواء كانت اساليب السلوك في مواقف التعلم ، او اساليب التكيف الشخصي الذي ينميها الفرد لنفسه خلال مراحل نموه المختلفة ، أو في تفضيله لأنواع دراسية معينة أو مهنية من المهن ، لذلك فقد نشطت ايضا الدراسات والبحوث المختلفة عن كيفية الاستفادة من تلك الخصائص الادراكية المعرفية في مجال التوجيه والارشاد المهني واساليب التنشئة الاجتماعية ، ومشكلات التربية ومجالات التعليم واساليبه في حجرة الدراسة .

ويعتبر بعد الاستقلال ـ الاعتماد الادراكي **Field - independent, Field - dependent** (**F - L, F - D**) من اهم ابعاد الاساليب المعرفية التي نالت عناية ودراسة علماء النفس ، حيث قام وتكن وزملاؤه بتصميم مجموعة من المواقف التجريبية والاختبارية التي يمكن عن طريقها تحديد تلك الاساليب المعرفية الادراكية وتحديد الفروق الموجودة بين الافراد على اساسها .

وقد ركزت ابحاث وتكن وزملائه على تحديد ما اذا كان الفرد يستطيع ان يدرك موقفا من المواقف او موضوعا من الموضوعات متميزاً عن المجال الذي يوجد فيه . وقد صمم ثلاثة مواقف حسية ـ ادراكيه (**Percepkual - TASKS**) كان الموضوع في احد المواقف هو جسم الفرد حيث يعرف هذا الموقف الاختباري باسم اختبار تعديل الجسم (**Body- Adjustment Test)**

اما الموقف الآخر فيعرف باسم اختبار المؤشر والاطار **Rod and Frame Test**

وكان الموقف الثالث هو اختبار الاشكال المتضمنة .

(Embedded figure - test) (Merman and Witkin, 1969)

وقد تمكن وتكن وزملاؤه من ان يحددوا الى اي مدى يختلف الافراد في قدرتهم على ادراك هذه المواضيع (الجسم ـ المؤشر ـ الاشكال الهندسية) منفصلة ومميزة عن المجال الذي يحيط بكل منها ، والذي يعتبر كل موضوع منها جزءا من هذا المجال ، بمعنى آخر فقد طلب من الافراد ان يتعاملوا مع اجزاء كل موقف من المواقف محاولين فصلها عن باقي الموقف الكلي .

ويمكن توضيح كل موقف من المواقف التجريبية التي استخدمها وتكن وزملاؤه فيما يلي :-

يعتبر أول هذه المواقف الاختبارية هو ما يعرفه باسم « اختبار تعديل الجسم » من هذا الاختبار يكون موضوع الادراك هو جسم الفرد نفسه ، وليس شيئا خارجيا ، ويهدف الى تحديد كيف يحدد الفرد وضع جسمه في الفراغ . وفي هذا الموقف يجلس المفحوص على كرسي ، يمكن ان يميل في اتجاه عقارب الساعة او عكسها . ويعد ان يجلس المفحوص على الكرسي يدخل في حجرة صغيرة يمكن أن تميل ايضا في إتجاه عقارب الساعة او عكسها بصرف النظر عن وضع الحجرة الكبيرة التي يجلس فيها المجرب . ويعد ان يتم تعديل وضع الغرفة الصغيرة (ويداخلها المفحوص) بواسطة المجرب بحيث يكون مائلا بدرجة محددة مسبقا يطلب من المفحوص ان يعدل من وضع جسمه بحيث يكون معتدلا ، أي في وضع رأسي .

اما الموقف الثاني فهو ما يعرف باسم « اختبار المؤشر والاطار » حيث يقدم للمفحوص اطار مربع مضيء ، ومثبت في مركزه مؤشر مضيء ايضا . والاطار والمؤشر كلاهما يمكن ان يميل في اتجاه عقارب الساعة او عكسها مستقلا عن وضع الآخر . ويقدم الاطار (وبداخله المؤشر) الى المفحوص في حجرة مظللة بحيث لا يرى غيرهما وفي أوضاع مائلة . ثم يطلب من المفحوص ان يعدل من وضع المؤشر بحيث يصبح وضعه رأسيا بينما يظل الاطار حوله في وضعه المائل المحدد مسبقا .

اما الموقف الثالث فهو اختبار الاشكال المتضمنة ، وفي هذا الاختبار يعرض على المفحوص شكل بسيط لفترة زمنية قصيرة ثم يقدم له بعد ذلك شكل معقد يتضمن داخله الشكل البسيط ولكن في صورة مطمورة ، ويطلب منه ان يستخرج الشكل البسيط من الشكل المعقد ، وان يُعَلِّم على حدود هذا الشكل البسيط ، وقد خرج وتكن وزملاؤه بأن هناك فروقا واضحة بين الافراد في آرائهم وتعاملهم مع المواقف المختلفة ، ووجد أن هذه الفروق تتسم بالاتساق والتشابه في المواقف الاختبارية الثلاث ، وان الافراد يختلفون في قدراتهم على ادراك اجزاء المجال كشيء منفصل او مستقل عن المجال المحيط ككل . وقد كان من نتائج هذه الدراسات ان امكن التمييز بين الافراد بحيث امكن تحديد هؤلاء الافراد الذين يتميز ادراكهم للمواقف بانه ادراك كلي **global** يعتمد على تنظيم المجال ووضوح اجزائه ، وسمى اصحاب هذا النمط بذوي الاسلوب المعرفي المعتمد (F . D) . وفي مقابلهم كان هناك آخرون يتميز ادراكهم للمجال بانه ادراك تحليلي **analytic** حيث يمكنهم ادراك عناصر الموقف منفصلة او متمايزة عن بعضها البعض الاخر وسمى اصحاب هذا النمط بذوي الاسلوب المعرفي المستقل (F.I) .

ولابد ان نشير مرة اخرى الى ان كلا الاسلوبين في الادراك (المعتمد - المستقل) لا يمثل تصنيفا ثنائيا للافراد بحيث يصبح لدينا نمطين متمايزين في اساليب الادراك المعرفي وانما هو توزيع متصل يبدأ من احد الطرفين وينتهي بالطرف الأخر (Messick, 1976) وقد اسفرت الدراسات في مجال الاساليب المعرفية ان الافراد بصفة عامة يميلون الى الثبات النسبي في موضعهم تبعا للأسلوب المعرفي الذي ينتمون اليه (تحليلي كلي) وذلك بالمقارنة بزملائهم ، أي ان كل فرد يميل الى البقاء في موضعه من الاسلوب المعرفي المنتمي اليه ، وذلك خلال مراحل نموه المختلفة . وبالتالي فالطفل الذي اظهر منذ طفولته المبكرة دلائل تشير الى انه من ذوي الاسلوب المعرفي المعتمد ، بمقارنته بمجموعة من اقرانه فانه سوف يظل متدرجا تحت هذا الاسلوب المعرفي الكلي في سنوات العمر التالية ، وذلك بمقارنته بنفس افراد هذه المجموعة من الاعمار الزمنية الاكبر ، مع العلم ان هذا الطفل ومجموعة الافراد الذين ينتمي اليهم يتجهون جميعا خلال مراحل النمو المختلفة نحو مزيد من الاسلوب المعرفي التحليلي بصفة عامة .

ويرتبط مفهوم الثبات النسبي للأساليب المعرفية الادراكية ارتباطا وثيقا بمفهوم التمايز النفسي Psychological Dippesentiation الذي يعتبر الاساس الذي ترتكز عليه كل اعمال ودراسات وتكن وزملائه ، حيث يفترض ان الافراد يختلفون في اساليب سلوكهم وخصائصهم النفسية تبعا للدرجة نمو عملية التمايز النفسي المعرفي لكل منهم ، فهناك افراد يتميزون بقدرة عالية على تمييز انفسهم والفصل بين خصائصهم النفسية والشخصية المختلفة ، وبالتالي يتحدد سلوكهم على هذا الاساس ايضا . ومن هنا فان القدرة على تنمية عملية التمايز النفسي المعرفي لدى الفرد منذ بدء حياته وطوال مراحل العمر المختلفة يعتبر المسئول الأول عما نلاحظه من ذلك الثبات النسبي في الوان السلوك التي يقوم بها الفرد ، والتي استخدمها وتكن وزملاؤه للتمييز بين اولئك الذين يتميزون بالاساليب المعرفية التحليلية (المستقلة) واولئك الذين يتميزون بالاساليب المعرفية الكلية (المعتمدة) .

ماذا نقصد بعملية التمايز بصفة عامة ؟

من المعروف ان عملية الادراك لدى الاطفال في الاعمار الصغيرة تتميز بالكلية والعمومية ، وانه بازدياد التقدم في مراحل النمو يزداد التمايز وتزداد القدرة على ادراك التفاصيل وتزداد القدرة على عزل الذات عما يحيط بها من مثيرات أو أمور . لذلك فانه يمكن القول ان الاطفال في مراحل العمر المبكرة يتميز ادراكهم بانه من ذلك النوع المعتمد (الكلي) وانه مع ازدياد النمو يتجه الافراد نحو مزيد من

الاستقلالية في عمليات الادراك . ولما كان وتكن وزملاؤه يستخدمون مفهوم الأساليب المعرفية في معنى نمائي ، فان ذلك يقودنا الى الخروج بنتيجة أساسية وهي انه اذا حقق الفرد او تعطلت لسبب او آخر تنمية أساليبه الادراكية التي تختلف عن تلك الاساليب التي تميز مراحل الطفولة كان ذلك سببا فيما نشاهده من فروق بين الافراد في جوانب شخصياتهم المختلفة .

ويمكن القول انه من خلال شرح وتوضيح الكيفية التي تنمو بها عملية التمايز في حياة الافراد ، ومن خلال التعرف على مستوى نمو تلك العملية يمكن تحديد الفروق القائمة بين الافراد في سماتهم الشخصية المختلفة (Goadenouyh, 1967) بحيث يمكن في النهاية توزيع الناس على سلم متدرج من اقصى اليمين ، حيث نجد اولئك الذين لم يتمكنوا من تنمية اسلوب واضح ومحدد للتمايز في حياتهم وتعاملاتهم ولم يتمكنوا من فصل انفسهم عما يحيط بهم ، وبالتالي انطبع ذلك على جميع مظاهر سلوكهم ، اما في اقصى اليسار فاننا نجد اولئك الذين يمكنهم ادراك التمايز الموجود بين خصائصهم الشخصية المختلفة مع نمو القدرة على تمييز انفسهم عما يحيط بهم من امور وظواهر ، وبالتالي ينطبع ذلك ايضا في جميع مظاهر حياتهم الشخصية ، واخيرا فان تصنيف الافراد الى معتدلين - مستقلين ادراكيا انما يعني مدى نمو عملية التمايز النفسي في حياة هؤلاء الأفراد ، التي تظهر آثارها في ذلك الثبات والاتساق النسبي في سلوك الافراد .

ويتبادر الى الذهن في هذا الصدد سؤال هام هو . . ماهي طبيعة عملية التمايز هذه وماهي العوامل المسئولة عن تنميتها أو اعاقتها ؟

الواقع ان صفة التمايز تعد صفة اساسية من صفات اي نظام (System) سواء كان ذلك النظام نظاما سيكولوجيا او بيولوجيا او اجتماعيا . ويقصد بمفهوم التمايز في معناه العام مدى التعقد النهائي لأي نظام من الأنظمة ، فالنظام الاقل تمايزا يمكن وصفه بان بنيته او مكوناته تتميز بالتجانس النسبي ، في حين أن النظام الاكثر تمايزا يمكن وصفه بأن بنيته او مكوناته تتميز بعدم التجانس النسبي ، ويمكن القول ان وصف اي نظام بأنه ذو درجة عالية من التمايز او درجة منخفضة منه يحمل في طياته معنى للاسلوب الوظيفي الذي يعمل به هذا النظام ، بل انه من خلال بعض المظاهر الوظيفية الخاصة يمكن ان يتضح مقدار هذا التمايز الموجود في نظام ما .

ويرتبط مفهوم التمايز لأي نظام مفهوم آخر وهو مفهوم التخصص ، ذلك ان كل مكون من مكونات أي نظام لابد وان تكون له وظيفة خاصة ومحددة داخل هذا التنظيم الكلي ، وتظهر صفة

التخصص بصورة اكثر وضوحا كما كان ذلك النظام اكثر تعقيدا . في حين أن النظام الاقل تعقيدا والاقل تمايزا يصبح من الصعب ان تجد لمكوناته مثل هذه الوظائف التخصصية حيث تعمل اجزاء النظام كلها دفعة واحدة وبطريقة بدائية وبسيطة .

واذا اردنا ان نطبق ذلك المعنى للتمايز في وصف الجوانب النفسية للشخصية باعتبار ان الشخصية ماهي الا نظام معقد من السمات والخصائص فان مفهوم التخصص يعني مدى القدرة على الفعل والتخصص بين الجوانب والمجالات المختلفة ، مثل الفصل بين المشاعر والادراك والفصل بين التفكير والسلوك ، والفصل بين الذات وعناصر البيئة والمجال المحيط بها ، بمعنى آخر فان التمايز يعني ضرورة تحديد الحالة الوظيفية ، أو نوع السلوك الوظيفي المناسب في موقف من المواقف . فهناك الوان سلوكية وردود افعال معينة تصبح اكثر احتمالا واكثر حدوثا كاستجابات لمثير معين في حين انها لا تصبح كذلك ازاء مثيرات أخرى . أو أن الفرد يصبح لديه القدرة على تمييز وادراك المثيرات المعينة الموجودة في الموقف ويتخير لها . اسلوب الاستجابة المناسب (Witkeneral . 1974)

ولما كان النظام النفسي يرتبط الى حد كبير بالتفاعل المستمر مع عناصر اخرى موجودة في البيئة المحيطة بالفرد (Bertal 1960, Allport 1960) فان مفهوم التمايز يتضمن بجانبه القدرة على الفصل بين الوظائف النفسية المختلفة داخل الفرد الواحد ، ضرورة الفصل بين ما يمكن تحديده كخصائص تنتمي للذات والخصائص الأخرى التي يمكن تحديدها كخصائص خارجه عن هذه الذات . ـ وبالتالي فان ادراك الفرد لنفسه كشيء منفصل عما حوله وادراكه لذاته وكانها ذات اطار محدود ومرسوم يعتبر أمراً في غاية الأهمية ، حيث يساعد ذلك على ان تصبح امكانية تحديد السلوك الوظيفي المناسب في كل موقف من المواقف عملية نابعة من داخل الفرد وليست معتمدة على امور خارجية .

كذلك يحمل مفهوم التمايز في طياته عملية أخرى مكملة له تعرف باسم عملية التكامل ، ويقصد بهذه العملية الكيفية التي تندمج بها وتتكامل في إطارها مكونات أي نظام من الانظمة . بمعنى آخر فأن عملية التكامل بين اجزاء ذلك النظام المتمايز يقصد بها الصورة او الشكل الذي يتم على اساسه تنظيم العلاقات الوظيفية المتضمنة كعناصر في النظام بحيث يصبح لكل نظام نمطه الخاص به المميز له . ففي نظام مثل نظام السيكولوجي ، ونظراً لطبيعية الشخصية المتفتحة والمتفاعلة مع المجال الخارجي فان عملية التكامل يقصد بها شكل العلاقات الموجودة بين المكونات المختلفة من ناحية وبين البيئة المحيطة من ناحية اخرى .

نحو مفهوم التمايز

وقد يكون من المفيد لكي نزيد من وضوح مفهوم التمايز ووضعه في اطار اكثر فاعلية لوصف الشخصية الانسانية والسلوك الصادر عنها ، ان نقارن بين الكائن الحي (الفرد) في مراحل الطفولة وفي مراحل العمر التالية :

ففي مراحل العمر الاولى يصعب على الطفل ان يميز بين ذاته وبين البيئة المحيطة به ، وكما ان قدرة الطفل على العقل بين ذاته الجسمية وانتزاعها من المجال بما يكون في اضيق الحدود ان لم يكن معدوما ، ولكن مع التقدم في النمو يبدأ الطفل في انتزاع هذا الادراك للذات الجسمية من المجال او البيئة المحيطة بحيث تعتبر تلك العملية أول مراحل نمو التمايز النفسي التي يمكن ان يقوم بها الطفل . فالقدرة على ادراك حدود فاصلة بين الجسم والعالم الخارجي تبدأ في التكوين والنمو شيئا فشيئا وتستمر في نموها وتمايزها خلال مراحل النمو المتطورة . ومع تنمية تلك الحدود وتكونها فان الطفل يمكنه ايضا ان يدرك مختلف اجزاء هذا الجسم والعلاقات الموجودة بين هذه الاجزاء المختلفة ، والواقع ان تنمية الشعور بالذات الجسمية وتميزها ككلي ، متصل بما حولها لا يتم فقط من خلال الاشباع الفسيولوجي الذي يحصل عليه الطفل من الوظائف المختلفة لاعضائه ومطالبه العضوية (الجوع ـ والعطش ـ الالم) بل ايضا من خلال الشعور باشباع الحاجات النفسية . فهذه كلها امور تنبع من داخل الفرد ويمكن تمييزها عن غيرها من الخبرات الأخرى المرتبطة بالبيئة الخارجية والصادرة اليه من مصادر خارجة عن الذات .

وتتضح فكرة التمايز باجل وأدق صورها في عملية انتقال من حالة الالتصاق مع أمه نحو الانفصال التدريجي عنها ـ كما يبدأ الطفل في تشرب وامتصاص قيم المجتمع وتقاليده سواء من والديه المحيطين به ، بحيث يساعده ذلك على تكوين قيمه الداخلية ومعايير سلوكه التي من شأنها ان تساعده على تكوين فكرته عن ذاته ، ففي مراحل النمو المختلفة ينمي الطفل مفهومه عن ذاته ، وكما انه ينمي ايضا تصوره لنفسه ، واوجه الشبه والخلاف بينه وبين الآخرين ، أي يستطيع ان يحدد هويته المنفصلة عن الآخرين (**Sense of separate identity**) وتستمر حالة التقدم والتطور نحو مزيد من الانتظام البنائي للشخصية مع ما يرتبط بذلك من قدرة على الفصل الكبير بين الذات وخصائصها من ناحية وبين ما يحيط بها من ناحية اخرى ، بمعنى آخر فانه مع التقدم في النمو يزداد تمايز الذات وتصبح اكثر تحديدا ووضوحا عما يحيط بها من مؤثرات .

وهكذا فانه بنمو الفرد ووصوله الى مرحلة القدرة على تمييز ذاته عما حولها فان ذلك يتضمن بالضرورة ان يصبح قادرا على فهم وادراك مدى التمايز الموجود بين الوان نشاطه وسلوكه وخصائصه الشخصية ، وتصبح لا مجال لادراك هذه الأمور بطريقة كلية كما كان الحال في المراحل السابقة . كذلك الحال فيما يتعلق بالخبرات الموجودة حول الفرد الخارجة عن ذاته حيث انه يصبح قادرا على ادراك هذه الخبرات كجوانب منفصلة وبطريقة اكثر تفصيلا ووضوحا . فبعد ان كان الطفل غير قادر على فهم خصائص الجزء الا في ضوء الكل الموجود به هذا الجزء ، يزداد وضوح الاجزاء المكونة لهذا الكل ويزداد تفصيلها وتمايزها . فمثلا في مجال الادراك البصري فان تنظيم عملية الادراك تخضع الى حد كبير الى العلاقات والارتباطات الموجودة بين اجزاء المجال المثير أو الشكل المثير . فالمجال المثير الذي يتميز بقلة العلاقات وعدم وضوحها بين اجزائه غالبا مايدركه الفرد وكأنه أقل تنظيما ، ولكن مع مراحل النمو المتطورة فان هذه الأجزاء المثيرة تكتسب معنى وظيفة محددة من خلال تكرار حدوثها ومن خلال تنوع التعامل معها . وبتأثير هذا التكرار وبتأثير هذا التنوع في التعامل مع المثيرات المنفصلة يزداد وضوحها ، وتتضح وظيفته مما يسهم او يساعد على زيادة القدرة على الفصل والتمييز وتحديد الفروق بين هذه المثيرات وبعضها البعض (سواء كانت تلك المثيرات اشكالا هندسية او رسوما هندسية أو غير ذلك) .

ويمكن القول ان زيادة الوضوح وزيادة التمايز للمثيرات او الاجزاء الموجودة في الموقف تعد عملية اساسية من أجل القيام بعملية اخرى مكملة لعملية التمايز وهي عملية التكامل للاشكال او المظاهر غير المترابطة . بمعنى آخر فان نمو القدرة على التمييز والفصل بين الاجزاء المختلفة في الموقف يستتبعها بالضرورة عملية اخرى مكملة لها وهي ضرورة اعادة تركيب هذه الاجزاء بصورة ذات معنى وهي ما نسميها بالتكامل . ويرى وتكن وزملاؤه (1974) اي نمو القدرة على ادراك الموقف باجزائه المنفصلة ، ثم التعامل معه بطريقة متكاملة هو دليل على نمو عملية التمايز النفسي ، سواء لجوانب الذات المختلفة ، او التمايز بين الذات وكل ما يحيط بها من أمور خارجية .

وهكذا يصل وتكن الى توضيح العلاقة بين نمو عملية التمايز النفسي لدى الفرد خلال مراحل العمر المختلفة وعلاقتها بتحديد النمط أو الأسلوب المعرفي للفرد . فالفرد الذي نمت لديه القدرة على ان يدرك ما حوله بطريقة متميزة ، أي من نمت لديه القدرة على الفصل بين المثير المعين وانتزاعه من الخلفية التي تحيط به او من غيره من المثيرات الأخرى الموجودة في الموقف ، يصبح ايضا اكثر قدرة على تنظيم المجال او الموقف ، او اعادة تنظيمه عندما يقدم له في صورة اقل تنظيما . وفي كلتا الحالتين سواء قدرته على انتزاع المثير بصرف النظر عن الخلفية والاطار الموجود به المثير عندما يكون الموقف منظما دقيقا ، او

قدرته على اعادة تنظيم علاقات الموقف واجزائه لادراك المثير المحدد ، كلها عمليات مرتبطة بنمو عملية التمايز النفسي للفرد .

والواقع ان النمو نحو مزيد من التمايز في جوانب الشخصية يظهر ايضا في زيادة قدرة الفرد على تنمية الجوانب الانفعالية والوان السلوك الدفاعي (Controls and defenses beh.) ففي مراحل العمر الاولى تتميز انفعالات الاطفال بانها استجابة كلية عامة ، على درجة كبيرة من الشد ، وهي استجابة غير محددة وغير واضحة ، وكلما زادت شدة المثير ادى ذلك الى صدور استجابات غاية في البساطة الكلية ، كوسيلة دفاعية يلجأ اليها الطفل ازاء هذا المثير . وفي خلال مراحل النمو المختلفة فان نوعا من التخصص والتمايز يأخذ في النمو ، بحيث تتحول تلك الاستجابات البدائية غير المحددة الى استجابات اكثر تنظيما ، ويصبح الفرد نفسه اكثر قدرة على التحكم والضبط في اصدار استجاباته ، وهذا كله يؤدي بدوره الى مزيد من التخصص في الوان السلوك المدفوع بحيث تمكن الفرد من تأجيل او تعديل استجاباته ، كما تنمو قدرته على حماية نفسه من الآثار المشتتة او المحيطة لبعض المثيرات . كما ان النظام القيمي الداخلي للفرد Intenalized value systen يساعد الفرد ايضا في احداث مثل هذا التمايز النفسي . فلم يعد الطفل معتمدا في الضبط والتحكم في سلوكه على قيم ومعايير تأتيه من مصادر خارجة عنه كما كان الحال في مراحل العمر الاولى ، او من خلال الثواب والعقاب التي يتعرض لها . او من خلال النتائج المترتبة على مخالفته للقواعد والقوانين ، وانما يكون قد تشرب تلك القيم والمبادىء واصبحت جزءا مكملا ومميزا لذاته ، وبالتالي تساعده في أن يصبح المنظم الاول لألوان سلوكه ودوافعه نابعا من داخله ومن قيمه ومعاييره التي نماها داخليا . وكل هذا ماهو الا مؤشرات أخرى للتمايز والوضوح في هذه الذات (Witkin 1974) وهكذا يمكننا ان نخلص من هذا كله بان القدرة على احداث التمايز النفسي للفرد هي عملية نمائية مضطردة ، فمع زيادة النمو تزداد قدرة الفرد على عزل نفسه وتميزها عما حولها ، كذلك الحال يزداد نمو الشعور باستقلال الهوية ، ويزداد مقدار ما يكتسبه الفرد من قدرة على تنظيم انفعالاته والوان سلوكه المدفوع ، وتزداد مقدرته على التنظيم والتحكم في هذه الجوانب الرئيسية للشخصية في علاقاتها مع البيئة الخارجية بصفة عامة .

وبناء على حقيقة عملية التمايز النفسي هذه فانه لابد وان نتوقع ان يختلف الناس في مدى تلك العملية ، لذلك فالسؤال الذي يفرض نفسه الآن هو :

هل هناك مؤشرات أساسية يمكننا ان نستدل منها على المستوى الذي وصل اليه الفرد في نمو عملية

التمايز النفسي ؟ وقد اجاب وتكن وزملاؤه على ذلك بان هناك بعض هذه الموشرات التي يمكن اجمالها فيما يلي :-

١ـ مدى النمو الحادث من مفهوم الذات وتفصيلها وتمييزها عما حولها .

٢ـ مدى النمو الحادث من فهم الذات الجسمية والشعور بالشخصية المستقلة .

٣ـ مدى النمو الحادث في اساليب السلوك الدفاعي واساليب التكم والضبط الانفعالي .

ولذلك فانه يمكن القول ان قياس تلك الموشرات وتحديد درجة نموها لدى الافراد يعد اساسا هاما في التعرف على مدى التمايز النفسي القائم في شخصية الفرد ، بل انه على اساس تحديد ذلك يمكننا ان نميز بين الافراد وان نحدد الفروق الفردية القائمة بينهم على هذا الاساس ، وبناء على ما تقدم استعراضه عن مفهوم التمايز النفسي فانه يصبح من المتوقع ان اولئك الافراد الذي تمت لديهم عملية التمايز بدرجة عالية هم اولئك الافراد الذين اطلق عليهم وتكن وزملاؤه « ذوي الاساليب المعرفية التحليلية » في حين أن اولئك الذين لم تتم لديهم عملية التمايز بدرجة كافية هم اولئك الذين اطلق عليهم « ذوي الاساليب المعرفية الكلية » .

رابعا ـ الاستفادة من تحديد الاسلوب الادراكي في دراسة الشخصية :ـ

وفي ختام هذه الدراسة يظل هناك سؤال آخر وهو كيف يمكن الاستفادة من ذلك الاتجاه في دراسة الشخصية في مواقف الحياة المختلفة سواء في مجالات التعليم والتوجيه المهني والتربوي ، أو في حجرات الدراسة ، او في غير ذلك من مواقف الحياة المتنوعة .

وتقدر الابحاث والدراسات التي تمت في هذه الميدان التطبيقي لهذا الاتجاه في دراسة الفروق الفردية بالآلاف ، وقد اجمعت معظم هذه الدراسات الى ان ذوي الاساليب المعرفية المختلفة يتميز كل منهم بخصائص وسمات معينة في كيفية تعاملهم مع المواقف التعليمية ، او اختيار المهنة او نوع الدراسة او في طريقة تفاعله في حجرة الدراسة ، او في اساليب التفاعل الاجتماعي بصفة عامة .

فقد اشار كل من جستس وهولي وجرين (١٩٧٢) **Juskice, Holley and Green** الى ان اصحاب الاسلوب المعرفي المعتمد يفضلون العمل وهم قريبون ماديا وحسيا **Physically** من الآخرين ، ففي تجربة قام بها جستس (**1976**) لمعرفة الى اي مدى يختلف اصحاب الاسلوب المعرفي المعتمد عن اصحاب الاسلوب المعرفي المستقل ، في تفضيلهم للجو الاجتماعي السائد والمكان الذي يعملون فيه ، فوجد أن اصحاب الاسلوب المعتمد عندما طلب منهم اعداد مقالة ما وقراءتها على مجموعة من المحكمين كانوا يدخلون الحجرة ويقتربون كثيرا من المحكمين وذلك بمقارنتهم باصحاب الاسلوب المعرفي المستقل .

كذلك اوضح كونستاد ، وفورمان **Konstadt and Forman 1965** ان اصحاب الاسلوب المعتمد يتميزون بأنهم يهتمون بتمايز الوجه للآخرين ، بل انهم يطيلون النظر في وجوه من يتعاملون معهم ، كما انهم يتأثرون كثيرا بالجوانب والخبرات الانفعالية العاطفية السائدة في الموقف .

كذلك اكدت دراسات نوفل ، وربل وناكامورا **Novill, Ruble and Nakamura** (**1971**) الى ان اصحاب الاسلوب المعرفي المعتمد في حاجة قائمة الى تأييد الجماعة لهم ، بل انهم مهتمون اشد الاهتمام بمعرفة - اي الجماعة عن سلوكهم . وقد ظهر أثر اهتمام اصحاب الاسلوب المعرفي المعتمد برأي الآخرين في اختيارهم لنوع المهنة التي يعملون بها ، انهم يفضلون الاعمال التي تتطلب قدرا من الالتصاق والاندماج والتفاعل مع الغير ، مثل اعمال الجمعيات الخيرية او الارشاد والتوجيه ، او الاعمال المرتبطة بالاقتناع والتأثير في الآخرين ، كذلك فانهم يفضلون دراسة الانسانيات بصفة عامة .

وبمقارنة هذه الجماعة بالجماعة الأخرى (ذوي الاسلوب المعرفي المستقل) نجد ان المستقلين ادراكيا لا يولون اهتماما كبيرا للعلاقات الاجتماعية ولا يهتمون كثيرا برأي الآخرين عنهم ، كما انهم لا يفضلون ولا يهتمون بالمجالات ذات العلاقات الاجتماعية التي تتطلب اندماجا او تفاعلا مع الآخرين ، وهم في اختيارهم المهني يفضلون المجالات المهنية التي تحتاج الى كثير من التحليل والتدقيق ، كما انهم يختارون المجالات ذات الطبيعة التكنولوجية او العلمية بصفة عامة .

اما عن العلاقة بين الاساليب المعرفية ومواقف التعليم فقد اظهرت الدراسات المختلفة ان اصحاب الاسلوب المعتمد يظهرون صعوبة بالغة في تنظيم المواقف الجديدة او الغامضة . بل انهم يفضلون

التعامل مع المادة التعليمية التي تقدم اليهم بطريقة منظمة والتي لا تحتاج منهم الى اي جهد من تنظيمها او اعادة تنظيم المعلومات الواردة بها ، وانهم يجدون صعوبات بالغة في تعاملهم مع المادة التي تفتقر الى التنظيم والبناء السليم ، بل ان المواقف الغامضة عليهم تجعلهم يواجهون حالة من القلق والاضطراب وعدم التنظيم ويكون من نتيجة ذلك تأثر مستوى ادائهم مما يجعلهم في حاجة الى افراد ذوي سلطة او مركز اكبر للحصول على اطار مرجعي يعتمدون عليه في فهم تلك المواقف (**Bruce, 1970**) وقد اكد بروس هذه الحقيقة في تجربته التي اجراها على مجموعة من تلاميذ الصف السادس حيث طلب منهم ان يكونوا قصصا من مجموعة من الصور المتفاوتة في التنظيم والوضوح والتنسيق . فقد كانت بعض هذه الصور واضحة ومنظمة ، في حين ان بعضها الآخر كانت تحتاج الى دمج لاكثر من صورة اوجزء من الصورة ليكون منها قصة ذات معنى . وقد خرج برونس بنتائج تؤكد وتوضح مدى الصعوبات التي وجدها ذوو الاسلوب المعرفي المعتمد ، وان ادائهم جاء اقل من مستواه من الافراد ذوي الاسلوب المستقل ، ولا سيما مع الصور غير الواضحة والتي تحتاج الى مجهود لتنظيم عناصرها او اعادة تنظيمها وترتيبها ، في حين انه لم توجد فروق بين المجموعتين في ادائهم عندما كانت الصور واضحة المعالم ولا تحتاج الى تحليل اودمج او تركيب . وقد اكد هذه الحقيقة ايضا لوزيتو Lezotte (1969) واوضح ان اصحاب الاسلوب المعرفي المعتمد في حاجة دائما الى ان تقدم لهم المواقف والمعلومات في صورة اكثر تنظيما وترتيبا من اصحاب الاسلوب المعرفي المستقل .

ومن الاحداث ذات النتائج الهامة التي ربطت بين الاساليب المعرفية الادراكية ومجالات العمل في ميدان التعليم تلك الدراسة التي قام بها دي ستافوانو **Distefano, 1969** للتعرف على العلاقة بين الاساليب المعرفية للمدرسين واختيارهم لمواد التخصص ، كذلك العلاقة بين التحصيل الدراسي للتلاميذ وعلاقته باساليب وطرق التعلم المستخدمة ، وقد ظهرت هذه الدراسات ان اختيار مهنة التدريس بصفة عامة يرتبط بالاسلوب المعرفي المعتمد ، والواقع ان هذه الحقيقة تجدها متمشية تماما مع الخصائص والصفات الشخصية للمعتمدين ادراكيا الذين يفضلون ان يمضوا اوقاتهم يعملون مع الآخرين ، كما اظهرت الدراسة ايضا ان اختيار المدرس لتخصص معين يرتبط باسلوبه المعرفي ، فأولئك الذين يتميزون بالاسلوب المعرفي الاستقلالي يختارون عادة المواد العلمية مثل الرياضيات او العلوم ، في حين ان المعتمدين ادراكيا يختارون مجال تدريس الاجتماعيات .

اما الدراسة الاخرى فكانت عن العلاقة بين الاساليب المعرفية واساليب تعليم التلاميذ ، وقد اظهرت دراسة جريف ، وديفيز (Grieve and Davis 1971) ان هناك اختلافا بين ذوي

الاساليب المعرفية المختلفة (مستقل - معتمد) في مقدار تحصيلهم الدراسي تبعا لاسلوب التعلم المستخدم ، فعندما استخدمته طريقة التعلم بالالقاء (**expository** وطريقة التعلم بالاستكشاف (**discovery**) فقد وجد ان ذوي الاساليب المعرفية المعتمدة كانوا اكثر استفادة من اسلوب التعلم بالاستكشاف ، وقد اوعزت هذه النتيجة الى ان اسلوب التعلم الاستكشافي يتطلب نوعا من التفاعل الاجتماعي ، سواء مع المعلم او مع التلاميذ الآخرين ، وهو ما يفضله اصحاب الاسلوب المعرفي المعتمد ، وذلك بمقارنتهم بذوي الاسلوب المعرفي المستقل .

والواقع ان الدراسات في هذا المجال التطبيقي اي مجال الاستفادة من مفاهيم الفروق في الجوانب المعرفية وعلاقتها بمواقف التعلم واختيار المهنة او العلاقات الاجتماعية تقدر بـالآلاف ، الا انه لا يسعنا ، المقام في هذه الدراسة لأن نلقي نظرة كاملة على كل ما تم من دراسات في هذا الصدد ، الا انه يمكننا ان نستخلص حقيقة عامة وهي ان الفروق القائمة بين الافراد في عمليات الادراك والعمليات العقلية المعرفية بصفة عامة يمكنها ايضا ان تعطينا صورة عن الفروق الفردية في جوانب الشخصية الأخرى . وانه يكفي ان تحدد الاسلوب المعرفي للفرد لنتمكن من التعرف على باقي السمات والحقائق الشخصية الأخرى ، والتي تنسحب آثارها على تعامله في مواقف الحياة المختلفة ، سواء في مواقف المدرسة او المهنة او العلاقات الاجتماعية ، ولذلك فان الاساليب المعرفية تعتبر في واقع الامر اساسا يعتمد عليه في التنبؤ بنوع السلوك الذي يمكن ان يقوم به الافراد المختلفون في اساليبهم المعرفية اثناء تعاملهم مع المواقف المختلفة ، سواء كانت مواقف اجتماعية مع الآخرين من اجل التكيف النفسي ، او مواقف تعليمية في حجرة الدراسة ، او في تفضيل نوع الدراسة او في اختيار المهنة ، او غير ذلك من مواقف الحياة اليومية المتعددة .

***

المراجع

— Anastasi, A. Differential Psychology Individual and group Differences in behavior, Macmillan Comp. New york, 3rd ed. 1965.

— Berry, J — W. Temne and Eskimo perceptual skills. International Journal psychology. 1966

— Bruce, D. K. The effect of field dependence and anxiety on the Perception of social Stimuli. Doctoral dissertation, unv. of U T.A Ann Arbor, Mich University microfilms, 1965 No. 65 — 12.

— Dawson, J. L. M. cultural and psychological influence upon Spatial perceptual processes in West Africa — part 1. International Journal of psychology 1967 — 2 (2).

— Dawson, J. L. Theory and research in cross — cultural psychology Bulletin of the British Psychological Society, 1971 24 (85).

— Dersosy, E. A., and Fitch, E. Field dependence — independence as related to college curricula perceptual and motor skills, 1971, 33.

— Distefano, J. J. Interpersonal perceptions of field independent And field dependent teachers and students unpublished doctoral Dissertation, 1969.

— Dyk, R. B. A. exploratory Study of mother — child interaction in infancy as related to the development of differentiation. Journal of the American Academy of child psychiatry (1969) 8.

— Dyk, R., and Witkin, M. A. Family experiences related to the development of differentiation in children. Child development 1965 30.

— Good enough, D. R, and kaip, S. A. Field dependence and intellectual Functioning Journal of Abnormal and social psychology, 1961 ,63.

— Grieve, T. D. and Davis, J. K. the relationship of cognitive style and method of instruction to performance in ninth grade geography Journal of educational research, 1971, 65.

— Herman, A. and Witkin, A. H. some implications of research on cognitive Style for problems of education professional School psychology. Vol. 111, 1969.

— Justice, M. T. Field — dependency, intimacy of topic and interperson distance. Doctoral dissertation Univ. of Florida 1969. Amarbor, Michigan Unv. microfilms, 1970. No. 70 — 12.

— Konstadt, N. and forman, E. Field dependence and external directedness Journal of personality and social psychology 1965, 1.

— Lozotte, L. W. The relationship between cognitive styles scholastic ability and learning of structured and unstructured materials,Doctoral Dissertation 1976.

— Messick. S. Individuality in learning. Jossey — Bass, Washington 1976.

— Messick, S. and Kogan N. Differentiation and compartmentalization in object — sorting measures of categorizing style perceptual and motor skills, 1963.

— Novill, Rubin, D. N, and Nakamura, C. Y Task orientation versus social orientation in young children and their attention to relevant social cues. child development, 1972, 43.

— Rogers, carl, Dymond, R. F. psychotherapy and personality change,Chicago university of chicago press, 1954.

— Rudin, S. A. and stagner, R. Figure — ground phenomena in the perception of physical and social stimuli. Journal of psychology 45. 1958.

— Witkin, M. A, Moore, C. A cognitive style and the teaching Learning process. A paper presented at the annual meeting of the A. E. R. A. Chicago, 1974, 1975.

— Witkin, M. A. and Dyk, R. B. and others psychological differentiation. N, Y wiley, 1974.

— Witkin, M. A. Field dependence — independence. A bibliography through 1972. N. J. Educational Testing Services, 1973.

— Witkin M, A and oltman, P. K and others : field — dependence, field — independence and psychological differentiation A bibliography through 1972. princeton N, J Educational Testing Service, 1973.

— Kagan, J. and Kogan, N. Individual variation in cognitive processes in P. M. Mussen (ed). carmichaels manual of child psychology vol. 1. New York wiley 1970.

— Kagan J. and Messer, S. A reply to some misgiving about the matching Familiar Figures test, as a Measure of reflection implusivity Developmental psychology 1975.

— Kagan. J. Moss, M and sigel, I, conceptual style and the use of affect labels. Merrill — palmer quarterly, 1960.

— Kagan J., Moss, M. and sigel, I. Psychological Significance of styles of Conceptualization. Monographs of the society for research in child development. 1963.

— Holzman P. and Rousey, C. Disinhibition of communicated thought. generality and role of cognitive style,Journal of abnormal Psychology 1971.

— Holzman, P. S, scanning : A principle of reality contact perceptual and Motor Skills 1966.

— Kagan, N. and Morgan, F. Task and motivational influences on the Assessment of creative and intellectual ability in children, Genetic Psychology Monographs, 1969.

— Klein G. Gardner. R. and Schlesinger M. Tolerance for unrealistic experiences. A Study of the generality of a Cognitive control. British Journal of psychology 1962.

— Jensen, A. R. and Rohwer. W. the stroop color — Ward Test. A review. Acta psychologica. 1966.

* * *

الشخصية وتعديل السلوك

ڤيولا الببلاوى

مدرسة علم النفس بكلية التربية بجامعة الكويت

مقدمة

لم يقتصر اهتمام معظم نظريات علم النفس على محاولة الكشف عن طبيعة الشخصية ، وعلى سعي أصحاب كل نظرية الى بناء تصور نظري لها ، واعداد طرق ومقاييس خاصة بدراستها ، بل كان لهذا الاهتمام أيضا متضمنات وتطبيقات بالنسبة لعلاج اضطرابات الشخصية وما يرتبط بذلك من طرق علاجية وارشادية وتأهيلية . ولم يؤد التقدم في التنظير في الشخصية الى تقدم في فلسفة العلاج النفسي وطرقه وأدواته فحسب كما طورتها كل نظرية من نظريات الشخصية ، بل أن التقدم في البحوث الاكلينيكية وفي العمل العلاجي قد انعكس بدوره أيضا على تطوير التنظير في الشخصية ، وعلى الكشف عن جوانب وديناميات في الشخصية لم تكن لتتضح بغير البحث الاكلينيكي في اضطرابات الشخصية

وفي السنوات الحديثة ، منذ الخمسينات تقريبا من القرن الحالي ، كان لنظريات السلوك الاجتماعي أثر عظيم في بناء طرق كثيرة للعلاج تعرف بطرق تعديل السلوك تستند الى مبادىء التعلم . ورغم أن مبادىء التعلم كانت متاحة للاستخدام للأغراض الأكلينيكية العلاجية منذ أكثر من نصف قرن ، الا أن التوظيف الفعلي لمبادىء التعلم في العلاج النفسي لم يتحقق أساسا الا بعد الخمسينات من القرن الحالي . هذه الأشكال من العلاج القائم على التعلم تتميز بثلاثة معالم عامة رئيسية هي : -

أولا : أن هذه الأشكال من العلاج تحاول تعديل السلوك المشكل ذاته ، ولذلك تعرف بـ « العلاج السلوكي » .

ثانيا : تركز العلاجات السلوكية ، مثل نظريات السلوك الاجتماعي التي توجهها ، على السلوك « الحالي » للفرد أكثر مما تهتم بالأصول التاريخية لتشكله .

ثالثا : يفترض معظم المعالجين السلوكيين أنه يمكن فهم وتغيير السلوك المنحرف بواسطة نفس مبادىء التعليم التي تحكم السلوك العادي أو السوي .

كان الاتجاه التقليدي في دراسة الشخصية يضع حدا فاصلا بين سيكولوجية الشخصية السوية والشخصية غير السوية ويعتبر هما موضوعين منفصلين . ولكن هذا التمييز بين دراسة الشخصية السوية والشخصية غير السوية قد صار ، حديثا ، تمييزا واهيا لأنه يستند الى اقامة حدود غير محددة بين هذين المجالين من الدراسة . وفي ذلك يحاول المعالجون السلوكيون أن يبينوا أنهم يستطيعون استخدام نفس المبادىء السيكولوجية في تعديل كل أنواع المشكلات الانسانية ، دون اعتبار لنمط المشكلة أو لشدتها . وفي الحقيقة أنهم يفضلون علاج المشكلات الانسانية الحادة ، والتي قد تستعصي على العلاج بطرق أخرى ، وذلك لكي يبرهنوا على فعالية طرقهم وعلى صحة المبادىء التي تقوم عليها .

والهدف من الدراسة الحالية هو تحليل الأسس النظرية والتجريبية للعلاج السلوكي والتفسيرات التي تقدمها النظريات السلوكية للشخصية الانسانية في سوائها واضطرابها ، وأهم طرق تعديل السلوك وما تستند اليه من دراسات وتجارب ، وتقييم آثارها بالنسبة لتغير الشخصية ودورها في اثراء التنظير في دراسة الشخصية ، مع ابراز نواحي النقد التي وجه الى النظرية السلوكية في العلاج النفسي .

طبيعة الشخصية في النظريات السلوكية المعاصرة

تطور التنظير السلوكي في الشخصية : ـ

يذخر التوجه السلوكي في دراسة الشخصية بمفاهيم رئيسية . ومع ذلك ، فان التوجه السلوكي يتضمن أنماطا متميزة عديدة من التصورات النظرية التي نمت مع ظهور علم النفس الحديث . ورغم أن النظريات السلوكية في تفسير الشخصية تحمل في الغالب تسميات متشابهة ، الا أنها في الواقع مختلفة كثيرا عن بعضها البعض .

فما يوحد بين هذه النظريات ويجعلنا نسميها بـ « النظرية السلوكية في الشخصية » ، هو أنها تنطلق في تفسيرها للظاهرات النفسية من « نموذج م ـ س » (stimulus — response paradigm) ـ فالظاهرات النفسية هي نظام من العلاقات بين المثيرات والاستجابات . وتتفق هذه النظريات في تأكيدها على خبرات التعلم من حيث أنها المحددات الرئيسية للشخصية ، وبالتالي القابلة للقياس والتجريب ـ وهي المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعة ، أما ما بين هاتين الفئتين من عمليات غير قابلة للملاحظة ـ وهي المتغيرات الوسطية ـ فهي تكوينات فرضية يمكن تحديدها بالاستدلال من المتغيرات المستقلة والتابعة .

وإذا كان السلوكيون قد تأثروا غالبا بفرويد واتباعه من أنصار نظرية التحليل النفسي ، الا أنهم قد التزموا أساسا بالدراسة العلمية لعلم النفس ، وبتطوير منهج تجريبي يمكن به القيام ببحوث دقيقة وموثوق بها . لذا فقد تأثر السلوكيون الأوائل بالمنهج العلمي الذي تطور في العلوم الطبيعية ، وفي ذلك نجد تفسيرا لاهتمام السلوكيين بالدراسات التجريبية التي أجريت على الحيوانات في مواقف معملية تتوافر فيها شروط الضبط التجريبي .

وإذا كان بعض السلوكيين قد أعجبوا بما وصل اليه فرويد من تأملات جريئة ، خاصة بالجهاز العقلي والتكويني النفسي للانسان ، الا أن معظمهم قد أبدى تشككه أو حتى رفضه للطرق الاكلينيكية الذاتية التي اعتمدت عليها . فبدلا من البحث في سبر غور الأحلام والتداعيات الحرة لدى المرضى النفسيين ، أو بدلا من التنظير على نطاق واسع في الطبيعة الانسانية والمجتمع ، سعى السلوكيون الى البحث عن نظام يكون قابلا للاختبار والتجريب الموضوعيين وخاصة بواسطة الطرق المعملية .

هكذا يركز السلوكيون على العمليات الرئيسية للتعلم التي يكتسب من خلالها الكائن الحي في تفاعله مع بيئته معينا أو مستودعا من الاستجابات . لقد درسوا آليات (ميكانزمات) التعلم التي من خلالها تصير أحداث معينة ـ « مثيرات » ـ مرتبطة بأنماط سلوكية أو باستجابات معينة . وكان هدفهم ، ككل المنظرين العلميين ، هو فهم « الأسباب » ـ وهي في هذه الحالة ، التعلم أو الطرق التي بها تصير مثيرات معينة مرتبطة باستجابات معينة .

ويمكن أن نحدد مرحلتين أساسيتين للتطور التاريخي للتنظير السلوكي في الشخصية : المرحلة المبكرة حتى أوائل الخمسينات من القرن الحالي ، والمرحلة المعاصرة من الخمسينات وحتى الوقت الحاضر .

أ ـ النظريات المبكرة للتعلم الاجتماعي :

تأثرت بالمدرسة الوظيفية في علم النفس التي تعزى الى وليم جيمس وجون ديوي مؤسسي هذه المدرسة . وكانت هذه المدرسة انعكاسا بدرجة كبيرة للفكر الداروني . فأهمية البيئة والتكيف معها مبدأ داروني صار أساسا لوجهة النظر التجريبية من جيمس حتى الوقت الحالي . ولكن التأكيد على أهمية البيئة يثير عدة تساؤلات : كيف تؤدي الخبرة التي تغير الفرد ؟ ما هي العملية التي بها يتوافق الفرد مع بيئته ؟ وللاجابة على هذه الاسئلة ، قدم المنظرون الأوائل مفهوم « العادة » على أنه الوسيلة التي بها تؤثر الخبرات السابقة في سلوك الفرد في المستقبل . هذا المفهوم يتفق مع نظرية دارون في ناحيتين : تأكيد دارون على العمليات الطبيعية الآلية ، وفكرة دارون عن استمرار الأنواع بقدر ما أن كلا الانسان والحيوان يتصفان بالقدرة على تكوين العادات .

لقد بنى كلارك هل نظريته في التعلم حول مفهوم العادة ، وكانت نظريات التعلم الاجتماعي في الثلاثينات والأربعينات تطبيقا لنظام هل هذا . ولم يقتصر تطبيقها للمفهوم على نمو الشخصية فحسب ، وانما امتد كذلك إلى العلاج النفسي الذي اعتبره السلوكيون موقفا يحدث فيه اعادة تعلم .

أما إدوارد لي ثورنديك ، الذي صار من المعالم البارزة في تاريخ علم النفس الامريكي ، فقد كان تلميذا لوليم جيمس بجامعة هارفارد . وقد وفرت تجاربه على الحيوانات والمعروفة بتجارب « التعلم الوسيلي » وكذلك قانونه المعروف بقانون « الأثر » أساسا هاما لنظريات التعلم الاجتماعي المبكرة . اهتم ثورنديك ، مثل جيمس من قبله وهل من بعده ، بمبادىء تكوين العادة . وقد أدى تطور التنظير وتجمع البحوث في هذا الميدان ، بالاضافة الى أعمال جون واطسون في أمريكا وإيفان بافلوف في روسيا ، الى بلورة وتعميق سيكولوجية التعلم .

هكذا ، شهدت الثلاثينات من القرن الحالي نظريات عظيمة في التعلم : سكينر ، جاثري ، تولمان ، هل وغيرهم . وكان لنظرية هل خاصة أكبر تأثير على نظرية الشخصية . لجأ « معهد العلاقات الانسانية » بجامعة ييل الأمريكية في عام ١٩٣٣ الى أن يضم اليه مجموعة من العلماء المهتمين بالعلوم الاجتماعية والسلوكية ، وذلك بهدف التكامل بين نتائج علوم النفس والاجتماع والأنثرو بولوجيا والطب النفسي . وقد بدأ كلارك هل ، الذي انضم الى جامعة ييل في عام ١٩٢٩ ، في تنظيم حلقة بحث (سيمنار) في هذا المعهد في عام ١٩٣٦ بالاشتراك مع ثلاثة من الباحثين الذين صاروا من رواد المدرسة السلوكية وهم : نيل ميلر ، جون دولارد ، هوبارت ماورر . وكان للجو العلمي بجامعة ييل في هذه الفترة تأثير كبير على النظريات المبكرة في التعلم الاجتماعي كما تطورت على يد دولارد وميلر .

لقد تدرب كل من دولارد وميلر أيضا على التحليل النفسي في أوروبا : دولارد في برلين ، وميلر في فيينا . لذا جاءت أعمالهما توفيقا بين التقليد الأوربي في التحليل النفسي والتقليد الأمريكي في السلوكية ، وحاول كلاهما ترجمة ملاحظات فرويد وكذلك ملاحظات الانثروبولوجيين (وقد أصبح دولارد مثلا أستاذا للاجتماع والانثروبولوجيا وعلم النفس بجامعة ييل) وفقا للغة المثير ـ الاستجابة . يتضح هذا الاتجاه التوفيقي أو اتجاه المعرفة المتكاملة Interdisciplinary من إهداء كتابيها الأول باسم هل وكتابيها الثاني باسم فرويد وبافلوف وتلاميذهما .

ب ـ النظريات المعاصرة للتعلم الاجتماعي :

وهي النظريات التي تطورت خاصة في النصف الثاني من القرن العشرين . في الخمسينات ساد اتجاه تحليل التعلم كتغير في احتمالات الاستجابات response probability وفي الستينات سيطر على بحوث التعلم والتنظير السلوكي اتجاه يهتم بالتحليل الكيفي الأعمق على تكوين نماذج تركيبية للتعلم والذاكرة باستخدام نظرية العمليات الكيفية المتناهية theory of finite stochastic processes التي تعزى الى « باش وموستلر » (١٩٥٥) ، و « استس » (١٩٥٠ ـ ١٩٥٩) ، و « لوس » (١٩٥٩) . تقدم هذه النظرية تمثيلا طبيعيا للانتقال بين الحالات المتميزة للمعرفة أو مراحل تشغيل المعلومات ، وهي الحالات أو المراحل المختلفة في خصائصها الكيفية . أما التطور الذي حدث أساسا في السبعينات فيتمثل في التحليل التفصيلي لتركيب المعرفة باستخدام نماذج شكلية formalisms

تتألف من لغات برامج الكومبيوتر . تقدم هذه النماذج فروضا محددة عن العمليات والتركيبات المعرفية المتضمنة في حل المشكلات وفهم اللغة . ومن التطورات المرتقبة لسيكولوجية التعلم في الثمانينات ، بناء نظرية للتعلم تقدم تحليلا تفصيليا لاكتساب التراكيب المعروفة ، كما تقدم تفسيرا للتعلم كعملية تعديل وترابط للتراكيب المعرفية ، وتكون هذه النظرية قابلة للتطبيق على تحليل العمليات التي بها يكتسب الأطفال المعرفة والمهارات المعرفية . [1]

ويلاحظ من تطور نظريات التعلم المعاصرة أن التطور الأكبر في سيكولوجية التعلم قد تحقق أكثر في التنظير في الجانب المعرفي فيما يعرف بنظريات التعلم المعرفي ، مثل نظرية جيروم برونر (١٩٦٠ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٦ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧١) ونظرية دافيد أوزابل (١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، ١٩٦٩) وغيرهما ، وما كان لها من تطبيقات عظيمة في العملية التعليمية . كذلك كان لتطور نظريات التعلم المعاصرة تطبيقات خلاقة في تفسير طبيعة الشخصية الانسانية فيما يعرف بنظريات التعلم الاجتماعي ، كما طورها « جوليان روتر » و« ألبرت بندورا » وتلميذه « ريتشارد والترز » . وبجانب ذلك فانه بالرغم من أن نظريتي « دولارد وميلر » و « سكينر » في التعلم الاجتماعي ترجعان الى المرحلة المبكرة في تطور نظريات التعلم ، الا انها قد احتفظت بمكانة كبيرة بين النظريات المعاصرة في التعلم الاجتماعي ، كما أن هؤلاء المنظرين السلوكيين قد استمروا في تطوير تصوراتهم النظرية في الخمسينات والستينات من القرن الحالي .

لذا سوف نعرض فيما يلي لتحليل طبيعة الشخصية في ضوء النظريات المعاصرة للتعلم الاجتماعي (دولارد وميلر ، سكينر ، باندورا ووالترز ، روتر) .

●●●

النظرية السلوكية ـ السيكودينامية

(دولارد وميلر)

يمكن أن يطلق على نظرية دولارد وميلر ، التي طوراها في الاربعينات بجامعة ييل ، « النظرية السلوكية السيكودينامية » لأنها تقوم على التوفيق والتكامل بين بعض الأفكار الرئيسية في النظرية الفرويدية السيكودينامية ومفاهيم ولغة وطرق البحوث العملية التجريبية في السلوك والتعلم .

---

(١) James, G. Greeno · Psychology of learning, 1960 — 1980, American psychologist, 1980, vol. 35, No. 8, 713 — 728.

المكونات الرئيسية لعملية التعلم :

لقد استطاع دولارد وميلر ، انطلاقا من الافتراض الاساسي بأن السلوك متعلم ، ان يبنيا نظرية في التعلم يمكن بها تفسير نطاق واسع من السلوك المتضمن في الشخصية السوية والمرض النفسي والعلاج النفسي : (٢)

في هذه النظرية يحددان أربعة مكونات أو عوامل هامة في عملية التعلم ، وهي : الحافز drive (الدافعية) ـ والاشارة أو العلامة cue (المثير) ـ والاستجابة (الفعل أو التفكير) ، والتدعيم (الاثابة) . ويعبران عن تصورهما تعبيرا بسيطا على النحو التالي : (٣)

« لكي يتعلم الفرد ، يجب أن يريد شيئا ما ، وأن يلاحظ شيئا ما ، وأن يفعل شيئا ما ، وأن يحصل على شيء ما » .

ويكون التعلم ، وفقا لهذه النظرية ، هو العملية التي فيها تصير استجابة معينة وإشارة المثير مترابطتين . ولنتناول هذه المكونات الأربعة للتعليم فيما يلي :

١ ـ الحافز : يبدأ الطفل الوليد حياته بمجموعة من الحاجات البيولوجية « الفطرية » أو « الأولية » ـ كالحاجة الى الطعام والماء والهواء والدفء ـ التي يعتبر اشباعها ضروريا لبقاء الكائن الحي . ولكن بالرغم من أن هذه الحاجات فطرية ، الا أن السلوك اللازم لاشباعها يتضمن تعلما . ويتضمن معظم السلوك الانساني اهدافا وحوافز ـ كالمال والمركز والقوة والحب والاقتدار والتمكن والابتكار وتحقيق الذات وغيرها ـ قد تبدو علاقتها بالحاجات الأولية بعيدة للغاية . ولكن دولارد وميلر استطاعا تحليل عمليات التعلم التي فيها تنشأ مثل هذه الدوافع الانسانية من الحاجات الأولية .

إن اي مثير قوي (داخلي أو خارجي) ، وفقا لدولارد وميلر (١٩٥٠) ، قد يدفع الفعل أو الاداء ، ولذلك يعمل كحافز . وكلما كان المثير أقوى ، ازدادت وظيفة الحافز . فالحوافز هي مثيرات قوية تحرك السلوك . وبينما قد يصبح مثير ما قويا بدرجة تكفي لأن يعمل كحافز ، فان بعض فئات من المثيرات (كالجوع والعطش والتعب والألم والجنس) تكون هي الأساس الأولي لمعظم الدافعية ، هذه المثيرات هي حوافز أولية أو فطرية . وتختلف قوة الحوافز الأولية وفقا لشروط الحرمان : فبقدر ما يزداد الحرمان ، تزداد قوة الحافز .

(٢) J. Dollard & N. E. Miller : **Personality and Psychotherapy : An analysis in terms of learning, thinking, and culture.** New York : Mc Graw — Hill, 1950.

(٣) N. E. Miller & J. Dollard : **Social learning and imitation.** New Haven : Yale Univ. Press, 1941, P. Z.

ويؤدي الكف الاجتماعي - للجنس مثلا - الى الحيلولة دون التعبير المباشر أو الكامل عن الحوافز الأولية . لذا يكون الكثير من السلوك مدفوعا بواسطة الحوافز « الثانوية » أو المتعلمة والتي قد تعرضت للتغير والتهذيب . تلك هي الدوافع المتحولة التي تبدو أكثر وضوحا في ظل شروط المجتمع الحديث ، والتي تنطوي على أهمية بالغة بالنسبة للسلوك الانساني المتمدين .

هذه الحوافز المتعلمة يكتسبها الانسان على أساس الحوافز الأولية (الفطرية ، غير المتعلمة) . والكثير من الحوافز يتم تعليمها من ارتباطها بخفض الحوافز الأولية .

والواقع أن اهتمام دولارد وميلر بالحوافز ، الأولية والثانوية ، هو إحياء لأفكار فرويد الخاصة بالدوافع والحفزات Impulses كقوى تكمن وراء السلوك . ولكن بينما يهتم التصور الفرويدي بالرغبات الغريزية ، فان دولارد وميلر يهتمان بالكثير من الدوافع المتعلمة التي تكمن جذورها في الحوافز الأولية .

٢ - الاشارة أو العلامة : إن الحافز يدفع الفرد الى السلوك ، أما الاشارات أو العلامات فهي التي تحدد متى سوف يأتي الفرد بالاستجابة ، وأين سوف يأتي بها ، وما هي هذه الاستجابة .[٤]

مثال ذلك ، جرس الغذاء يعمل كاشارة أو علامة بالنسبة للتلميذ الذي يحس بحافز الجوع ، فيدخل كتبه في حقيبته ويخرج طعامه منها . وقد تكون الاشارات أو العلامات سمعية أو بصرية أو لمسية أو غير ذلك . وقد تختلف في شدتها ، كما أن تجمع مثيرات مختلفة مع بعضها قد يعمل كعلامات أو إشارات . وقد تكون التغيرات والاختلافات ، ووجهة وحجم الاختلافات اشارات وعلامات متميزة أكثر من المثير المنعزل . والمثير الشديد قد يصبح حافزا . لذا فان المثير قد يعمل كحافز وكعلامة أو إشارة على حد سواء - فهو يدفع السلوك ويوجهه كذلك .

٣ - الاستجابة : قبل أن تلقى الاستجابة لاشارة أو علامة إثابة وتعلما ، فانها ينبغي أن تحدث بالفعل . ويقترح دولارد وميلر ترتيب استجابات الكائن الحي وفقا لاحتمال حدوث الاستجابات ، فيما يعرف بـ « المدرج الهرمي البدئي » Initial hierarchy ويؤدي التعلم الى تغيير نظام الاستجابات في هذا المدرج الهرمي . فالاستجابة الضعيفة مبدئيا ، اذا خضعت لاثابة بشكل ملائم ، قد تحتل موقعا رئيسيا في هذا الترتيب الهرمي . يطلق على المدرج الهرمي الذي حدث بواسطة التعلم مصطلح « المدرج الهرمي الناتج » resultant hierarchy . ومع التعلم والنمو ، يصبح المدرج الهرمي للاستجابات مرتبطا باللغة ، وبالتالي يتأثر بشدة بالثقافة التي يحدث فيها التعلم الاجتماعي .

---

(٤) Dollard & Miller : 1950, P. 32.

٤ ـ التدعيم : وهو حدث معين من شأنه أن يقوي ميل الاستجابة الى أن تتكرر . ويؤدي خفض قوة الحافز الى تدعيم الاستجابة السابقة عليه مباشرة . ويعني ذلك ، أن اختزال الحافز يعمل كتدعيم (أو إثابة) . وينطبق ذلك على كل من الحوافز الأولية والثانوية . كذلك قد يعمل اختزال أو تجنب الاستثارة المؤلمة أو المخاوف أو مشاعر القلق المتعلمة المرتبطة بالألم والعقاب ـ كتدعيم .

إن مفهوم دولارد وميلر عن التدعيم كاختزال للحافز أو خفض للتوتر أقرب الى « مبدأ اللذة » عند فرويد . فهذان المفهومان يعتبران حالات الحاجة كحالات من التوتر المرتفع ، تتطلب خفضا للتوتر وتحقيقا للتوازن ـ أي كأهداف للكائن الحي .

ويعتبر التدعيم شرطا ضروريا لبقاء العادة وكذلك لتعلمها . أما الانطفاء extinction ، فهو الاستبعاد التدريجي للميل الى الاتيان باستجابة ؛ ويحدث الانطفاء حينما تتكرر تلك الاستجابة بدون تدعيم . أما الوقت اللازم لاطفاء عادة فيعتمد على القوة المبدئية للعادة وعلى شروط موقف الانطفاء . فمن الشروط التي تؤثر في الانطفاء ـ الحافز الضعيف ، الاستجابات القوية ، الوقت القصير المنصرم بين محاولات الانطفاء ، والاستجابات البديلة القوية .

وقد حاول « ميلر » حديثا أن يعدل من مفهومه عن خفض الحافز لتدعيم التعلم ، مستندا في ذلك الى آليات التنشيط activating mechanisms في الدماغ ـ فهذه الآليات (الميكانزمات) تنشط بطرق مختلفة (كأن تنشط بواسطة التفكير) ، وليس فقط بواسطة خفض الحوافز أو الاستثارة المؤلمة . (*)

الصراع : إن أي فرد قد يخبر صراعا حينما يريد أن يحقق هدفين أو أكثر ، كل منها يتعارض مع الآخر . فقد يرغب في الخروج في رحلة مع بعض اصدقائه ، أو أن يكرس هذا الوقت للاستذكار لأنه يقترب من الامتحان . فحينما يكون على الفرد أن يختار بين بدائل متعارضة ، قد يتعرض للصراع .

يفترض تصور ميلر ، والذي تأثر فيه بنظرية ليفين (١٩٣٥) ، أن الصراع يقوم على ميول إقدامية وإحجامية :(٦) في ذلك يحدد ميلر أربعة أنواع للصراع :

(*) N.E. Miller : Some reflections on the law of effect produce a new alternative to drive reduction. In M. R. Jones (Ed.), **Nebraska Symposium on Motivation.** Lincoln : University of Nebraska, 1963.

(٦) N. E. Miller : Experimental studies of conflict. In J. Mc V. Hunt (Ed.), **Personality and behavior disorders,** Vol. I. New York : Ronald Press, 1944, PP. 431 — 465.

N. E. Miller : Liberalization of basic S—R concepts : extensions to conflict behavior, motivation, and social learning. In S. Koch (Ed.) , **Psychology : A study of science.** Vol. 2. New York : Mc Graw—Hill, 1959. PP. 196 —292.

(أ) صراع الاقدام ـ الاقدام approach — approach conflict وفيه يكون الشخص مشدودا ، على الأقل وقتيا ، بين هدفين أو بديلين مرغوبين ـ مثال ذلك الطفل الذي عليه أن يختار بين لعبتين ، والشخص الذي يقدم على الزواج أو يتفرغ لاستكمال دراسته أو مشروعاته .

(ب) صراع الاحجام ـ الاحجام avoidance — avoidance conflict بين بـديلين غير مرغوبين ـ مثال ذلك قبول الشخص لأن تجري له عملية جراحية أو يعاني من المرض .

(جـ) صراع الاقدام ـ الاحجام approch — avoidance conflict وينشأ نتيجة لوجـود أهداف أو بواعث إيجابية وسلبية في آن واحد ، لذا يتكون لدى الشخص ازاء هذه الأهداف « مشاعر مختلفة » أو « اتجاهات متناقضة » ، مثال ذلك قد يحب الطفل في والديه جوانب معينة ويكره جوانب أخرى ، الاقبال نحو أطعمة شهية والاحجام عنها خوفا من زيادة الوزن .

(د) صراع الأقدام ـ الأحجام المزدوج double approach — avoidance conflict مثال ذلك الشاب الذي يقبل على الزواج وهو مشدود باتجاهين كل منها يحمل خصائص جاذبة ومنفرة ـ فهل يتزوج ويحظى بحياة مستقرة (خصائص ايجابية) ولكن يتخلى عن حياة الانطلاق والمرح (خصائص سلبية) ؟ أو هل يظل أعزبا محتفظا بحرية (خصائص ايجابية) ولكن يعاني من الوحدة وغيرها من الصعوبات (خصائص سلبية) ؟ ولما كانت الأهداف البديلة في هذا الشكل من أشكال الصراع ليست إيجابية أو سلبية بطريقة واضحة تماما ، فان حلها يعتبر أمرا معقدا .

ثمة اتفاق واختلاف بين نظريتي فرويد ودولارد وميلر فيما يتعلق بالصراع : فالصراع يعتبر محورا رئيسيا لهاتين النظريتين . ولكن بينما يفترض فرويد أن الصراع ينشأ أساسا من الصدام بين قوى الجهاز النفسي (أي بين إلهي والأنا والأنا الأعلى) ويستنبط هذه الحالات الصراعية من المرضى المصابين ، فان دولارد وميلر يخضعان فروضهما للتجريب على الحيوانات .

لقد أقام ميلر نظريته أساسا على التجارب التي أجريت على الحيوانات : (٧) في بعض هذه الدراسات تعلمت الفيران الجائعة كيف تتوجه من خلال معبر لكي تحصل على الطعام عند نقطة معينة

(٧) J. S. Brown : The generalization of approach responses as a function of stimulus intensity and strength of motivation. Journal of Comparative Psychology, 1942, 33, 209—226.

J. S. Brown : Gradients of approach and avoidance responses and their relation to level of motivation. Journal of Comparative and Physiological Psychology. 1948, 41, 450—465.

N.E. Miller : 1959.



المسافة التي ابتعدها الفأر للاختيار عن الصدمة (بالسنتمترات)

المسافة التي ابتعد بها الفأر للاختيار عن الطعام (بالسنتمترات)

شكل (١) : يوضح منحنى الاقدام والاحجام .

(Brown, 1948)

في المتاهة . ولكي يخلق الباحثون حالة من « التناقض » (الاقدام ـ الاحجام) ، تعرضت الفيران الى صدمة كهربية حينما تقبل على الطعام . ولاختبار الصراع الناتج ، وضعوا الفيران مرة أخرى عند بداية المعبر . عندئذ بدأت الفيران الجائعة في الاقدام نحو الطعام ولكنها توقفت وترددت قبل الوصول اليه . وهذه المسافة التي يتوقف عندها الفأر تتغير بواسطة تغير مقدار الجوع أو قوة الصدمة الكهربية .

ولتحليل الصراع في هذه المواقف ، طبق دولارد وميلر مفهوم « مراتب الهدف » أو « مدرج الهدف » goal gradients . يعني هذا المفهوم تلك التغيرات في قوة الاستجابة كدالة للبعد عن موضوع الهدف . ولقياس قوة الميول الاقدامية والاحجامية عند نقاط مختلفة من البعد عن الهدف ، صمم جهاز يقيس قوة جذب الفأر في اتجاه الحصول على التدعيم الايجابي (الطعام) أو بعيدا عن التدعيم السلبي (الصدمة) ، وذلك عند نقاط مختلفة من البعد عن الطعام . وقد تبين أن الفيران كانت تجذب بقوة أكبر كلما اقتربت من الهدف وتعرضت لصدمة عند هذه النقطة الأقرب الى الطعام . تتضح هذه النتيجة من انحدار مدرج الاقدام (كما يتضح من الشكل رقم « ١ ») . بالاضافة الى ذلك ، استخدمت اجراءات تجريبية أخرى ، تلقت فيها الفيران صدمة كهربية عند نهاية المعبر . وحينما وضعت الفيران عند نفس النقطة بالممر حيث تلقت صدمة من قبل (ولكن الآن بدون صدمة) ، فانها جرت بعيدا عن هذه النقطة . وكلما اقتربت الفيران من هذه النقطة ، فانها كانت تجذب بقوة أكبر للابتعاد عنها . يبدو ذلك خاصة في ازدياد انحدار مدرج الاحجام ، مقارنة بانحدار مدرج الاقدام (انظر الشكل « ١ ») . تعني نتائج هذه التجارب أن كلا من السلوك الاقدامي والاحجامي يتزايد كلما اقترب الكائن الحي من الهدف ، وأن الاحجام يتزايد أسرع من الاقدام .

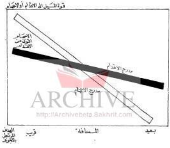
هكذا استنادا الى هذه الدراسات ، يحدد دولارد وميلر عدة مبادىء لتفسير الصراع في ضوء مفاهيم التعلم :

١ ـ يزداد الميل الى الاقدام نحو الهدف كلما اقترب الفرد من الهدف ـ يطلق على ذلك المبدأ مصطلح « مدرج الاقدام » approach gradient

٢ ـ يزداد الميل الى تجنب مثير سلبي كلما اقترب الفرد من المثير ـ يطلق على ذلك المبدأ مصطلح « مدرج الاحجام » avoidance gradient

٣ ـ كلما اقترب الفرد من الهدف ، تزداد قوة الميل الى الاحجام بدرجة أسرع من الميل الى الاقدام . أي أن مدرج الاحجام أكثر شدة في انحداره من مدرج الاقدام .

(تتضح هذه المبادىء الثلاث من الشكل رقم « ٢ ») .



شكل (٢) : صراع الاقدام ـ الاحجام . فالميل الى الاقدام يكون هو الأقوى من بين الميلين اذا كان بعيدا عن الهدف ، بينما يكون الميل الى الاحجام هو الأقوى من بين الميلين اذا كان قريبا من الهدف . لذا حينما يكون المفحوص بعيدا عن الهدف ، فانه يميل الى الاقدام على السير لمسافة ثم يتوقف . وحينما يقترب من الهدف ، فانه يميل الى التراجع على السير لمسافة ثم يتوقف . أي أن الكائن الحي يميل الى البقاء عند النقطة التي يتقاطع فيها مدرجا الاقدام والاحجام .

(Miller, 1944)

٤ ـ تؤدي الزيادة في الحافز المرتبطة اما بالاقدام أو الاحجام الى رفع المستوى العام لمدرج الاقدام أو لمدرج الاحجام .

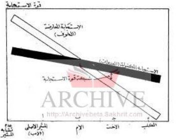
٥ ـ حينما يكون هناك ميلان الى السلوك في حالة من التنافس ، فان الميل الاقوى الى السلوك هو الذي يحدث .

تؤكد نظريتا فرويد ودولارد ميلر على الصراع والقلق كمحور للسلوك العصابي . ولكن الصراع العصابي يتضمن ، وفقا لنظرية فرويد ، صداما بين حفزات الهي التي تبحث عن تعبير لها والكف الداخلي الذي يراقب ويقيد التعبير عن هذه الحفزات وفقا لمحرمات الثقافة التي يعيش فيها الفرد . أما دولارد وميلر فيقرران نفس المبادىء الرئيسية بلغة نظرية التعلم .

تقوم نظرية دولارد وميلر في تفسير العصاب على أن الخوف القوي (القلق) هو حافز متعلم يستثير صراعا يرتبط باستجابات الهدف ازاء حوافز قوية أخرى كالجنس أو العدوان . فحينما يبدأ الشخص العصابي في الاقتراب من الهدف الذي قد يؤدي الى خفض تلك الحوافز كالجنس أو العدوان ، فان خوفا قويا يستثار لديه . هذا الخوف قد يستثار بواسطة أفكار تتعلق بأهداف الحافز ، وكذلك بواسطة أية محاولات إقدامية ظاهرة . فعلى سبيل المثال ، قد تكون مشاعر العداوة نحو الأب مثلا باعثة على الخوف ، لذا ينشأ صراع بين تلك الرغبات والخوف الذي يستثار بواسطة التعبير عنها . هذه الاستجابات المرتبطة بالخوف والباعثة على الكف تحول كذلك دون اختزال الحافز ، لكي تستمر الحوافز المعاقة (كالجنس أو العدوان) في أن ترتقي الى مستوى أعلى . هكذا يقع الفرد في صراع لا يحتمل بين حوافزه المحبطة المقيدة والخوف المرتبط باستجابات الاقدام الذي يعمل على خفض حالة التوتر هذه .

فالشخص العصابي في هذه الورطة قد يستثار في آن واحد بواسطة الحوافز المحبطة وبواسطة الخوف الذي تستدعيه هذه الحوافز . وتؤدي الحالة المرتفعة للحافز المرتبطة بهذا الصراع الى تعاسة هذا الشخص والى أن تتداخل مع فعالية تفكيره وحله للمشكلات . هذه الأعراض التي يبديها الشخص العصابي تنشأ من تكوين الحوافز ومن الخوف الذي يكف خفض هذه الحوافز .

النقل او الازاحة : ينظر فرويد الى الطاقة النفسية على أنها تنتقل أو تتحول من فكرة لأخرى ؛ فالحفزات الجنسية أو العدوانية التي تكون موجهة أساسا نحو موضوع غير مقبول تخضع لاعادة توجيه نحو الموضوع يلقى قبولا أكثر



شكل (٣): نظرية النقل أو الإزاحة. فكلا الاستجابتين (المكفولة والمعارضة) تعميان على مثيرات بدلا من الهدف الأصلي. أي كلا من الأب والأم يستدعي الاستجابة المعارضة، بينما تستدعي الأخت والكلب الاستجابة المحولة أو المزاحة، وتكون شبكة قوة الاستجابة net strength هي الفارق بين المنحنيين.

(Miller, 1948)

لقد وسع ميلر نظريته عن الصراع لتتضمن المواقف التي تحدث فيها ظاهرة النقل أو الازاحة :[٨] يوضح الشكل رقم (٣) مثالا لهذه الظاهرة . ولد يحركه حافز عدواني نحو أبيه ، ولكنه يلقى كفا بواسطة استجابة للخوف تتعارض مع هذا الحافز . وفي هذا تطرح النظرية عدة افتراضات :

(١) ان الاستجابة التي خضعت للكف (توجيه عدوان نحو الأب) والاستجابة المعارضة (الخوف) تعممان على مثيرات مماثلة (أشخاص آخرين) .

(٢) كلما ازداد تشابه المثيرات الأخرى مع المثير الأصلي (الأب) ، تزداد درجة التعميم .

(٣) ان مدرج أو مراتب التعميم بالنسبة للاستجابة المتعارضة يكون أشد انحدارا من مدرج أو مراتب التعميم بالنسبة للاستجابة المكفوفة . فعلى امتداد متصل التعميم generalization continuum تكون الاستجابة المعارضة التي تتضاءل بشكل أسرع ، أضعف من الاستجابة المكفوفة . يتضح ذلك في أن هذا الولد يوجه عدوانه في النهاية نحو مثير بديل وهو أخته أو كلبه .

ولقد اجريت تجارب كثيرة لاختبار نظرية النقل أو الازاحة . في إحدى هذه الدراسات التجريبية ، أبدى الأولاد في معسكر صيفي تعبيرات من العداوة المتحولة نحو أعضاء جماعات الأقلية في المعسكر بعد أن تلقى هؤلاء الأولاد إحباطا من المجرب .[٩]

<u>القلق والكبت :</u> يتقبل دولارد وميلر ، مثل فرويد ، القوى اللاشعورية كمحددات هامة للسلوك ، كما يعطيان ، مثل فرويد أيضا ، للقلق (وهو خوف متعلم) مكانة رئيسية في ديناميات السلوك .

يتضمن الكبت ، وفقا لدولارد وميلر ، الاستجابة المتعلمة الخاصة باللاتفكير not — thinking في شيء ما ، ويكون مدفوعا بواسطة الحافز الثانوي للخوف . فبسبب الخبرات السابقة ، قد تؤدي أفكار معينة الى استدعاء الخوف كنتيجة لارتباطها مع الألم أو العقاب . ولكن باللاتفكير في هذه الأفكار ، يحدث اختزال في مثيرات الخوف وتلقى الاستجابة (الخاصة باللاتفكير) تدعيما . وفي النهاية يصير « اللاتفكير » (الكف ، التوقف ، الكبت) متوقعا ، من حيث أن الفرد يتجنب أفكارا معينة قبل أن تؤدي الى نتائج مؤلمة . هذا التصور أشبه بفكرة فرويد بأن الكبت هو نتيجة للقلق وأنه يعمل على

---

(٨) N. E. Miller : Theory and experiment relating psychoanalytic displacement to stimulus response generalization. Journal of Abnormal and Social Psychology, 1948, 43, 155—178.

(٩) N. E. Miller and R. Bugelski : Minor studies in aggression : II. The influence of frustrations imposed by the in—group on attitudes expressed toward out — groups. Journal of Psychology, 1948, 25, 437—442.

خفض القلق الذي ينشأ نتيجة لأن مشاعر أو أفكار غير مقبولة تبدأ في الانتقال من اللاشعور الى الشعور .

ان نظرية دولارد وميلر هي ترجمة واضحة للمفاهيم السيكودينامية الخاصة بالقلق والكبت والدفاعات الى لغة نظرية التدعيم في التعلم . فالدفاعات والأعراض (كالمخاوف والعمى الهستيرى) تدعم بواسطة الاختزال المباشر لحافز الخوف . وبينما يكون التأثير الوقتي للعرض هو اختزال الحافز والتخفيف الوقتي من التوتر ، فان التأثيرات البعيدة المدى قد تؤدي الى المزيد من تدعيم الأعراض وتعميمها . فمثلا ، عرض الخوف المرضي قد يعوق الشخص عن العمل بفاعلية . وبالتالي يخلق قلقا وإحساسا بالذنب وصراعات أخرى وغير ذلك من المظاهر المصاحبة لصراع الحافز المرتفع .

●●●

هكذا فان نظرية دولارد وميلر عن الدافعية المتعلمة ذات أهمية كبيرة ، لأنها تتضمن طريقة لفهم الأصول التطورية لكل الدوافع الانسانية ـ فهذه الدوافع تتطور من جذور بيولوجية . ولقد سعى الكثير من المنظرين في الشخصية ، انطلاقا من هذه النظرية ، الى أن يذهبوا الى ما هو أبعد من التجريب على الحيوانات ومن الحوافز الأولية ، لكي يكتشفوا الدوافع الأرقى التي تكمن وراء السلوك الانساني المعقد .

السلوكية الراديكالية

(ب . ف . سكينر)

يختلف المنحى الذي يأخذ به سكينر في نظرية التعلم اختلافا جذريا عن نظرية دولارد وميلر . فاهتمام سكينر الأساسي هو بالسلوك أكثر مما هو بالاستعدادات والدوافع ، ويرفضه لاستنتاج أو افتراض الحوافز المتعلمة أو اية قوى وسمات دافعية داخلية أخرى . (١٠)

---

(١٠) B. F. Skinner : Science and human behavior. New York : Macmillan, 1953.

B. F. Skinner : Pigeons in a pelican. American Psychologist, 1960, 15, 28—37.

B. F. Skinner : Behaviorism at fifty. In T. W. Wann (Ed.), Behaviorism and Phenomenology. Chicago : University of Chicago Press, 1964. PP. 79—108.

<u>رفض الدوافع والديناميات الافتراضية</u> : ان الكثير من الدوافع الانسانية هي تكوينات فرضية . والمعروف أن نظريات الدافعية قد ساعدت على الكشف عن مجموعة كبيرة وعن تنظيم معقد من الدوافع الانسانية وعن الاسباب التي تكمن وراءها ، رغم أنه لا يوجد اتفاق تام بشأن معظم الدوافع الأساسية . وقد قامت معظم نظريات وبحوث الدافعية على نموذج البحث التجريبي في الحوافز البيولوجية عند الحيوانات . فافتراض وجود حاجة عند الحيوان (كالجوع مثلا) يجري ربطه بالشروط القابلة للملاحظة كما يتناولها الباحثون في المختبرات العملية . فقوة حافز الجوع ، مثلا ، يجري استنباطها من مقدار الوقت الذي حرم فيه الحيوان من الطعام .

ان تطبيق نظرية الدافعية على الشخصية ، يجعل قيمتها في تفسير السلوك موضع شك . فالنزعة الى استخدام الدوافع كتفسيرات للأسباب التي تجعل الناس تسلك على النحو الذي يسلكون به ـ تبدو واضحة ، لأننا بهذه الكيفية « نفسر » السلوك . فلكي نفسر لماذا يقضي شخص وقتا طويلا في تنظيف نفسه ، فقد نقرر بسهولة « لأنه لديه حاجات قوية الى النظافة » أو « لأن لديه رغبة قسرية في النظام » . هذه الفروض الخاصة بوجود دوافع معينة قد تعمل كتفسيرات للسلوك ، ولكنها لا تقدم لنا تفسيرا كافيا الا اذا تحدد الدافع موضوعيا واتضحت أسباب الدافع ذاته . ما الذي يجعل الشخص تكون لديه حاجة الى النظافة ؟ ما الذي يحدد رغباته القسرية ؟ لماذا يرغب في أن يكون نظيفا ؟

ان سكينر وأنصاره ينتقدون مفاهيم كثيرة تتعلق بالحاجات الانسانية ، من حيث أنها ليست أكثر من مجرد مسميات دافعية تلحق بالنشاط الانساني وتضاف اليه . هكذا يعزى السلوك المنظم الى الدافع للنظام ، والسلوك الخانع الى الحاجة الى التبعية ، والسلوك الاستكشافي الى الحاجة الى الاستكشاف ، الخ . ولتجنب هذه الدائرة المفرغة ، يفضل سكينر وغيره من السلوكيين تحليل السلوك في ضوء الأحداث والشروط القابلة للملاحظة . لذا يحجمون عن افتراض دافعيات معينة . فبدلا من افتراض حاجات تستثير نشاطا معينا ، يحاولون اكتشاف الأحداث التي تقوي هذا النشاط في المستقبل وتحافظ عليه أو تغيره . فهم يبحثون عن الشروط التي تنظم السلوك بدلا من افتراض وجود حاجات أو حالات داخل الشخص كدوافع لسلوكه .

هكذا تقوم نظرية سكينر على أن علم النفس هو علم السلوك ، وان استنباط حالات أو حاجات داخلية غير قابلة للملاحظة لا يعتبر تفسيرا سليما لأنه لا يضيف شيئا الى الاهتمام العلمي بالشروط التي تحكم السلوك . والدافعية ، وفقا لسكينر ، هي ببساطة نتاج حرمان أو إشباع الكائن الحي . اي أن الدافع يشير الى أحداث قابلة للملاحظة كالحرمان أو الاشباع . وعلى هذا النحو ، يرفض سكينر أي استنتاج يتعلق بصراعات داخلية ، مفضلا التحليل التجريبي للشروط الواقعية للمثير والتي تحكم السلوك .

استراتيجية البحث في السلوك :

يؤكد سكينر على أن العلم ينبغي أن يحاول أن يتنبأ وأن يحدد تجريبيا (أي يضبط) سلوك الفرد . وبذلك تصبح علاقات السبب ـ النتيجة في السلوك هي قوانين العلوم السلوكية .

لذلك يقترح سكينر ما يسميه بـ « التحليل الوظيفي » functional analy sis للكائن الحي ، الذي يتناوله كنظام في حالة من السلوك Behaving system يقوم هذا التحليل على محاولة ربط سلوك الكائن الحي بالشروط المحدودة التي تحكم السلوك أو تحدده . ولذلك يركز اتجاه سكينر على التلازمات covariations القابلة للملاحظة بين « المتغيرات المستقلة » (أحداث المثير stimu-lus events) و « المتغيرات التابعة » (نماذج الاستجابة response patterns) .يعني ذلك أيضا أن المتغيرات المتضمنة في التحليل الوظيفي ينبغي أن تكون خارجية وقابلة للملاحظة والوصف في مصطلحات فيزيقية وكمية .

ويذهب سكينر الى أنه بقدر ما يمكن اخضاع المتغيرات الى الضبط التجريبي ، فان التجارب المعملية تقدم أفضل الظروف للحصول على تحليل علمي للسلوك . وبالاضافة الى ذلك ، فان الدراسة التجريبية للسلوك تفيد كثيرا من تناول سلوك الحيوانات الأدنى من المستوى الانساني المعقد . فالعلم ، كما يشير سكينر ، يتقدم من البسيط الى المركب ويهتم باستمرار بما اذا كانت العمليات والقوانين التي تكتشف عند مرحلة معينة أو مستوى معين تلائم المرحلة التالية أو المستوى التالي (١١) .

الاشتراط الكلاسيكي والمدعمات الشرطية :

يعترف سكينر ، مثل معظم علماء النفس التجريبيين ، بأهمية الاشتراط « الكلاسيكي » أو « الاستجابي » كما اكتشفه بافلوف في الأصل . ولكي نفهم إسهامات سكينر ، علينا أن نتناول أولا طبيعة هذا النموذج من نماذج التعلم .

يتضح مضمون هذه الظاهرة في التجربة التي قدم فيها طبق من الطعام الى كائن حي في حالة من الجوع . وبعد فترة ، صار الطبق الفارغ وحده يستدعي الاستجابة الأولية أو غير الشرطية ـ وهي سيلان اللعاب ، وبالتالي يصبح الطبق الفارغ « مدعما شرطيا » conditioned reinforcer الى

---

(١١) B. F. Skinner : 1953, P. 38

حد ما بفضل ترابطه الوثيق مع المثير التدعيمي غير الشرطي (الطعام) . ونرى مثالا آخر للمدعم الشرطي إذا سلط ضوء في كل مرة يقدم فيها الطعام الى الحيوان الجائع . في النهاية يصبح الضوء مدعما شرطيا يؤثر في السلوك بنفس قوة تأثير الطعام غالبا .

ثمة قواعد تحكم اكتساب المدعمات الشرطية . فبقدر ما يزداد تزاوج المثير الشرطي (الضوء في المثال الأخير) مع المثير غير الشرطي (الطعام) ، يكتسب المثير الشرطي قوة تدعيمية أكبر . وينبغي الا تكون هناك فترة طويلة من الوقت بين الحدثين (الضوء والطعام) . وفي النهاية قد تتلاشى القوة التدعيمية للمثير الشرطي بسرعة اذا لم يترابط مرة ثانية مع المثير غير الشرطي .

لقد جرى توسيع استخدام مبادىء الاشتراط لتفسير الكثير من الظاهرات الاجتماعية المعقدة . فقد استخدمت في دراسات التجاذب بين الأشخاص ، حيث فسروا نمو العلاقات العاطفية في ضوء مفاهيم الاشتراط . (١٢) وفي ذلك تفترض هذه الدراسات ان تقييم الناس الأشياء قد يكون دالة لمقدار التدعيمات الايجابية المرتبطة بها . (١٣) فعلى سبيل المثال ، تتوقف علاقتك القائمة على المودة مع صديق بالدرجة التي يرتبط بها هو بالاشباع بالنسبة لك .

كذلك استخدمت مبادىء الاشتراط في تفسير السلوك العصابي أو المرضي كالخوف والقلق . فالمثيرات المحايدة التي ترتبط باستمرار مع مثير غير شرطي مؤلم ، تصبح بالتالي مثيرات شرطية مؤلمة قادرة على استدعاء الخوف والاستجابات الاحجامية . ويعني ذلك أنه وفقا للاشتراط الكلاسيكي قد يكتسب الفرد ردود افعال انفعالية عميقة ازاء مثيرات محايدة في الأصل .

ومن الأمثلة الايضاحية للاشتراط الكلاسيكي - حالة الطفل « ألبرت » التي تكشف عن الاستجابات الشرطية وتعميمها (واطسون وراينور ، ١٩٢٠) : (١٤) في هذه التجربة استطاع الباحثان استدعاء حالة من الخوف المرضي الشديد من الفيران لدى هذا الطفل الذي لم يكن يخاف من

(١٢) D. Byrne : Attitudes and attraction. In L. Berkowitz (Ed.) , **Advances in experimental social psychology** : vol.4. New York : Academic Press, 1969.

A. J. Lott & B. E. Lott : A learning theory approach to interpersonal attitudes. In A. G. Greenwald, et al. (Ed. , **Psychological Foundations of attitudes.** New York : Academic Press, 1968.

(١٣) W. Griffitt & P. Guay : Object evaluation and conditioned effect. Journal of **Experimental Research in Personality,** 1969, 4, 1—8

(١٤) J. B. Watson & R. Raynor : Conditioned emotional reactions. **Journal of experimental Psychology,** 1920, 3, 1—4

مثل هذه الحيوانات من قبل . فقد أجلسا هذا الطفل على منضدة ووضعا أمامه فأرا أبيض . ولم يبد الطفل أي خوف حيال هذا الحيوان وأخذ يقترب منه ويحاول الامساك به . في تلك اللحظة أحدث الباحثان صوتا عاليا يستثير خوف الطفل . هذا الموقف تكرر لعدة مرات ، وتكون عند الطفل بذلك حالة من الخوف تبدو في سلوكه الاحجامي عند الاقتراب من الفأر مرة أخرى . كذلك صارت حالة الخوف هذه « تعمم » على موضوعات مماثلة أخرى ، كالارنب أو الكلاب أو الماعز وغيرها .

ومن الأمثلة الايضاحية كذلك عن الاشتراط « الصدمي » **traumatic conditioning** تلك التجربة الدرامية التي أجريت على مفحوصين كبار متطوعين : (١٥) لقد كان المثير غير الشرطي صادما بشكل غير عادي . فقد اعطوا المفحوصين عقار السكولين **Scoline** الذي سبب لهم اضطرابا مؤقتا في التنفس ، وخلق نوعا من الشلل الحركي المؤقت بدون إحداث اضطراب في الوعي . هكذا تسبب هذا العقار في إحداث حالة من الفزع الشديد ومن الشعور بأنهم على وشك الموت . أما المثير الشرطي فقد كان عبارة عن نغمة محايدة . وبتزاوج هذين المثيرين (النغمة وتأثير العقار) تكونت استجابة خوف شرطية عند هؤلاء المفحوصين ازاء النغمة المحايدة . وقد كانت استجابة الخوف تتضح أيضا في بعض التغيرات الدالة على الاضطراب الانفعالي كاختلال ضربات القلب والتوتر العضلي واختلال التنفس . وبالاضافة الى ذلك ، كانت هذه الاستجابة الشرطية الانفعالية الصادمة تقاوم الانطفاء بدرجة شديدة .

يفسر السلوكيون نتائج هذه الدراسات التجريبية على انها دليل على أن الاستجابات الانفعالية العصابية - كما في حالات الخوف المرضي - تعكس مبادىء الاشتراط أكثر مما تعكس الرغبات اللاشعورية والصراعات الداخلية ، هذه المبادىء التي يقوم عليها اكتساب الاستجابات الصادمة ، هي نفس المبادىء التي تستخدم في الأغراض العلاجية .

الاشتراط الاجرائي ونواتج الاستجابة :

لقد سعى سكينر الى تضمين نظريته مفاهيم كثيرة تتعلق بالاشتراط الكلاسيكي ، ولكنه ركز على جانب آخر من التعلم : (١٦) فمعظم السلوك الاجتماعي الانساني يتضمن أنماطا من الاستجابات

(١٥) D. Campbell, R. E. Sanderson & S. G. Laverty : characteristics of a conditioned response in human subjects during extinction trials following a single traumatic conditioning trial. *Journal of Abnormal and Social Psychology*, 1964, 68, 627—639.

(١٦) B. F. Skinner : 1953

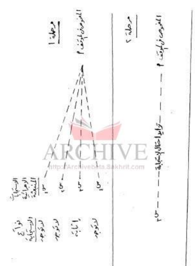
المنبعثة بحرية ـ أو من « الأفعال الاجرائية » (operants) . يشير هذا المصطلح الى كائن حي نشط « يعمل بفعالية » على التأثير في عالمه وعلى التغيير في بيئته ، وعلى تغيره هو من خلال تغييره لبيئته ولعالمه . فنواتج هذه الانماط الاجرائية الفعالة من الاستجابات تقوي احتمال حدوث استجابات مماثلة في المستقبل . أي أن السلوك الاجرائي operant behavior يتحدد بنواتجه أو مترتباته . واذا كانت نواتج أو مترتبات الاستجابة response consequences مرغوبة أو مدعمة ، فان السلوك الاجرائي يحتمل أكثر أن ينبعث مرة أخرى في مواقف مماثلة في المستقبل . هذه « المدعمات » أو النواتج المرغوبة ، خلافا لبعض التصورات الخاطئة الشائعة ، لا تكون مقيدة بتلك الاثابات البدائية كالطعام أو الاشباع الجنسي . فغالبا ما قد يعمل أي حدث كمدعمات ، بما في ذلك الاشباع المعرفي والانجاز .

ومن ناحية أخرى ، إذا لم تكن نواتج الاستجابات غير مرغوبة (غير مدعمة) ، فان السلوك الاجرائي الفعال يكون أقل احتمالا للحدوث في المستقبل . فمثلا ، اذا كانت الأم تستجيب بانتباه واهتمام لما يبديه الطفل من دلائل سلوكية على الاستقلال ، فان الاستقلالية سوف تتدعم عنده . أما اذا تجاهلت هذه الدلائل وتركتها بدون إثابة ، فسوف يتضاءل احتمال نمو الاستقلالية في المستقبل .

تركزت معظم بحوث سكينر في التعلم على دور الاثابة أو التدعيم كمحددات لتغير السلوك . وتعتمد الطرق المعتادة في هذه الدراسات على خلق شروط يعمل فيها الكائن الحي بحرية أو يأتي باستجابات فعالة (« الافعال الاجرائية ») . في هذه البحوث كان المجرب يختار مسبقا فئة خاصة من السلوك (مثل اسماء ضمائر خلال مقابلة ، رافعة ضاغطة في دراسة على الفيران) . وبعد ذلك يقوم المجرب بتوزيع المدعم مرهونا باقبال المفحوص على انتقاء الاستجابة الاجرائية . فمثلا ، كان المجرب يصدر تعليقات مدح ـ مثل « حسنا » ـ فقط حينما يستخدم المفحوص أسماء ضمائر مثل « أنا » أو « إلي » . أو يقدم الطعام الى الحيوان مرهونا باستجابة الضغط على الرافعة . يطلق على هذه العملية ظاهرة « الاشتراط الاجرائي operant conditioning » كما تتضح من الشكل رقم (٤) .

وقد تبين من دراسات كثيرة أن التغير في نواتج الاستجابة قد يؤدي الى تغيير مدى واسع من الأنماط السلوكية ـ من الكلام الذهاني ، والجناح ، والانحرافات الجنسية العصابية ، الى التفاعل الاجتماعي في رياض الاطفال مثلا . التميز discrimination :

يطلق على المثيرات التي تحمل اشارة أو علامة بالوقت أو المكان الذي فيه سوف يترتب عن فعل اجرائي نواتج مرغوبة ، مصطلح « المثيرات التمييزية » discriminative stimuli . وتؤدي التغيرات في المثيرات التمييزية الى تغيرات في السلوك . فبدون المثيرات التمييزية لن تعرف بالنواتج التي يحتمل أن تؤدي اليها الانماط السلوكية المختلفة . فنحن بسرعة نتعلم أن نمرق بالسيارة حينما تكون



شكل (٤): الاشتراط الاجرائي. ففي أي موقف يصدر المفحوص استجابات اجرائية كثيرة، فاذا أعقب فعل اجرائي اثابة (تدعيم) على الفور، فانه يحتمل أكثر أن يصدر هذا الفعل مرة أخرى في موقف مشابه.

إشارة المرور خضراء وليست حمراء ، وأن نصيح بانفعال في مباراة لكرة القدم وليس في قاعة المحاضرة ، الخ . فالحياة بدون العلامات أو الأمارات البيئية environmental cues المتعلقة بالنواتج المحتملة للسلوك تكون حياة بلا نظام .

المدعمات المعممة الشرطية :

ان المثيرات المحايدة - كما ذكرنا من قبل - قد تكتسب قيمة وتصبح مدعمات شرطية حينما تصير مرتبطة بمثيرات أخرى يكون لها بالفعل قوى تدعيمية وخصائص الاستثارة الانفعالية . وتصبح المدعمات الشرطية « معممة » حينما تتزاوج مع أكثر من مدعم أولي واحد . ومن الأمثلة الواضحة على المدعم المعمم الشرطي - النقود لأنها تستطيع أن توفر إشباعات أولية مختلفة كثيرة (طعام ، مسكن ، ملبس ، راحة ، علاج طبي ، الخ . .) . وبالتدريج قد تصبح المدعمات المعممة فعالة تماما حتى انها لم تعد تصاحبها المدعمات الأولية التي قامت عليها في الأصل . مثال ذلك ، تعلم بعض الناس حب المال كغاية في حد ذاته .

واذا كانت هناك بعض المدعمات المعممة واضحة كالمال ، فان بعضها الآخر غير واضح ويتضمن علاقات اجتماعية معقدة . فالانتباه والاستحسان الاجتماعي والتقدير من الأشخاص الذين يعملون كمصدر للتدعيم - مثل الوالدين أو المعلمين أو الأشخاص المحبوبين - يمثل غالبا مدعمات معممة قوية .

لقد استثارت بحوث سكينر والسلوكيين الجدد آفاقا جديدة للبحث في السلوك ، اعانت في الكشف عن الطرق التي بها تتكون وتتغير أنماط السلوك .

•••

نظرية التعلم الاجتماعي والسلوك الاجتماعي

(باندورا ، والترز ، روتر)

لقد اهتمت معظم نظريات التعلم بدور التدعيم أو الاثابة في التعلم . يعزى هذا الاهتمام الى سببين على الأقل : الأول - لقد اتضح أن للتدعيم والحوافز مؤثرات قوية في التعلم وفي انتقاء السلوك

في مواقف مختلفة كثيرة ، وان نواتج أنماط الاستجابة تعمل كمحددات رئيسية للسلوك . الثاني ـ لقد أجريت معظم بحوث التعلم ، وحتى وقت قريب ، على الحيوانات أكثر مما أجريت على الانسان ، واعتبر أن التدعيم المباشر كما تبين من تجارب التعلم الحيواني هو الآليات الرئيسية للتعلم .

شهد الربع الثالث من القرن العشرين تطورات جذرية في نظريات التعلم ـ وأبرز معالمها دراسة السلوك الاجتماعي الاساسي المعقد فيما يعرف بالتعلم الاجتماعي ، الذي يمكن أن يتحقق بدون أي تدعيم مباشر واضح . تبدو هذه التغيرات في تطور مفاهيم ومبادىء التعلم وتوسيعها وتطبيقها على الظاهرات والعلاقات الاجتماعية ، وفي نقل دراسات وتجارب التعلم من مختبرات التعلم الحيواني الى المجالات الانسانية والاجتماعية الواسعة . تنسحب هذه التطورات على علم النفس الاكلينيكي (روتر ، ١٩٥٤ ؛ أولمان وكراسنر ، ١٩٦٩ ؛ فولبي ، ١٩٥٨) وعلى نمو الشخصية (باندورا ووالترز ، ١٩٦٣) وعلى بنية الشخصية وقياسها (ميتشيل ، ١٩٦٨) وعلى تغير السلوك (باندورا ، ١٩٦٩ ؛ أيزنك وراشمان ، ١٩٦٥) .

التوقعات والقيم :

تقوم نظرية روتر في التعلم الاجتماعي على تضمين عناصر معرفية أكثر في نظريات التعلم ذات التوجه نحو الشخصية personality — oriented learning theories : [١٢] يؤكد روتر على التوقعات الذاتية لدى الفرد بشأن النواتج المستقبلية ، وعلى القيمة الذاتية للتدعيمات في الموقف النفسي الذي يمر به الشخص . ووفقا لنظرية روتر ، تتوقف احتمالية حدوث نمط معين من السلوك على توقعات الفرد التي تتعلق بالنواتج أو المترتبات التي سوف تتمخض عن سلوكه ، وعلى القيم المدركة لتلك النواتج .

ويتطلب التنبؤ ، وفقا لروتر ، تقييما للتوقعات والقيم المعنية عند الفرد في المواقف الاختيارية التي تواجهه . وتعكس التوقعات الذاتية المتعلقة بالنواتج المحتملة الخبرات السابقة للتعلم التي اكتسبها الشخص في مواقف مشابهة . أي أن التوقعات دالة للتدعيم السابق المباشر عند الشخص . وعلى هذا النحو ، فان القيم الذاتية لنواتج سلوكه هي أيضا دالة للتعلم السابق ، ويذهب روتر الى أن التوقعات الخاصة أو النوعية تكون قابلة للتعديل بسهولة عن طريق إحداث تغييرات طفيفة في الموقف الذي يوجد فيه الفرد . أما التوقعات المعممة فهي أكثر اتساقا وثباتا عبر المواقف المختلفة ، ولذا فهي أقرب الى مفهوم السمات .

(١٢) J. B. Rotter : Social learning and clinical Psychology. Englewood Cliffs, N.J. : Prentice Hall, 1954.

التعلم بالملاحظة :

وهو نموذج من التطورات المعاصرة في نظرية التعلم ، يؤكد على التعلم الاجتماعي من خلال الملاحظة . يشير نموذج التعلم بالملاحظة observational learning model الى التعلم بدون أية إثابة مباشرة أو تدعيم مباشر (١٨) . فالناس تتعلم من ملاحظة الاشخاص الآخرين والأحداث وليس فقط من مجرد النواتج المباشرة لما يفعلونه . فما تعرفه وكيف تسلك يتوقف على ما تراه وتسمعه وليس فقط على ما تحصل عليه .

قد يطلق على التعلم بدون تدعيم مباشر مصطلح « التعلم المعرفي » cognitive أو « التعلم الانتقالي » vicarious أو « التعلم بالملاحظة » observational أو « التعلم بالنموذج » modeling . تشير كل هذه المصطلحات الى اكتساب الفرد لمعرفة جديدة ولامكانات جديدة للسلوك من خلال الملاحظة دون أن يتلقى أي تدعيم خارجي مباشر لأفعاله ، أو دون أن يأتي بالاستجابة الملاحظة . وقد يحدث التعلم بالملاحظة حينما يلاحظ الناس ما يفعله الآخرون ، أو حينما ينتبهون الى البيئة الطبيعية ، والى الأحداث ، والى الرموز كالكلمات والصور . ويعتمد الكثير من التعلم الانساني على العمليات ادراكية ـ معرفية (كالانتباه الانتقائي ، التركيزي) وعلى ملاحظة البيئة الاجتماعية والطبيعية أكثر مما يعتمد على التدعيم المباشر الذي يحصل عليه الفرد من أفعاله ذاتها . بل أن بعض الحيوانات قد تتعلم سلوكا معينا بدون أن تأتي بأي استجابة ظاهرة أثناء خبرة الملاحظة التي لاحظوا فيها ذلك السلوك لأول مرة (١٩) . فمن خلال الملاحظة يتعلم الناس من البيئة ومن سلوك الآخرين . وقد يتعلم الملاحظون أنماطا جديدة من الاستجابات لم تكن متاحة لهم من قبل وذلك عن طريق ملاحظتهم لهذه الأنماط السلوكية الجديدة التي يبديها الآخرون (٢٠) . يتضح اكتساب هذه الأنماط الجديدة من الاستجابات السلوكية في تعلم اللغة خاصة .

---

(١٨) A. Bandura & Walters : **Social learning and personality development.** New York : Holt, Rinehart & Winston, 1963

A. Bandura : **Principles of behavior modification.** New York : Holt, Rinehart, Winston, 1969.

D. T. Campbell : Conformity in Psychology's theories of acquired behavioral dispositions. In I. A. Berg & B. M. Bass (Eds.) , **Conformity and deviation.** New York : Harper, 1961. PP. 101—142.

D. O. Hebb : **Psychology.** Philadelphia : W. B. Saunders, 1966.

W. Mischel : **Personality and assessment.** New York : Wiley, 1968.

(١٩) J. A. Deutsch & D. Deutsch : **Physiological Psychology** : Homewood, Ill. : The Dorsey Press, 1966.

(٢٠) Bandura & Walters : 1963.

الاكتساب والأداء :

لا يوجد فرد يفعل كل الأشياء التي تعلمها والتي يستطيع أن يعملها . فمن الواضح أن ثمة تباينا بين ما يتعلمه الفرد أو يعرفه ويستطيع عمله ، وما يفعله في مواقف معينة بالفعل . لذا ، فمن المفيد أن نميز بين التعلم أو اكتساب السلوك ، وممارسته أو أدائه .

فتعلم أو اكتساب استجابات جديدة يخضع للتنظيم بواسطة عمليات حسية ومعرفية . وربما يتيسر هذا التعلم بواسطة الحوافز أو التدعيمات ، ولكنه غير مرهون بها [٢١] . ويعني ذلك ، أن ما يستطيع الشخص أن « يفعله » يتوقف على ما « يعرفه » وعلى المهارات والمعلومات والقواعد وأنماط الاستجابة التي اكتسبها أو تعلمها . هذه الانماط السلوكية المتعلمة قد تكتسب من خلال الملاحظة والعمليات المعرفية وليس فقط من خلال الاشتراط والتدعيم المباشر .

ومع ذلك ، فان الحوافز والتدعيم تمثل محددات هامة لانتقاء الاستجابة في حالة « الأداء » . فاختيار الشخص لما يفعله في موقف ما ـ أي ما هي الاستجابة التي ينتقيها من بين عدد هائل من الانماط السلوكية المحتملة التي يستطيع أن يأتي بها ـ يتوقف على المتغيرات الدافعية . فالسلوك الذي ينتقيه الشخص يعتمد على النواتج التي يتوقعها من بين الأفعال السلوكية المختلفة .

وقد لا يمارس شخص سلوكا معينا لأنه لم يتعلمه أصلا . ومن ناحية أخرى ، قد يكون نمط الاستجابة متيسرا بالنسبة لامكانية الفرد ، ولكنه لا يستدعي بواسطة المثير المعين وشروط الاثابة . يعني ذلك ، أن استجابته لا تخضع للكف ، ولكن شروط الحافز في الموقف قد لا تكون قوية بدرجة تكفي لاستدعاء الاستجابة . فحينما يتوفر حافز أكثر فعالية ، فان الاستجابة قد تستدعى بالفعل .

تأثير ملاحظة نواتج سلوك الأشخاص الآخرين :

لا تعتمد توقعاتنا المتعلقة بالنواتج المحتملة لسلوك معين فحسب على النواتج التي تلقيناها عما فعلناه في مواقف مماثلة ، ولكن أيضا على النواتج التي نلاحظ غيرنا يحصل عليها . فملاحظة النواتج أو المترتبات التي يتلقاها أشخاص آخرون قد توفر معلومات قيمة عن النواتج التي سوف يكون من المحتمل أن نحصل عليها اذا أتينا بسلوك مماثل .

(٢١) D. O. Hebb : 1966.

فحينما يلاحظ شخص أن أشخاصا آخرين (« نماذج models ») يحصلون على نواتج تدعيمية ايجابية لنمط معين من الاستجابة ، فانه يميل الى أن يسلك بالفعل بطرق مماثلة . ومن ناحية أخرى ، حينما تتلقى النماذج الاجتماعية عقابا على سلوكها ، يميل الأشخاص الملاحظون أكثر الى كف مثل هذه الأنماط السلوكية التي تلقى عقابا (٢٢) .

في دراسة عن التقليد أو المحاكاة تكشف عن تأثير ملاحظة نواتج أو مترتبات سلوك الأشخاص الآخرين ، لاحظ الأطفال فيلما لشخص كبير يأتي باستجابات عدوانية مثل ضرب أو ركل بعض الدمى : (٢٣) وكانت النواتج المترتبة على السلوك العدواني الذي يأتي به هذا الشخص الراشد متنوعة بشكل متعمد ـ ففي بعض المواقف كان هذا الشخص يلقى عقابا على سلوكه العدواني ، وفي موقف آخر يلقى إثابة ، وفي موقف ثالث لم تكن هناك أية نواتج أو مترتبات . وقد خضع الأطفال الملاحظون للاختبار بعد عرض الفيلم ، وتبين أن الأطفال الذين لاحظوا أن السلوك العدواني كان يلقى عقابا ، كانوا يقلدون هذه الأنماط السلوكية العدوانية بدرجة أقل من الأطفال الذين رأوا أن العدوانية تلقى إثابة أو إهمالا .

هل هذه الفروق في الأداء تعكس فروقا في التعليم ؟ تكشف الاختبارات التتبعية أنه حينما قدموا لهؤلاء الأطفال حوافز جذابة لمحاكاة استجابات النموذج ، فان الفروق بين هذه المواقف قد تلاشت . ويبدو أن الأطفال في كل المواقف قد تعلموا بدرجة متساوية تقريبا سلوك النموذج ، وان ملاحظة النواتج المختلفة قد أدت الى كف أو تيسير أدائهم للسلوك فيما بعد .

وقد تؤدي الخبرات القائمة على الملاحظة Vicarious experiences أيضا الى ردود أفعال انفعالية شرطية قوية (٢٤) .
ففي إحدى التجارب لاحظ أشخاص كبار بشكل متكرر صوت جرس مقترنا باستجابات للخوف يبديها شخص راشد آخر . وقد نتج عن ذلك أنه قد نمى بالتدريج لدى هؤلاء الملاحظين استجابات انفعالية شرطية (الخوف) لصوت الجرس وحده (٢٥) . وكثيرا ما يتعلم بعض الناس الذين لم يتعرضوا لأية خبرات مؤلمة مع حيوانات ، أن يخافوا منها بشدة بعد أن يلاحظوا ردود الافعال الانفعالية التي يبديها غيرهم حينما يواجهون هذه الحيوانات .

---

(٢٢) A. Bandura, D. Ross & S. A. Ross : Imitation of film — mediated aggressive models. **Journal of Abnormal and Social Psychology**, 1963, 66, 3—11.

(٢٣) A. Bandura : Vicarious Processes : A case of no—trial learning. In L. Berkowitz (Ed.) , **Advances in Experimental Social Psychology**. Vol. I I. New York : Academic Press, 1965. PP. 1—55.

(٢٤) S. M. Berger : Conditioning through vicarious instigation. **Psychological Review**, 1962, 69, 450—466.

(٢٥) A. Bandura & T. L. Rosenthal : Vicarious classical conditioning as a function of arousal level. **Journal of Personality and Social Psychology**, 1966, 3, 54—62.

التركيز على السلوك الاجتماعي الحالي :

تفترض نظريات التعلم الاجتماعي أن السلوك يكون متسقا عبر المواقف المختلفة — cross situational فقط الى الحد الذي فيه تؤدي ، أو من المتوقع أن تؤدي ، أنماط سلوكية مماثلة الى نواتج مماثلة عبر تلك المواقف . يختلف ذلك عن نظريات السمات التي تفترض وجود استعدادات واسعة واتساقات عبر المواقف على أنها الوحدات الرئيسية للشخصية . فوفقا لمبادىء التعلم الخاصة بتعميم المثير والتميز ، يصير السلوك معمما على نطاق واسع فقط حينما يلقى تدعيما في الكثير من المواقف التي يحدث فيها . وتؤكد معظم النظريات السلوكية ، استنادا الى فكرة أن السلوك يعتمد على نواتجه المحتملة ، بذلك على « النوعية السلوكية » behavioral specifity أكثر مما تؤكد على اتساق السمات عبر المواقف المختلفة التي تتضمن مثيرات متميزة مختلفة . لذا فان المقاييس المشتقة من نظريات السلوك الاجتماعي لا تصنف الفرد في مصطلحات خاصة بسمات معممة ، أو تصنفه في فئات من الأنماط ، أو تستنتج صراعاته ودوافعه .

فالمقاييس السلوكية ، بدلا من ذلك ، تحدد ما يفعله الفرد الآن ارتباطا بالشروط التي يأتي في ظلها بأفعاله السلوكية . ويعني ذلك ، أن القياس السلوكي يتضمن كشفا للجوانب الفريدة في شخصية الفرد عن طريق تحليل كيف يتغير الشخص استجابة للتغيرات في شروط المثير .

وتطرح نظريات التعلم الاجتماعي موقفا مغايرا للنظريات السيكودينامية فيما يتعلق بديناميات السلوك : يفترض التنظير السيكودينامي وجود نظام ثابت نسبيا من الدوافع والاستعدادات الرئيسية للشخصية ، رغم تغير استجاباتها الظاهرة . أما نظريات التعلم الاجتماعي فتعتبر وجهة النظر الديناميـة غير ملائمة وقد أدت الى بعض الأخطاء البالغة الخطورة في التشخيص والعلاج الاكلينيكيين لأكثر من خمسين عاما (٣٦) . وتفترض هذه النظريات أن الأنماط السلوكية المتنوعة لا تعكس بالضرورة نظاما متماثلا يكمن وراءه نظام من الدوافع . فهذه الأنماط السلوكية متباينة نسبيا ، وتحكمها أسباب مستقلة نسبيا ، وتستدعيها ظروف وشروط منظمة قد تكون منعزلة عن بعضها .

ان النظريات السيكودينامية تميز بين الأنماط السلوكية الظاهرة أو « العرضية » symptomatic من ناحية وما يكمن وراءها من اسباب نفسية رئيسية من ناحية أخرى . وتفترض أن هذه الأسباب هي الدوافع الثابتة وتحولاتها الدفاعية المستترة ، والتي تكونت منذ فترة مبكرة من تطور النمو النفسي ـ جنسي للفرد . لذلك تهتم النظريات السيكودينامية بالبحث عن الجذور الدافعية للشخصية في مرحلة الطفولة .

---

(٣٦) D. R. Peterson : The Clinical study of social behavior, New York : Appletoncentury crofts, 1968.

أما نظريات السلوك الاجتماعي ، خلافا لذلك ، فتركز على الأسباب الراهنة لسلوك الفرد . ولذلك فان مدخل التعلم الاجتماعي في دراسة الشخصية وتحليل السلوك الاجتماعي يعطي اهتماما أقل للتكوينات الدافعية والاستعدادات الشخصية ، ويركز أكثر على سلوك الفرد ، وعلى العلاقات الوظيفية بين ما يفعله والظروف أو الشروط النفسية لحياته . فتحليل السلوك الاجتماعي يحاول أن يكتشف دور أو معنى مثيرات معينة وشروطها في حياة الفرد وذلك عن طريق ملاحظة كيف أن التغير في تلك الشروط يغير فيما يفكر فيه وفيما يفعله .

المعرفة والسلوك :

لقد أصبح علم النفس المعاصر أكثر اهتماما بالجوانب المعرفية للظاهرة النفسية . واذا كان مصطلح « معرفة » cognition ينطوي على معان كثيرة ، الا انه يعني ببساطة « تشغيل أو تحصيل المعلومات » information processing " كما هو في التفكير وفي التمثيل العقلي وتناول الأحداث . وتدخل المعرفة في عمليات مثل الانتباه الانتقائي وتجميع المعلومات والتفكير المدفوع أو الموجه نحو الهدف (حل المشكلات) (٢٧) .

والواقع أن النظريات المعاصرة للتعلم الاجتماعي تولي أهمية خاصة للعمليات المعرفية في دراسة الشخصية . يؤكد هذا التوجه المعرفي لنظريات التعلم الاجتماعي على ضرورة فهم العمليات التوسطية mediating processes التي تجري داخل الشخص بين المثيرات التي يتعرض لها والاستجابات الظاهرة التي يأتي بها . (٢٨) لذا تهتم هذه النظريات بالتمثيلات الداخلية covert representations (كما هو في التعلم بالملاحظة) وتسعى الى دراسة تفسير الفرد للاحداث والخبرات . ويعني ذلك أن نظريات التعلم الاجتماعي تعترف بحدوث نشاط توسيطي mediation ، فهي لا تنظر الى المثيرات كما لو أنها ترتطم بكائن حي أجوف من الداخل ليأتي آليا بأفعال ثابتة معينة . فتأثير المثير على الفرد يعتمد على عوامل كثيرة : فاذا لم يلاحظ المثير مثلا ، فمن الواضح أنه لن يؤثر في الفرد . هذا التأثير لا يعتمد فحسب على خصائصه الطبيعية الموضوعية ولكن أيضا على كيفية تقديمه الى الفرد ، بما في ذلك التعليمات والرموز التي تستخدم لتغيير معناه العادي .

يؤكد الكثير من علماء النفس بقوة على أهمية التفسير أو « التقدير المعرفي » cognitive appraisal الذي يبديه الفرد للموقف ـ أي على « معنى » المثير . يعترف العلماء السلوكيون بهذه

(٢٧) W. Mischel : Continuity and change in personality. American Psychologist, 1969, 24, 1012—1018.

(٢٨) U. Neisser : Cognitive psychology, New York : Appleton—Century—Crofts, 1967.

النقطة ولكنهم يذهبون عادة الى ما هو أبعد من ذلك . . معتقدين أن مهمتهم ينبغي أن تتضمن عزل المتغيرات الفعلية التي تحكم ما الذي قد يعنيه المثير في نسق معين ، حتى يستطيعوا تحديد الشروط التي تحكم المعنى .

فأهمية المعرفة والمعلومات تتضمن جوانب كثيرة من السلوك الانساني المركب . فالمعلومات تؤثر بقوة في عمليات التعلم الانساني وفي الاداء . فمثلا المعلومات التي يحصل عليها السائح للوصول الى أماكن معينة في مدينة يزورها لأول مرة تكون أكثر فعالية من التجول في المدينة بطريقة المحاولة والخطأ . كذلك ، فان معلومات التغذية المرتدة informational feedback التي يحصل عليها الفرد بشأن أداله السابق والمعلومات الخاصة بالموقف الحالي وبالتوقعات التي سوف تنشأ في المستقبل تؤثر بقوة في سلوك الفرد . (٢٩)

وقد يتعدل السلوك الاجتماعي بواسطة العمليات الرمزية والمعرفية التي لا تعتمد على الملاحظة الفعلية لسلوك النموذج . فمثلا ، قد يعدل الفرد من اتجاهاته الاجتماعية بعد قراءته عن السلوك المتعلق بهذه الاتجاهات لدى أشخاص آخرين . (٣٠) وغالبا ما تكون هذه التأثيرات المستثارة رمزيا قوية وقد تؤدي الى تغيير الانماط السلوكية المتعلقة بالشخصية كالضبط الذاتي والعدوانية والسعي الى الانجاز ، ورغم أن الآليات التي تكمن وراءها لا زالت غير واضحة ، الا أن المعلومات الجديدة التي تحملها اللغة والرموز تستطيع أن تغير بعضا من معنى المثيرات والتدعيمات .

الكائن الحي النشط :

هل التركيز على دور شروط المثير قد يعني أن النظرية السلوكية تنطوي على نظرة سلبية للانسان ، قوامها صورة للكائن الحي على أنه أجوف من الداخل عدا عمليات الربط الآلي بين مجموعة من الاستجابات للمثيرات الخارجية ؟ والواقع أن التحليل السلوكي يهتم بالتلازم الحقيقي بين الشروط المتغيرة والسلوك المتغير عند الفرد . ولكن اذا كان التغير في الشروط يؤدي الى تنظيم سلوك الفرد ، فانه الشخص ـ وليس المثير أو الموقف ـ هو الذي يكون نشطا وفعالا وهو الذي يأتي بالافعال السلوكية . فالاستجابات تسكن فقط في الكائن الحي ، وليس في المثيرات أو الشروط . والنظريات السلوكية المعاصرة تركز على المثيرات في محاولة لفهم الشخص ولتغييره الى الأحسن .

(٢٩) A. L. Baldwin : A. cognitive theory of socialization. In D. A. Goslin (Ed.) . **Handbook of socialization theory and research.** Chicago : Rand Mc Nally. 1969. PP. 325—480.

(٣٠) A. Bandura & W. Mischel : Modification of selfimposed delay of reward through exposure to live and symbolic models. Journal of personality and Social Psychology. 1965. 2. 698—705.

ان نظريات التعلم الاجتماعي تعترف بأن الفرد ليس مجموعة سلبية من الاستجابات . فلكل فرد تاريخه من التعلم ومخزونه من الذاكرة ، والكثير مما يمر به يستوعبه ويؤثر في كل سلوكه الحالي . والانسان يفسر نفسه وسلوكه ـ فهو يقيم أداءه ويحكم عليه وينظمه . وبالاضافة الى ما يتعرض له الفرد من إثابة وعقاب بواسطة البيئة الخارجية ، يتعلم الناس أن ينظموا سلوكهم ويقيمونه ، وأن يثيبوا أنفسهم ويعاقبوها ، وبالتالي أن يعدلوا من سلوكهم وأن يؤثروا في بيئتهم .

هكذا تركز نظرية التعلم الاجتماعي معظم اهتمامها ومهامها على ما يفعله الشخص وفقا لقاعدة « هنا والآن » أكثر من أن تركز على اعادة بناء تاريخه النفسي . هذه النظرية تميل الى رفض افتراض الحوافز والقوى والدوافع وغيرها من الاستعدادات النفسية كتفسيرات للسلوك ، والى التركيز على امكانات الفرد على التغير . والواقع أن الكثير مما تذهب اليه النظرية السلوكية المعاصرة يتفق مع نظريات أخرى في علم النفس المعاصر ، وخاصة النظريات ذات التوجه الوجودي والظاهري .

•••

تعديل السلوك وطرقه

العلاج السلوكي behavior therapy أو ما يعرف بـ « تعديل السلوك » behavior modification، هو التطبيق المباشر لمبادىء التعلم (أيزنك ، ١٩٥٩) [٣١] ، فنظرية التعلم هي أساس العلاج السلوكي (أولمان وكراسنر ، ١٩٧٥) . [٣٢] ويتوصل « ايزنك » ، من خلال تجاربه وممارساته الاكلينيكية الواسعة ، الى نتيجة تؤكد على مكانة العلاج السلوكي كنظام علمي (أيزنك ، ١٩٧١) [٣٣] ، وعلى دور العلاج السلوكي كعلم تطبيقي (أيزنك ، ١٩٧٦) [٣٤] .

وفيما يلي نتناول بعض الطرق الرئيسية لتعديل السلوك ، وأسسها ، وما ترتب عليها من نتائج .

---

(٣١) H. J. Eysenck : Learning theory and behavior therapy. Journal of Mental Science, 1959, 105, 61—73.

(٣٢) L. P. Ullman & L. Krasner : A psychological approach to abnormal behavior (2nd ed.) . Englewood cliffs, N.J. : Prentice — Hall, 1975.

(٣٣) H. J. Eysenck : Behavior therapy as a scientific discipline. Journal of Consulting and clinical psychology, 1971, 36, 314—319.

(٣٤) H. J. Eysenck : Behavior therapy : Dogma or applied science ? In

M. P. Feldman & A. Broadhurst (Eds.) , Theoretical and experimental bases of the behavior therapies. London : Wiley, 1976.

التحصين المنظم التدريجي : (*)

لقد كانت مبادىء التعلم التي يقوم عليها التغير العلاجي للسلوك في متناول علماء النفس منذ أكثر من ستين عاما ، ولكنها نادرا ما كانت تطبق لأن معظم المعالجين كانوا يبدون تخوفا من حدوث ظاهرة « إبدال الأعراض » (**) . فالاعتقاد الشائع هو أن ازالة السلوك المشكل سوف يتبعه ظهور أعراض أخرى تكون أكثر شدة في مرضيتها من الأعراض الأصلية .

ولقد كان « جوزيف فولبي » J. Wolpe ، وهو طبيب نفسي صار من أكثر ناقدي نظرية التحليل النفسي ، هو الذي خاطر بمحاولة التعديل المباشر للسلوك لدى الكثير من مرضاه . وفي عام ١٩٥٨ نشر كتابا يصف فيه « طريقة التحصين المنظم التدريجي » التي تقوم على مبدأ الاقتران الشرطي الكلاسيكي (٣٥) .

تأثر « فولبي » بالنظريات الكلاسيكية في التعلم وخاصة بنظرية بافلوف ، واعتقد أن العصاب (المرض النفسي) يتضمن عادات متعلمة سيئة التكيف ، وخاصة استجابات القلق . ويفترض انه في السلوك العصابي ، يصبح القلق هو الاستجابة الشرطية لمثيرات لا تستدعي القلق عند الاشخاص العاديين . واستنبط أن العلاج ينبغي أن يساعد الشخص العصابي على كف القلق بواسطة تعريضه لاشتراط مضاد counterconditioning ، وذلك لاستدعاء استجابة منافسة (مضادة) -com peting (antagonistic) response للمثيرات الباعثة على القلق . ويقول : « اذا كان من الممكن استدعاء استجابة مضادة للقلق لتقع في وجود مثيرات باعثة على القلق ولكي تصاحب بقمع كلي أو جزئي لاستجابات القلق ، فان الرابطة بين هذه المثيرات واستجابة القلق سوف تضعف » . (٣٦)

يحدد فولبي ثلاث خطوات لتحقيق التحصين المنظم التدريجي ضد المثيرات الباعثة على القلق :

الخطوة الأولى : تحديد مستويات التدرج الهرمي لمثير القلق (*) : ففي البداية يجري تحديد المواقف التي تستدعي استثارة واحجاما انفعاليين باعثين على الضيق ، وذلك بواسطة اجراءات القياس المفصل الذي يتم عادة من خلال المقابلات . ففي بعض الأحيان يعاني الشخص من قلق معمم على مجالات

---

* Systematic desensitization

** Symptom substitution.

(٣٥) J. wolpe : Psychotherapy by reciprocal inhibition. Stanford : Stanford univ. Press, 1958.

(٣٦) Ibid , P. 71.

* ANXIETY STIMULUS HIERARCHY.

كثيرة ، مثل الخوف من الفشل ، والشكوك الذاتية ، والاحساس بالذنب المرتبط بالجنس ، وغير ذلك . وبصرف النظر عن مقدار مجالات أو « موضوعات » القلق ، فان كل مجال أو موضوع منها يجري علاجه على نحو منفصل . فبالنسبة لكل موضوع من موضوعات القلق يحدد الشخص درجة أو مرتبة المثيرات المرتبطة به وفقا لمستويات التدرج الهرمي لشدة المثيرات ، فتتراوح من أكثر الأحداث شدة الى أقلها شدة من حيث أستثارة القلق . فعلى سبيل المثال [٣٧] : الشخص الذي يتملكه الخوف من الكلام مع مجموعة كبيرة من الأشخاص ، فان خوفه يأخذ درجات مختلفة من الشدة وفقا لاختلاف المواقف والأشخاص . .

الخطوة الثانية : التدريب على الاستجابة المضادة (الاسترخاء) :

بعد تحديد وترتيب مستويات المثيرات الباعثة على القلق ، من الضروري تزويد الشخص بالاستجابات التي يستطيع استخدامها فيما بعد لكي يكف قلقه . وتوجد أنماط سلوكية تتعارض مع القلق . لذلك يفضل فولبي استخدام استجابات الاسترخاء لأنه يمكن تعلمها بسهولة ، ولأنها دائما تكون متعارضة مع القلق : فلا يستطيع أحد أن يكون في حالة استرخاء وقلق في آن واحد . ولذلك يساعد المعالج المريض على تعلم الاسترخاء عن طريق تعليمات محددة ، بها يتعلم أولا أن يبعث توترا في بعض أجزاء الجسم ثم أن يسترخي بالنسبة لهذه الأجزاء من الجسم (كالذراعين ، الكتفين ، الرقبة ، الرأس) حتى يمكنه بالتدريج أن يصل الى حالة من الهدوء الكلي ، والاسترخاء العضلي العميق . ويستطيع معظم الناس أن يتعلموا كيف يسترخون من خلال جلسات قليلة . والمشكلة الرئيسية هي أن يتعلم الشخص أن يسترخي بالنسبة للمثيرات التي تستدعي القلق ، وهذا ما يجري محاولته في الخطوة التالية .

الخطوة الثالثة : ربط مثيرات القلق بالاستجابات المضادة :

وهي المرحلة الحاسمة ـ مرحلة الاشتراط المضاد ـ وفيها تجري مساعدة المريض على الاسترخاء بعمق بينما يقدم اليه المثير مرتبة استدعاء القلق من بين مستويات المثيرات التي جرى ترتيبها هرميا في المرحلة الأولى . وعادة ما يتم وصف الحدث المثير بطريقة لفظية أو تقديمه في شكل رمزي (في صورة) بينما يكون المريض في حالة استرخاء وهدوء عميقين . وحينما يذكر المعالج للمريض كلمات العبارة (البند) ، فان المريض يحاول أن يستخلص الصورة الأكثر اشراقا وحيوية ، والتي يستطيع أن يكونها في تخيله . وحالما يستطيع أن يركز أفكاره على هذه العبارة وهو مستمر في حالة هدوئه واسترخائه ، تكون الخطوة التالية هي تقديم العبارة الأكثر شدة في الترتيب الهرمي اليه ، حتى يستطيع التمكن ، خطوة بخطوة ، من كل مستويات مثيرات القلق .

---

(٣٧) G.L.PAUL : INSIGHT VS. DESENSITIZATION IN PSYCHOTHERAPY. STANFORD : STANFORD UNIV. PRESS, 1966.

واذا حدث عند أي نقطة في الاجراء ، أن تعرض المريض لخبرة يحس فيها بتناقض في حالته الاسترخائية (أي يصبح قلقا) عندما يقدم اليه مثير باعث على القلق ، عليه أن يحيط المعالج علما بذلك . وفي هذه الحالة يطلب المعالج منه فورا أن لا يستمر في تكوين صورته عن المثير حتى يسترد هدوءه . وبعد أن يصبح في حالة من الاسترخاء التام مرة ثانية ، يقدم اليه بند أقل شدة في التدرج الهرمي حتى يستطيع التركيز عليه بدون قلق . وحينما يفعل ذلك بنجاح ، فانه يكون في حالة استعداد لأن يتقدم الى البند الثاني في الترتيب الهرمي من مستويات قلقه ، وهكذا حتى يستأنف تقدمه خطوة بخطوة في القائمة المرتبة هرميا لمثيرات القلق .

وباختصار ، تحاول اجراءات التحصين المنظم التدريجي (الاشتراط المضاد) استدعاء استجابات قوية مضادة للقلق (كالاسترخاء) مرهونة بوجود مثيرات باعثة على القلق بدرجة خفيفة ، حتى تستطيع الاستجابة المضادة ـ على الأقل جزئيا ـ أن تمنع استجابة القلق . ومن ثم يصبح الترابط بين المثير المنفر والقلق ضعيفا ، بينما يقوى ترابط المثير مع رد فعل الاسترخاء (٣٨) .

لقد استخدمت طريقة التحصين المنظم التدريجي لتعديل أنماط متنوعة من السلوك الاحجامي ، والسلوك العصابي . وكذلك لتعديل بعض المخاوف . فعلى سبيل المثال ، يذكر فولبي حالة قام بعلاجها . ولد مراهق كان يعاني من أفعال قسرية شديدة تتعلق بالتكرار الجبري لغسل الأيدي . لقد كان هذا الولد يقضي غالبا أكثر من ثلاثة أرباع ساعة في أبعاد عملية دقيقة لتنظيف أعضائه التناسلية بعد عملية التبول ثم يقضي بعد ذلك حوالي ساعتين في تنظيف يديه . وقد لاحظ فولبي أن التبول كان هو العامل المعجل دائما بحدوث هذه الأفعال الطقوسية . لذا خضع هذا المراهق لتحصين منظم تدريجي لتقليل حساسيته . للمثيرات الباعثة على القلق والمتدرجة في درجة شدة استثارتها للقلق المرتبط بالبول والتبول . ووفقا لهذه الطريقة حقق فولبي تقدما رائعا وسريعا في علاج هذه الحالة . وعندما ما لم يعد التبول يستثير قلق هذا المراهق ، فانه تخلى عن أفعاله القسرية الطقوسية (٣٩) .

ان التقارير الاكلينيكية عن نجاح طريقة التحصين التدريجي مشجعة على استخدامها بفاعلية ، ومع ذلك فهي لا تقدم برهانا قاطعا على أن الاجراءات الاكلينيكية ، وليس أية عوامل أخرى في حياة المريض هي المسئولة عن التحسن الملحوظ . وتأتي الأدلة الأكثر اقناعا بفاعلية هذه الطريقة من بحوث

---

(٣٨) E.R. GUTHRIE : THE PSYCHOLOGY OF LEARNING. NEW YORK : HARPER, 1935

(٣٩) J.WOLPE : BEHAVIOR THERPY IN COMPLEX STATES. BRITISH JOURNAL OF PSYCHIATRY, 1963, 110, 28 - 34.

توفرت فيها شروط الضبط التجريبي (٤٠) توضح النتائج المستمدة من هذه البحوث بصفة عامة أن طريقة التحصين التدريجي ذات قيمة كبيرة في علاج المخاوف المرضية (المخواف) وفي خفض القلق .

ومن التجارب القيمة في هذا الميدان ، دراسة فعالية التحصين المنظم التدريجي في علاج القلق الشديد المرتبط بالكلام أمام مجموعة كبيرة من الأشخاص (٤١) : في هذه الدراسة جرى تقسيم الطلبة الذين يعانون من قلق شديد ازاء الكلام في حضرة جهور الى أربعة مجموعات : في المجموعة الأولى تلقى الطلبة علاجا بالاشتراط المضاد وفقا لطريقة قولبي ، يقوم على تعلم الاسترخاء لمواقف متخيلة أكثر تهديدا مرتبطة بالكلام في حضرة أشخاص كثيرين . وفي المجموعة الثانية تلقى الطلبة علاجا نفسيا قائما على التوجه بالاستبصار (*) على يد اخصائي اكلينيكي . أما المجموعة الثالثة فقد حصلت فقط على أدوية مهدئة لمجرد ارضاء الطلبة في هذه المجموعة وعلى تدريب كاذب جرى تصميمه لايهامهم بأنه يساعدهم على « مواجهة الضيق » ، وبالتالي فان هذه المجموعة قد تلقت اهتماما ولكن لم تتلق علاجا (اهتمام دون علاج) أو (مجرد الأهتمام) هذه المجموعات الثلاث قد تلقت علاجا لفترة متساوية (ستة أسابيع) وفقا لاختلاف شروط كل موقف من هذه المواقف الثلاثة . وكانت المجموعة الرابعة التي لم تتلق أي علاج هي المجموعة الضابطة .

ولقياس متغيرات الدراسة ، طبقت على هذه المجموعات الأربع مجموعة من الأختبارات ومقاييس لتقدير السلوك ، كما جمعت ملاحظات من السلوك . أما القلق المرتبط بالكلام في حضرة الأخرين فقد تم تقديره وفقا لمقاييس لتقرير الذات فسيولوجيا وسلوكيا (بواسطة ملاحظة السلوك الفعلي للكلام في حضرة الأخرين) . يلخص الشكل رقم (٥) نتائج هذه الدراسة التجريبية الأكلينيكية : فطريقة التحصين المنظم التدريجي كانت أفضل علاج وبشكل متسق . ولم تختلف طريقة العلاج بالاستبصار عن مواقف الأهتمام دون العلاج أو الأهتمام لمجرد ارضاء الحالات attention - placebo، رغم أن الطلبة في هاتين المجموعتين (الأستبصار ، مجرد الأهتمام) . فقد انخفض القلق عندهم (وفقا لبعض المقاييس) أكثر من المجموعة الضابطة التي لم تتلق علاجا .

---

(٤١) من هذه البحوث التجريبية التي تبنت فعاليا طريقة التحصين المنظم التدريجي في علاج بعض الأنماط السلوكية

O.C.DANISON : SYSTEMATIC DESENSITIZATION AS A COUNTERCONDITIONING PROCESS.
JOURNAL OF ABNORMAL AND SOCIAL PSYCHOLOGY, 1968, 73, 91 — 99.
P.J. LANG, A.D.LAZOVIK, D.J.REYNOLDS : DESENSIZATION, SUGGESTIBILITION AND PSEUDO / THERAPY. JOURNAL OF ABNORMAL PSYCHOLOGY, 1965, 70, 395.
A.A. LAZARUS : GROUP THERAPY OF PHOBIC DISORDERS BY SYSTEMATIC DESENSITIZATION. JOURNAL OF ABNORMAL AND SOCIAL PSYCHOLOGY, 1961, 63, 504 - 510.
S. PACHMAN : SYSTEMATIC DESENSITIZATION. PSYCHOLOGICAL BULLETIN, 1967, 67, 93 - 103.
G.L. Paul : Insight Vs. Desensitization in Psychotherapy. Stanford : Univ : 1966.

(*) Insight - Oriented Psychotherapy .



شكل (٤) : معدل انخفاض القلق (قبل الاختبار وبعده) وفقاً للمقاييس الثلاثة . المقاييس الفسيولوجية ، والتقديرات السلوكية ، والتقرير الذاتي .

(Paul, 1966)

وفي بعض الدراسات التتبعية لهؤلاء المفحوصين ، طبقت عليهم نفس بطارية الاختبارات والمقاييس بعد ستة أسابيع (٤٢) ، ثم مرة أخرى بعد عامين (٤٣) . ولقد أثبتت هذه الدراسات أن التحسن في السلوك قد ظل قائما ولم يتعرض للكف أو الانطفاء .

بل أن الطلبة الذين تلقوا علاجا للقلق المرتبط بالكلام في حضرة جمهور بطريقة التحصين المنظم التدريجي ، قد خبروا أيضا تحسنا في درجاتهم في التحصيل الدراسي بالكلية حينما نقارنهم بالطلبة في المجموعات الأخرى (٤٤) .

التعلم بالملاحظة : (*)

قد تخضع المخاوف وغيرها من ردود الأفعال الأنفعالية القوية للتعديل من خلال التعلم بالملاحظة . ففي احدى الدراسات ، قامت مجموعة من الاطفال في سن ما قبل المدرسة ـ وكانوا يخافون بشدة من الكلاب ـ بملاحظة طفل زميل لهم لا يخاف من الكلاب ، وهو يلعب مع واحد منها . وكان هذا النموذج الشجاع من الأطفال يعرض سلوكه الجريء في لعبه مع كلبه ، بينما يقوم الاطفال الذين يخافون من الكلاب بملاحظته من بعيد بمسافة يشعرون فيها بالأمان (٤٥) في خلال سلسلة من تسع جلسات انتقل الطفل النموذج من التربيت على الكلب من خلال القضبان الحديدية حيث يجري حبس الكلب الى الدخول معه في القفص ومشاركته في اللعب . في هذه المرحلة الأخيرة كان الطفل النموذج يلعب بمرح وبهجة مع الكلب ، يداعبه ويطعمه . أما الأطفال الذين كانوا يلاحظون هذا الطفل الذي كان نموذجا للشجاعة أمامهم ، فقد أبدوا تحسنا في سلوكهم الاقدامي نحو الكلب ، حينما قورنوا بزملائهم في المجموعات الضابطة .

في العلاج السلوكي ، لقي الخوف من الثعابين اهتماما كبيرا بسبب الدلالة الجنسية الرمزية التي تعطيها نظرية التحليل النفسي لهذه المخاوف (٤٦) . والافتراض الآن أنه اذا كانت تلك المخاوف

---

(٤٢) Ibid .

(٤٣) G.L. PAUL : INSIGHT VERSUS DESENSITIZATION IN PSYCHOTHERAPY TWO YEARS AFTER TERMINATION, JOURNAL OF CONSULTING PSYCHOLOGY, 1967, 31, 333 - 348.

(٤٤) G.L. PAUL D.T. SHANNON : TREATMENT OF ANXIETY THROUGH SYSTEMATIC DESENSITIZATION IN THERAPY GROUPS. JOURNAL OF ABNORMAL PSYCHOLOGY, 1966, 71, 124 - 135.

(*) VICARIOUS (OBSERVATIONAL) LEARNING

(٤٥) A. BANDURA, J.E. GRUSEC F.L. MENLOVE : OBSERVATIONAL LEARNING AS A FUNCTION OF SYMBOLIZATION AND INCENTIVE SET. CHILD DEVELOPMENT, 1966, 37, 499 - 506.

(٤٦) A.A. BRILL : BASIC PRINCIPLES OF PSYCHOANALYSIS. GARDEN CITY, N.Y. : DOUBLEDAY, 1949 .

المرضية مظهرا رمزيا لمشكلة نفسية دينامية تكمن وراءها (كما تسلم نظرية التحليل النفسي)، فان العلاج الحقيقي لهذه المخاوف لا يتحقق بدون أن يجري أولا تعديل الصراعات اللاشعورية التي يفترض أن عرض الخوف المرضي يرمز اليها. ولقد حاول معالجون سلوكيون كثيرون إزالة هذه المخاوف بطريقة مباشرة بدون استكشاف لمعانيها اللاشعورية المحتملة ولمصادر العلة في تاريخ حياة الفرد، وذلك لكي يروا ما اذا كانوا يحصلون على تحسن مستمر [٤٧] ومن شأن نجاح هذه الطرق المباشرة أنه يتعارض مع تنبؤات نظرية التحليل النفسي، ويتضمن أهمية كبيرة، نظرية وعملية.

قام «باندورا وبلانكارد وريتر» في عام ١٩٦٩ بدراسة تجريبية شاملة عن تأثير بعض الطرق العلاجية على الخوف الشديد من الثعابين لدى أشخاص راشدين تطوعوا كمفحوصين في هذه التجارب [٤٨]. وقد قسم المفحوصون بطريقة عشوائية الى مجموعات أربع، تلقت كل مجموعة طريقة علاجية مختلفة: (١) ـ التحصين المنظم التدريجي، (٢) ـ تقديم نموذج رمزي في شكل فيلم، (٣) ـ يلاحظ المفحوصون نموذجا حيا مع الاسهام الموجه، (٤) ـ أما المجموعة الرابعة فهي المجموعة الضابطة. في المجموعة الأولى، استخدمت طريقة فولبي في التحصين المنظم التدريجي. وفي المجموعة الثانية، لاحظ المفحوصون فيلما عن أطفال ومراهقين وكبار ينهمكون في اللعب مع ثعبان، وكانت المناظر باعثة على التهديد. وقد بدأ هذا الفيلم بعرض النماذج الأقل اثارة للخوف وهي نماذج من الثعابين البلاستيك، ثم تطورت المناظر بالتدريج حيث كان هؤلاء الأشخاص يلمسون ثعبانا ضخما ثم يمسكونه ثم يدعونه يلتف حولهم. وقد تعلم المفحوصون في هذه المجموعة أيضا أن يسترخوا أثناء فترة عرض الفيلم. وبالاضافة الى ذلك، كان في مقدورهم تنظيم عرض الفيلم حتى اذا شعروا بالقلق ازاء بعض المناظر فانهم يوقفون الفيلم ويعيدونه الى مناظر سابقة أقل تهديدا، حتى يتمكنوا من الاسترخاء ومن الانتقال بالتدريج الى المنظر التالي. أما المجموعة الثالثة، فكانت تلاحظ نموذجا حيا، حيث لاحظوا في البداية وبسلام نماذج حية من الأشخاص تتفاعل جسميا مع ثعبان خلف نافذة للملاحظة. وبعد ذلك يقوم النموذج بمسك الثعبان بطريقة غير مخيفة أمام المفحوص، وبالتدريج يجعله يلمس الثعبان ثم يمسكه من الوسط، أولا وهو يلبس قفازا ثم بيدين عاريتين، ثم يصل مسك الثعبان بقوة من الرأس والذيل.

وقد طبقت على المفحوصين في هذه المجموعات الأربع، قبل وبعد العلاج، بعض الاختبارات لقياس قوة مخاوفهم وسلوكهم الاحجامي عن الثعابين، كما طبق عليهم مقياس للخوف. ويوضح

---

(٤٧) P.F. LANG A.D. LAZOVIK : EXPERIMENTAL DESENSITIZATION OF A PHOBIA. JOURNAL OF ABNORMAL AND SOCIAL PSYCHOLOGY, 1963, 66, 519 - 525.

(٤٨) A.BANDURA, E.B. BLANCHARD AND B.RITTER : RELATIVE EFFICACY OF DESENSITIZATION AND MODELING APPROACHSS FOR INDUCING BEFAVIORAL, AFFECTIVE, AND ATTITUOTINAL CHANGES.JOURNAL OF PESSONALITY AND SOCIAL PSYCHOLOGY, 1969, 13, 173 199 .

الشكلان (٦ ، ٧) نتائج هذه الدراسة التجريبية الاكلينيكية وهي تبين أن الطريقة القائمة على ملاحظة المفحوصين لنموذج حي ثم مشاركتهم فيه (المجموعة الثالثة) هي أكثر الطرق فعالية ، حيث أدت في الغالب الى محو تام لسلوك الخوف المرضي عند كل مفحوص .

التفور الشرطي : (*)

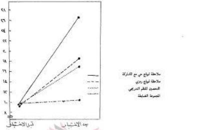
لقد رأينا كيف أن المثيرات التي تستدعي استجابات انفعالية سلبية (كالقلق) يمكن أن تصير محايدة ، ولكن ، بينما يخبر بعض الأشخاص معاناة بسبب تعلمهم الاستجابة بطريقة سلبية لمثيرات معينة ، فان أشخاصا آخرين يعيشون في عذاب لأنهم قد صاروا يخبرون لذة بواسطة الاستجابة لمثيرات يجدها معظم الناس في ثقافتهم انها مثيرات محايدة أوحتى تبعث على النفور أو التقزز . ومن الأمثلة على هذه المشكلة : الجنسية المثلية و « الفيتشية » fetishism وهي حالة تستثار فيها نزعة جنسية لدى الشخص المريض بواسطة أشياء معينة كحذاء أو جورب أو ثوب تحتي أو خصلة شعر أو غير ذلك . في مثل هذه الحالات المرضية ، تكتسب الاشياء المحايدة أو حتى الأشياء الباعثة على النفور والتقزز والاشمئزاز عند معظم الناس قوة استدعاء استثارة انفعالية باعثة على اللذة . واذا كانت مثل هذه الاستجابات قد تزود المريض ببعض اللذة المباشرة إلا أنها تؤدي في الغالب الى نتائج بعيدة المدى ، تتمثل في تدعيم السلوك المرضي بشدة ، وفي تزايد الاحساس بالذنب ، وفي التعرض للعقاب والنبذ الاجتماعيين ، وغير ذلك من مظاهر السلوك المرضي .

والمثير الذي تكون له قيمة وظيفية بالنسبة للمريض قد يصير مثيرا محايدا بواسطة الاشتراط المضاد اذا ما جرى تقديمه بطريقة متجاورة مع مثيرات تستدعي ردود أفعال غير سارة بشكل زائد . وبالتدريج ، وكنتيجة للتزاوج المتكرر ، تكتسب المثيرات الوظيفية سلفا بعض الخصائص الانفعالية المنفردة أو المقززة التي تستدعيها أحداث بغيضة أو ضارة اقترنت بها .

فعلى سبيل المثال ، لكي تقدم مساعدة لمريض يرغب في التخلص من مشاعر الجنسية المثلية ، فانه وفقا لطريقة العلاج بالنفور الشرطي يجري تعريضه بشكل متكرر لمثيرات تستدعي فيه لذة جنسية مع مزاوجة هذه المثيرات بردود أفعال سلبية بشدة ، مثل الغثيان الشديد بتعاطي دواء لذلك أو التعرض لصدمة كهربية . وبالتدريج تصير هذه المثيرات الباعثة على الجنسية المثلية محايدة أو منفرة (١٩) .

(*) Conditioned aversion

(١٩) K.freund : some problems in the treatment of homosexuality.
In H.J. Eysenck)ed. (**Behavior therapy and the neuroses.** Elmsford, N.Y. pergamon 1960, P. 312 - 325.
R.B. Feldman J.S. Werry : An unsuccessful attempt to treat a tiqueur by massed practice. **Behavior Research and therapy,** 1966m4m 111 - 117.



شكل (١٦): تأثير ملاحظة نماذج سلوكية والتحصين المنظم التدريجي على نمو الاستجابات الاقدامية لثعابين تبعث على الخوف من قبل ويوضح الشكل متوسط الاستجابات الاقدامية التي أتى بها المفحوصون قبل وبعد تلقي هذه الأشكال من العلاج.

(Bandura, Blanchard, and Ritter, 1969)



شكل (١٧): خفض مستويات القلق بعد العلاج بالنماذج والتحصين المنظم التدريجي.
يوضح الشكل ارتباط معدل مستوى استثارة الخوف بالاستجابات الاقدامية التي يأتي بها المفحوصون قبل العلاج، ومستويات الخوف التي يقررونها في فترة ما بعد العلاج، و«أ» تشير الى شدة الخوف الذي يخبره المفحوصون حينما يعطون لهم كل استجابة إقدامية نحو الثعبان، أما «ب» فتشير الى مستوى الخوف الذي يقررونه حينما يقومون بالفعل بالسلوك المطلوب. (نفس المرجع)

يذكر « كلارك » حالة رجل كان يعاني من الفيتشية وخاصة فيما يتعلق بارتدائه لبعض الملابس الداخلية الخاصة بالسيدات ، وكان يتملكه قلق شديد اذا لم يرتدي بعضا منها طيلة اليوم . وقد أثر هذا في اضطراب حياته مع زوجته لأنه كان يرتدي هذه الملابس الشاذة ، وكذلك في عمله ، حيث كان يضطرب اذا لم يكن مرتديا بعض هذه الأشياء أثناء عمله . وقد اضطر هذا الشخص الى أن يدخل بارادته إحدى المصحات النفسية طلبا للمساعدة . وفي خلال اسبوع واحد تكرر اعطاؤه دواء يجعله يشعر بالغثيان الشديد مقترنا بعرض الاشياء الفيتشية التي تستثير سلوكه المرضي .

وكان يجري تشجيعه على ارتداء هذه الاشياء (ملابس داخلية) ويتأمل في صورها بينما يصل في حالة الغثيان الى درجة مرضية . وفي أثناء إحساسه بالغثيان الشديد كان يستمع أيضا الى تسجيل له في بداية التحاقه بالمصحة لما كان يفعله بالتفصيل وكيف كان يجد لذة في ذلك . هذه الاجراءات العلاجية كانت تتم مرتين يوميا . وتوضح الاختبارات التي استخدمت في تتبع حالة هذا المريض بعد ثلاثة أسابيع ثم بعد ثلاثة شهور من العلاج ، أن هذا المريض قد عاد الى عمله « وصار يسعد بحياة زوجية طبيعية ، كما اختفت أعراض المرض عنده » (٥٠).

وقد استخدمت طرق مماثلة في علاج حالات فيتشية أخرى ، (٥١) ، وكذلك في علاج حالات الجنسية المثلية (٥٢) . ومن الاستخدامات الفعالة لهذه الطريقة من طرق الاشتراط المضاد علاج حالات الادمان . استعرض « باندورا » نتائج ١٥ بحثا عن استخدام النفور الشرطي كطريقة لعلاج ادمان الخمور . وقد تضمنت هذه الدراسات اعدادا كبيرة من المدمنين تراوح عددهم بين ١٥ الى أكثر من ٤٠٠٠ شخص ، استخدمت أنماطا مختلفة من المثيرات الباعثة على النفور . وقد تبين من الدراسات التتبعية لهذه الحالات ـ وقد تراوحت فترة التتبع في هذه الدراسات بين بضعة شهور الى عشر سنوات ـ أن النسبة المئوية للتخلص من عادة تعاطي الخمور قد تراوحت بين ٢٣ الى ٩٦٪ (٥٣) .

وتعتبر دراسة « ليمير وفوجتلين » أكبر هذه الدراسات ، فقد تتبعت ٤٠٩٦ حالة من حالات ادمان

(٥٠) D.F. Clark : Fetishism treated by negative conditioning . **British Journal of psychiatry**, 1963,109,404 - 407.

(٥١) M.S. Raymond : Case of fetishism treated by aversion therapy . **British Medical Journal** , 1956, 2, 854 - 857.

I.M. Marks M.G. Gelder : Transvestism and fetishism : clinical and psychological changes during faradic aversion. **British Journal of psychiatry**, 1967, 113, 711 - 729 .

(٥٢) K. Freund : op. cit .

(٥٣) A. Bandura : **Principles of behavior modification** . New York : Holt, Rinehart, Winston, 1969 .



شكل (٨) ، علاقة التخلص من الادمان بعدد الجلسات التكييفية للعلاج بالاشتراط المنفر .

(Voegtlin, etal., 1942)

الخمور لفترة طويلة تراوحت بين عام الى عشرة أعوام . وقد خرج الباحثان من هذه الدراسة الى أن نسبة من خبروا شفاء تاما من مرض إدمان الخمور قد بلغت ٥١٪ من هؤلاء المرضى (*١) .

وتفترض البيانات المستمدة من هذه الدراسات أن الفاعلية بعيدة المدى للعلاج بالنفور الشرطي تتوقف على اعتبارات كثيرة ، مثل البدائل التي تتاح للمريض بعد التخلص من مرض الادمان وكذلك مثابرته على العلاج . وتوضح الدراسة « فويجتلين » وآخرون أن ما يلقاه المريض بالادمان من « تدعيم » لسلوكه الجديد الذي به يتخلص من عادة الادمان ، يكمن وراء الخلاص التام من هذا المرض . يبين الشكل رقم (٨) أن المرضى الذين حصلوا على جلسات علاجية تكميلية تزيد على أربع مرات ـ أي بهدف تدعيم السلوك السليم قد تخلصوا تماما بنسبة ١٠٠٪ من هذا المرض . ويعني ذلك أن مشاركة المريض عن إرادة في العملية العلاجية ودافعيته القوية على التغير تزيد من معدل نجاح العلاج بالاشتراط المضاد (**) .

ومما هو جدير بالذكر أنه اذا كان علماء النفس لا يميلون في الغالب الى استخدام علاجات تسبب ألما للشخص المضطرب نفسيا ، فان العلاج بالاشتراط المضاد يستخدم في الغالب بعد أن يثبت فشل الطرق الأخرى ، مثل العلاج باستخدام طريقة المقابلة . كذلك ، فان العلاج بالنفور الشرطي لا يفرض على المريض : فهو بارادته يقبل عليه ويتقبله عن معرفة كاملة ، عدا تلك الحالات التي تقرر علاجها سلطات رسمية وفقا لهذه الطريقة . فما يبديه المريض من تحمس للعلاج وتعاون في العملية العلاجية يحدد فعالية هذه الطريقة . وقد يحدث في بداية العلاج أن يتراجع المريض عن اقباله على العلاج ويرتد الى ممارسة سلوكه المنحرف . واذا كان ايداعه باستمرار في مصحة نفسية أو عزله عن التعرض لمثيرات مشكلته يعتبر اجراء غير عملي ، فانه ينبغي أن يتعلم أن يعرض نفسه لمثيرات باعثة على النفور ، كأن يحمل في طيات ملابسه جهازا صغيرا يعمل ببطارية ليجعله يحدث له صدمة كهربية ، أو كأن يستدعي في عقله أفكارا وصورا باعثة على النفور ، وذلك حينما يخبر نزعة الى الاتيان بالسلوك المرضي . ويعني ذلك ان طريقة التشريط المضاد تزود المريض كذلك بنوع من الضبط الذاتي وممارسة المسئولية في علاجه .

تغيير نواتج السلوك :

يحاول الكثير من علماء النفس ، استرشادا بآراء سكينر في التعلم ، تعديل الأنماط السلوكية السيئة

(*١) F. Lemere W.L. Voegtlin : An evaluation of the aversion treatment of alcoholism. **Quarterly Journal of studies on Alcohol,** 1950,11, 199 - 204 .

(**) W.L. Voegtlin, etal : Conditioned reflex therapy of chronic alcoholism. Iv. A preliminary report on the value of reinforcement. **Quarterly Journal of studies on Alcohol,** 1942,2, 505 - 511.

التكيف بواسطة تغيير النتائج التي يؤدي اليها مثل هذا السلوك . وهم في ذلك يحاولون سحب التدعيم من السلوك السيء التوافق ، وتوجيه الانتباه والاهتمام والاستحسان أو غير ذلك من أشكال التدعيم تلازما مع حدوث السلوك الأكثر توافقا وملاءمة .

وتتضمن دراسات « آلين » (١٩٦٤) [٥٦] ، وخاصة « هاوكنز » (١٩٦٦) [٥٧] تفصيلا للاجراءات التي تستخدم في تعديل السلوك على أساس العمل على تغير نواتجه .

يصف « آلين وآخرون » في دراسة لهم ، الخطوات الأساسية التي اتبعت في مساعدة طفلة في رياض الأطفال : كانت هذه الطفلة ، وعمرها أربع سنوات ، على قدر عال من الذكاء ، ولكنها كانت تنزع بشكل متزايد الى عزل نفسها عن الأطفال في مدرسة رياض الأطفال . وفي نفس الوقت استطاعت هذه الطفلة أن تستخدم طرقا تحصل بها على اهتمام الكبار من حولها ، كالمدرسات اللاتي وجدن فيها مهارات عقلية وجسمية تجذبهن اليها بشكل زائد . ولكن استحواذها على اهتمام الكبار أدى الى زيادة تباعد الأطفال عنها وبالتالي زيادة انعزالها . وهكذا ، تورطت هذه الطفلة في دائرة مفرغة ، يستلزم الخروج منها تنظيم خطة علاجية لها . تقوم الخطة على أساس ألا تعود هذه الطفلة تتلقى اهتماما من الكبار بشأن سلوكها الانسحابي عن زميلاتها ومحاولتها الاستحواذ وحدها على التفاعل مع الكبار . وفي نفس الوقت لا يعطيها الكبار اهتماما إلا في حالة مشاركتها زميلاتها اللعب والنشاط . فاهتمام الكبار أصبح مقرونا فقط بلعبها مع زميلاتها .

بدأ تنفيذ الخطة العلاجية بعد فترة خمسة أيام جمع فيها الباحثون بيانات عن سلوك الطفلة كخط قاعدي (*) لما سيطرأ على هذا السلوك من تغير كنتيجة للعلاج . والآن وفقا للخطة ، حينما تبدي الطفلة تفاعلا مع الاطفال ، يعطيها الكبار انتباها على الفور ، ويثيبون مشاركتها في نشاط اللعب مع المجموعة . بل ان ما قد تبديه الطفلة من اقدام على اللعب الاجتماعي ، كأن تقف أو تلعب بالقرب من طفل آخر ، فان المعلمة توجه انتباها اليها لتشجيعها على المزيد من التفاعل مع الأطفال . أما حينما تبدأ الطفلة في التخلي عن الجماعة أو في محاولة الاستحواذ على انتباه الكبار ، فان المعلمات تتوقفن عن توجيه الانتباه اليها .

---

(٥٦) K.E. Allen, etal : Effects of social reinforcement on isolate behavior of a nursery school child. **Child Development**, 1964,35, 511 - 518.

(٥٧) R.P. Hawkins, etal : Behavior therapy in the home : Amelioration of problem parent - child relations with the parent in a therapeutic role. **Journal of Experiment child Psychology**, 1966,4,99 - 107.

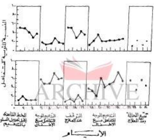
(*) - Base - line data .

يلخص الشكل رقم (٩) تأثير التغير في نتائج السلوك على الطفلة بالنسبة لتعديل سلوكها الانعزالي عن زملائها . ويلاحظ من هذا الشكل أنه في فترة الخط القاعدي قبل استخدام طريقة التدعيم للسلوك المرغوب وهو السلوك الاجتماعي ، كانت الطفلة تقضي ١٠٪ فقط من وقتها في المدرسة في التفاعل مع الأطفال الآخرين ، بينما تقضي من هذا الوقت ٤٠٪ مع الكبار ، ٥٠٪ في عزلة مع نفسها . وأخذ السلوك يتغير بسرعة نتيجة للاجراءات العلاجية التي تقوم على التدعيم وفقا لقاعدة التلازم في الوقوع والتلازم في التخلف : تلازم وقوع الانتباه من جانب الكبار مع السلوك الاجتماعي المنشود تكوينه عند الطفلة ، وتلازم سحب الانتباه مع ما قد تبديه الطفلة من سلوك انعزالي عن الأطفال أو نزعة الى الاستحواذ على انتباه الكبار . لذلك يلاحظ من الشكل أن الطفلة قد قضت ٦٠٪ من وقتها مع الأطفال في اليوم الأول للعلاج بعد فترة الخمسة أيام القاعدية . ولقياس تأثير التدعيم على نحو أكثر دقة ، جرى « إبطال » هذه الاجراءات العلاجية في الفترة من اليوم الثاني عشر الى اليوم السادس عشر ، حيث صار الكبار مرة واحدة يثيبون الطفلة باهتمامهم بتفاعلها معهم ولم يعودوا يهتمون بتفاعلها مع الأطفال .

(التوقف عن العلاج)

وتحت شروط إبطال الاجراءات العلاجية هذه ، ظهر السلوك السابق للطفلة على الفور . ولكن بعد العودة مرة اخرى الى الاجراءات العلاجية في اليوم السابع عشر ، زاد معدل تفاعلها الاجتماعي مع الأطفال بنسبة ٦٠٪ . ويوضح تتبع سلوك الطفلة بعد انتهاء خطة العلاج أن زيادة السلوك الاجتماعي للطفلة ، كما يتضح في مشاركتها للأطفال الآخرين في نشاط اللعب ، قد ظل ثابتا .

أما دراسة « هاوكنز وآخرون » (١٩٦٦) ، فتتناول حالة طفل صغير أحضرته أمه الى عيادة نفسية يشكوى أنه « زائد النشاط » و« غير منضبط في سلوكه » . ولما كانت المشكلة تتضمن علاقات الطفل بأمه ، فقد جرى تقييم سلوكه وعلاجه في منزله ، حيث استخدمت أمه كمعالج تحت توجيه واشراف من المعالجين النفسيين . وكانت المهمة الاولى هي تحديد أنماط السلوك المشكل عند هذا الطفل كما تلاحظ في المنزل ، وهي : عض ذراعه وقضم قميصه ، واخراج لسانه للآخرين ، ضرب أو ركل نفسه أو الآخرين أو الأشياء المحيطة به ، استخدام كلمات بذيئة ، القاء ملابسه أو التهديد بذلك . وبعد أن قامت الأم بهذه المهمة ، تعلمت أن تستجيب لهذه المظاهر السلوكيه على أساس خطوات محددة . تتضمن هذه الخطوات تعريف الطفل بأن سلوكه قد أصبح سيئا ، وإذا أخفق التحذير اللفظي تعزله لفترة قصيرة في حجرة ويحرم فيها من الألعاب أو غير ذلك مما يجذب انتباهه . ويكون الافراج عن الطفل من الحجرة (وتعاد اليه الألعاب ، وكذلك الاهتمام به) متفقا مع انتهاء نوبة غضبه وإبدائه لسلوك أقل تدميرا وأكثر نضجا . وكانت هذه الاجراءات عكس ما كانت تلجأ اليه الأم عن غير وعي



(٦) : النسب المئوية للوقت الذي استغرقته الطفلة في التفاعل الاجتماعي خلال جلسات علاجية لمدة ساعتين في صباح كل يوم من الفترة العلاجية .

(Allen, etal., 1964)

من قبل ، حينما تصير قلقة ومهتمة بابنها بشكل متزايد كلما يصير شرسا . ويوضح تتبع هذه الحالة أن هذه الطريقة العلاجية كانت فعالة في خفض ثورات الغضب عند هذا الطفل وفي مساعدته على تطور نموه .

وفي حالة أخرى لطفلة تبلغ من العمر ثلاث أعوام ، أبدت سلوكا « نكوصيا » وارتدت الى الزحف بدلا من المشي . ومن الطبيعي أن يترتب على نكوصها مشكلات تقف حجرة عثرة في سبيل نموها . ويكشف تحليل سلوكها على أن أفعالها المرتدة كانت تلقى تدعيما عن غير وعي من الوالدين لأنهما كانا يعطيان للطفلة انتباها لما تأتي به من سلوك . ولذلك قام العلاج على جعل تدعيم السلوك (توجيه انتباه الوالدين) متفقا مع الأنماط السلوكية الأكثر نضجا وملاءمة كالقفز والجري والمشي ، بينما لا تثاب الأفعال غير الناضجة كالزحف أو غيرها[٥٨] .

وقد حاول « لوفاس » بهذه الطريقة تعديل السلوك الكلامي عند أطفال ذهانيين[٥٩] . كان هؤلاء الاطفال يأتون بتوليفات شاذة تضم مجموعة من الكلمات الغريبة . كما كانوا يرددون صدى الكلمات التي يسمعونها . قام « لوفاس » في الجلسات العلاجية بتدعيم السلوك اللفظي السليم الذي يبديه الأطفال (مع استخدام الاستحسان اللفظي والحلوى لذلك الغرض) وتجاهل التحدث بطريقة مرضية . وفي كل جلسة كان يسجل كلام الطفل ويقيم ككلام « ذهاني » حينما يكون كلاما غريبا أو بلا معنى ، أو كلام « ملائم » حينما يكون منسقا وينطوي على معان مترابطة . ويوضح الشكل رقم (١٠) مدى تردد هذين النمطين من السلوك اللفظي (الذهاني والملائم) عند طفل فصامي وذلك في مواضع مختارة من الجلسات العلاجية : الجلسات الست الأخيرة من سلسلة اكتساب (تعلم) السلوك الكلامي الملائم حيث كان التدعيم متطابقا مع السلوك اللفظي الذهاني قد انخفض الى أقصى حد مع نهاية برنامج العلاج ليحل محله السلوك اللفظي الملائم فنمو الى أقصى حد مع نهاية العلاج .

وفي تجربة أخرى ، استخدم « لوفاس » طريقة تعتمد على الجمع بين اجراءات تعديل الكلام وفقا لنماذج صوتية سليمة ، واجراءات التدعيم ، وذلك لتعديل اضطرابات الكلام والسلوك الاجتماعي عند اطفال يعانون من اضطرابات نفسية شديدة الى درجة العجز عن الكلام . في البداية قام المعالج بنفسه بعمل نماذج صوتية سليمة أمام الأطفال ، وكان يثيب الطفل فقط حينما يتلفظ هذه الأصوات

---

(٥٨) F.R. Harrid, etal : Effects of positive social reinforcement on regressed crawling of a nursery school child. **Journal of Educational Psychology**, 1964,55,35 - 14.

(٥٩) O.I. Lovaas, etal.: Experimental Studies in childhood schizophrenia : I.Analysis of self - deftructive behavior. **Journal of Experimental child psychology**, 1965,2,67 - 84.



شكل (١٠) : تأثير تدعيم الاستجابات اللفظية اللائقة على زيد السلوك اللفظي الملائم والذهاني لدى أحد الأطفال.
(Lovaas, 1967)

خلال فترة زمنية محددة . وكلما ازدادت كفاءة الطفل انتقل به المعالج الى الخطوة التالية لكي يتلفظ وحدات لفظية أكثر تعقيدا ، وهكذا يتقدم الطفل بالتدريج من التدرب على أصوات الى كلمات وعبارات . وكانت الاثابة (التدعيم) تصدر من المعالج مقترنة فقط بالتلفظات الدقيقة التي يأتيها الطفل بمهارة أكبر . وقد ساعدت هذه الاجراءات العلاجية الأطفال على تعلم معان أكثر تعقيدا وكلام أكثر تركيبا (٦٠) .

والواقع أن أشخاصا كثيرين يعانون من سوء التكيف أساسا لانهم لم يتعلموا كيف يأتون بالأنماط السلوكية اللازمة لمواجهة المتطلبات الاجتماعية أو المهنية بفاعلية . فهم لا يستطيعون أن يسلكوا على نحو ملائم لأنه تنقصهم المهارات التي يستلزمها التفاعل الوظيفي الناجح مع الأدوار الاجتماعية والمهنية وغيرها . هذا النقص في الكفاءة السلوكية اذا اتسع مداه ليمتد الى مواقف كثيرة ، قد يؤدي الى مشكلات أخرى كثيرة كالاضطرابات الانفعالية ، وكأنماط السلوك الاحجامي لكي يهرب الفرد من العواقب غير السارة للفشل والعجز . ولعلاج مثل هذه الحالات أفاد علماء النفس من مبادىء التدعيم في تصميم برامج تعلم خاصة لتعليم هؤلاء الأشخاص عددا من استراتيجيات حل المشكلات والمهارات المعرفية (٦١) . . وذلك لأغراض تحسين التعلم في مواقف الفصل المدرسي (٦٢) . . ولأغراض المساعدة في تأهيل الأطفال الذهانيين (٦٣) .

الجماعات العلاجية :

من الاستخدامات الفعالة للنظريات السلوكية لأغراض العلاج تلك الجهود الرامية الى تعديل المشكلات السلوكية لمجموعات من الأشخاص ، وذلك بواسطة تغير التدعيم الذين يحصلون عليه في

(٦٠) O.I. Lovaas : A behavior therapy approach to the treatment of childhood schizophrenia. In J.P. Hill (ed), **Minnesota symposia on child psychology**. Vol.1, Minneapolis : University of Minnesota press, 1967,pp.108.159.
C.L. Lovaas, etal : Acquisition of imitative speech by schizophrenic children. **Science**, 1966,151,705 - 707.

(٦١) S.W. Bijou R.Orlando : Rapid development of multiple Schedule performances with retarded children. **Journal of Experimental Analysis of Behavior**, 1961,4,7 - 15.
S.W.Bijou : Experimental studies of child behavior, normal and deviant. In L.Krasner L.P. Ullmann (Eds.), **Research in behavior modification.** New York : HOLT, Rinehart Winston, 1965 pp.56 - 81.

(٦٢) J.S.Birnbrauer, etal. : Programmed instruction in the classroom. In L.Ullman and L. Krasner (Eds) **Case studies in behavior modification. New York : Holt,Rinehart, Winston,1965.**

(٦٣) C.B. Ferster M.K. DE.Myer : The development of performances inautistic children in an automatically controlled environment. **Journal of chronic Diseases**, 1961,13,312 - 345.

بيئتهم . . وقد استخدمت هذه الطريقة في دراسات كثيرة خاصة مع مرضى كبار يعانون من فصام حاد مودعين بمصحات عقلية (٦٤)

ان الكثير من المرضى الذين عولجوا في هذه الدراسات قد دخلوا المصحات العقلية طلبا للعلاج بسبب عدم كفاءتهم السلوكية في المحل الأول . وبالاضافة الى ذلك ، عادة ما أصبحت عدم كفاءتهم ومشكلات الاعتماد على الغير أسوأ كثيرا كنتيجة لنظام الرعاية النفسية التي يعيشونها بالمستشفى . فهذا النظام يميل الى إخضاع المريض الى قواعد وتعليمات المستشفى ، والى عدم تشجيع الفردية وتشجيع سلوك الاعتماد على الآخرين وذلك باستبعاد أية فرصة للعزلة الفردية ، وبالنظام اليومي الثابت بالنسبة للطعام والتطبيب والنظام ، وبتدعيم المسايرة السلبية وسهولة الانقياد والطاعة (عن طريق المدح وتقديم المزايا) . وبعد فترة الايداع بالمستشفى لسنوات كثيرة تحت هذا النظام ، يميل المريض الى أن يصبح أكثر إعاقة في مهاراته الاجتماعية والمهنية ، وأكثر اعتمادا على المستشفى . ومع مرور الوقت يفقد المريض اتصالاته مع أسرته وأقاربه وزملائه كما يفقد خبراته ومهاراته التي اكتسبها في « العالم الخارجي » ، وتصبح توقعاته وأمانيه في أن يحقق لنفسه حياة طبيعية خارج مأوى المستشفى شبه مستحيلة . يصف « أيلون وآذرين » هذه الحالة على النحو التالي (٦٥) :

« ان الغالبية العظمى من المرضى لا تزال بدون علاج . وتوضح الاحصاءات الحديثة أن متوسط أعمار مرضى المستشفيات العقلية الحكومية هو ٦٥ عاما على وجه التقريب . ويعني هذا أن نصف كل المرضى في المستشفيات العقلية الحكومية هم في تلك المرحلة المتقدمة من العمر التي تتضاءل فيها فرص العمل والروابط الأسرية . وحتى اذا لم تكن هناك أخطاء تحيط بحياتهم ، إلا أنه من الصعب اطلاقهم

---

(٦٤) T.Ayllon : Some behavioral problems associated with eating in chronic schizophrenic patients, In L.P. Ullmann L.krasner (Eds.) **Case studies in behavior modification.** NEW York : Holt, Rinehart and Winston, 1965.pp.76 - 77.

T.Ayllon, & N.H.AZRIN : The measurement and reinforcement of behavior of psychotics. **Journal of the Experimental Analysis of Behavior,** 1965,8,357 - 383.

T.Ayllon & E. Haughton : Control of the behavior of schizophrenic patients by food. **Journal of the Experimenta Analysis of behavior,** 1962,5,343 - 352.

G.W. Fairweather : **SOCIAL psychology in treating mental illness : An Experimental approach.** New York : Willy,1964.

J.M. Atthowe & L.Krasner : A preliminary report on the application of contingent reinforcement procedures (Token economy) on a " Chronic " psychiatric Ward. **Journal of Abnormal psychology,** 1968,73,37 - 45.

(٦٥) T.Ayllon & N.H. Azrin : **The token economy.** New York : Appleton - Century - Rrofts, 1968, P.3.

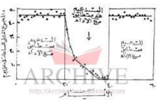
في العالم الخارجي ، طالما أنه لا يوجد لهم مكان في هذا العالم . وبقدر ما يظل هؤلاء المرضى بالمستشفى ، بقدر ما يزداد نمو مشكلاتهم السلوكية . فالايداع بالمستشفيات يصف حالة من البلادة ونقص الدافعية يكتسبها المريض من بقائه بالمستشفى . فعادة ما يكون اهتمام جماعة المستشفى منصبا على توفير المتطلبات البيولوجية اللازمة للحياة ، وربما أيضا بعض فرص الترويح ، ولكن العبارة الكلية هي عبارة عن اعتماد طفيلي لا يحتاج معه المريض الى أن يكون نشطا لكي يحصل على معظم ، ان لم يكن كل ، الأنشطة أو المزايا التي ربما لا تزال ذات أهمية بالنسبة له » .

ولكي نساعد المرضى على التغلب على هذا الموقف الصعب ، ثمة برامج جديدة يمكن اتباعها مع هؤلاء المرضى لزيادة سلوكهم الاستقلالي ولمساعدتهم على تحقيق رعاية للنفس أكثر ملاءمة وذلك عن طريق خلق بيئة أكثر استثارة لدافعيتهم بشكل ملائم . ويستخدم لذلك مبادىء التدعيم الذي يأتي متطابقا مع ما ينمو عندهم من سلوك استقلالي : في البداية يقترن التدعيم بالوظائف الأبسط كالاعتماد على أنفسهم في تناول الطعام والنظافة والنظام ، ثم تدريجيا يقترن بالوظائف الأكثر تعقيدا كالعمل والعلاقات الاجتماعية .

قام « آيلون وآذرين » (١٩٦٥) بتجربة تلقى فيها مرضى ذهانيون أقاموا لفترة طويلة باحدى أجنحة المستشفى للأمراض العقلية ، عملة رمزية مشابهة للنقود حينما يشتركون في الأنشطة العلاجية . فالمرضى يتسلمون هذه العملة الرمزية نظير اشتراكهم في مهام ووظائف كالعناية بأنفسهم والعمل الانتاجي والأعمال التأهيلية سواء داخل الجناح أو خارجه . هذه العملة يستطيعون استبدالها بما يرغبونه من مجموعة كبيرة من الأشياء المتنوعة . ولقد وجد أن المرضى قد عملوا بنجاح في أعمالهم التأهيلية عندما كان الحصول على العملة متوقف على « أداء » هذه الأعمال . واذا جاء تلقي العملة غير متطابق وغير مقترن مع السلوك التكيفي ، فان المرضى سرعان ما يعودوا الى سلوكهم الذهاني الذي اعتادوا عليه أكثر في المستشفى . ويوضح الشكل رقم (١١) اعتماد السلوك التكيفي على التدعيم المطابق (*) . فحينما يأتي هذا الأداء يرتفع الى أقصى حد ، بينما ينخفض مستوى هذا الأداء الى الحد الأدنى حينما لا يقع التدعيم متطابقا مع الأداء .

ومن البرامج الفعالة في تعديل السلوك تلك التي تقوم على تقليل دور الاخصائي المعالج كضابط لسلوك المريض ، ومحاولة نقل المسئولية - بدلا من ذلك - الى المريض والى جماعة من المرضى بأسرع ما يمكن . ومن الأمثلة البارزة في ذلك تجارب « فيرويزر » على تصميم جماعة علاجية لتأهيل مرضى

(*) Contingent reinforcement



شكل (١١) : المجموع الكلي لعدد ساعات الأداء التأهيلي في جماعة علاجية تتألف من ٤٤ مريضاً بإحدى المصحات العقلية .

(Ayllon and Azrin, 1965)

بالذهان المزمن مكثوا بالمستشفى لمدة سنوات (٦٦) : يحاول برنامج « فيرويذر » تحريك المرضى الفصاميين المزمنين خارج المستشفى . فهؤلاء المرضى الذين ظلوا لأكثر من عامين بالمستشفى قد أصبحوا « أشخاصا هامشيين » ، واذا ما تم خروجهم من المستشفى فانهم سرعان ما يعودون اليها في غضون أشهر قليلة . لذا يحاول البرنامج تكوين أنظمة اجتماعية صغيرة يمكن أن تنشط وتعمل في جماعة المستشفى ويكون مكانها في جناح خاص ، مع تزويد المرضى بقدر كبير من الاستقلالية . هذه الجماعة العلاجية يعمل أعضاؤها مع بعضهم على أساس المشاركة وتبادل الوظائف والمهام ، وهي تتخذ قراراتها على نحو متدرج من الأبسط والأسهل الى الأعقد والأصعب . وتكون الجماعة ككل مسؤولة عن سلوك كل اعضائها . وتتقدم الجماعة في البرنامج من خلال سلسلة من الخطوات المتدرجة بعناية : كل خطوة جديدة تكتسب مسئوليات جديدة ولكنها أيضا توفر للجماعة مزايا أكثر . ويأتي التدعيم (الانتقال الى الخطوة التالية) مطابقا دائما للنجاح في الخطوة السابقة .

وتنتقل الجماعة من المستشفى الى مكان خاص بها ، وبعد شهر تبدأ في العمل كتنظيم مستقل ومكتف ذاتيا . فعلى سبيل المثال ، تقوم الجماعة بتنظيم قسم الأعمال التجارية وقسم لخدمات العاملين به يعنى بسجلاتهم وترتيب مواصلاتهم ، والعناية بشئون حياتهم وغذائهم وصحتهم وغير ذلك . ويأخذ الاخصائيون وغيرهم من الأشخاص المعينين لرعايتهم في التخلي عن مواقعهم ليحل محلهم بالتدريج بعض المرضى ليقوموا بأدوارهم مثل التمريض وتنظيم الأعمال التأهيلية أو الانتاجية . وفي خلال ثلاث سنوات تختفي تدريجيا كل مساعدة من الخارج ، وتصبح الجماعة بأعضائها مستقلة ومكتفية ذاتيا وتلتزم بالمسئولية الكاملة في اتخاذ القرارات والأعمال.

ولا يعني ذلك أن مثل هذه البرامج قد أدت الى علاج تام لهؤلاء المرضى المزمنين في مرضهم العقلي . ولكن ، المقارنة بين المرضى الذين خضعوا التعديل للسلوك وفقا لهذه البرامج (المجموعات التجريبية) والمرضى الآخرين الذين لم يخضعوا لها (المجموعات الضابطة) تبين أن المرضى في هذه الجماعات العلاجية قد اكتسبوا درجة طيبة من التحسن في سلوكهم واعتمادهم على انفسهم والقدرة على العمل والانتاج ، بالاضافة الى ما أدت اليه هذه البرامج من توفير في التكاليف والجهود والوقت .

تحديد المشكلات العامة في عبارات ومواقف سلوكية :

ان العلاج السلوكي يتناول عادة مشكلات سلوكية محددة وواضحة كالمخاوف المرضية والمشكلات

(٦٦) G.W. Fairweather : 1964.
G.W. Fairweather : Methods in experimental social In novation . New York : Wiley, 1967.
G.W. Fairweather, etal. : Community life for the mentally ill : An alternative to institutional care. Chicago : Aldine, 1969.

الكلامية والانحرافات الجنسية ونقص الدافعية . ولكن الكثير من المرضى يعاني من مشكلات مركبة معممة ليس من السهل وصفها بدقة . فقد يشكو شخص ، مثلا ، من « أزمة هوية » أو « احساس بالتعاسة » أو « حياتي مفقودة » ، أو ربما يقول « اني أكره شخصيتي » أو « أنا ضائع ـ لا أعرف ماذا أفعل » ، وغير ذلك من أمثلة التعبير عن مشكلات سلوكية عامة غير محددة .

والواقع أن الناس تميل الى تصور نفسها في اطار سمات عامة أكثر مما هو في اطار أوصاف سلوكية وهكذا بينما تكون اهداف العلاج في بعض الحالات واضحة (كما هو الحال في بعض المخاوف المرضية) ، الا أنه في معظم الحالات يكون من غير السهل تحديد ما الذي يتطلب علاجا وما هي الانماط السلوكية التي ينبغي أن تكون أهدافها للعلاج .

ففي هذه الحالات يصف المريض مشكلاته وأهدافه في عبارات غامضة عامة . ولذلك ينبغي أن تكون مهمة الاخصائي الاكلينيكي هي مساعدة المريض على أن يحدد بدقة مايعنيه في عبارات سلوكية . ويمكن أن يحقق ذلك بواسطة التقارير المكتوبة كالسجلات اليومية ، أو المناقشة المباشرة ، أو تكليف الشخص في مواقف منظمة لهذا الغرض خاصةحيث يجري تنويع المثيرات بطريقة متعمدة ومنظمة كما هو الحال في البحوث التجريبية . كذلك تستخدم مواقف اللعب بالأدوار ، حيث يكتشف بعمق معنى الشكوى التي يبديها المريض .

مثال : : اذا كان شخص يصف نفسه على أنه « مكتئب » ، فان الاخصائي الاكلينيكي يستطيع أن يستكشف معه متى يشعر بالاكتئاب ومتى لا يشعر به . ولكي تتعين الأمثلة أو الأدلة أو الأصول السلوكية ، على الاخصائي الاكلينيكي أن يأخذ في البحث عما يحدث حينما يشعر المريض بأنه أكثر أو أقل اكتئابا وعن التغييرات التي تحدث فيه وفي سلوكه حينما يخبر الاكتئاب . فهو يمكن أن يسأل المريض مثلا : « كيف تعرف حينما تكون مكتئبا ؟ فالغرض من مثل هذه الاسئلة الاستقصائية هو الحصول على أمثلة سلوكية للخبرات الذاتية ، وليس التحقق من صدق أو زيف ما يبديه المريض ظاهريا ـ الهدف هنا اذن هو اكتشاف الأنماط السلوكية التي تكون مشكلة بالنسبة له وكذلك الشروط التي تحكم هذه المظاهر السلوكية .

●●●

تعديل تغير السلوك وتغير الشخصية

اذا كان لطرق تعديل السلوك التي اعتمدت على مفاهيم نظريات التعلم ، متضمنات بالنسبة للتغير في الشخصية ، الا ان العلاج السلوكي كمدخل لتغيير الشخصية كان موضع نقد بحق وبغير حق .

فلقد لوحظ ، على سبيل المثال ، أن بعض الطرق العلاجية ، التي هي في أحسن الاحوال مرتبطة ارتباطا واهيا بنظرية التعلم وتأخذ بها من حيث الشكل ومع ذلك فهي تزعم بأنها مشتقة منها ، وأن الممارسة العملية للعلاج السلوكي قد تتضمن عوامل كثيرة غير مضبوطة وغير مقررة في تقارير بحوثها ، وأن نظرية التعلم ذاتها قد تكون في الغالب غير ملائمة لتناول الظاهرات المعقدة في الحياة(٦٧) .

وقد يوجه النقد الى العلاج السلوكي من حيث أن تاريخ الجهود العلاجية الرامية الى تغيير الشخصية ملىء ببدايات مزعومة وبحركات يفوق ادعاؤها وحماسها الرامية الى تغير الشخصية ملىء ببدايات مزعومة وبحركات يفوق ادعاؤها وحماسها كثيرا نتائجها النهائية . بل أن الناصرين المتحمسين للعلاج السلوكي قد بدأوا الآن يعترفون بأن تبنيهم لطرق تعديل السلوك مشوب بالخطر :

« فثمة مخاطر ينطوي عليها التطور السريع للعلاجات السلوكية : فقد ينمو في ذلك اتجاه تقليدي مبتسر ، وقد تعتقد ترجمة المزاعم بوجود أصول علمية الى تأييد وتجديد علميين ، وقد يتكون جيل جديد من الممارسين ، يؤدي نقص وعيهم بالمشكلات النظرية والتجريبية الأساسية غير المحلولة الى اطالة أمد طرق غير فعالة ؛ وقد تكون اجراءات الوقاية من جانب المجتمع في استخدام طرق الضبط السلوكي الاكلينيكي غير كافية في حماية الفرد أو في التجريب الاجتماعي غير الناضج الذي قد يترتب عليه تأثيرات سلبية غير منظورة . ومع ذلك فان المزايا الكامنة في استخدام العلاج السلوكي ، والتي تعرضت لتقييم نقدي كاف ولبحوث بناءة ، تنطوي على الأقل على اسهامات علمية عظيمة » (٦٨) .

ولكن ، هل معنى ذلك أن التوجه السلوكي في العلاج النفسي سوف يتحول الى وعد كاذب آخر ؟ فما يحققه العلاج السلوكي من تقدم أو ما قد يتعثر فيه من معوقات رهن بالعلم الذي يكمن وراءه ـ وهو علم السلوك الاجتماعي ـ وما يتحقق لهذا العلم من تقدم .

فالنقد الموجه للعلاج السلوكي كاستراتيجية لتغيير الشخصية يعترف بأن طرق تعديل السلوك قد تؤدى الى تغييرات في أنماط سلوكية معينة عند الفرد ، ولكنه يتشكك في اصالة وعمق ذلك التعديل السلوكي . هذا النقد الموجه للعلاج السلوكي يركز تشككه على عدة نقاط نناقشها فيما يلي :

انتقال أثر تعلم السلوك المعدل : هل يكون هناك انتقال « أو تعميم » للآثار الايجابية التي تتحقق في

---

(٦٧) Breger & J. L. Mc Gaugh : Critique and reformulation of " Learning theory " approaches to psychotherapy and neurosis. **Psychological Bulletin**, 1965, 63, 338 — 358.

(٦٨) J. S. Philips & F. H. Kanfer : The validity and vicissitudes of behavior therapy. **International psychiatry clinics**, 1969, 6, 75 — 131.

العلاج السلوكي على مواقف الحياة التي يعيشها الفرد بالفعل ؟ هل الشخص الوجل الذي تمرس على سلوك أكثر حزما وثقة داخل حجرة المعالج الآمنة يصبح بالفعل أكثر تمكنا في عمله ؟ هل سيصبح أكثر ثقة مع رئيسه الذي يهدده ؟ هل الشخص الذي يفكر بهدوء في استجاباته للاختبارات يصبح هادئا أيضا حينما يجتاز اختبارات في الواقع ؟

ان طرق تعديل السلوك تعمد الى التعميم الى درجة أن شروط المثير المتضمنة في العلاج تكون مشابهة لتلك الشروط المتضمنة في مواقف الحياة التي سوف تستخدم فيها الأنماط السلوكية الجديدة . لذلك يحاول المعالجون السلوكيون أن يدخلوا في المواقف العلاجية مواقف أقرب تماما الى مواقف الحياة التي تستلزم تغيرا في السلوك . فمثلا ، اذا كان شخص قادرا على أن يجتاز الامتحانات بفاعلية ولكنه يقلل من قدر تحصيله ، فان العلاج الملائم ينبغي أن يساعده على اعادة تقييم أداءه بدلا من أن يغير مهاراته في اجتياز امتحاناته . ويعني ذلك أن العلاج ينبغي أن يوجه بقدر الامكان الى الأنماط أو الأهداف السلوكية المنشودة .

يؤكد العلاج السلوكي ، مثل نظريات السلوك الاجتماعي التي توجهه ، أن سلوك الشخص يميل الى أن يكون سلوكا نوعيا محددا بشروط معينة في المثير . لذلك تحاول طرق تعديل السلوك الوصول الى تطابق تام بين ما يمارس في العلاج والأهداف السلوكية المنشودة في حياة الشخص .

ان التأكيد على نوعية السلوك يفترض أيضا أن يتضمن العلاج مثيرات ومواقف عديدة تتعلق بهذا السلوك النوعي وتكون هي الهدف من تحسين السلوك . فمثلا ، التحصيل المنظم التدريجي الفعال ضد الخوف من الظلام ينبغي أن يتضمن تعريض الشخص لأماكن مختلفة مظلمة وفي سياقات كثيرة ، والتدريب على الكلام الملائم عند أطفال فصاميين ينبغي أن يتضمن جوانب كثيرة للغة في سياقات كلامية كثيرة .

ولتيسير التعميم يعتقد كثير من المعالجين أنه من الافضل أن يجري العلاج في مواقف الحياة الواقعية وليس في مواقف مصطنعة كالمعمل أو العيادة . لذلك يسعون الى نقل خدماتهم العلاجية الى المجتمع بدلا من انتظار الناس حتى يحضرون الى العيادات أو المستشفيات أو يحضرونهم اليها . فكما أن برامج التعلم الأكاديمي للتلاميذ تجري في المدارس ، على سبيل المثال ، كذلك فان الكثير من برامج التعلم الاجتماعي للتلاميذ الذين يواجهون مشكلات في علاقاتهم مع الآخرين ينبغي أن تتم في اطار نظام المدرسة ذاته . كذلك اذا كانت المشكلة هي علاقة الطفل بوالديه ، فانه من الأفضل أن يكون هناك مساعدون يقدمون العون في تعديل المشكلات في مجالها الطبيعي - وهو المنزل - بدلا من نقل الأسرة الى العيادة . وبالاضافة الى ذلك قد يجري اشراك المعلمين أو الآباء أو الأصدقاء أو غير ذلك من الاشخاص

غير المتخصصين مهنيا ـ للمساعدة في العملية العلاجية كما تجري في المواقع والمجالات الواقعية الحية (٦٩) . وهناك اتجاه الآن يهدف الى أن يشترك في العملية العلاجية أولئك الاشخاص الذين يدخل المريض معهم في علاقات يومية هامة ، بدلا من الاعتماد على اتصالات متكررة مع العيادة أو المستشفى أو الاخصائيين المعالجين أو المرشدين (٧٠) . كذلك تعتبر المواقف الجماعية أفضل غالبا من علاج الفرد وحده . خاصة اذا كان من أهداف العلاج تحسين علاقاته مع الاشخاص الآخرين . وفي ذلك تبين بعض الأحداث أن الجماعة توفر موقفا فيه يتمكن الطلبة القلقون من خفض الكثير من مخاوفهم الاجتماعية بطريقة تلقائية وطبيعية من خلال التفاعل التأييدي المتبادل مع الآخرين (٧١) .

وعلى هذا النحو ، تستطيع المراكز والمؤسسات الاجتماعية والتجمعات السكنية والأندية والأنظمة المدرسية وغيرها أن توفر فرصا لتقديم برامج تغيير السلوك الى المجتمع . أما النموذج التقليدي ، حيث يتكلم عميل واحد مع معالج واحد في حجرة خاصة لعدة مرات أسبوعيا ، فلا يكفي لتقديم المساعدات العلاجية الفعالة .

والواقع أن الاهتمام ببرامج الصحة النفسية الاجتماعية وبالصحة الوقائية لا يقتصر على أنصار تعديل السلوك فحسب . فهناك الكثير من علماء النفس ، ممن ينتمون الى خلفيات نظرية مختلفة ، يؤكدون على أن البرامج الفعالة لعلاج المشكلات العديدة التي تمس الناس في المجتمع ينبغي أن تتخطى ما هو أبعد من مجرد ترميم والتعامل مع الأفراد المضطربين نفسيا ، فكما أن الصحة البيولوجية ، أو البقاء البيولوجي ، يعتمد على الظروف المحيطة بالفرد كذلك فان تكيفه النفسي ، أو بقاءه النفسي يتوقف على ظروف الحياة والعلاقات الاجتماعية في بيئته الشخصية .

الضبط الذاتي : ـ

يجري تصميم برامج العلاج السلوكي على أساس زيادة استقلالية الفرد وتمكنه من نفسه بسرعة حتى

---

(٦٩) G. R. Patterson, J. A. Colb & R. S. Ray : A social engineering technology for retraining aggressive boys. In H. A. Adams & L. Unikel (Eds.), **Georgia Symposium in Experiment clinical Psychology**. Vol. 2. Elmsford, N. Y. Pergamon, 1970.

(٧٠) R. P. Hawkins, et al. : Behavior therapy in the home : Amelioration of problem parent — child relations with the parent in a therapeutic role. **Journal of Experimental child psychology**, 1966, 4, 99. — 107.

(٧١) G. L. Paul & D. T. Shannon : Treatment of anxiety through systematic desensitization in therapy groups. **Journal of Abnormal Psychology**, 1966, 71, 124 — 135.

يقل الضبط الخارجي لسلوكه بواسطة النظام العلاجي ويتقل بسرعة بقدر الامكان الى تمكنه من ضبطه لنفسه . فالضبط الخارجي (عن طريق العلاج) ينبغي أن يتحول بسرعة الى ضبط داخلي ذاتي . ويلجأ العلاج السلوكي بطرق كثيرة تساعد على تحقيق ذلك الهدف[٣٢] .

فعلى سبيل المثال ، رغم أن التدعيم الخارجي (كالعملة الرمزية أو المدح والاستحسان) قد يكون ضروريا في البداية لمساعدة الطفل المضطرب على أن يتعلم الكلام والقراءة والكتابة ، وانه حالما يبدأ في التمكن من الاشباعات التي يحصل عليها من هذه الأنشطة الجديدة ، فان ذلك يساعده على الاحتفاظ بها وعلى تنميتها ، حتى حينما يأخذ المعالج في سحب مساعدته للمريض بالتدريج . فالانماط السلوكية الأكثر بنائية ، التي يتمرس عليها الشخص في البداية لكي يحصل على « تدعيم خارجي » ينبغي اختيارها على نحو بحيث يكون لها خصائص تدعيمية تجعلها باعثة على الاثابة بالتدريج . والطفل الذي يتعلم العزف على البيانو قد يعتمد كثيرا في البداية على المدح والاهتمام على المدح والاهتمام والتوجيه الوالدي لحفزه على التدريب والممارسة . ولكن ، الى الحد الذي يتم فيه اعداد برنامج تعلمه بفاعلية ، فان تدريبه على البيانو سوف يلقى تأييدا بشكل متزايد بواسطة اللذة التي يحصل عليها الطفل ذاته من النشاط (كالأصوات والنغمات التي تعلم أن يأتي بها ، والاحساس بالتمكن الذي بدأ يستخلصه من العزف على البيانو) . واذا كانت خبرة التعلم ناجحة ، فان الطفل يبدأ من داخله في ممارسة ما تعلمه لأنه قد صار يجد لذة يجدها في هذه الممارسة ذاتها .

فمن الناحية الذاتية ، يعني هذا التحول انتقالا من الأداء لمجرد ارضاء الآخرين الى الأداء لارضاء ذاته ـ أي الانتقال من الاتيان بالسلوك من أجل « الاثابة الخارجية » الى السلوك من أجل « الاثابة الداخلية أو الذاتية » . يتضح ذلك أيضا في الانتقال التدريجي من الضبط الخارجي الى الضبط الداخلي لدى المرضى عن طريق اكسابهم المهارات الجديدة والصعبة خارج الموقف العلاجي في ظل شروط الحياة اليومية .

ولكي يتحقق تغير دائم نسبيا في السلوك ، فان البرامج العلاجية ينبغي أن تضع في الاعتبارات تلك الخطوات اللازمة من ضبط السلوك الجديد بواسطة عوامل خارجية الى ضبط ذاتي :

● فبعد أن يحدد المعالجون الأنماط الجديدة للسلوك على أساس قيمتها النفعية ، فان المرحلة التالية في البرنامج قد تتطلب تدريبا مباشرا على التدعيم الذاتي **self — reinforcement** ويتحقق هذا بواسطة نقل الوظائف التقييمية والتدعيمية من عوامل وقوى التغيير الى الفرد ذاته . وتكون الاثابة الآن

(٣٢) A. Bandura : **Principles of behavior modification.** New York : Holt, Rinehart, & Winston, 1969.

مشروطة ليس بحدوث السلوك المرغوب فحسب ، بل أيضا بتقييم الفرد لذاته تقييما دقيقا . وبعد أن يتأكد عند الفرد سلوك التقييم الذاتي الدقيق ، فان الوظيفة التدعيمية تنتقل من قوى التدعيم الخارجي ومصادره الى ذات الفرد الذي يكون في مقدوره الآن تقييم سلوكه وتدعيم ذاته وفقا لذلك . وبجانب ذلك تأخذ الاثابات المادية المصطنعة في التضاؤل تدريجيا كلما خضع سلوك الشخص بشكل متزايد لضبط السلوك ، وهي نواتج رمزية ومضبوطة ذاتيا . فالهدف الأكبر للتدرج على التدعيم الذاتي هو خلق مستوى من التوظيف لامكانات الشخص يستطيع عنده المشتركون في التدريب أن يضبطوا سلوكهم بأقل قدر ممكن من الضغوط الخارجية والاغراءات أو البواعث المصطنعة »[٢٣]

هذا الانتقال من الضبط الخارجي الى الضبط الداخلي ، ومن التدعيم الخارجي الى التدعيم الذاتي ، يستلزم وقتا طويلا لتحقيقه بنجاح ، بل انه يظل غالبا غير مكتمل ، وخاصة فيما يتعلق بالسلوك الاجتماعي الذي يعتمد على توفر التدعيم البيئي للفرد على سلوكه الجديد وما يلقاه من تغذية مرتدة وسند من الآخرين .

ابدال الأعراض ؟ قد يوجه نقد في بعض الأحيان الى العلاج السلوكي مؤداه أن طرق تعديل السلوك تغفل الأسباب الكامنة وراء السلوك المشكل عند الشخص ، ولهذا فان هذه الطرق تترك « الجذور » بدون تغيير بينما تعدل فقط من سلوكه « السطحي » أو من « الأعراض الخارجية » . . يعني هذا النقد أن المعالجين السلوكيين يتجاهلون أساس المشكلة والأسباب الكامنة وراءها .

يؤكد أنصار العلاج السلوكي انهم يهتمون بالأسباب ولكن يبحثون عن الأسباب « القابلة للملاحظة » التي تحكم المشكلة الحالية ، وليس عن المقدمات السابقة البعيدة في تاريخ الفرد ولا عن الآليات النفسية الدينامية التي يفترضها المعالجون والتي تكون غير قابلة للملاحظة . أما أنصار العلاج التقليدي القائم على الاستبصار فيهتمون ، بدلا من ذلك ، بالجذور التاريخية في ماضي الشخص وبديناميانه النفسية .

والواقع أن الاختلاف بين العلاج التقليدي والعلاج السلوكي لا يعني أن أحدهما يهتم بالأسباب ويبحث عنها وأن الآخر يهملها ولا يبحث فيها : فكلاهما يبحث عن الأسباب ولكنهما لا يتفقان على ماهية تلك الأسباب .

---

(٢٣) Ibid, P. 321

« فكل تحليلات السلوك تبحث عن الأسباب ، أما الاختلاف بين تحليل نظريات السلوك الاجتماعي وتحليلات النظريات السيكوديناميكية فهو فيما اذا كانت الأسباب المسيطرة الحالية أو المقدمات السابقة الموغلة في ماضي تاريخ الفرد هي التي تسبب السلوك المشكل . فالتحليلات السلوكية تبحث عن المتغيرات والشروط الحالية التي تحكم السلوك موضع الاهتمام . أما النظريات التقليدية (السيكودينامية) فتهتم ، بدلا من ذلك بالجذور التاريخية ، وبتطور نمو مصدر العلة **develpmen-taletiology** (٧٤) . فالنظريات التقليدية (السيكودينامية) يتحدد اهتمامها بالسؤال التالي :

« لماذا صار المريض شخصا من نوع معين ؟ : « أما النظريات السلوكية فتطرح السؤال التالي : ـ « ما الذي يجعله الآن يسلك على النحو الذي يفعله وما الذي ينبغي أن يتعدل لتغيير سلوكه » .

والسؤال الآن : هل ما يجري اغفاله في العلاج السلوكي من ديناميات نفسية تفترضها النظريات التقليدية يخلق أبدالا للأعراض ؟ فرغم ما تردد من تحفظات وتخوفات كثيرة بشأن احتمال حدوث ظاهرة ابدال الأعراض ، توضح الدراسات التجريبية بصفة عامة ان برامج تعديل السلوك ـ كما سبق ذكرها ـ تميل الى أن تكون من أكثر الطرق فعالية متاحة في الوقت الحالي ، وأن الأنماط السلوكية المتغيرة لاستبدال آليات بأنماط مشكلة أخرى (٧٥) . وعلى العكس من ذلك ، حينما تخلص الأشخاص من ردود الأفعال الانفعالية غير الناضجة ومن أنماط السلوك الاحجامي الدفاعي ، صاروا قادرين على أن يقوموا بوظائفهم بطريقة أكثر فعالية في المجالات الأخرى . يقرر جرجسرج بعد مسحه للدراسات المتعلقة بظاهرة ابدال الأعراض ، أن البيانات والدلائل الوفيرة تتفق على أن العلاج الموجه الى محو السلوك اللاتوافقي يعتبر علاجا ناجحا ، وأن النتائج في ذلك ثابتة . ولكن ولسوء الحظ ، يبدو أن المعالجين

---

(٧٤) W. Mischel : **Personality and assessment.** New York , Wiley, 1968, P. 264

(٧٥) A. E. Bergin : Some implications of Psychotherapy research for Practice. **Journal of Abnormal Psychology** , 1966, 71, 235 — 248.

G. C. Davison , Systematic desensitization as a counter — conditioning process. **Journal of Abnormal Psychology** , 1968, 73, 91 — 99.

H. J. Eysenck & S. Rachman : **The Causes and Cures of neurosis : An introduction to modern behavior therapy based on learning theory and the Principles of Conditioning.** San Diego , Knapp, 1965.

P. J. Lang & A. D. Lazovik : Experimental desensitization of a phobia. **Journal of abnormal and social psychology** , 1963, 66, 519 — 525.

A. A. Lazarus : Group therapy of Phobic disorders by systematic desensitization. **Journal of Abnormal and Social Psychology** , 1961, 63, 504 — 510.

G. L. Paul : **Insight vs. desensitization in psychotherapy.** Stanford : Stanford University, 1966.

S. Rachman : Systematic desensitization. **Psychological Bulletin.** 1967, 67, 93 — 103.

J. Wolpe : **Psychotherapy by reciprocal inhibition.** Stanford , Stanford University Press, 1958.

النفسيين قد ركزوا على المخاطر الافتراضية المتعلقة بعلاج الأعراض فقط ، بينما يتجاهلون المخاطر الحقيقية المتعلقة بالأضرار التي قد تقع من جراء عدم علاجها »[٣٦].

وبينما لم يعد التخوف من ابدال الأعراض هو النقد الموجه الى تعديل السلوك ، فان كثيراً من القضايا النظرية والعملية لازالت قائمة . فعلى سبيل المثال ، لم يتحدد المعنى الحقيقي لمصطلح « عرض » في المناقشات النظرية الخاصة بابدال العرض ، بحيث أننا صرنا متأكدين من الاجابات التي يمكن أن نقدمها للاسئلة التالية : ما الذي يؤلف العرض البديل ؟ ما مقدار الأسابيع أو الشهور أو السنوات التي قد تنقضي قبل توقع ظهور العرض البديل ؟ واذا تخفى العرض في شكل اخر ، فكيف نميزه عن المشكلة التي تعتبر جديدة كلية ؟ واذا كان شخص قد عولج من الخوف من الثعابين ثم ظهرت عنده بعد ثلاث سنوات ثلاث مشكلات متعلقة بالعمل أو مع زوجته ، فهل ما ظهر عنده هو ابدال للأعراض أم مشكلات جديدة ؟ ويعني ذلك أن فكرة ابدال الأعراض ربما تكون غير قابلة للاختبار والتحقق التجريبيين ، لأننا لا نستطيع أن نعرف ما هو العرض البديل وما هي المشكلة الجديدة .

ومن ناحية أخرى ، قد ينزع بعض المتحمسين من أنصار تعديل السلوك الى اغفال ما تتصف به مشكلات العميل (المريض) من تعقد والى التبسيط الزائد لصعوباته في شكل أو شكلين منفصلين من المخاوف المريضة ، وذلك عندما تكون عنده في الواقع صعوبات أخرى كثيرة ، في تلك الحالة ، ليس بمستغرب أن نجد أنه حتى بعد التخلص من مشكلته الأولية لا يزال الفرد يعاني من مشكلات نفسية أخرى كالشكوك الذاتية والشعور بعدم الاستحقاق ، وغيرها . مثل هذه الحالات تعني في الواقع أن هذا الشخص قد لقي علاجاً غير مكتمل أكثر مما تعني حدوث ظاهرة ابدال الأعراض .

فالعلاج اذا تألف أساساً من مجرد محو السلوك المشكل بدون تقوية لانماط سلوكية توافقية بديلة ، فمن المحتمل أن يترتب عليه ظهور أنماط اضافية من السلوك المضطرب . فمثلاً ، الشخص المدمن الذي اعتاد تعاطي الخمور أو المخدرات لكي يخفض من ضيقه واحباطاته التي يواجهها باستمرار في عمله ، من المحتمل اما أن يلجأ الى الادمان مرة أخرى أو أن يمارس انماطاً أخرى من السلوك اللاتوافقي ، إلا اذا تعلم أيضاً كيف يواجه ضغوط عمله بطريقة أكثر فعالية .

لذا ، فان العلاج النفسي الفعال هو الذي يحول دون ظهور انماط اضافية وهو علاج فعال اذا قام على

---

(٣٦) — J. M. Grossberg : Behavior therapy : A review. Psychological Bulletin, 1964, 62, 73—88 (P.85)
— Stanley B. Messer and Meir Winokur : Some limits to the integration of Psychoanalytic and behavior therapy. American Psychologist, 1980, vol. 35, No. 9, 818—827.

برنامج علاجي شامل يزود الفرد بأساليب أكثر توافقية للحصول على التدعيم ، واذا كان البرنامج العلاجي يذهب الى ما هو أبعد من مجرد القضاء على مشكلاته الأكثر ظهورا ووضوحا .

والواقع أن العلاج السلوكي لا يخلق بشكل آلي تأثيرات علاجية معممة تمحو كل الاضطرابات التي يعاني الشخص منها . فالنظريات السلوكية تؤكد على نوعية السلوك واعتماده على متغيرات المثير المعين في موقف ما . هذه النوعية تتضح أيضا في التغيرات السلوكية التي يحدثها العلاج . ومع ذلك ، فهناك دلائل تؤيد التعميم الايجابي أكثر مما تؤيد ظاهرة ابدال الاعراض . مثال ذلك : أدى علاج بعض المخاوف المرضية عند الأفراد بواسطة تعديل السلوك الى خفض عدد وشدة مخاوف مرضية أخرى عندهم (٧٧) .

تغير مفهوم الذات : غالبا ما يصاحب التحسن الذي تحدثه طرق تعديل السلوك في الاقتدار عند الفرد بتغيرات ملائمة في ردود أفعاله الذاتية . ويعكس مفهوم الذات بصفة عامة الاحساس الفعلي بالاقتدار عند الفرد : فادراك الذات يعكس الى حد كبير المعلومات التي نحصل عليها بشأن ملاءمة سلوكنا وكفايته . ولذا فان الفرد الذي يتعلم أن يسلك بطريقة أكثر اقتدارا وبالتالي يحصل على رضا أكثر عن سلوكه ، من المحتمل أيضا أن ينمو عنده احترام للذات أكبر واتجاهات ايجابية أكثر نحو نفسه . ويترتب على تمكن الفرد من التغلب على مخاوفه وقلقه ان يصبح كذلك أكثر ثقة بنفسه . ولكن بينما يكون يذهب ناقدوا طرق تعديل السلوك أن الناس قد تعاني من اضطرابات نفسية ليس لأن سلوكهم غير ملائم ولكن لأنهم يقيمونه بطريقة غير ملائمة . فهناك اشخاص يعانون من مشكلات تتعلق باضطراب مفهوم الذات عندهم أكثر مما تتعلق بأدائهم ذاته .

يعتبر المعالجون السلوكيون أن المشكلات المتعلقة بمفهوم الذات هي مشكلات سلوكية كأي اضطرابات اخرى ، فالكثير من هذه المشكلات ينطوي على ادراك مضطرب للذات ، وعلى تقييم غير ملائم للذات ، وبالتالي على اتجاهات سلبية نحو الذات . في هذه الحالات يكون مكمن المشكلة أو الاضطراب هو في تقدير الشخص لأدائه وخصائصه أكثر مما هو في نوعيتها الحقيقية وفي مستوى اقتداره . هذه المشكلات المتعلقة بمفهوم الذات ينبغي أن تخضع ، من وجهة نظر العلاج السلوكي ، الى طرق التعديل السلوكي بواسطة نفس مبادىء التعلم في تغيير أي نمط سلوكي آخر .

---

(٧٧) — A. Bandura, E. B. Blanchard & B. Ritter : Relative efficacy of desensitization and modeling approaches for inducing behavioral, affective, and attitudinal changes. **Journal of personality and Social Psychology**, 1969, 13, 173 — 199.

—— Joseph Wolpe : Behavior therapy versus Psychoanalysis : Therapeutic and social implications. **American Psychologist**, 1981, vol. 36, No. 2, 159 — 164.

تغير السلوك كشرط لتغير الشخصية :

هنا يمكننا أن نطرح سؤالا : ما الذي يحدث حينما تتغير شروط التدعيم بشكل ثابت في حياة الفرد ؟ فالكثير من نظريات الشخصية تذهب الى أن البنية الاساسية للشخصية تظل ثابتة ، وأن ما يتغير هو مظهرها الخارجي فحسب ، ولكن ، هل هذا هو مجرد تغير في « الاعراض » لايؤثر في الواقع على بنية الشخصية التي تولد هذا التغير ولا على المجال الحيوي النفسي الذي يحدث فيه هذا التغير ؟

يؤكد أنصار نظريات السلوك الاجتماعي أنه لكي توفر للفرد علاجا فعالا وديناميا ، علينا أن نقر بأن الفرد يتغير كلما تغير سلوكه . فالعلاج السلوكي ينظر الى تغير السلوك عند الفرد على أنه ليس مجرد غطاء واه أو طلاء سطحي .

ان النظرية السلوكية تصر على أنه لكي نكتشف « ماهية » الشخص ، فاننا بحاجة الى أن نعرف « ما يفعله » ، وعلى أنه اذا تغيرت أفعاله ، فانه يتغير بالتالي . فالشخص هو « ما يفعله » . وفي ذلك تتفق النظرية مع النظرة الوجودية للطبيعة الانسانية .

فالتوجه السلوكي في دراسة الشخصية يؤكد أنه من بين الظاهرات الأصلية للشخصية ما يعرف بمبدأ الاستمرار discontinuity ، ويعني كما يذهب السلوكيون أن التصور الملائم للشخصية ينبغي أن يسلم بأن الناس تتغير كلما تغيرت شروط حياتهم ، فلا يستمرون على مرضهم ولا يستمر قصورهم الذاتي ، وانما قد يتحسنوا وقد يتعلموا أنماطا سلوكية جديدة توافقية لاتكون استمرارا للانماط السلوكية السابقة .

هذه النظرة تسمح بتناول الشخصية الانسانية كظاهرة متميزة تنفرد بخصائص معينة ، وكظاهرة معممة تتفق مع غيرها في خصائص مشتركة . وهي نظرة تسمح بتناول الشخصية كوحدات سلوكية قابلة للملاحظة ، وبالتالي قابلة للقياس والدراسة العلمية .

وأخيرا ، فان التوجه السلوكي وان كان يعطي مكانة « كبيرة لتغير الشخصية ، الا أنه يضع في الاعتبار كذلك مقومات ثباتها واستقرارها . هذا الموقف العلمي يسمح الى حد كبير باتخاذ السياسات والاستراتيجيات ، التربوية والثقافية ، الملائمة لبناء الشخصية في تفردها وفي عموميتها وفقا للمستوى الأمثل الذي ينشده المجتمع بفلسفته وأهدافه وممارساته .

والخلاصة ، أن العلاج السلوكي كان له فضل كبير ليس على تطوير طرق علاج اضطرابات الشخصية فحسب ، ولكن أيضا على تقدم التنظير في الطبيعة الاساسية للشخصية وفي تعديلها . ولا شك أن طرق ونتائج العلاج السلوكي قد فرضت تحديات هائلة فيما يتعلق بالمفاهيم التقليدية لشخصية والشروط اللازمة لتغير الشخصية .

* * *

شخصيات وآراء

عالم وليم فوكنر

يوسف عزالدين عيسى

بانوراما

«جيفرسون» عاصمة مقاطعة «يوكنا باتاوفا» الواقعة في شمال غرب «مسيسبي» مدينة جميلة بها محكمة مبنية بالطوب الأحمر، تطل على ميدان مركزي وعلى عدة مساكن متراصة في شوارع عريضة، ولو أن بعض أجمل المساكن لم يعد لها وجود عندما أحرق الجنرال سميث عام ١٨٦٤ معظم أجزاء المدينة. وتبلغ مساحة المقاطعة نحو الفين وأربعمائة ميل مربع. وتضم من السكان نحو ١٥٦١١ نسمة، وهي لاتختلف كثيرا عن معظم مدن ولاية المسيسبي أو الولايات الأخرى في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية.

اذا تصورنا أننا نجول في تاريخ هذه البقعة من الأرض المسماة «يوكنا باتاوفا» لنشاهد ما مر عليها من أحداث، فسوف نرى قرية في جنوب المقاطعة، ونرى في هذه القرية رجلا يدعى فليم سنوبس Flem Snopes يغش ويخدع جيرانه حتى تتم له في النهاية السيطرة عليهم، ويتزوج ابنة أهم ضحاياه، ويوهم أحد الفلاحين بوجود كنز مدفون لا وجود له في الحقيقة ويدفعه الى الجنون، ويذهب الى «جيفرسون» مصطحبا معه قبيلة من أقاربه ليعيثوا فسادا في المدينة(١)

الارقام التى بين أقواس يقصد بها تسجيل أحداث معينه سوف يعود اليها الكاتب فيا بعد لتحليلها.

وفي هذه المدينة نفسها بعد عدة سنوات ، نرى فتاة جامعية تسمى « تمبل دريك » Temple Drake تقع في براثن مجرم يدعى بوبي Popeye يعتدي عليها بطريقة بشعة ويلقي بها في النهاية في منزل للدعارة في مدينة ممفيس ، ويستخدم أحد أصدقائه لمواصلة الاعتداء عليها . ثم يحاكم بوبي ويعاقب على جريمة أخرى لم يقترفها . وفي النهاية يأتي والد الفتاة ليسافر بها بعيدا الى مدينة باريس عاصمة فرنسا . (٢)

فاذا ابتعدنا عن هذا المكان فسوف نرى عائلة « بندرن » Bundren ووفاة أدي بندرن ، وهي أمرأة تسكن فوق التل ، ونرى أحد ابنائها مشغولا بصنع كفنها ، ونرى الرحلة الطويلة الى مقابر « جيفرسون » . وبمصاحبة كفنها المحمول على عربة نرى زوجها وابنتها الحبلى غير المتزوجة وابناءها الأربعة . ويدب العفن في جثمان الميتة ويجتذب جوارح الطيور . ويغرق الكفن في أحد الأنهار ، ولكن أفراد العائلة ينقذونه من الغرق ، ويتعرض الكفن للحرق ، ولكنه ينقذ في هذه المرة أيضا . وفي النهاية يتم دفنه في مقابر عائلة الزوج تبعا لوصيتها التي يحرصون على تنفيذها . وينتقل أحد الأبناء من المقبرة الى مستشفى المجانين ، بينما يعتقد الابن الأصغر أن أمه المتوفاة عبارة عن سمكة ! ونرى الأب وقد غش أحد أبنائه واستولى على حصانه ، كما أخذ من ابنته المال الذي أعطاه لها حبيبها لكي تنفقه للتخلص من الجنين الذي في بطنها ، ويركب الأب في فمه أسنانا صناعية ، ويتزوج من امرأة كان قد اقترض منها جاروفا ليحفر به قبر زوجته . (٣)

واذا تحركنا شمالا فوق تلال الصنوبر وحقول القطن حتى نقترب من مدينة جيفرسون فسوف نصل الى مزرعة « كومبسون » وسوف يصدمنا ما آل اليه مصير المزرعة التي كانت مزدهرة والعائلة التي كانت من أعرق العائلات وأكثرها احتراما ، فلقد دمرت المزرعة وتدهورت العائلة . ونرى الأب والأم وابناءهما الأربعة ، الأب مدمن خمر ، والأم مختلة الاعصاب ، والابنة حبلى من رجل غريب ، وأحد الأبناء متخلف عقليا ، والآخر أناني شرير ، والثالث متكبر رومانسي ولكنه ضعيف ، وهذا الابن المسمى كوئتين كمبسون يدعي أنه هو الذي اعتدى على أخته ، وهو ادعاء كاذب ، ثم ينتحر في النهاية . والابن المتخلف عقليا خصاه أحد أخوته وأدخله احدى المؤسسات . وتتزوج الأخت تمبل ثم تطلق وتسلم نفسها لعدد من الرجال والشبان واحدا بعد الآخر . ويطرد الابن الشرير الابنة غير الشرعية التي انجبتها أخته ويبيع المنزل . (٤)

ثم نسمع صوت اطلاق رصاص في الشمال ونشاهد منظرا عجيبا . رجالا على خيول تركض ، وزنوجا يتزحون نحو نهر ، وامرأة عجوزا تدفن كنزا ، وصبية متجمعين بين

الأشجار يطلقون الرصاص على جنود ، وتصيب رصاصة المرأة العجوز ، ويطارد الصبية قاتلها حيث يقبضون عليه ويثبتون جسده بالمسامير فوق أحد الأبواب . ونرى الكولونيل جون سارتوريس في مواقف شجاعة حين يكون فيلقا في جيفرسون وينطلق به نحو ماناساس Manassas ولكن رجاله يتنكرون له ويختارون رئيسا غيره ، ويعود جيفرسون ويكون فيلقا آخر حيث يعمل في هذه المرة مع الجنرال فورست ، وتنتهي الحرب وينشىء طريقا حديديا للقطار بطول المقاطعة ، ولكنه في النهاية يلقى مصرعه بطلقة رصاص . (٥)

ويعيش ورثة الكولونيل في ظلال ذكراه ، ويصبح ابنه رئيسا للبنك في جيفرسون ، ويموت بهبوط في القلب بسبب حفيد ابنه ، وهذا الحفيد توأمان ، وكلاهما يعملان طيارين في الحرب العالمية الأولى . ويقتل أحد التوأمين في فرنسا ، ويلوم الأخ نفسه على هذا الحادث ويعاني من عذاب روحي ، فيقتل نفسه في النهاية حيث يلاقي حتفه في أثناء رحلة تجريبية لاحدى الطائرات . (٦)

كما نرى في اتجاه الشمال الغربي للمقاطعة هياجا في الغاية : زنوجا عراة يتصبب منهم العرق ، يقطعون الأشجار ويجرون القطع الخشبية وينشرونها ويقيمون منزلا محاطا بحديقة بديعة ، ويقفز فوق صهوة جواد رجل ضخم الجثة متجهم الوجه ، انه ستبن Sutpen ، ولكن خططه محكوم عليها بالفشل . انه يرفض الاعتراف ببنوة ابن له عندما يكتشف أن نسبة من الدم الزنجي تسري في عروق والدته . ويقع هذا الابن في غرام ابنة من زوجة أخرى دون أن يعلم في بادىء الأمر أنها أخته من أبيه ، ويلقى هذا الابن مصرعه على يدي هنري أخيه من أبيه . ويتشرد هنري ، وعندما يعود الى بيته يلقى حتفه في حريق يدمر المنزل . ويفلس ستبن بسبب الحرب الأهلية ولكنه يظل طامعا في انجاب ابن يحمل اسمه ومطامعه . ويغتصب ستبن ابنة رجل يستولي على جزء من أرضه فيقتله هذا الرجل انتقاما لشرف ابنته (٧).

وفي الشمال البعيد توجد البراري ، ويمكن رؤية الهنود الحمر في قراهم ، ثم يختفي الهنود الحمر ويأتي رجال وصبية من البيض يقيمون مخيمات الغرض منها ممارسة رياضة المطاردة والصيد ، وعلى الأخص مطاردة دب ضخم . ثم تختفي البراري عندما تأتي شركات الأخشاب (٨).

ثم ننتقل الى الجنوب مرة اخرى فنرى مدينة جيفرسون ، تلك المدينة الهادئة ، وهي في الحقيقة ليست كذلك . ويمكننا رؤية « تميل دريك » التي سبق أن شاهدناها وقد أصبحت الآن زوجة تعاني من لون آخر من الوان الشقاء غير الذي عانت منه فيما مضى (٩).

وهنا وهناك في الشوارع تحدث أشياء غريبة . نرى المدعو جوكرسماس الذي يبدو أبيضا ولكن في دمائه يجري بعض الدم الزنجي ، فهو بين الزنوج يعتبر أبيضا ، وبين البيض يعتبر زنجيا . ويوضع في طفولته في ملجأ للأيتام ، ثم يتبناه فلاح وزوجته . ويصبح جو شابا ، وفي أحد الأيام يضرب الفلاح الذي تبناه ويسرق مدخرات زوجة الفلاح . وتحدث علاقة بينه وبين امرأة ، ويقتل هذه المرأة ويطارد في جميع أنحاء المقاطعة ، ويقبض عليه . ويحض جده الحقيقي الغوغاء على قتله بدون محاكمة قانونية ولكنه يهرب ، ويتمكن شاب يدعى بيرس من القبض عليه ويطلق عليه رصاص مسدسه فيرديه قتيلا . ونجد أيضا ضمن هذه الأحداث فتاة تدعى لينا جروف حملت سفاحا من أحد زملاء جو كرسمساس في الحقل الصانع ، تسير على قدميها من ولاية « الأباما » لتعثر عليه وليعترف بابنه الذي في أحشائها ، ولكن هذا الرجل يهرب ، وتعود لينا الى ولاية « تنيسي » ومعها الطفل الذي ولدته (١٠).

ويمكن أن نشاهد أيضا لوكاس بيشامب ، وهو زنجي عجوز متهم بالقتل وعلى وشك أن يقتلوه بلا محاكمة ، ولكن يتم انقاذه عن طريق طفل شجاع أبيض وطفل زنجي وامرأة عجوز (١١) .

ومن بين مشاهد الرعب والشجاعة نرى امرأة عجوز تقتل زوجها خوفا من أن يهجرها وتضع جثته فوق فراشه وتتركه في هذا الوضع حتى يتحول الى مومياء (١٢).

ان جميع هذه الاحداث التي ذكرتها ، أحداث وهمية لا وجود لها الا في خيال فوكنر ، لأن مقاطعة يوكنا باتاوفا ، مسرح هذه الأحداث ، بعاصمتها « جيفرسون » لن تجدها في أية خريطة للولايات المتحدة الأمريكية ، فهي ولاية وهمية من نسج خيال فوكنر . فالأحداث الموضوع عند نهايتها رقم (١) نجدها في رواية « القرية » The Hamlet ، والأحداث رقم (٢) في رواية « الملاذ » Sanctuary ، ورقم (٣) في رواية « عندما أرقد محتضرة » As I lay dying ، ورقم (٤) في رواية الصوت والغضب The Sound and the fury ، ورقم (٥) في رواية « التي لاتقهر » The Unvanquished ، ورقم(٦) في رواية « سارتوريس » Sartoris ، ورقم (٧) في رواية أبسالوم ، أبسالوم ! Absalom Absalom ورقم (٨) في رواية « الدب » The Bear ورقم(٩) في رواية « قداس لراهبة » Requiem for a Nun ورقم (١٠) في رواية « ضوء في أغسطس » Light in A ugust ورقم (١١) في رواية « دخيل في التراب » Intruder in the Dust ورقم (١٢) في أشهر قصصه القصيرة « وردة لاميلي » Arose for Emily .

ومقاطعة « يوكنا باتاوفا » التي تخيلها فوكنر تحمل سمات لمقاطعة « لافايت »وعاصمتها « اكسفورد » بولاية مسيسبي ، ولقد قضى فوكنر معظم حياته في مدينة اكسفورد . يمكننا أن نقول أن تخيل فوكنر لهذه المقاطعة « يوكنا باتاوفا » التي لا وجود لها يعتبر من أعظم ما أنتجه الخيال في الأدب الحديث ، ولقد توجت أعماله بحصوله على جائزة نوبل عام ١٩٥٠ ، كما منح عديدا من التقديرات الأدبية المشرفة التي اسعدته كثيرا ، ولكن فيما يتعلق بجائزة نوبل ، فانه لم يوافق على السفر الى السويد لاستلام تلك الجائزة الكبرى الا تحت ضغط من عائلته ومن المسؤلين . وهو من المؤلفين الذين لايعيرون قراءهم أي اهتمام ، كما يبغض الاعلان عن نفسه . وكل محاولة لاقتحام حياته الخاصة باءت بالفشل وسببت له غضبا شديدا . ولقد أصبحت كتبه جزءا هاما من التراث الأدبي للولايات المتحدة مثل مؤلفات « هرمان ملفيل Herman Melville وادجار الآن بو .

ووليم فوكنر رجل ضئيل الجسم ذو شارب كث وأنف دقيق وعينين بنيي اللون يشع منهما الحزن والفكاهة في الوقت ذاته . وهو رجل هادىء الطباع ، ولو أنه في وقت راحته واسترخائه وغليونه في فمه وساقاه القصيرتان ممتدتان قد يكون مثل قط يقفز في غمضة عين ليقتل فأرا . ويتصرف كفلاح درس افلاطون .

ومدينة اكسفورد التي عاش فيها فوكنر تشبه الى حد كبير مدينته الخيالية « جيفرسون » ، فهي تقع في الجزء الشمالي لنهر المسيسبي وتضم من السكان نحو أربعة آلاف . ولقد عاش فوكنر في منزل من أجمل منازل مدينة اكسفورد ، من تصميم مهندس ايرلندي وقام فوكنر بترميمه واصلاحه عندما اشتراه عام ١٩٣٠ ، وتحيط به الحدائق وتطل عليها شرفات ، ونصل الى المنزل من خلال اشجار باسقه تلقى ظلالها على مساحة من النجيل . ولقد صنع فوكنر في الممر المؤدي الى المنزل عديدا من الحفر حتى لايشجع الناس على الحضور لرؤيته . وعاش في هذا المنزل مع زوجته ايستل Estelle وابنتهما جيل Jill وفي سنوات سابقة كان يسكن معهم أيضا ابن وابنة زوجته من زوج سابق ، ولقد كبرا الآن وتزوجا ويعيشان في مكان آخر .

وتقع مدينة اكسفورد ، التي قضى فيها فوكنر حياته كما ذكرنا ، على بعد ٧٥ ميلا في الجنوب الشرقي من ممفيس Memphis بولاية تنيسي ، وشرق دلتا نهر المسيسبي الغنية بالقطن . ومعظم سكان المقاطعة من الفقراء البيض والزنوج الفلاحين الذين يعيشون في أكواخ متواضعة في الساحة المحيطة بالمدينة . حيث تجد أطفال الزنوج يهرعون الى منازلهم في ذعر عندما تقع أبصارهم على رجل أبيض في عربة . والمدينة الهادئة لاتدب فيها الحياة الا بعد ظهر أيام السبت حيث يفد اليها الفلاحون لبيع محاصيلهم فيصبح أحد جوانب السوق أسود

اللون لاكتظاظه بوجوه الزنوج . وتبدو مدينة اكسفورد في عيني الاوروبي أكثر تخلفا من أي مكان في الولايات المتحدة خارج حدود مستوطنات الهنود الحمر . وتبدأ أكواخ الزنوج وكأنها خجلى من بعض القصور الرائعة التي مازالت قائمة بعد الحرب الأهلية .

ومن الأشياء التي جعلت مدينة اكسفورد شاعرة بماضيها أنها ظلت لمدة تزيد عن خمسين عاما موطنا لوليم فوكنر الذي اكتسب شهرة عالمية وهو قابع في هذه المدينة الصغيرة شبه المنعزلة . ولقد بقيت لعدة سنوات غير مدركة لمكانتها الأدبية وغير شاعرة بوجود فوكنر ، ولم تدرك مركزها الأدبي وقيمة ذلك الرجل الذي أضفى عليها هذه الأهمية الا عندما وجدت ذات يوم معدات وآلات استوديوهات هليود تهبط فيها لتصويرها سينمائيا عند اخراج احدى روايات فوكنر للسينما ، وهي رواية « دخيل في التراب Intruder in the dust » ، وشعرت بالفخر بعد ذلك عندما منح مؤلفها فوكنر جائزة نوبل في الأدب . عند ذلك بدأ فوكنر يشعر بالاهتمام والاحترام من سكان هذه المدينة الصغيرة بعد أن كانوا يتهامسون فيما بينهم متعجبين كيف يجد ذلك الرجل قوت يومه وهو قابع طوال النهار في الظل داخل منزله يدق على آلة كاتبة ولا يعمل معهم في الحقول !

وتقع كل من مدينتي اكسفورد (الحقيقية) وجيفرسون (الخيالية)على بعد واحد من مدينة ممفيس وتتشابه معظم معالم المدينتين ، ولكن لا ينبغي الاعتقاد بان جيفرسون هي نفسها مدينة اكسفورد ، فمدينة جيفرسون ، لا تضم جامعة كما هي الحال في مدينة اكسفورد ، ومقاطعة يوكنا باتاوفا الخيالية أكبر مساحة من مقاطعة لافايت الحقيقية ، اذ أن أحداث روايات فوكنر ، وعلى الأخص رواية « أبسالوم ، أبسالوم ! » تتطلب مساحة أكبر من مساحة لافايت ، فتوماس ستبن Thomas Sutpen في رواية « أبسالوم ! » يمتلك وحده مساحة من المقاطعة قدرها مائة ميل مربع . كما أن سكانها أقل عددا وتشتمل على عدد من الزنوج أكثر مما في مقاطعة لافيت Lafayette فلقد أجرى فوكنر بعض التعديلات في عدد السكان وفي نسبة الزنوج الى البيض .

فعالم فوكنر في رواياته ، التي تقع معظم أحداثها في مقاطعته الخيالية « يوكنا باتاوفا » ، ليس هو العالم الحقيقي في ولاية لافايت . ان « يوكناباتاوفا » مملكة أسطورية كما يسميها الناقد كاولى Cowley وفوكنر ، من الوجهة الخيالية ، هو مالكها الوحيد ، اذ لاوجود لها في خيال انسان آخر . وفي الوقت ذاته فان شركة « متروجولد وين ماير » كانت على صواب عندما ذهبت الى اكسفورد لتصوير فيلم « دخيل في التراب » ، فان عالم فوكنر الشخصي هو بلا

شك مقاطعة لافاين اللذي يعيش فيه بعيدا عن البلاد الكبرى المنتشرة في أنحاء الولايات المتحدة وموطن تجاربه الشخصية في صباه حتى كهولته . واذا لم يكن فوكنر من مواطني اكسفورد لتعذر عليه تصور مدينة جيفرسون ، فبيئة جيفرسون ، كما تخيلها فوكنر ، هي بيئة اكسفورد نفسها التي جعلته يعني بتاريخ المنطقة وتاريخ عائلته . وهذه البيئة هي التي فرضت عليه موضوع رواياته . فما لاشك فيه أن الكولونيل فاكنر[١] جد والد فوكنر هو نفسه جون سارتوريس في رواية « سارتوريس » ورواية « التي لا تقهر » The Unvenquished وفي بعض رواياه الأخرى . فكل من قرأ هاتين الروايتين يدرك أن أحداثا كثيرة في تلك الروايات مبنية على حقائق في تاريخ أسرة فوكنر لا بد انه سمعها ، مثل انشاء الخط الحديدي واطلاق ردموند الرصاص على سارتوريس . فتاريخ عائلة فوكنر هو الذي دفعه ليصبح كاتبا ، بينما جذوره العميقة في ولاية مسيسيبي هي التي أمدته بعد ذلك بموضوعات رواياه وجعلته يواصل الكتابة .

حياة فوكنر

يتميز فوكنر بصفات متضادة ، فهو طيب وقاس ، ألوف ونفور ، وهو فيلسوف بلا مبدأ فلسفي ، يحب الجنوب ويثور عليه ، ولقد تمنى الشهرة ونفر منها ، عندما أتته وهو مستقيم أثار حول نفسه أسطورة كاذبة ، والأهم من ذلك أنه كاتب عظيم وكاتب رديء في الوقت ذاته . فأحسن مؤلفاته ترقى الى أعظم المؤلفات العالمية ، بينما نجد أن بعض مؤلفاته رديئة . ولديه إحساس عميق بالماضي ، ماضي الجنوب الامريكي وماضي عائلته ، ولقد استخدم في رواياته عديدا من شخصيات أجداده التي يشكلها لتناسب متطلبات الرواية وتحمل بعض سمات عنهم . قراء روايات فوكنر لن يجدوا صعوبة ليدركوا ان الكولونيل فاكنر جد والد فوكنر ، هو نفسه الكولونيل سارتوريس في رواية « سارتوريس » وفي روايات أخرى ، حيث يعرض حياته بتفاصيلها مضافة في قالب فني يناسب تلك الروايات ، ويضفي عليها بطولة مبالغا فيها فيجعل اجداده ، نساء ورجالا ، أبطالا لبعض رواياته .

لم يكن يجول في خاطر وليم فوكنر عندما كان صبيا أي طموح أو أية رغبة في أن يصبح روائيا ، فلقد بدأ كشاعر ، وكان خجولا غير ميال لممارسة الرياضة . ولم يكن شغوفا بدراسته ، فقد كان يهمل المواد التي لاتستهويه ، ولكنه كان قارئا نهما ، فكان يقرأ كل ما يقع تحت يده من

(١) غير فوكنر لقبه من فاكنر الى فوكنر ، لاعتقاده ان Faulkner هو الهجاء الصحيح وليس Falkner، علما بأن حرف الـ L لاينطق .

كتب دون أختيار معين وبلاهدف جاد . ولكنه في السابعة عشرة من عمره تقابل مع الشخص الذى كان له أعظم الأثر في حياته الادبية ، كان هذا الشخص يدعى فيليب ستون ، وكان في الحادية والعشرين عندما تقابلا (وقد يكون هو الشخصية التى اطلق عليها فوكنر اسم De Spains في بعض قصصه) . كان والد فيليب محاميا وشخصية سياسية مرموقة في الولاية ، وكان يخطط لفيليب ليعمل معه في حقل المحاماة كما فعل أخوه الأكبر . وحصل فيليب على بكالوريوس الآداب من جامعتين ، وأخذ يحضر نفسه لدراسة القانون . وعندما تقابل مع فوكنر كان حاصلا على بكالوريوس في الآداب ، وكان شغفه بالأدب اكثر من اهتمامه بالقانون . وكان مولعا بالشعر . وكانت تربط عائلته بعائلة وليم فوكنر صداقة ، فلما عرف ميل فوكنر للشعر أراد مساعدته عندما سمع من والدته انه لا يدرى ماذا يفعل بأشعاره . فذهب الى منزل فوكنر واستمع لأشعاره فلمس فيه موهبة أدبية ، فأصبح منذ ذلك اليوم مرشدا وموجها لوليم فوكنر ، كما أصبح أعز أصدقائه . ولاشك ان فوكنر مدين لصديقه هذا كمعلم ومرشد . وبتوجيه من ستون بدأ فوكنر يقرأ أشعار شكسبير وسوينبرن Swinburne وكيتس وشيلي . ثم قرأ الأعمال الكلاسيكية مثل بلزاك وثاكرى وهنرى فيلدنج وديفو (مؤلف روبنصن كروزو) ودكنز وجوزيف كونراد . ثم بدأ فيليب يقرأ اعمال جيمس جويس ، وهى الأعمال التى تأثر بها فوكنر فيما بعد . وعندما قرأ فيليب رواية « يوليسيس » لجيمس جويس علق على ذلك قائلا لفوكنر : هذا الرجل يحاول كتابة شيء جديد ، وينبغى لك ان تحيط علمك به . فكان فوكنر يقرأ ثم يتناقش فيما قرأه مع صديقه ستون .

لم يكن مدار حديثهما عن الأدب فقط ، فلقد مرض ستون في طفولته مرضا كان من شأنه أن يظل طريح الفراش عدة سنوات ، في خلالها تولد لديه اهتمام بتاريخ الجنوب الامريكى والحرب الاهلية التى خاض غمارها عدد كبير من أقاربه . فكان من الطبيعي ان يقص أفراد العائلة على فيليب هذا التاريخ الحافل ببطولة افراد عائلته في ماضى الزمان . ولذا فلقد كان الحديث بين فوكنر وستون يدور في كثير من الأحيان حول هذه الاحداث . فكان ستون في هذا المجال أيضا بمثابة معلم لفوكنر . ولقد بدأت تتبلور معلومات فوكنر عن هذه الاحداث ، التي غذى بها رواياته فيما بعد ، من خلال أحاديثه الطويلة مع فيليب ستون التى امتدت الى عدة سنوات .

وفي عام ١٩١٨ عاد ستون الى جامعة ييل Yale ليحصل على الدرجة العلمية في القانون للمرة الثانية ، وبقى فوكنر في مدينة اكسفورد بالولايات المتحدة (وهى غير مدينة اكسفورد الانجليزية ذات الجامعة التى تحمل هذا الاسم)

وحاول الالتحاق بسلاح الطيران ولكنه لم يقبل لقصر قامته ، وتمكن من الالتحاق بسلاح الطيران الكندى دون ان يسأله أحد عن جنسيته . وانتهت الحرب العالمية الثانية وهو مازال في مرحلة التدريب دون أن يزاول مهمته . ولما عاد الى مدينة اكسفورد استمر في نظم الشعر . وبعد فترة بدأ يكتب قصصا قصيرة بهدف الحصول على بعض المال الذى يمكنه من الحياة في أثناء هذه الفترة ، فترة نظم الأشعار . كانت سكرتيرة صديقه ستون تكتبها على الآلة الكاتبة وترسلها للنشر ، ولكنها ظلت ترفض واحدة بعد الأخرى ، فيأخذها فوكنر ويضعها في ملف ويودع الملف أحد الأدراج في مكتب آل ستون . وكان يضطر الى اقتراض المال ، وعلى الأخص من صديقه ستون ، ليتمكن من الحياة الى جانب مزاولة حرفة النجارة او طلاء المنازل او غيرها من الاعمال ليسدد ديونه ويبقى له ما يقيم أوده .

وسمحت الظروف لفوكنر بالتعرف على أحد أساتذة الجامعة عن طريق أحد أصدقائه ، وهو الاستاذ براون . قال فوكنر للاستاذ انه يشعر بعقلية رياضية ويرغب في دراسة الرياضيات . فالتحق بالجامعة لدراسة مقرر في الرياضيات ، ولبس شغفا بهذه الدراسة في الاسابيع الاولى ، ولكنه بعد ذلك لم ينتظم في الدراسة ، وانتهى الامر بتوقفه عن تلك الدراسة . وتقول عنه زوجة الاستاذ ، وكانت هى الاخرى تقوم بالتدريس في الجامعة ، ان فوكنر كان صبيا مهذبا خجولا حساساً ، وكان عطوفا على الاطفال ويعرف كيف يستولى على مشاعرهم بالقصص التى كان يرويها لهم ، ولقد مهدت له هذه الصفات ليصبح رئيسا لمجموعة من الكشافة ، ولكن قسيس التعميد اعترض على شغفه بالشراب فترك هذا العمل . ثم التحق باحدى المدارس واشترى حلة جديدة ليبدو انيقا في حفلات الرقص بالمدرسة ، وهذا يذكرنا بما حدث فيما بعد عندما ابدى عدم تحمسه للسفر الى السويد ليتسلم جائزة نوبل قائلا انه فلاح ولا توجد لديه حلة تصلح لمقابلة الملوك ، فاشترى له ناشر كتبه حلة جديدة ارتداها عندما ذهب على مضض ليتسلم تلك الجائزة الثمينة !

وكان في فترة عمله بالمدرسة يقضى وقتا طويلا في مكتبتها منغمسا في قراءة الكتب التي يختارها له صديقه فيليب ستون . ولقد نفر من نظام الدراسة المنتظمة ، وكانت أعلى درجاته في مادتى اللغة الفرنسية والاسبانية ، بينما كان يرسب في اللغة الانجليزيه ! وفي السنة الثانية ترك المدرسة .

وعاد الى نشاطه السابق ، كتابة الاشعار والقصص حتى ملأت دولابا بأكمله في مكتب ستون ، وزاول أعمالا مختلفة في هذه الفترة . وكان في خلال فراغه من هذه الأعمال وفي عطلات نهاية الأسبوع يصحبه صديقه ستون في

سيارته ويزوران مدينة ممفيس بين آن وآخر وكانت مشاهد روايته « الملاذ » Sanctuary احدى نتائج هذه الرحلات ، كانا يجلسان حول مبنى المحكمة هناك ينصتان الى أحاديث كبار السن والفلاحين وصيادى الوحوش ، يقصون عليها قصصهم الزاخرة بالهنود الحمر والزنوج والشخصيات المحلية واحداث الصيد الشهيرة ، وكيف كانت الامور في الزمن الماضى ، وكان فوكنر قليل الكلام كعادته ، وكانت مثل هذه الجلسات تحتاج الى الانصات اكثر منها الى الكلام ، كان يجمع معلومات يستخدمها فيما بعد في قصصه . ولم يعد لفوكنر بعد ذلك مكان ثابت ، غريب الأطوار حتى ان أهل المدينة لم ينظروا اليه كمتسكع وحسب ولكن كشخص به لسة جنون . في هذه الفترة أطلق لحيته وارتدى ملابس رثة قديمة ، وكان في شهور الصيف يرى حافي القدمين . كان يجلس في الميدان عند مخزن للأدوية وقدماه متسختان نتيجة لكثرة التجوال في الحقول والغابات ممسكا بيده احدى المجلات ومنغمسا في قراءتها بالمجان . وكان صاحب المحل يعطف عليه فلا يطالبه بأجر القراءة ، بل كان يعطيه من آن لآخر قطعة نقود ذهبية على أن يردها فيما بعد ، وكان فوكنر يحرص على ردها عندما يستطيع ذلك . وكان يقف بالساعات محملقا في مبنى المحكمة ، او يجول في المدينة شارد الذهن غارقا في تأملاته وأحلامه ، حيث لايكاد يرى أحدا من المارة ، ويجيب باقتضاب ، وأحيانا بوقاحة اذا تحدث اليه صديق قديم أو أحد مدرسيه السابقين في أثناء تلك اللحظات . وقال عنه أحد سكان المدينة انه نموذج حقيقى للشاعر . وكان أهل المدينة يعتقدون ان افراد عائلة فوكنر يتمتعون بثقة في أنفسهم تجعلهم لايبالون بآراء الآخرين فيهم ، فكانوا يفسرون غرابة أطوار فوكنر بقولهم : « انه دم عائلة فوكنر الذى يجرى في عروقه » . وكان آل فوكنر معروفين بكبريائهم وتعاليهم وارستقراطيتهم .

وفيما عدا الآنسة مود ، كان ستون الشخص الوحيد الذى يعتقد ان هذا الصبى وليم فوكنر سوف يصبح ذات يوم كاتبا شهيرا ناجحا ، ولو ان فوكنر نفسه كان يشك في ذلك . وبناء على نصيحة من ستون سافر فوكنر الى نيويورك في ضيافة احد المعارف ويدعى يتج Youg آملا ان يجد هناك ناشرا يقبل نشر أعماله ، او ناقدا يلفت اليه الانظار . ومارس هناك عديدا من الاعمال ليحصل على النفقات اللازمة ، ومن هذه الاعمال غسل الاطباق في مطعم يونانى هناك ، حتى تمكن من الحصول على وظيفة في احدى المكتبات ، ولكنه ما لبث ان عاد الى مدينة اكسفورد بعد ستة شهور عندما أرسل اليه صديقه ستون يخبره ان وظيفة مدير مكتب البريد بالجامعة قد خلت ويمكنه الحضور لشغلها ، وكان سعيدا بعودته الى مدينته ولم يستفد من رحلته الى نيويورك سوى التعرف على الآنسة برول Prall ولم ينجح في وظيفة مدير مكتب

البريد ، فلقد تراكمت الخطابات واختلت مواعيد فتح واغلاق المكتب ، وكانت التقارير تفقد ، ولم يستجب لشكاوى المتعاملين التي لم تكن تحظى باهتمامه ، اذ لم يكن يهتم في تلك الفترة الا بنظم الشعر والمشي مسافات طويلة وانتهى الأمر بتركه هذا العمل . وعلق فوكنر على ذلك قائلا : « الآن لن أكون تحت رحمة أي ابن كلبه يمتلك ستين »[٢] . وتقلب في أعمال مختلفة ، وأخيرا طبع له صديقه « ستون » على نفقته الخاصة ديوان شعر ولكنه لم يلفت الانظار ولم تبع منه سوى نسخ قليلة .

فوكنر وشروود أندرسون[٣]

خطرت لفيليب ستون فكرة : أن ت . س . اليوت وازرا باوند وشعراء عديدين أمريكيين لم يحظوا بالتقدير في وطنهم إلا بعد أن حصلوا عليه خارج الوطن ، فلماذا لا يجرب فوكنر ذلك ؟ رحب فوكنر بالفكرة اذ كان يتوق لرؤية فرنسا . وبناء على ذلك ، في يناير عام ١٩٢٥ ، سافر بصحبة صديقه ستون الى نيواورلياتز ليقضي ستون عطلته في هذه المدينة ، ويحاول فوكنر الحصول على عمل في سفينة أوربية تنقله الى فرنسا . وعاد ستون الى مدينة اكسفورد بعد انتهاء عطلته بينما بقي فوكنر في مدينة نيو أورلياتز . وذات يوم علم ان اليزابيث برول **Elizabeth Prall** مقيمة بالمدينة مع شروود أندرسون الذي كانت قد تزوجته حديثا . اتصل بها فوكنر ، وبذا تمكن من لقاء اندرسون ، وأصبحا صديقين حميمين . ويقول فوكنر أنه هو وشروود اندرسون اعتادا السير معا والجلوس معا والحديث معا حتى الثالثة أو الرابعة صباحا . ويقول فوكنر عن شروود : « انه الرجل الذي في امكاني الحياة معه في جزيرة مهجورة ، وعندما رأيت كيف يعيش شروود قلت لنفسي انني لو أصبحت كاتبا مثله فان حياتي ستكون رائعة ، هذه هي الحياة التي تصلح لي » . واختفى فوكنر ستة أسابيع ، وعندما رأته اليزابيث زوجة اندرسون ابتدرته قائلة : « أين كنت ؟ لقد افتقدك شروود » . فقال : « كنت أكتب كتابا » . فقالت : « هل تحب أن يقرأه شروود ؟ » فقال : « ليس بالضرورة ، فأنا أعلم أنه مشغول . نقلت اليزابيث الحديث لزوجها الذي أبدى استعداده لتزكية الكتاب لدى ناشره . لم يكن الناشر بالمدينة في ذلك الوقت ، وبمجرد قدومه أخبره شروود عن هذا الاكتشاف الجديد ، فقرأ الناشر نص الكتاب ووافق على نشره . فارتفع قدر فوكنر واستقر في الحي الفرنسي بالمدينة ، وباع بعض قصصه القصيرة لاحدى صحف نيواورلياتز .

---

(٢) السنت عملة أمريكية صغيرة . وكان أجر طابع البريد في ذلك الوقت اثنين من هذه السنتات .

(٣) شروود اندوسون كاتب أمريكي وشاعر ولد عام ١٨٧٦ وتوفي عام ١٩٤١ .

كان ذلك الكتاب الذي قبل للنشر ، أول رواية تنشر لفوكنر وهي رواية « أجر الجنود » Soldiers Payوتدور حول جندي يعود الى وطنه ليموت متأثرا بجراحه ، ويبدو فيها متأثرا بهمنجوي Hemingway . وفي أثناء اقامته في نيواورليانز كتب معظم روايته الثانية « البعوض » Mosquitoss وهي محاولة فاشلة لمحاكاة الكوميديات الاجتماعية التي كان يكتبها الدوس هكسلي ، بحذق وذكاء في ذلك الوقت (ويبدو فوكنر في رواياته على وجه العموم متأثرا بثلاثة كتاب عظام هم جيمس جويس وهمنجوي والدوس هكسلي) .

ثم أسهم فوكنر بعد ذلك مع وليم سبارتلنج في تأليف كتاب صغير بعنوان « شروود أندرسون وآخرون » ، وكتب فوكنر مقدمة الكتاب محاولا تقليد أسلوب اندرسون ، واعتبر اندرسون تلك المقدمة سخرية منه فرفض رؤية فوكنر ولم يتقابلا بعد ذلك سوى مرة واحدة بعد عدة سنوات في حفل كوكتيل بنيويورك .

وعلى الرغم من هذه النهاية المؤسفة لعلاقة فوكنر بأندرسون فان فترة صحبتهما معا تركت أثرا لا يمحى في حياة فوكنر ومؤلفاته . ولم ينس فوكنر طوال حياته كلمات شروود عندما قال له « أكتب الشيء الذي تعتقد أنك تعرف كيف تكتبه » . كما علم منه أن طريقة كتابة القصة شيء على جانب عظيم من الأهمية . وتعلم منه انه لكي يصبح كاتبا ذا قيمة ينبغي أن يكتب عن أشياء يعرفها حق المعرفة ، ويجب أن يعلم كيف يبدأ الرواية ، فالحدث أو المكان الذي تبدأ منه القصة ذو أهمية كبرى . وقال له اندرسون : « أنت شاب ريفي ، وكل ما تعلمه هو تلك البقعة في ولاية مسيسيبي حيث بدأت حياتك » . ولم يعمل فوكنر بهذه النصيحة في بادىء الأمر عندما كتب روايتيه الأوليين اللتين كتبهما في نيوأورليانز ، ولكن النصيحة ظلت كامنة في أعماقه ، وبفضلها بلغ النضج الفني وظهر تأثيرها في روايته التالية « سارتوريس » التي كتبها عن تاريخ الجنوب الأمريكي الذي يعيش فيه ويعرف عنه كل شيء .

على الرغم من تأليف روايتين في ستة أشهر ، لم يكن فوكنر مشغولا بدرجة تمنعه من ارتياد أماكن تجمع الفنانين الموهوبين في الحي الفرنسي بمدينة أورليانز . ففي منتصف العشرينات كان ضمن المجموعة هناك « روورك براد فورد » و « أليفر لافارج » و « جورج مليرن » و « جورج ماريون اودونيل » و « هاملتون باسو » و « كارل ساندبرج » و « جون دوس باسو » ، و « سنكلر لويس » وبعض الكتاب الشبان . كانوا يعيشون على ما يدره انتاجهم ، وكان يجمع بينهم الفقر وتقديرهم لأندرسون الذي كان يستضيف في منزله لتناول العشاء ثلاثة أو أربعة منهم في ليالي السبت . وفي هذه الفترة كان يوجد بينهم بوسو Bosso وهو من سكان نيو أورليانز ، ويقول عن فوكنر انه رجل

ضئيل الحجم مهذب عذب الحديث وذو احساس عميق بالجنوب الأمريكي . ولقد عاش فوكنر بعض الوقت في غرفة بالدور الأرضي في شارع بالقرب من الكنتدرائية على مقربة من الغرفة التي كان يعيش فيها سبارتلنج عند سطح المنزل . وكان أفراد المجموعة يترددون على غرفة سبارتلنج ويتقابلون مرتين أو ثلاث مرات في الاسبوع لتناول الغذاء في بعض المطاعم الرخيصة .

وذات ليلة ، عندما ظهر فوكنر بينهم وقت الغداء باديا عليه الانشراح ، أعلن انه قضى اليوم بطوله في طائرة كان يستخدمها سيرك متنقل يقضي فترة بجوار المدينة ، وهذه النزهة بالطائرة كانت البذرة التي أنبتت فيما بعد رواية « بيلون » Pylon .

بين اليأس والأمل

بعد ذلك سافر فوكنر الى أوروبا في يولية عام ١٩٢٥ حيث اتجه أولا الى انجلترا ، ثم مر خلال فرنسا طورا على قدميه وطورا راكبا دراجة ، وزار الأماكن التي كانت ميدانا للقتال في الحرب العالمية الأولى . وتلقى وهو في الخارج مبلغ مائتي دولار من ناشر روايته « أجر الجنود » قبل طبعها ، وكان هذا أول مبلغ يصل الى يده ثمرة كتابة استمرت نحو عشر سنوات . وعندما عاد الى وطنه كانت الرواية قد تم طبعها ونشرها ، ولكن عدد النسخ التي بيعت منها كانت قليلة . وعندما نشرت بعدها رواية « البعوض » كانت النسخ المباعة منها لا تزيد كثيرا عن الرواية الأولى . وكان الناشر قد تعاقد معه على نشر كتب أخرى ، ولكن الفشل الذريع الذي منيت به روايتاه المنشورتان جعلته يفسخ العقد ويعدل عن نشر كتب أخرى لفوكنر . وتمكن فوكنر بعد ذلك من بيع عدد قليل من القصص القصيرة ولكن الأجر كان ضئيلا فانتابته حالة يأس وخيبة أمل وأعتقد انه كاتب فاشل لا يصلح للتأليف القصصي .

ولكنه تمكن من التغلب على اليأس وواصل الكتابة ، فكتب رواية « سارتوريس » Sartoris واستمد موضوعها من البيئة التي يعيش فيها في الجنوب وتاريخ هذا الجنوب ، وعلى الأخص ولاية مسيسيبي فاقترب بذلك من الاستجابة لنصيحة اندرسون : « أكتب عن أشياء تعرفها » . ولكن الرواية لم تكن جيدة ولم يتحمس الناشرون لنشرها .

وازاء هذا الفشل المتوالي عرض ستون على صديقه فوكنر فكرة جديدة . قال له انه ما دام قد فشل كمؤلف جماهيري فلماذا لا يتغاضى عن ارضاء الجماهير ويكتب لنفسه وللخاصة من القراء ذوي التذوق الفني الرفيع الذين لا بد انهم في يوم من الأيام سوف يدركون موهبته إن عاجلا أو آجلا ؟ لماذا لا يكتب للأجيال بدلا من الكتابة للعامة ولحاجة السوق ؟ واستجابة لرأي ستون عكف فوكنر على كتابة رواية دون أن

يأخذ في الاعتبار أي هدف تجاري . كانت هذه رواية « الصوت والغضب » The Sound anb the Fury والعنوان مأخوذ من شطرة بيت من الشعر ورد على لسان زوجة مكبث في مسرحية « مكبث » لشكسبير . وتعتبر هذه الرواية من أروع ما كتب فوكنر ومن أكثرها صعوبة عند قراءتها . واستخدم فيها تيار الشعور Stream of Consciousness . وتتكون الرواية من أربعة أقسام ، وتم نشرها عام ١٩٢٩ ، ولقد نجحت هذه الرواية نجاحا عظيما عن طريق صفوة القراء الذين يقدرون الفن الرفيع ولو أن الجماهير العريضة تجاهلتها . فتحقق بذلك هدف فوكنر ، وهو كتابة رواية يقدرها قلة من الصفوة بدلا من الغالبية التي لا تتذوق الأدب الرفيع ، على أمل أن القلة من ذوي المستوى الرفيع قد يؤثرون بآرائهم على الأدكياء من العامة .

ونشأ حب عنيف بين فوكنر و« استلا أولدهام» Esetlla Oldham التي كانت تكبره بعامين . وعارضت العائلتان هذا الزواج نظرا لكبر سن استلا وغرابة أطوار فوكنر . فتزوجت استلا من محام يدعى كورنل فرانكلين الذى سافر مع عروسه الى هونولولو ثم انتقل الى شانغهاى . وفي عام ١٩٢٧ طلقت من زوجها وعادت الى وطنها مع طفليها ، ولد وبنت ، وظل حب فوكنر لها متأججا . كان في هذا الوقت مفلسا ، وكان قد نشرت له حتى ذلك الوقت أربع روايات هي : « أجر الجنود »

و« البعوض » و« سارتوريس » و« الصوت والغضب » ، ورواية خامسة على وشك النشر وهى رواية « عندما أرقد محتضرة » ، وتزوجا ، واقترض بعض تكاليف الزواج وانتقل هو وزوجته وطفلاها الى شقة صغيرة . وتحمل فوكنر اعباء زواجه وأعباء اعالة طفلي زوجته من زوجها السابق . ونشرت رواية « عندما أرقد محتضرة » ويقول فوكنر انه كتب معظم أجزائها فوق عربة يد في أثناء ورديته المسائية عندما كان يعمل بمحطة توليد الكهرباء بالجامعة ، حيث كانت مهمته وضع الوقود لغلايات المياه . ونجحت الرواية كعمل أدبي رفيع ، شأنها في ذلك شأن رواية « الصوت والغضب » ولكنها فشلت جماهيريا فلم تدر عليه ربحا ذا قيمة .

بعد ذلك كتب رواية « الملاذ » Sanctuary التى وصفها فوكنر بأنها فكرة رخيصة كتبها ليحصل على بعض المال ، ولكن فكرتها كانت تدور في رأسه لعدة سنوات وأقبل على كتابة بعض أجزائها بحماس ، ولذا فلقد ظهرت الرواية وبعض اجزائها ، رائعة والبعض الآخر من الدرجة الثانية .

لقد نجحت هذه الرواية جماهيريا نجاحا عظيما ، ولم يتحرك فوكنر عن كتابة تفاصيل فكرتها الجنسية العنيفة التي كانت بالنسبة للجماهير مفاجأة تثير الذعر . وكان الناس يتحرجون من شرائها علنا ولكنهم كانوا يقبلون

على شرائها سرا . ولفتت الرواية نظر هليوود نحو فوكنر ، فشعر هو وصديقه ستون بسعادة غامرة تتسم بالدهشة ، ففتحا الدولاب المليء بقصص فوكنر التي سبق ان رفضت نشرها جميع الصحف والمجلات ودور النشر ونفضا عنها الغبار وأعادا كتابتها على الآلة الكاتبة وحددا لكل منها سعرا مرتفعا كتباه في الركن الأيمن من الصفحة الاولى لكل قصة وأرسلاها الى المجلات نفسها التي سبق ان رفضتها فنشرتها على الفور وبدأت النقود تتدفق بين يدى فوكنر .

سنوات النضج

لم تتغير مدينة اكسفورد بولاية ميسيسبي تغيراكبيرا في السبعين عاما الأخيرة ، اذا استثنيا بعض التغيرات السطحية ، كالشوارع التي اصبحت مفروشة بالاسفلت ، والسيارات التي أصبحت تجوب شوارعها ، والجراجات ، واضواء النيون في واجهات المحال التجارية . ويشعر قراء روايات فوكنر عند رؤية المدينة الآن وكأنهم كانوا في حلم واستيقظوا ليجدوا المدينة الحقيقية مطابقة لما شاهدوه في أحلامهم ، اذ مازال مبنى المحاكم القديم كما وصفه فوكنر في رواياته مع بعض التعديلات القليلة ، وتفوح منه رائحة التاريخ : عقود الزواج القديمة ، سجلات الوفيات التي مضى عليها عهد طويل . وعلى بساط الحشائش الذى تظلله الاشجار الباسقة مازالت المناضد متناثرة حيث كان الشيوخ من الرجال وبعض الشبان يتعاملون ويتحدثون عن السياسة والمحاصيل الزراعية ويثرثرون في شتى الموضوعات . وسوق المدينة مايزال قائما حيث نجد الطماطم والذرة والبطيخ الناضج التي يحضرها الفلاحون ، وتمر السيارات حول الميدان في دوامة مستمرة ، وتوجد منازل فاخرة كتلك التي كانت تعيش فيها عائلات سارتوريس وكمبسون في أيام مجدهم . وبعض شوارع المدينة لم يكسها الاسفلت حتى الآن بينما توجد الاشجار في كل مكان . في هذا المتحف عاش فوكنر معظم حياته وكتب رواياته . كان جزءا من هذه المدينة الصغيرة وكان من معالمها . هذه هى المدينة التي أطلق عليها فوكنر في رواياته اسم « جيفرسون » في المقاطعة التي اختار لها اسم « يوكناباتاوفا » ولم يمل الكتابة عنها طوال حياته .

ولقد رزق فوكنر من زوجته استلا طفلا ، اطلقا عليه اسم « الاباما » ولكنه توفي عقب ولادته مباشرة ، ثم رزقا بعد ذلك بابنة هى جيل Jill ومن أرباح رواياته اشترى ضيعة أصبحت تدر عليه الكثير من الاموال الامر الذى جعله في غير حاجة لمزاولة أية وظيفة . كان شغوفا بهذه المزرعة ومعتزا بها ، فكان يقول عن نفسه انه ليس أديبا ولكنه مجرد فلاح يهوى حكاية القصص .

كان فوكنر يهوى الصيد ، فكان يخرج بصحبة بعض أصدقائه في موسم معين في الخريف توارثته المدينة جيلا بعد جيل وأصبح من التقاليد المرعية فيها ، حيث يقيمون خيمة في بقعة معينة في الغابات القريبة من المدينة (ولقد زحفت شركات الاخشاب واحتلت هذه البقعة فيما بعد ، واشار فوكنر الى ذلك في روايته القصيرة « الدب ») وانتقل نتيجة لذلك معسكر فوكنر واصدقائه من هواة الصيد مائة وتسعين ميلا جنوب اكسفورد في مكان فيه أنهار ومستنقعات وغابات كثيفة . ففى الثامن عشر من شهر نوفمبر كان يخرج فوكنر مع نحو ستة من أصدقائه في سيارة ضخمة محملة بكل ما يحتاجون اليه في معسكر صيدهم ويقيمون هناك نحو اسبوعين ، لقد استفاد فوكنر من بعض هؤلاء الأصدقاء في تصوير شخصياتهم في رواية « الدب » وفي قصته القصيرة « خريف الدلتا » Delta Autumn . وكان في الغابات عديد من حيوانات الصيد كالغزلان وبعض الدببة والقطط البرية . وكان فوكنر صيادا ماهرا يحسن اصابة الهدف ببندقيته . وكان في بعض الأحيان يظل نحو ثلاثة أيام متواصلة بلا نوم وهو منغمس في تعقب بعض الحيوانات . كانوا ينامون في خيامهم ويتناولون طعامهم على كتلة من الخشب ، وكان طعامهم يتكون من لحم الحيوانات التي يصطادونها الى جانب البامية والبطاطس ، والطماطم والبصل الذى كانوا يطهونه في وعاء كبير طوال اليوم . وفي المساء كانوا يشعلون النار للتدفئة ويسلون أنفسهم بلعب الكتشينة ويطالعون الصحف التي يحضرها اليهم أحد الناس من المدينة ، ويتجاذبون احاديث الصيد ونوادره . وكان فوكنر كعادته يصغى أكثر مما يتحدث ويظل معظم الوقت مشغولا بتدخين غليونه ، ومن آن لآخر يكتب بعض الملاحظات . من هذه الملاحظات والذكريات نسج فوكنر قصصه العظيمة التي جعلته من أعظم كتاب العالم الذين كتبوا عن الطبيعة وصوروها في مؤلفاتهم اروع تصوير .

كان من عادة فوكنر أن يكتب دون مراعاة لاية قواعد ، أوكما قال أخوه جون « ليقص على نفسه قصصا » في موضوعات أشبه بتداعى الخواطر . لم يكن وقت الكتابة ولا المكان الذى يكتب فيه ولا مواد الكتابة ذوى أهمية لديه . وكان يكتب على أية قصاصة متاحة من الورق ، على ظهر الفواتير أو ظرف خطاب أو حتى على أوراق « التواليت » عندما لايجد في متناول يده غيرها . وتعود ناشروه الا يتعجبوا اذا وجدوا نصوصه المرسلة للنشر مكتوبة على ظهر نص قديم من نصوص رواياته ، أو نص سينمائى مشطوب ومكتوب على ظهر صفحاته . وكان لايحتاج لأكثر من خمس ساعات للنوم . وكان من عادته ان يبدأ الكتابة في الرابعة صباحا ، اذا شعر بالرغبة في الكتابة ، ويستمر حتى الثامنة صباحا مستخدما الآلة الكاتبة بدلا من القلم ،

ويكتب بسرعة ويضع بعض التعديلات بين السطور وعلى الهوامش ، ويقضى باقي اليوم حرا ليزاول شتى أنواع الأنشطة ورعاية شؤون مزرعته وعائلته ، وقد يعود للكتابة فترة أخرى بعد الظهر قائلا ان الكتابة أصبحت هواية بالنسبة له مثل جمع طوابع البريد .

وكان يكتب بسهولة فائقة غير شاعر بأى مجهود في أثناء الكتابة . قال عنه أحد أصدقائه الذى أتيحت له فرصة مراقبته في أثناء الكتابة عدة شهور انه دهش لسرعة كتابته . وكان يكتب نحو نصف ساعة ثم يسترخى لمدة نصف ساعة يقضيها في الحديث أو قراءة كتاب ، غالبا قصة بوليسية ، ثم يعود للكتابة بنفس السرعة المذهلة بلا تردد ، ويرجع ذلك الى عدم اقدامه على الكتابة الا أن يكون الموضوع قد نضج في ذهنه نضجا تاما فلا يحتاج لمزيد من التفكير . وشبهه في هذا المجال بريتشت Pritchett بقوله انه يشبه من يمضغ التبغ ثم يبصقه على الورق بدون أى مجهود . وكان يصغى تأدبا منه الى ملاحظة أحد النقاد بأن بعض الجمل من مخطوطاته ملتوية وغير واضحة المعنى ، ولكنه لم يكن يهتم بهذه الملاحظات فلا يغير كلمة واحدة .

وهكذا نجد فوكنر في سنوات النضج وقد أصبح شخصا جديدا شديد الثقة بنفسه ، يختلف تمام الاختلاف عما كان في بدء حياته الادبية ، كما أصبح مالكا لمزرعة مترامية الاطراف وزوجا وأبا ناجحا في مهنته ، ولكن على الرغم من ذلك فان أعماله تدل على أن نظرته الشخصية للحياة لم تتغير ، نظرة يشوبها التشاؤم . ظل يصور مقاطعته الخيالية « يوكناباتاوفا » في لون دموى قاتم منهيا حياة شخصيات رواياته نهايات مأساوية عنيفة . وأصبح ميالا الى العزلة والبعد عن الناس . كان يتوق في بدء بدء حياته الادبية الى الشهرة ولفت الانظار ، ولكنه عندما اطمأن الى الشهرة واتجهت نحوه أنظار محررى الصحف والناشرين والنقاد والكتاب الآخرين والقراء والمعجبين لم يعد في حاجة الى المزيد منها ، فصار يتجنب الأحاديث الصحفية ، وزهد في زيارة المعجبين به ، وأوصد دونهم بابه الذى لم يفتحه الا لعدد قليل من صفوة أصدقائه .

وعلى الرغم من شهرة وليم فوكنر التي ذاعت في جميع البلاد في ذلك الوقت ، فان مدينة اكسفورد التي يعيش فيها لم تعره أى اهتمام . كان بعض أهل المدينة يعلمون أن كتبه تثير اهتمام اساتذة الجامعات والمثقفين في شمال الولايات المتحدة ، وكان عديد من الذين يزورون الجامعة في تلك المدينة يحرصون على لقاء فوكنر ولكنه لم يكن يمكنهم من هذا اللقاء . وعندما حاولت زيارته راقصة الباليه الشهيرة اليسيا ماركوفا أرسل يقول لها انه مشغول اذ لديه موعد سابق لصيد قطة برية !

أعمال وليم فوكنر

أشرت في الصفحات السابقة اشارات عابرة الى بعض أعمال فوكنر ، وسوف أتناول الآن أهم انجازاته بشيء من التفصيل .

يعتبر فوكنر من المؤلفين الذين لاتفهم كتاباتهم بسهولة ، بل تحتاج الى مجهود ذهني . وهو يستخدم تيار الوعي في معظم رواياته ، شأنه هذا شأن جيمس جويس وفرجينيا وولف ، ولو أنه يختلف عنهما بعض الشيء في روايتين وهما : « الصوت والغضب » The Sound and the Fury و « عندما أرقد محتضرة » As I Lay Dying ، وهما في رأيي أروع ما كتب . وعلى الرغم من أن روايات فوكنر مستوحاة من الجنوب الأمريكي الا انها تحمل اللمسات الانسانية التي تجعلها مقروءة في كل مكان خارج ذلك الحيز الضيق . ولقد بدأ فوكنر ، كما ذكرت ، بكتابة الشعر قبل كتابة القصة ، وظل طوال حياته معتقدا بأنه شاعر ولو أن شعره لم يكن من النوع الجيد . ويبدو أنه كان متأثرا بشكسبير وشعرت . س . اليوت قبل نظم الأخير لقصيدة « الارض الخراب » The Waste Land ، كما يبدو ان فوكنر توقف عن نظم الشعر عندما بدأ كتابة الرواية في منتصف العشرينات .

ولقد كتب فوكنر اول رواياته عام ١٩٢٥ في أثناء اقامته لمدة ستة شهور في مدينة نيواورليانز ، وكانت تعرض الحياة في هذه المدينة ونشرها في احدى الصحف ، ثم اعيد نشرها في كتاب عام ١٩٥٨ بعنوان « صور من نيواورليانز » . كما نشر عددا من القصص الضعيفة في أسلوبها وتركيبها . وهذه القصص والاشعار التي نشرها في باكورة حياته الادبية لا تعتبر ذات قيمة ذاتية ،ولكنها ذات اهمية لدراسة المؤشرات والومضات الاولى التي ترهص بالاعمال العظيمة التي كتبها فيما بعد .

وأول عمل هام أنجزه فوكنر هو رواية « أجر الجنود » Soldiers,Pay التي نشرت في أمريكا عام ١٩٢٦ وتحمل في ثناياها بذور الموهبة ، ولو أنه من الصعب أن نتصور أن مؤلفها هو المؤلف نفسه الذي كتب بعد ثلاث سنوات الرواية الرائعة « الصوت والغضب » . ويبدو تأثير الدوس هكسلي على فوكنر واضحا في روايته الأولى « أجر الجنود » ، ولقد كان تأثير هكسلي على المؤلفين الشبان قويا في العشرينات . ويبدو في هذه الرواية بذور (التكنيك) التي نبتت في مؤلفاته فيما بعد ، مثل التركيز على الوقت والاستجابات المختلفة للشخصيات أزاء الحدث الواحد . وكان يتحتم على فوكنر التخلص من تأثير هكسلي قبل أن يصبح كاتبا متميزا ، ولو أن ذلك التأثير ظل مهيمنا على فوكنر في روايته الثانية « البعوض » ، بل يبدو تأثير هكسلي في هذه

الرواية أقوى منه في الرواية الأولى . وتتضمن هذه الرواية حوارا ثقيلا يدعو الى الملل عن الفن والحياة والجمال والجنس ، ولم تعد هذه الرواية أهميـة في الوقت الحاضر سوى مجرد دراسة خطوات تطور كتابات فوكنر وبعض الاشارات التي تظهر في مؤلفات فوكنر الأكثر نضجا فيما بعد .

وتعتبر الرواية الثالثة « سارتوريس » خطوة هامة على طريق تـطور فوكـنر ، ويبدو تـطور فوكنر ونضجه الفني في ذروته في روايته التالية « الصوت والغضب »التي اعتقد أنها أروع ما كتب على الاطلاق .

ففي رواية « أجر الجنود » رسم فوكنر صورة لمدينة صغيرة من مدن الجنوب الأمريكي ولو أنه وضعها في مقاطعة جورجيـا . وفي رواية « سارتوريس » بدأت في الظهور لأول مرة مدينة جيفرسـون التي أصبحت في معظم رواياته عاصمة مقاطعته الخيالية ، وكأن فوكنر في تلك المرحلة المبكرة كانت لـديه رؤ ية واضحة وتفصيلية لما سوف يفعله في رواياته التي كتبها بعد ذلك والتي تدور احداثها في يوكنباتاوفا ، والتي تتكـرر فيها بعض شخصيـات معينة . ويمكن اعتبار رواية « سارتوريس » كمخـزن للشخصيات والأحداث التي توالت في رواياته المختلفة أكثر من اعتبارها رواية في حد ذاتها .

والخيط الذي يربط الرواية هو قصة بـايارد سارتوريس Bayard Sartoris الـذي ينحدر من سلالة الكولونيل جونسارتوريس . ولقد استمد فوكنر شخصية الكولونيل جون من شخصية جده . وتتكون قصة بايارد من محاولاته العـديـدة لكي يتعـرض للقتـل .ومن نقـاط الضعف في الرواية عدم توضيح الاهداف التي تدفعه لذلك . ثم ينجح في النهايـة في ملاقـاة حتفه عن طريق ركوبه طائرة يعـرف مسبقا أن حالتها لاتدعو للاطمئنان .

وبعد نشره لرواية سارتوريس ظـل فوكـنر يعتبر كاتبـا صغيرا ، ولكن في العام نفسه ، ظهرت روايته « الصوت والغضب » وهي من أعظم الروايـات التي ظهـرت في القـرن العشرين ، وهومدين سواء بطريق مباشر أو غير مباشر في هذه الرواية للروائي الايرلندي جيمس جويس . ومثل كثير من روايات فوكنر ، كان لابد من أن يتعود القراء على قراءة مثل هـذا العمل الفني الذي لم يـألفوه من قبـل ، ولكن عندما يدرك الانسـان كيف يقرؤ ها فسوف يشعر بالمتعة والانبهار .

وتشبـه رواية « الصـوت والغضب » روايـة « أبسالوم ، أبسـالوم » في كونهما روايتين تشيـع فيهما صلة الدم الـوراثي والروابط العـائلية . فرواية « الصـوت والغضب »تحكي قصة بيت يتعفن ، انـه منزل كـومبسـون Compson الـذي نشأ فيـه حـاكم وجنـرال وكـان يتمتع

بارستقراطية في جيفرسون بمقاطعة يوكناباتاوفا . وحصل أحد أسلاف كومبسون على ميل مربع أخذه من الهنود الحمر أصبح فيما بعد يشغل جزءا كبيرا من مركز مدينة جيفرسون . وآل كومبسون الذي تتحدث عنهم الرواية هم آخر سلالة كومبسون الكبير ، كبقية ضعيفة من بقايا التراث القديم ، هم كونتين الذي يقدم على الانتحار ، وكادي الثائرة جنسيا ، وجاكسون الذي يصبح رجل أعمال لاقلب له ولا روح ، وبنجي المتخلف عقليا . ونجد الأب مستركومبسون عديم التأثير وزوجته المنافقة التي تندمج سريعا مع المؤثرات الوراثية لتقود الأطفال عبر مساراتهم الشنيعة . وتمتد الرواية منذ طفولة كونتين وكادي وجاسون وبنجي في أواخر القرن الثامن عشر حتى أحد الفصح عام ١٩٢٨ عندما تهرب ابنة كادي (المسماة كونتين على اسم خالها المتوفي) ، مع شخص غريب يعمل في معرض متنقل للملاهي ، والرواية مقسمة الى أربعة أقسام ، القسم الأول منها يحكي على لسان بنجي المتخلف عقليا وهو مؤرخ ٧ ابريل عام ١٩٢٨ (سبت عيد الفصح) ، والقسم الثاني مخصص لكونتين وتاريخه ٢ يونيه ١٩١٠ ، والثالث خاص بجاسوس بتاريخ ٦ ابريل ١٩٢٨ ، والرابع على لسان المؤلف ومؤرخ ٨ ابريل ١٩٢٨ . ويعتبر القسم الأول الذي يروي على لسان بنجي المتخلف عقليا أروع الأقسام الأربعة ، وهو واحد من أشهر ما ظهر في الأدب الحديث . وتحكي القصة في هذا الفصل ، كما ذكرت ، على لسان أبله متخلف عقليا تبعا لتصوره وتلقائيته الغريزية المجردة من الذكاء ونظام تسلسل الأفكار حيث يتساوى لديه الزمن الماضي والحاضر ، وما حدث بالنسبة اليه منذ ثلاثين عاما يبدو له حيا وكأنه يحدث الآن .

ويبدأ القسم الأول من الرواية في « الوقت الحالي » بالنسبة لأحداث الرواية وبنجي بصحبة الخادم لستر Luster يسيران معا جنب سور يحيط بملعب الجولف ، ونعرف فيها بعد أن أرض ملعب الجولف هي الجزء الذي كان من المفروض أن يرثه بنجي وهو آخر ما تبقى من أملاك كومبسون (الميل الرابع) ولكنه بيع منذ أعوام لكي يتمكن من الالتحاق بجامعة هارفارد . ويبحث لستر عن ربع دولار لكي يتمكن بنجي من رؤية أحد الملاهي المتنقلة التي تزور المدينة . ويستخدم المؤلف بحث لستر عن ربع الدولار للدلالة على أن هذا يحدث في الوقت الحاضر (ليس في الماضي ولا في المستقبل) . بينما معظم هذا القسم يضم أحداثا من الماضي . وتتداعى أفكار الماضي في ذهن بنجي المتخلف عقليا تبعا لتأثره بأشياء يراها في الحاضر ، كمنظر النار أو الذهاب الى الفراش . فهو مثلا عندما يرى الطفلة كونتين على الأرجوحة بصحبة رجل يتذكر عندما رأى أمها كادي في المكان نفسه . والحوار في الرواية يكتب بحروف مائلة عندما ينحرف عن الحاضر ويوغل

في الماضي ، وهذه الفقرات المكتوبة بحروف مائلة لاتشكل حديثا مترابطا ، اذ يتذكر أشياء غير مترابطة ، فهو يتذكر عندما غيروا اسمه الى بنجي لما ثبت تخلفه العقلي وذلك باصرار من والدته . كما يتذكر عندما ماتت جدته ، ويوم زواج كادي أخته عام ١٩١٠ ، وعندما أجروا له عملية الخصي لأنه شوهد يغازل بنات المدارس اللاتي يمرون أمامه . وهو في أحاسيسه وتشبيهاته يفكر بغرائز تشبه غرائز الحيوانات . فهو يتذكر أخته ، مثلا عندما يشم رائحة بعض النباتات .

وبينما يفكر بنجي بهذه التلقائية الصريحة ، نجد كونتين في القسم الثاني يتجه دائما نحو المنطق ، فالوقت والشرف والعذرية هي المواضيع السائدةالتي تدور في ذهنه . وتطابق ذكريات كونتين في كثير من الاحيان مع ذكريات بنجي ، ولذا فان قراءة القسم الثاني في الرواية الخاص بكونتين يلقى ضوءا على القسم الأول الخاص ببنجي ، وتفسر كثيرا من أفكار كونتين المعذبة . فكونتين يتميز بعقل ذكي رفيع المستوى ، ولكن اهتمامه بتصرفات اخته واهتمامه بشرف العائلة ، وعن طريق تيار الوعي ، يجعلنا ندرك ما يدور في ذهنه من الانطباعات والذكريات والصور التي تتدفق خلال اليوم الأخير من حياته . ولايفصح المؤلف عن انتحار كونتين بشكل مباشر ، بل يأتي ذلك عن طريق اشارات متكررة عن الماء تجعلنا ندرك تدريجيا عزمه على الانتحار غرقا .

وتتسلط على كونتين فكرة ربط شرف العائلة بعذرية أخته كادي .

وفي القسمين الثالث والرابع من الرواية لا نجد سوى قليل من الصعوبات التي نصادفها في القسمين الأول والثاني . والقسم الرابع مكتوب بالاسلوب التقليدي ، واذا رأينا أنه أكثر الاقسام نجاحا فربما يعزى ذلك الى الهدوء النسبي الذي يسود ذلك القسم اذا قارناه بالاقسام العاصفة التي تسبقه ، وتضفي عليه الخادمة الزنجية « ولس »ذلك الجو الهادىء . كما قد يعزى أيضا الى وصولنا الى موضع في الرواية تتبلور فيه الاحداث المعقدة فتبدو الرواية لنا واضحة . ولقد قال فوكنر عن هذا القسم « لقد حاولت أن أجمع الأجزاء معا وأملأ الثغرات عندما رويت الأحداث على لساني في ذلك القسم » . وهنا يبدو معنى الرواية في صورته الحادة .

وتقع أحداث هذا القسم من الرواية يوم الأحد في عيد الفصح . ويتركز اهتمام فوكنر في هذا الجزء في اضفاء صور محددة من النظام والتعفن والأنانية والخداع التي شاعت في الأقسام الثلاثة الأخرى . ففي الصفحة الأخيرة يغضب بنجي غضبا شديدا عندما سار لستر بالعربة على يسار نصب الجندي بدلا من على يمينه كالعادة . والى جانب ذلك فاننا نرى الشخصية الايجابية لدلس بكفاءتها الفائقة وصبرها واحتمالها وقلبها المليء بالحب ، حيث

تبدو على نقيض مسز كومبسون العصبية المزاج التي يعزى تحلل وتدهور العائلة الى فشلها في منح أطفالها الحب والحنان . وتجد أن دلس وحدها هي التي تحاول منح كودي بعض العطف الذي هو في مسيس الحاجة اليه . وترجع أهمية ذلك في كونه يجعلنا ندرك بشكل قوي أن يأس كادي يشكل صميم الرواية . وان رواية « الصوت والغضب » هي في الواقع رواية كادي ومأساتها . أو كما قال فوكنر ، مأساة امرأتين ضائعتين هما كادي وابنتها كونتين (التي تحمل نفس اسم خالها كونتين الذي انتحر غرقا) .

ولقد أزعج تمزق الرواية من القراء ، ولكن ينبغي أن يأخذ في الاعتبار أن فوكنر لاتعنيه القصة بشكلها بقدر ماتعنيه ارتباط التفاعلات والانطباعات المختلفة للشخصيات المتعددة ازاء الأحداث نفسها ، وعلى الأخص سلوك كادي قبل وبعد زواجها . وعلى الرغم من أن فوكنر لايحملنا داخل عقل كادي ، الا انها تصبح تدريجيا محور الرواية ، فهنا نجد اخوتها الثلاثة تستعبدهم أفكار سيئة تجاه أختهم ولكنهم يختلفون في سلوكهم تجاهها ، ولو أن الجميع يبدون أنانية والتفكير فيما ينعكس عليهم شخصيا ازاء تصرفاتها . لاأحد منهم قادر على التعاطف معها ومحبتها ، بل الجميع يريدون أن يفرضوا عليها نمطا صارما من السلوك لمصلحتهم الخاصة ، تلك المصلحة التي تتسم بالأنانية . ولكن كادي تثور ضد هذه الصرامة وتعبر عن هذه الثورة في صورة حرية جنسية في أول الأمر ثم زواجها فيما بعد ، وتظل دائما سجينة فكرة معينة ، وهي أن ابنتها رهينة بين يدي آل كومبسون . وترتب على ذلك أن سلكت كونتين مسلك أمها ، ومهما كان الشخص الذي هربت معه فانه على أية حال يعتبر بمثابة أمل في أنها لن تترك وراءها رهينة عند آل كومبسون . وكما هي الحال بالنسبة لأمها ، فان كونتين تبحث عن أي انسان يمنحها الحب . ومن خلال التركيز على هذا البحث اليائس عن الحب وخلال تعاطف دلس بالمقارنة مع كراهية آل كومبسون ، يتضح لنا في النهاية أن الفشل في الحب وانتصار الغرور هي التي تسببت في تدهور وتفتت بيت كومبسون . وما زال النقاد مختلفين ، لا على معنى هذه الرواية فحسب ، بل على قيمتها أيضا .

عندما أرقد محتضرة

أجمع معظم النقاد على أن رواية فوكنر « عندما أرقد محتضرة » As I Lay duing التي كتبها بعد رواية « الصوت والغضب » هي أكمل وأنجح ما أنتج . وهي أبسط رواياته اذا تمكنا من ادراك خطتها التركيبية الأساسية . وتدور حول العلاقات الضارية بين أفراد عائلة بندرن Bundern الذين يعيشون في ضيعة فقيرة على أحد تلال مقاطعة يوكنا

باتاوفا . والموت المذكور في عنوان الرواية يتعلق بأداى Addie Bundern الأم التي انتزعت من زوجها آنس Anse وعدا بأنها عندما تموت فسوف ينقل جثمانها الى مدينة جيفرسون لتدفن هناك مع أقاربها . وتتحدث معظم الرواية عن رحلة العائلة الى جيفرسون بمصاحبة جثمانها والمخاطر المضحكة أحيانا والمرعبة أحيانا التي يتعرضون لها خلال الطريق حيث تمتزج الملهاة بالمأساة .

وتشتمل الرواية على ستين فصلا (أوقسما) ذات أطوال غير متساوية (أحد الفصول عبارة عن جملة واحدة هي « أمي سمكة » My mother is a fish) وبها خمس عشرة شخصية ، وكل فصل يروى على لسان احدى الشخصيات ، ومن خلال هذا السرد الذي تتبادله الشخصيات تسير الاحداث الى الأمام وتتكون الرواية . وكل حديث يتناول وجهة نظر الشخصية التي ترويه ، كما يدل على ذكاء تلك الشخصية وبصيرتها ومعلوماتها ، سبعة من الخمس عشرة شخصية من آل بندرن والباقي من جيرانهم وبعض الشخصيات التي تنضم اليهم في أثناء الرحلة . ومن المحتمل ان يكون دكتور بيبودي Peeabody أكثرهم اهمية ، فهو الذي يتولى في بعض الأحيان مهمة الكورس أو المعلق على الأحداث ، بينما نجد أن أقلهم اهمية الصيدليين اللذين يتصرفان بطريقة مختلفة تجاه حمل ديوى دل Dewey Dell . ويتفق النقاد عادة على اختلاف وجهات النظر تجاه الأحداث في هذه الرواية ولكنها في بعض الأحيان تبدو مبالغا فيها ومنفرة .

ولقد وجدت أدى المتوفاة عزاء وانتقاما في الوقت ذاته في علاقتها بأبنائها . فهى تحب كاش أكبر أبنائها وهو يحبها ، ولا يعبر عن حبه عن طريق الكلام ، بل بالافعال وعلى الأخص بعنايته الفائقة بصنع كفنها والمجهود المضنى الذى يبذله في سبيل ذلك وقوة احتماله . ولم تكن أدى تكن حبا حقيقيا لزوجها آنس عديم الشخصية ، وعندما ولد ابنها دارل Darl تفجر غضبها فرفضته هو أيضا كما رفضت زوجها ، ولذا يشعر دارل بأنه بلا أم ، وهو غير متأكد من تمتعه بشخصية مستقلة ولا يحب امه ويحاول حرق كفنها ليلغي الرحلة الى جيفرسون . أما جويل Jewel، الابن الثالث لأدى ، فلقد جاء الى الوجود نتيجة علاقة غير شرعية بين أمه والاسقف وايتهد Whitehead . وبين الأم وابنها جويل حب عنيف متبادل لا يستطيعان الافصاح عنه . فهى تظل تراقب جويل في غرفة نومه حتى ينام ، ولا يجد جويل متنفذا للتعبيرعن حبه لأمه الا عن طريق حبه لحصانه .

وعرف دارل أن أخاه جويل ليس من صلب أبيه ، ودأب على سؤاله مستوضحا منه اسم أبيه الحقيقى ، وهذا سر كراهيةجويل لدارل ، تلك الكراهية التي ظلت تنضج حتى بلغت ذروتها عندما أدخلوا جويل مستشفى الامراض العقلية في جيفر سون . ولقد هاجت ديوى دل اخاها جويل للسبب نفسه ، وهو الوحيد الذى يعلم

أنها حامل وأنها ترغب في الذهاب الى جيفرسون لشراء دواء للاجهاض . وكانت الأم تقول انها منحت ديوى دل لزوجها في مقابل جويل ! وانها منحته ايضا الطفل الأخير فاردامان ليحل محل جويل . ولقد احتار النقاد في أمر فاردامان Vardaman ، وبما أنه كان طفلا صغيرا عند وفاة أمه فان وصفه لأمه بانها سمكة من الممكن ان يؤخذ على محمل هذيان اطفال .

كل هذه العلاقات التي تتركز حول الأم التي جمعت شمل العائلة طوال حياتها بفضل قوة شخصيتها ، وما زالت تجمعها حتى بعد موتها ، يماط اللثام عنها في الرواية خلال الرحلة الى جيفرسون ، ولهذا فتركيب الرواية يعتبر مركزيا وطوليا في الوقت ذاته ، ويمكن مقارنة تحركها بحركة عجلات العربة وهي تدور في أثناء سيرها .

فالحركة الطويلة هي الرحلة ذاتها وتعبر عن وصية الأم ، فهي التي ارغمت زوجها على تحمل مشاق هذه الرحلة على غير رغبته ، وهي انتصار للأم ، والرحلة ذات أهداف أخرى بالنسبة لبعض أفراد العائلة . فالابنة مثلا ، تريد الذهاب الى جيفرسون لا لكى تدفن أمها هناك كما أوصت ، ولكن للحصول على دواء للتخلص من الحمل ، والأب ليتزوج من امرأة جديدة ! ولو ان فكرة الزواج لم تكن تدور في ذهن الأب قبل وصوله الى جيفرسون على مايبدو ، فكانت الرحلة هي السبب في زواجه !

ونموذج الرواية يبدو فكاهيا بالدرجة الاولى ، كما يبدو ان ذلك التركيب الحديث المعقد للرواية قد استخدم ليروى نكتة مثل حكايات الامريكيين الاوائل . ولغتها أصيلة تتحدى اعظم كتابات مارك توين ، وهي في الوقت ذاته تشبه رواية « هكلبرى فن » The adventures of Huckleberry Finn لمارك توين ark Twain. في كونها رواية جادة . ففى رواية « هكلبرى فن » تجرى أحداث رهيبة في أثناء رحلة هكلبرى في نهر المسيسيبي ليحرر جيم ، كما يحدث في أثناء رحلة آل بندرن في طريقهم الى جيفرسون ليحرروا أنفسهم من أدى بدفنها هناك . وفي الروايتين نجد الفكاهة والرعب تبعا لتقاليد كتابة الواقعية الفكاهية في حكايات الامريكيين الاوائل . فالرعب واضح ولكنه يتوازن مع الضحكات وتوكيد القيم الايجابية للانسان .

وقد يبدو بعض التشابه بين أفراد عائلة بندرن ككل في رواية « عندما ارقد ميتة » وأفراد عائلة كومبسون التعسة في رواية « الصوت والغضب » ، حيث تحتل أدى مكانا يشبه مكان كادى ، وبينما لاتظهر القيم الايجابية في « الصوت والغضب » الا في نهاية الرواية عن طريق دلس الغريبة عن العائلة ، نجد في رواية « عندما أرقد ميتة » ان هذه القيم تبرز من بين افراد العائلة عن طريق « كاش » الابن الذى يزداد ادراكة للعلاقات الانسانية عمقا مطردا خلال الرحلة .

الملاذ

تعتبر رواية « الملاذ » Sanctuary اكثر

روايات فوكنر شهرة وشعبية ، وهذه الحقيقة جعلت النقاد الجادين يغمطون قدرها ويقللون من شأنها . ولقد اعتبر بعضهم العنف في الرواية اكثر من اللازم وان لغتها متكلفة ، وشجعهم على هذا الاتجاه في التفكير وليم فوكنر نفسه الذي قال في احدى طبعات هذه الرواية : « ان فكرة هذه الرواية رخيصة ولم يدفعني لكتابتها سوى الحصول على المال » . ولقد قال فوكنر انه اعتنى بمراجعة الرواية قبل تقديمها للنشر . ويبدو ان هذه المراجعة كانت دقيقة وان الرواية في صورتها المنشورة تعتبر ناجحة ولو انها ليست من الأعمال العظيمة لفوكنر . فهي الى جانب مشاهد الرعب والعنف تحتوي على بعض الاحداث الفكاهية التي تعتبر من أجمل ما كتب فوكنر . فتبادل العنف مع الفكاهة التي تضفي عليها طابع الميلودراما دفعت عددا من النقاد الى اعتبار الرواية ذات نمط رمزي ، فلقد قال عنها الناقد أودونل O,Donnell عام ١٩٣٥ ما نصه : « ان النمط الرمزي ببساطة هو فساد نساء الجنوب الامريكي ولكنه فساد لايتسم بالدنس » . ويبدو هذا التفسير دقيقا ولكنه لايعكس مسائل العدالة والذنب التي تظهر في نهاية الرواية ولا تتفق مع شخصية هامة مثل شخصية روبي لامار المرأة الساقطة التي أصبحت زوجة جودوين ، فان روبي بصبرها وشجاعتها وحبها العميق لجودوين تعتبر واحدة من بين الشخصيات القليلة التي تدعو الى الاعجاب في الرواية ، وينبغي ان نحكم على تمبل دريك بمقارنتها بروبي ، مع الاخذ في الاعتبار بان روبي نشأت من طبقة وضيعة المستوى بينما تنتمي تمبل الى الطبقة الارستقراطية .

وربما تكون رواية « الملاذ » قصة بنبو Ben-bow اكثر منها قصة تمبل دريك . فبنبو اكثر الشخصيات ذكاء ، وتتطور الرواية تطورا ثوريا بفضل سلوكه وأفكاره ، وقد يكون عنوان الرواية « الملاذ » تعبيرا مجازيا عن المثالية التي لم تخضع للاختبار لدى بنبو ويظل محتفظا بها حتى تتحطم في النهاية عند اتهام جودوين البريء واعدامه ظلما والمعاملة السيئة التي عومل بها من الجماهير . ولكن المعنى الاكثر احتمالا الذي تفرضه الرواية قد يكون التعبير عن التقاليد العريقة النقية لنساء الجنوب الامريكي وتمتع تمبل بالحماية التي يضفيها عليها انتماؤها لعائلة ذات ثروة وقوة أستطاعت ان تلوذ بها في نهاية القصة .

والفكرة المسيطرة على بنبو بالنسبة لنموذج من نساء الجنوب ، وهي « بيل الصغيرة » تجعله يضع كل أمله في أثناء محاكمة جودوين في نموذج آخر يتمثل في تمبل دريك ، وعدم اسراعه بمقاطعتها عند ادلائها بشهادتها في أثناء المحاكمة يعتبر دليلا على عدم تحمسه للاعتقاد بأن نساء الجنوب من الممكن ان يتخلين عنه ويتركنه يواجه كارثة .

وعدم ادلاء تمبل بالحقيقة واليمين الكاذب الذي أقسمته في المحكمة ، والذي بسببه حكم بالاعدام على جودوين يعبر عن تجرد المجتمع الراقي من الانسانية في مدينة جيفرسون كما يبدو على الأخص في طريقة معاملتهم لروبي ، حتى رجال القانون انفسهم لم يسلموا من هذه الوصمة ، فان امتناع تمبل عن الادلاء بالحقيقة

قد فرضته وارغمتها عليه عائلتها ، ويبدا القاضي دريك نفسه مثل الآخرين غير مهتم بالعدالة .

فعلى الرغم من براءة جودوين ، فلقد صدر ضده حكم بالاعدام ، حكم ظالم من قضاة فاسدين ، ولم يمهلوه لكي يعدم بالطريقة القانونية ، بل انقض عليه الدهماء وقتلوه ، هؤلاء الدهماء الذين امتزج غضبهم بالحقد الجنسي . وفي نهاية الرواية يركز المؤلف على فساد المجتمع بأسره وعلى الفكرة الرئيسية للذنب والعدالة والثواب والعقاب . ولكن هذه الأشياء لم تستكمل تطورها في هذه الرواية كما استكملته في رواية « قداس لراهبة » Requiem for a Nun التي كتبها فوكنر فيما بعد ، عام (١٩٥٠) . تظهر تمبل دريك في هذه الرواية أيضا ، ويلاحظ في عديد من روايات فوكنر ان الشخصيات تعاود الظهور في مراحل مختلفة من أعمارهم وكأنها ملحمة واحدة متصلة تقع أحداثها في مقاطعته الخيالية يوكناباتاوفا ، ولو أنها تختلف اختلافا جوهريا عن الروايات التي تتناول تاريخ حياة الاجيال المختلفة في عائلة واحدة ، اذ لايمكن مقارنتها ، مثلا ، برواية « عائلة بودنبروك » Buddenbrooks للكاتب الالماني توماس مان ، او رباعية الاسكندرية للورانس داريل الانجليزي ، اذ ان كل رواية من روايات فوكنر تبدو كوحدة مستقلة .

ورواية « قداس لراهبة » تبدو فيها تمبل دريك وقد تزوجت وأصبح لها طفلة ، ولكننا لانعلم شيئا عن ظروف زواجها ، والرواية معروضه من وجهة نظر تمبل . وعلى الرغم من جمال كل فصل من فصولها على حدة ، الا انها ككل لاتعتبر ذات اهمية كبرى ، وتجمع الرواية بين السرد والمشاهد المسرحية .

ضوء في أغسطس . Light in August

نشرت هذه الرواية عام ١٩٣٢ ، وهي من اعمال فوكنر العظيمة . هي قصة رجل لاجذور له في مجتمعه لأسباب فرضها عليه القدر ولا يد له فيها . يشعر بوحدة رهيبة ويبحث في يأس عنيف طوال حياته عن مكان في المجتمع وعن معنى لشخصيته . ولكي يروي فوكنر تلك التراجيديا ذات القالب الحديث فلقد استخدم خبرته التي حصل عليها من كتابة رواياته التجريبية السابقة لانشاء عمل أدبي تقليدي سواء في تركيبته أو في عرضه للحقائق الاجتماعية . وفكرة الرواية معقدة واحداثها غير مترابطة وليست مرتبة ترتيبا زمنيا ، وتتضمن فترات عديدة من الرجوع الى الماضي Flash-backs ولا توضح لنا كيف كان « كرسماس » بطل الرواية ، في لحظة وفاته ، كما يوجد شك فيما اذا كان ، بعد ارتكابه الجريمة ، قد قبض عليه يوم الجمعة ام يوم السبت .

ويمكن تلخيص الاحداث الخارجية لهذه الرواية فيما يلي : « لينا جروف » فتاة ريفية من ولاية ألاباما تأتي الى مدينة جيفرسون لتبحث عن « لوكاس بيرتش » والد طفلها الذي ما زال في أحشائها . وتتقابل مع « بيروت بنش »

الاعزب الخنوع عديم الأهمية الذى يقع في غرامها ويرعاها حتى تضع طفلها . ويتطابق قدومها مع اكتشاف جريمة مقتل مس بيردن التى تعيش وحيدة منعزلة عن العالم والتي تنتمى الى أسلاف من ولاية نيو انجلاند مؤيدين لمبدأ منع الاسترقاق . واتهم بقتلها شخص يدعى جوكرسماس الذى كان الجميع يعتبرونه ابيض ، ولكن أحد معارفه السابقين ، وهو لوكاس بيرتس يعلن ان الدم الزنجي يجرى في عروقه فيطاردونه على أنه زنجي ويقبض عليه بعد أسبوع من البحث عنه في مدينة « موتستاون » Mottstoun ويعودون به الى جيفرسون حيث يهرب ويسرع الى منزل قس موصوم بالعار يدعى « هايتاور » حيث يقتل بطلق نارى ، ويخصى بواسطة ضابط متعصب من الحرس الوطنى يدعى « بيرسى جريم » Percy Grimm . ووضعت لينا طفلها في هذه الفترة . وعندما يهجرها بيرتس تترك جيفرسون ويصحبها الشخص المخلص بيرون بنش .

وقصة جوكرسماس تشكل محور الرواية وتعرض حياته على هيئة فترات رجوع للماضى تستغرق سبعة فصول . ولقد أطلق عليه هذا الاسم في ملجأ للأيتام بمدينة ممفيس ، وظل طوال حياته تسيطر عليه فكرة معينة ، وهى ان أباه قد يكون الدم الزنجي يجرى في عروقه . ولا يستطيع هو أو نحن التأكد من ذلك الأمر ، ولا يدرى هل يتصرف تجاه المجتمع كرجل ابيض ام زنجي ، فهو يبدو ابيض اللون والمجتمع على استعداد لتقبله بهذا الوضع ولكنه يضطر مرارا ان يقول للناس انه زنجى . وعندما يكون بين الزنوج يصر على أنه أبيض ، وهو بذلك لايعرف الراحة والاستقرار ، فهو يتذبذب بين البياض والسواد باحثا عن ذاته عن طريق أحداث العنف التى تتميز بها حياته . ومعظم هذه الاحداث تتعلق بالتقاليد التى تسود المجتمع ، وعلى الأخص بالاذى والضرب الذى كان يعانيه من والده بالتبني « ماك ايتشرن » الذى كانت تصرفاته تتسم بعدم المرونة . والعقاب الذى كان يوقعه على كرسماس يجعلنا نستنتج نوعية شخصية ذلك الاب . اما كراهية كرسماس للنساء التي تطورت الى اشمئزاز منهن فيرجع الى نظرتهن الى الثواب والعقاب نظرة عاطفية تجعلهن يشفقن على من يستحق العقاب فيتلاشى الحد الفاصل بين الثواب والعقاب ، حيث كان يكافأ على شيء ، يتوقع العقاب عليه . وشفقة أمه بالتبنى ، مسز ايتشرن ، تؤكد هذا السلوك ، فهى لاتقبله كما هو ولكنها كانت تحاول ان تحمله على السلوك الذى يتفق مع التقاليد . وفي النهاية ، من خلال علاقته بمس بيردن التي كانت في بعض الاحيان علاقة جنسية ، لم تنس انه زنجي . ولذا فلقد نظرت الى هذه العلاقة على أنها جريمة لاتغتفر . وعندما توقفت هذه العلاقة الجنسية اصرت على أن يختار جوكرسماس الوضع الاجتماعى كزنجي . بالحاقة بكلية للزنوج ويسهم معها في خطة لرفع مستوى الزنوج ، فيدفعه ذلك الى مواجهة عنيفة عندما تحاول قتله فيقتلها .

وهذه المواجهة العنيفة التي تؤدى الى تحرر كرسماس من مس بيردن هى السبب المباشر

الذى جعل المجتمع يعامل كرسماس كما يعامل القتلة الزنوج . ومحاولة كرسماس التحرر من قدره الذى يدور في دائرة مفرغة تصاب بالاحباط وخيبة الأمل مرارا تبدو واضحة عندما كان مسافرا في عربة للزنوج متجهة الى موتستاون ليسلم نفسه .

لم يكن يطمع جوكرسماس في اكثر من الاستقرار والهدوء ، ولكن السلام كان الشيء الوحيد الذى لن تسمح له به بيئته . لابد أن يظل يجرى لاهثا في دائرته ، وهو كما يؤكد فوكنر في الرواية ، ليس شريرا ولكنه ضحية من ضحايا الوراثة التي فرضها عليه القدر ونوع التربية التي أتيحت له والمجتمع بشكل عام . والصور المسيحية التي أحاط فوكنر كرسماس بها ، وعلى الاخص في لحظة وفاته لايقصد بها تصوير كرسماس في صورة المسيح ولكن لابراز دوره كضحية .

ولا يمثل كرسماس الصفات الايجابية للرواية ، ولكنه يمثل مأساة الضحية التي لاحول لها ولا قوة حيث تحطمه قوى لا سلطان له عليها . ولقد استخدم فوكنر ليناجروف كاطار يحوى قصة كرسماس ، حيث تبدأ بها الرواية ثم تنتهي بها . تبدأ الرواية بلينا جروف التي غرر بها شخص بعد أن وعدها بالزواج ، ولكنه اختفى . ونرى لينا في بدء الرواية وهى مسافرة للبحث عن هذا الرجل الذى تعتقد انه في مدينة جيفرسون حيث التحق بعمل هناك ، وتنتهي بلينا بعد ان عطف عليها شخص آخر ووعدها بالزواج ولكنه هو أيضا اختفى .

ومولد طفل لينا يعتبر بؤرة العناصر الايجابية بالرواية ، حيث تمثل لينا الحياة بينما يمثل كرسماس الموت . ويزداد تأكيد ذلك عندما تخلط جدة كرسماس بين طفل لينا وحفيدها كرسماس الذى لم تره منذ كان طفلا . ويؤكده ايضا استقرار طفل لينا في المكان نفسه الذى ماتت فيه مس بيردن وتعليق هايتاور على ذلك بقوله : « مسكينة هذه المرأة . . لو عاشت اسبوعا آخر حتى ترى عودة الحظ الحسن الى هذا المكان ، حتى عودة الحظ والحياة الى هذه البقعة الحزينة » . كما ان وجود الطفل ايقظ حساسية هايتاور لجمال الدنيا ، كما ان بيرون الذى حل محل والد الطفل تعنى ولادة الطفل بالنسبة له نهاية عزلته .

وتعتبر شخصية لينا الى حد ما شخصية كوميدية حيث تمثل الفكاهة الريفية . وهى تمثل بعدا من أبعاد ثراء الرواية لتظهر المعنى الشامل لها . ويقول مالكولم كاولى ان عنوان الرواية : « ضوء في أغسطس » جملة ريفية تشير الى حمل لينا ، وتشير أيضا الى النور والظلام اللذين يتعاقبان طوال الرواية والى الاضاءة الاخلاقية التي يشعر بها كل من كرسماس وهايتاور في النهاية . وترمز لينا وطفلها الى صفات الحياة الطبيعية : الخصوبة والصبر وقوة التحمل . ولقد قصد فوكنر بعرضه شخصيات من أمثال دوك هينز Doc Hines وماك ايتشرن Mc Eachern ومس بيردن وبيرس جريم وهايتاور (قبل يقظته) ، توجيه نقد مر للفقر الروحى واللا انسانية الدينية لجنوب الولايات المتحدة . وقصة هايتاور في الرواية ، الرجل

الذى انبثق من الجمود الى الحياة ، قد تكون أوضح مرشد لكل ما يريد أن يقوله فوكنر في روايته .

ولقد تغيرت حياة « هايتاور » Hightower تغيرا جذريا بقدوم كرسماس ولينا جروف ، هذين الغريبين اللذين قدما الى جيفرسون واظهرا بقدومهما أسوأ وأجمل ما في سكانها . ونلاحظ ان الفصل الذى خصصه المؤلف لسرد تاريخ هايتاور موضوع قرب نهاية الرواية ، قبيل التمام الاطار الذى يحيط بلينا وبيرون .

ولقد استخدم فوكنر هايتاور عدة مرات كمعلق ذكى ، وفي هذا الفصل نجد أن فوكنر قد عرض لب موضوع الرواية ، تأثر هايتاور تأثرا عميقا بالماضى وعلى الأخص فيما يتعلق بمصرع جده برصاصة أطلقت عليه في أثناء الاغارة على المحلات التجارية بمدينة جيفرسون ، ولقد أمده هذا الحادث بمناعة ضد المشاعر البشرية ، مثل ما حدث لزوجته التي تسبب في انتحارها ، ومع ذلك فلقد ذهب هايتاور الى لينا جروف وحاول انقاذ حياة كرسماس عندما اقسم هايتاور كذبا ، بأن كرسماس كان موجودا بمنزله في الوقت الذى ارتكبت فيه الجريمة ، لقد أدرك ضرورة توافر المحبة والاسهام في صنع اقدار الآخرين ورفض الجمود . وهو في الواقع رفض ماضيه وجميع الذين تسببوا في عذاب كرسماس ، هؤلاء اللذين عجزوا عن الاستجابة الى حاجته كانسان وارادوا بدلا من ذلك توافقه مع السلوك المتلائم مع طبقته الاجتماعية .

بيلون Pylon

الرواية التى كتبها فوكنر بعد « ضوء في أغسطس » هى « بيلون » وتعتبر بعد رواية « البعوض » Mosqwtoes، أضعف رواياته . فلقد خلت من التماسك وبدت مفككة ، ويشعر قارؤها بتوتر ذهنى . وتبدو الرواية مكونة من عناصر جمعت مع بعضها دون أن تندمج معا . ولقد أعيد طبع هذه الرواية عدة مرات في انجلترا ، لا لجودتها ، ولكن للمواقف الجنسية التى تتخللها مع رداءتها من الناحية الفنية . وتبدو هذه الرواية كالقزم بالنسبة للرواية التي سبقتها وهى « ضوء في أغسطس » والرواية التي كتبها فوكنر بعدها وهى « ابسالوم ، ابسالوم ! » ، إنها قزم بين عملاقين .

أبسالوم ، أبسالوم !

يعتبر بعض النقاد رواية « أبسالوم ، أبسالوم ! » Absalom Absalom أعظم اعمال فوكنر على الاطلاق ، وتحتل مركزا ممتازا لم يشهده الادب الامريكى منذ رواية « أجنحة الحمامة » Wings of Dove التى كتبها هنرى جيمس . وتعتبر لغة الفصل الاول من الرواية اصعب ما في الكتاب ، وهو يشبه الاسلوب الاليزابيثى في تعقيده وروعته واشراقه ويسرى في جو قاتم عنيف ميلودرامى . كما تبدو الاحداث فيه غامضة ، ويحمل اشارات

لكوارث سوف تحدث وأشياء غامضة حدثت في الماضي ، ولكن تتضح الامور تدريجيا ، وعندما يتضح نسيج الرواية فانه يظل واضحا ولا يبقى مجال للغموض ، ولو ان الاحداث تتأرجح وتبدو كل مرة في ضوء جديد وتزداد ثراء ، ويبدو ذلك في أوضح صورة عند انهيار منزل ستبن Sutpen ، اذ أنه في هذا الموضع تحمل الرواية ثقل تراجيديا كونتين كومبسون[٤] ، وهي انتحاره الذى نقرؤه في رواية « الصوت والغضب » والبيئة الأساسية التي تحكى من خلالها قصة « ابسالوم ، ابسالوم ! »

وكونتين في هذة الرواية هو الوسيط الذى نسمع منه أصوات أناس غائبين وموتى ، ومن خلال كونتين وخيال شريف Shreve ، رفيق غرفته في المساكن الجامعية هارفارد يتجسد التركيب الشاعرى للرواية . والتركيب شاعرى لأن الرواية لاتمدنا بمعلومات مقطوع بصحتها عن حقيقة توماس ستبن .

ونعلم من البداية ان ستبن جاء الى مدينة جيفرسون من مكان غير معروف في يوم من أيام شهر يونيه ، في يوم الاحد عام ١٨٣٣ وشرع في انشاء مزرعة مساحتها مائة ميل مربع يطلق عليها اسم « مائة ستبن » ، ابتاعها من الهنود الحمر . وفي عام ١٨٣٨ تزوج من الين كولدفيلد ابنة تاجر محترم من أهل المدينة ، وفي عام ١٨٦٥ قتل هنرى (ابن ستبن) اخاه من أبيه تشارلس بون لمنعه من أن يتزوج اختهما جوديث ، وانه في عام ١٨٦٩ قتل ستبن ، والذى قتله شخص ابيض فقير يدعى واش جونز Wash Jones اغتصب ستبن ابنته ميلى Milly . كل هذه الحقائق لاشك فيها ، ولكن الذى يظل عرضة للشك هو المعنى العميق لهذه الاحداث وتسلسل الأسباب والتأثيرات التي تجمعها معا .

وتمدنا الرواية بثلاثة تفسيرات لهذه الاحداث ، تفسير على لسان روزا كولد فيلد أخت الين الصغرى التي عاد اليها ستبن في شيخوخته بعد قضاء أربع سنوات في الحرب الاهلية حيث وجد مزرعته وعائلته وقد أصبحت انقاضا . ولقد عرض ستبن على روزا زواجا مشروطا بضرورة ولادتها للابن الذى هو في حاجة اليه . وتفسير ثان عن طريق المستر كومبسون والد كونتين ، وهو ابن الجنرال كومبسون الذى كان الصديق الوحيد لستبن . والتفسير الثالث على لسان كونتين نفسه الذى يقصه على صديقه الكندى شريف في غرفتهما في مساكن جامعة هارفارد قبيل اقدامه على الانتحار الذى قرأناه في رواية « الصوت والغضب » . ومن الظواهر العجيبة في روايات فوكنر ان بعض الاشخاص تتكرر فيها وهم في أعمار مختلفة . وتفسير روزا الذى تقصه علينا في هذه الرواية ويستغرق معظم الفصل الاول والفصل الخامس بأجمعه طابعه الرعب . اما رواية كومبسون

(٤) ذكرنا ان بعض شخصيات فوكنر يتعدد ظهورها في رواياته المختلفة ، وفي هذه الرواية تظهر مرة أخرى شخصية كونتين التي ظهرت في رواية « الصوت والغضب » .

للاحداث فتشغل عدة فصول ابتداء من الفصل الثاني حتى نهاية الفصل الرابع ، وهو اكثر موضوعية وتعقلا من حديث روزا ، ولكنه يغالي في الاتزان ويقول ان موت تشارلس بون يبدو له بلا تفسير .

أما القسم الأخير من الرواية (من الفصل الخامس حتى النهاية) فهو محاولة من كونتين وشريف لتجميع الأحداث والشخصيات غير العادية في قصة ستبن واستخلاص معناها . ويبدو كونتين كبوليس سرى عبقرى يعيد بناء الرواية ويستنتج دوافع الاحداث ويتوصل الى حقيقة شاعرية معينة فيما يتعلق بموت هنرى ستبن وتشارلس بون ، حيث ان استنتاجاتها مبنية على معلومات أكثر اكتمالا من معلومات روزا وكبسون وأقرب الى الحقيقة ، وتلقى بأحكام ضوءا على شخصيتي المتحدثين السابقين . فحديث روزا مركز على علاقة ستبن بالنساء ، بينما يتركز حديث كومبسون على علاقة ستبن بمجتمع جفرسون والجنوب بوجه عام . اما حديث كونتين وصديقه شريف فمركز على علاقة ستبن وتشارلس وهنرى وجوديث ، وينبثق من ذلك الضيق والمرارة التي تشعر بها روزا . وبهذا تعتبر رواية « ابسالوم ، ابسالوم » ! دراسة للشخصيات التي ذكرتها روزا والتي ذكرها كمبسون وشريف ، حيث يتضح تفاعلهم هم الثلاثة تجاه الاحداث نفسها . والى هذا الحد فان رواية « ابسالوم ، ابسالوم ! » تسير على الخط التجريبي نفسه الذى تسير عليه رواية « الصوت والغضب » ورواية « عندما أرقد ميتة » . ولكن « أبسالوم ، أبسالوم ! » تختلف عن هاتين الروايتين اللتين سبقتها في أشياء عديدة هامة ، وهى تقابل جميع اجزائها واتجاهها نحو رواية مركزية بدلا من عرضها على هيئة اجزاء منفصلة . فهي هنا متداخلة في نسيج واحد مترابط ومتماسك . فأجزاؤها الثلاثة التى يرويها ثلاثة رواة تتداخل وتتطابق جزئيا وتتعارض وتتوافق ، وكل منها يضفى قيمة على الأجزاء الاخرى ، وتدور التعليقات الثلاثة نحو الموضوع المركزى للرواية . وقد تحمل الرواية بين ثناياها معنى صعوبة كتابة التاريخ ، اى تاريخ ، واستحالة معرفة الحقيقة وتطور الأسطورة ، وكيف تنمو فكرة بسيطة في ذهن الفنان لتصبح عملا جميلا رائعا . وربما تكون هذه الرواية قد نبتت من قصة بعنوان « واش » كتبها فوكنر عام ١٩٣٤ التى تنطوى على بذرة رواية « أبسالوم ، أبسالوم » ! ، حيث تطورت الفكرة في ذهن فوكنر تدريجيا لتصبح هذه الرواية العملاقة .

والرواية تؤخذ من وجهة نظر واش اكثر منها من وجهة نظر ستبن . والخطأ الذى وقع فيه ستبن يكمن في محاولته اتخاذ آدميين من لحم ودم كوسائل لتحقيق فكرته . وسقوطه كرجل يرجع الى اعتبار الآدميين ، حتى أفراد عائلته ، مجرد ادوات لتحقيق مخططه . وسقوطه كرجل من الجنوب يرجع الى رفضه النظر الى الزنوج كآدميين . وخطا الرواية مندمجان معا ، ولذا فان الحادث التراجيدى في قلب الرواية هو قتل هنرى لأخيه من أبيه تشارلس بون ، ذلك الحادث الذى ارهق مخيلة كونتين مرارا وتكرارا ، ما هو سوى نتيجة رفض ستبن

الاعتراف بابنه تشارلس بون الذى أنجبه من امرأة تجرى في عروقها نسبة ضئيلة من الدم الزنجي ، وهجر ستبن لوالدة هذا الابن . ولم يكن هذا الابن يطمع في اكثر من اعتراف أبيه ببنوته ، ولكن اصرار والده ستبن على الرفض يعرض صورة لاخفاق الجنوب في الاعتراف والتكيف لذلك الطلب المتواضع من الابن ، وهو الحد الادنى لما يمكن ان يطالب به آدميون لاذنب لهم سوى وجود بعض الدم الزنجي في عروقهم في مجتمع لايريد ان يعترف بآدميتهم .

ولقد كان ستبن يرزح تحت وطأة عقدة تأصلت في أعماق نفسه عندما كان صبيا أبيض فقيرا ذهب الى منزل أحد الاغنياء ليقدم له رسالة ، ففتح له الباب خادم زنجي رفض ان يتسلم منه الرسالة وأوصد الباب في وجهه ، ولكن ستبن ، فيما بعد ، انسى أنه هو نفسه اتخذ هذا الموقف العنيف عدة مرات تجاه والش جونز وابنته التى اعتدى عليها وتجاه ابنه هنرى ، وفوق هذا كله تجاه تشارلس الذى رفض بنوته .

قصص فوكنر القصيرة ورواياته ذات الأحداث العريضة

تختتم رواية « أبسالوم ، أبسالوم » فترة في حياة فوكنر الادبية ، وتبلغ ذروة انتاجه في السنوات السبع الواقعة بين عامى ١٩٢٩ و١٩٣٦ عندما نشر فوكنر الى جانب ديوان من الشعر ومجموعتين من القصص القصيرة ، أربع روايات تعتبر من أعظم انتاجه وهى :

« الصوت والغضب » ، و« عندما أرقد ميتة » و« ضوء في أغسطس » و« أبسالوم ، أبسالوم ! » وثلاث روايات أقل منها اهمية ، وهى : « سارتورس » و« الملاذ » ويلون » التى مازالت آراء النقاد متباينة تجاهها . لقد كان فوكنر في تلك الحقبة في ذروة خصوبته . وبعد روايته « ابسالوم ، أبسالوم ! » اختلفت روايات فوكنر في قيمها الى درجة كبيرة ، ولكنها تشترك جميعا في عدم توافر الاتصال التركيبى الذى يتوقعه الانسان في أية رواية من الروايات . واذا كان فوكنر قد فند في روايته « أبسالوم ، أبسالوم ! » ادعاءات النقاد من عدم قدرته على تعزيز التأثيرات التركيبية فان معظم أعماله التالية أكدت ان النقاد ربما كانوا على حق ، فلا تعتبر اية رواية من هذه الروايات ناجحة ككل ، ولكنها تتضمن بعض كتابات فوكنر الجميلة في اجزاء منها ، مثل الاجزاء الخاصة بالرجل المحجوز في كتابه « النخيل البرى The Wild Palms ، وقصة « الدب » و« سروال أسود » في كتاب « اهبط ياموسى » ـ Go downM oses حيث توجد علاقة بينها وبين القصص القصيرة لفوكنر . وروايتاه « التى لاتقهر » The Unvaquished و« اهبط ياموسى » ذات وحدة داخلية تجعلنا نعتبرها روايات ولو أنها تتكون من قصص منفصلة .

ولقد نشر فوكنر نحو خمس وسبعين قصة قصيرة بدأت عام ١٩٣٠ بقصة « وردة لاميل » A rose for Emily ، وهى أشهر قصصه القصيرة ، نشرها عام ١٩٥٠ ، في مجموعة تحتوى على ٤٢ قصة من بينها عديد من القصص

التى نشرها في مجموعات سابقة بعد اجراء بعض التعديلات عليها . كما نشر رواية القرية The Hamlet عام ١٩٤٠ ، ورواية « المدينة » عام ١٩٥٧ ، و« المنزل القديم » The Mansion عام ١٩٥٩ . وقصص فوكنر القصيرة رفيعة المستوى بوجه عام ، ويعد بعضها ضمن القصص العظيمة لهذا القرن . وبعض قصصه القصيرة كانت نواة لبعض رواياته ، فلقد ضمن قصة « واش » في روايته « أبسالوم ، أبسالوم ! » بعد أن قام بتنميتها ، وقصة « شرف » Honor في رواية « بيلون » . والاحداث والشخصيات والمشاهد التى تكون مركز أحد أعماله تعود للظهور على حافل عمل آخر فتثرى معنى الرواية او القصة التى لم يكونوا فيها سوى أجزاء صغيرة ، وهو الشيء الذى يجعلنا نشعر بثراء بقعة جغرافية صغيرة اختارها مسرحا للأحداث ، وهى مقاطعة يوكنا باتاوفا الخيالية .

وتحوى قصص فوكنر من الشخصيات والاماكن اكثر مما تحوية رواياته ، وتقع معظم احداثها في مقاطعة يوكنا باتاوفا . ففى مجموعته القصصية « هذه الثلاثة عشر » these 13 ، وهى من أجمل مجموعات فوكنر القصصية ، نجد أن قصة « الاوراق الحمراء » Red Leaves وقصة « عدالة » A Justice يحكيان قصة هنود حمر كانوا في مقاطعة يوكناباتاوفا قبل قدوم الانسان الأبيض الى أمريكا ، بينما نجد أن قصتى « وردة لاميلى » و« سبتمبر الجاف » Dry September تقع أحداثها فيجيفرسون عاصمة مقاطعة يوكنا باتاوفا .

وقصة « اوراق حمراء » تروى قصة رجل من الهنود الحمر كان من عبيد أحد رؤساء الهنود الحمر ، ويهرب العبد عقب موت سيده ولكنهم يطاردونه ويقبضون عليه ليموت ويدفن مع سيده في القبر نفسه . وفي قصة « عدالة » التي تروى على لسان « سام » وهو زنجى يجرى في دمه دم الهنود الحمر ، يروى قصته لكوئتين كمبسون عندما كان صبيا . (وظهور الشخصيات في أكثر من رواية في أعمار مختلفة يضفى على الروايات جوا من الواقعية الشديدة) ، وتحمل القصة سمات فكاهة الجنوب الامريكى ، ولكن فوكنر لا يحكيها باللهجة العامية التي استخدمها مارك توين بذكاء في روايته « هكلبرى رفن » . ولوان اللهجة العامية تظهر في قصص أخرى لفوكنر مثل قصة Fool about a horse والطبعة الاولى لقصة « الخيل المقطعة Spotted Horses .

وتعتبر قصة « وردة لا يميلى » ، كما ذكرنا ، أشهر القصص القصيرة لفوكنر ، ولكن تركيز النقاد على هذه القصة من شأنه ان يجعلهم يتجاهلون قصصا قصيرة أخرى لهذا المؤلف لاتقل عنها مستوى ، مثل قصة « سبتمبر الجاف » التى لاقت من اهتمام النقاد أقل مما تستحق . وبوجه عام ، نجد ان فوكنر يكون في أحسن حالاته وفي اروع مستوياته في القصة القصيرة لا في الرواية كما قد يتصور الكثيرون . فهى أقل غموضا واكثر سلامة في أسلوبها من رواياته ولا تجهد القارىء اثناء قراءتها . وعلى الرغم من بساطتها نجدها قوية التركيب خالية من التكلف في أسلوبها .

التي لاتقهر The unvanquished

كتب فوكنر كتاب « التي لاتقهر » بعد رواية « أبسالوم ، أبسالوم ! » . والكتاب في الواقع عبارة عن سلسلة من القصص القصيرة ، ولكننا نجد في الكتاب استمرارا للشخصيات والمواقف التي تجعلنا نعتبره رواية ، ولو أن نمط القصة الاخيرة في هذا الكتاب يختلف اختلافا ملحوظا عنه في القصص التي تسبقها ، وتعتبر هذه الرواية من اكثر روايات فوكنر تفككا في تركيبها وعدم ترابطها ، ولو أنه من الاصوب ان يبدأ قارىء فوكنر بقراءة هذه الرواية ، اذ تبدو فيها لمسات وتحتوى على شخصيات تظهر في معظم روايات فوكنر ، مما يجعل القارىء مهيأ لقراءة باقى رواياته التي تدور أحداثها في مقاطعة يوكناباتاوفا . وهى في هذا تشبه رواية « سارتوريس » Sartoris ، ولو أن رواية « التي لاتقهر » تعتبر أقل جاذبية وأقل اهمية من « سارتوريس » ، ولكن مما لاشك فيه انها أكثر الروايتين اثارة ، وتقع احداثها في أثناء وعقب الحرب الاهلية مباشرة .

النخيل البرى The wild palms

كتب فوكنر رواية « النخيل البرى » عام ١٩٣٩ ، بعد كتابته لرواية (أو مجموعة قصصه) ، « التي لاتقهر » ، وتقف متفردة بين جميع كتب فوكنر ، وتمثل العلاقة بين القصص القصيرة لفوكنر ورواياته .

ويمكن وصف كتاب « النخيل البرى » . بأنه رواية مزدوجة ذات فكرتين منفصلتين ، قصة تحمل عنوان الكتاب وقصة أخرى بعنوان « الرجل العجوز » تتبادل فيهما الفصول فصلا بعد الآخر ، اى تجد فصلا من النخيل البرى ثم يتلوه فصل من رواية « الرجل العجوز » ، وهكذا بالتبادل حتى نهاية الكتاب .

وتدور أحداث قصة « النخيل البرى » حول هارى ولبورن ، وهو طبيب شاب ، وشارلوت رتنماير Charlotte Rittenmeyer . وشارلوت متزوجة ولها طفلان ولكنها تهجر كل شيء وتترك أولادها في سبيل الحب ، متحدية بذلك تقاليد المجتمع ومظاهر الاحترام ، ويواجهان بكارثة عندما يحكم على هارى بخمسين عاما في السجن بسبب قيامه باجهاض شارلوت التي تموت نتيجة لهذه العملية الفاشلة .

اما قصة « الرجل العجوز » فتدور حول أحد المجرمين الذى أرسل في قارب في مياه طوفان عنيف لنهر المسيسبى لانقاذ امرأة فوق شجرة وسط الطوفان ، وانقاذ رجل من فوق سقف محلج قطن . ويعثر المجرم على المراة ، وهى حامل في ثمانية شهور ، ولكن قبل عثوره على الرجل تقذف به مياه الفيضان خلال سلسلة من المخاطر العنيفة ، مثل أمواج المد والمصارعة مع التماسيح . وتضع المرأة مولودها في بقعة مليئة بالثعابين ، وبعد عدة اسابيع يعود الرجل الى المكان الذى بدأ منه ويسلم نفسه قائلا : « ها هو زورقكم وها هى المرأة ولكنني لم أتمكن من انقاذ ذلك الوغد الذى فوق المحلج » .

ولا توجد علاقة بين القصتين ، والشيء الوحيد المشترك بينهما هو أن كلا الرجلين ذلك المجرم في قصة « الرجل العجوز » وهارى في قصة « النخيل البرى » محكوم عليهما بالسجن في السجن نفسه . ونجد أن أحداث القصتين تجرى في زمنين متباعدين . قصة « الرجل العجوز » في عام ١٩٢٧ ، وقصة « النخيل البرى » يحدث معظمها في عام ١٩٣٧ . ولذا فلقد رأى معظم النقاد أن تركيب القصتين معا بهذا الوضع تركيب فاشل ولم تكن له أية ضرورة . ولقد ظهرت طبعات من الكتاب فيها القصتان منفصلتان عن بعضهما ، ولو أن البعض الآخر يرى ان تبادل فصول الروايتين يمدنا بتشابه وتناقض في الأحداث يزيد القصتين ثراء ويضفي عليهما مزيدا من المعنى ، ولو أن ادراكنا لذلك لا يحدث في أثناء قراءة القصتين بل بعد الانتهاء من قراءتهما

وقصة « الرجل العجوز » أكثر تأثيرا في النفس من قصة النخيل البرى ، ولقد نشرها الناقد مالكولم كاولى بمفردها كقصة مستقلة في كتاب The Portable Faulkner وقال عنها انها القصة الوحيدة عن المسيسبي التي يمكن وضعها في مستوى قصة « هاكلبرى فن » لمارك توين ، وتتسم ببعض الصفات المشتركة التي تميز قصة « العجوز والبحر » همنجوي ولو انها لا تحتوى على المغزى الذى وجده النقاد في قصة همنجوي . ولقد حظيت قصة « النخيل البرى » باهتمام النقاد والاشادة بها عند صدورها ولكنها لم تعد تحظى الآن بهذا الاهتمام .

اهبط ياموسى Go down Moses

أما كتاب « اهبط ياموسى » الذى نشر عام ١٩٤٢ فلقد أصبح موضع اهتمام النقاد ، وليس هذا لقيمة الكتاب من الوجهة الفنية ولكن لأهميته بالنسبة لتطور أفكار فوكنر الاخلاقية والاجتماعية . وقصة « الدب » التى يتضمنها هذا الكتاب كانت موضع نقاش وتحليل عدد من النقاد ، وهى من أشهر أعمال فوكنر ، ولقد نشرت في بادىء الامر في صحيفة « ستردي ايفنتج بوست » ، ولكنه أدخل عليها عدة تعديلات عند نشرها في كتاب « إهبط ياموسى » . وتدور القصة حول مطاردة دب يشبه تلك المطاردة للحوت في كتاب « موبى ديك » لهرمان ملفيل ، ومطاردة السمكة العملاقة في رواية « العجوز والبحر » لهمنجوى . فنجد أن الدب هو داية رمزية في القصة ، فهو يرمز الى البرارى التي تدور في ذهن فوكنر ، افكار عن الحرية والشجاعة والذكاء الفطرى . وعندما يموت الدب فان سام ، الذى يطارد الدب ويقتله يموت هو أيضا .

ولكتاب « اهبط ياموسى » فكرتان أساسيتان ، فكرة العلاقة بين البيض والزنوج ، وفكرة تدمير البرارى . وقد ربط فوكنر بين الفكرتين باظهاره للعلاقة بين الانسان والأرض .

فوكنر في هليوود وفي نيويورك

بعد نجاح رواية « الملاذ » انهالت على فوكنر

دعوات من هليوود ، وتحت اغراء المال وافق على الذهاب الى هليوود بعقد لمدة ثلاثة شهور . فسافر الى كاليفورنيا ، وهناك أعد للسينما ثلاثا من رواياته وقصصه : الاولى رواية « الملاذ » ، التى تغير عنوانها في الفيلم السينمائى فأصبح : « قصة تمبل دريك » واضطلعت جوان كرافورد بدور تمبل ، والثانية قصة بعنوان Turn ab-out عن الحرب ، والثالثة رواية « دخيل في التراب » . كما كتب واشترك في اعداد افلام اخرى من تأليف مؤلفين غيره . وذهب بعد ذلك نحو اثنتى عشرة مرة حيث عمل مع شركة وورنر للقرن العشرين وفوكس ومتروجولدوين ماير وبعض المنتجين والمخرجين ، ولكنه عاد في النهاية ليستقر في بلده اكسفورد بولاية مسيسبى .

ولكن هليوود ظلت تلاحقه بالتلغرافات ليقبل إمضاء عقود أخرى ، فلقد اتصل به هوارد هواك وقال له : « الا ترغب في البقاء في هليوود فترة أخرى وتحصل على مزيد من المال ؟ » . ولكن فوكنر أجاب قائلا : « لقد وفرت مبلغ خمسة آلاف دولار من النقود التي حصلت عليها من هليوود حتى الآن ، وهذا يزيد عن أكبر مبلغ لدى أى شخص في ولاية مسيسبى ، ولا ارغب في المزيد في الوقت الحاضر ولذا عدت الى بلدى . » . قال له هوك : « اذا رغبت في الحصول على مال أكثر أخبرنا بذلك . » كان فوكنر ينفق ببذخ واحتاج الى مال فابرق الى هليوود قائلا انه يرغب في امضاء عقد آخر . فانهالت عليه الشيكات دون ان يسافر الى هليوود ، ووصلته برقية من رئيس المؤلفين في الاستديو يقول فيها : « وليم فوكنر . اكسفورد . ولاية مسيسبى . اين أنت ؟ » فرد فوكنر ببرقية يقول فيها : « لم تصلنى الرسالة » ! فوصلته بعد ذلك برقية تقول « اذهب الى نيواورليانز واتصل بشود برونتج هناك » . فرد فوكنر يقول : « لا أستطيع . حامل . » ويقصد أن زوجته تنتظر مولودا . ثم وصلت لفوكنر برقية تقول انه لابد أن يسافر الى ممفيس ويركب طائرة الى نيواورليانز . وكان من الممكن أن يركب قطارا ويصل الى نيوراوليانز في اليوم التالي ، ولكنه ذهب الى ممفيس وبقى هناك يومين او ثلاثة ثم طار الى نيواورليانز وأرسل من هناك تلغرافا بقبوله للعمل . فقال له برونتج « ثم نوما عميقا حتى يمكننا بدء العمل غدا » . ففعل ، ولكنه وصل عند غروب الشمس فعاد . ثم سأل برونتج عن الموعد الذى كان من المفروض ان يبدأ العمل فيه وما هى القصة . قال له برونتج : « يجب أن تذهب الى مؤلف الفيلم هناك وتسأله » . فعثر على مؤلف الفيلم وعرفه فوكنر بنفسه قائلا انه كاتب الحوار وسأله عن القصة . فقال له مؤلف الفيلم : « لا تلق بالا لذلك ، اذهب واكتب بعض الحوار وسوف اخبرك بعد ذلك عن القصة » !! فذهب الى برونتج واخبره ان المؤلف لم يشأ ان ان يخبره عن القصة . قال له براونتج : « اطلب منه ان يخبرك عن القصة على الفور » . ولكن قبل ان يتمكن من لقاء الكاتب وصل من هليوود تلغراف يقول : « فوكنر مرفوت » . نفخ برونتج غيظا وقال لفوكنر : « لا تشغل بالك بذلك ، سوف اصلح الامور » . ولكن وردت برقية أخرى تقول : « برونتج مرفوت » . وبعد

وقف بروتنج عن العمل توقف العمل في الفيلم . بعد ذلك نفر فوكنر من هليود وأعاد ما قاله المؤلف ايفلين ووEvelyn Waugh انه اكتشف ان الموت هو الزائر المقيم لجميع سكانها .

كان فوكنر يكره ان يسأله احد عن كتبه او العمل الأدبي الذي يقوم بكتابته الآن . وكان هادئا مهذبا . وعزلته وانطواءه يجعلان الناس يرونه بارد الاحساس ، ولكنه بين أصدقائه المقربين كان يبدو على حقيقته دافيء العاطفة . يقول أحد اصدقائه من كتاب الافلام في هليود انه كان يصحبه كل يوم وعدد من الكتاب في السيارة التي تنقلهم من الفندق الى الاستديو ، وكان فوكنر يبدو دائما هادئا ولا يجرؤون على التحدث معه . فقال أحد الكتاب لصديق فوكنر : « ان فوكنر لابد انه يحبك فلقد قال لك اليوم « صباح الخير » .

كان قدوم ممثلات هوليود وسياراتها الضخمة والصغيرة تجوب شوارع مدينة اكسفورد استعدادا لتصوير رواية فوكنر « دخيل تحت التراب » أعظم حادث هز ارجاء المدينة في تاريخها الطويل ، حيث تجمع الناس في الشوارع ، وبذل كلارنس براون مخرج الفيلم مجهودا عنيفا هو ومعاونوه لتنظيم وترويض هذا الحشد الهائل من الاهالي . كان من مشاهد الفيلم مشهد هجوم عدد كبير من الغوغاء على سجن المدينة في محاولة لقتل الزنجي العجوز لوكاس بدون محاكمة ، وهو المحور الرئيسي في الفيلم . وكان هذا الحادث الذي سجله فوكنر في روايته قد حدث بالفعل منذ سنوات ، واشترك في الهجوم السينمائي بعض الاهالي الذين كانوا قد اشتركوا في الهجوم الحقيقي الذي انتهى بقتل الزنجي العجوز فبدا المشهد السينمائي طبيعيا وكأنه تصوير لحدث حقيقي ، وكان الاهالي يتسابقون لتظهر صورهم في هذا المشهد . كان فوكنر طوال فترة تصوير الفيلم ملازما للمخرج يرشده الى أماكن التصوير ، ولكن عندما انتهى تصوير الفيلم ودعى فوكنر لحضور حفل العرض الاول رفض الدعوة وأدهش ذلك رجال هليود وأغضبهم ، كما أدهش عائلة فوكنر . ورفض فوكنر مجرد التقاط صورة فوتوغرافية له لوضعها عند مدخل دار العرض السينمائي !

وأقامت شركة مترو جلولدوين ماير حفلا رائعا لتكريم مؤلف الفيلم ، وهو تقليد تتبعه جميع الشركات السينمائية في أمريكا ، ولكن فوكنر لدهشتهم جميعا ، اعتذر عن عدم حضور هذا الحفل الذي أقيم من أجله قائلا انه في هذا الوقت سيكون مشغولا باحضار ابنته وبعض صديقاتها من المدرسة كما اعتاد ان يفعل ، فاستنجد مدير دعاية الشركة بزوجة فوكنر لتقنعه بحضور حفل التكريم وحفل الافتتاح ، ولكنها لم تستطع تغيير رأيه ، حتى رجاء ابنته جيل واستعطافها له لم يكن له أي تأثير !

فوكنر والنقاد

كتب النقاد عن أعمال فوكنر عندما هاللا من

المقالات والكتب . ومن الطبيعي ان نجد هؤلاء النقاد أقوالا متعارضة وآراء متباينة .

كتب عنه الناقد روبرت بن وارين Robert Penn Warren يقول فيما يتعلق بالشكل في رواياته انه اذا استثنينا انداده ، هرمان ملفيل (مؤلف رواية موبى ديك) وهنرى جيمس ، فان فوكنر يعتبر أعظم كاتب تجريبى للرواية انجبته امريكا على الاطلاق . والفترة التي بدا فيها الشكل التجريبى ، هى تلك الفترة التي اخترق فيها قشرة مادته التقليدية ، عندما صور بشكل درامى مفتاح الحياة في الجنوب الامريكى فتطلب هذا المضمون نوعا معينا للشكل ، لم يكن من الممكن عرضها الا في هذا الشكل الذى اختاره فوكنر ، حيث تجد الصدمة الثقافية والتطور التكنيكى يسيران جنبا الى جنب .

ويعتبر فوكنر في رأى روبرت بن متميزا بروح الفكاهة شأنه في هذا شأن مارك توين . والفترة الرائعة في حياة فوكنر الادبية منذ كتابة رواية « الصوت والغضب » حتى رواية « القرية » تعاصر فترة الازمة الاقتصادية وظهور شبح الحرب العالمية الثانية ، وتعاصر في الوقت ذاته الصدمة الثقافية ، حيث كانت التغيرات والتوتر شديدة وحادة في ذلك الوقت . ولا يعنى هذا ان فوكنر اتخذ من الازمة الاقتصادية موضوعات لرواياته ، ولكن الازمة الاقتصادية اظهرت مسألة الوقت والتغيير اللذين وضعهما فوكنر كبذور لتطوره بعد ذلك . والشعور بالركود الذى تميزت به حياة الريف في الجنوب الامريكى حتى بعد الحرب العالمية الاولى ، تغير فجأة نتيجة للازمة الاقتصادية ، وبدأ التساؤل عما يمكن عمله لتغيير هذا الوضع . وفكر البعض في أن الخلاص قد يكون في الرجوع الى طريقة الحياة الماضية ، ولو ان الرجوع الى النوعية الماضية حيث الركود والاستقرار يعتبر في حد ذاته تغييرا ، فلم يكن هناك بد من التغيير بأى صورة من الصور .

وعلى الرغم من أن روايات « سارتوريس » و« الصوت والغضب » و« عندما أرقد ميتة » لم تنجح من الوجهة التجارية الجماهيرية ، فلقد أشاد بها عدد من النقاد من الوجهة الفنية ورأوا فيها موهبة أصيلة واعتبروها لونا جديدا من الأدب ، ولو ان الناقد كاولى Cowley كتب في صحيفة « نيوريابليك » New Requblic أنه يوجد نوع من الانفصال في فوكنر ويعوزه التناسب بين التنبيه والاستجابة للتنبية . ويقول كاولى ان معظم روايات فوكنر من الممكن ان توضع في نطاق روايات الرعب Gothic novels . ولكنه يقول بعد ذلك عن كتاب « اهبط ياموسى » انه لايوجد أى كاتب أمريكى آخر لم ينصفه النقاد كما حدث لفوكنر بما فيهم أنا » . ويقول بعد ذلك مدافعا عن فوكنر عقب هجوم بعض النقاد عليه ان فوكنر ، اذا استثنينا همنجوي ودوس باسوس Dos Passos يعتبر أعظم روائى في هذا الجيل .

ويتساءل كاولى قائلا : ترى الى اى حد في امكان أساتذة الادب في الجامعات ان يرفعوا من قدر المؤلفين او يدمروا سمعتهم داخل قاعات الدراسة ؟ ! اذ في أواخر الثلاثينات وأوائل

الاربعينات عندما كانوا يثيرون معارك حول شتاينبك وهوارد فارست في احترام واجلال في الوقت الذى كان مخصصا للحديث عن أعمال سوفوكليس فان فوكنر لم يكن يذكر الا في لحظات خاطفة .

وبعد الحرب العالمية الاولى ، عند عودة الجنود الى جامعاتهم التى كانوا فيها وتركوها لاستدعائهم للقتال قال احد هؤلاء الطلبة لكاولى : أشعر كان شيئا سرق منى » . وأضاف الطالب مفسرا ذلك بقوله انه في الجامعة التي كان فيها قبل استدعائه للحرب كانوا يخصصون عنه دراسة الادب الامريكى ، ستة أسابيع لدراسة رواية « عنب الغضب » Grapes of Wrath لشتاينبك ، ونصف ساعة لدراسة اعمال فوكنر ، وهي قصة « وردة لايميل » وهو العمل الوحيد لفوكنر الذى يجادو بدراسته ، ويستنتجون من هذه القصة الوحيدة ان فوكنر كان فاشيستيا مستترا !

لقد انغمس هؤلاء الشبان في قراءة روايات فوكنر بانبهار شديد واعتبروها ذات مستوى أكاديمى رفيع على الرغم من أن أساتذتهم لم يعيروها أى اهتمام ولم يلفتوا أنظارهم اليها ، ولقد أمدتهم فترة الحرب بفهم عميق لهذه الروايات ومكنتهم من اكتشاف أبعاد شخصياتهم كأمريكيين .

والمسألة التى يراها كاولى مقبولة لطرح المناقشة هى ما اذا كان من الممكن ان نعتبر فوكنر واحدا من الكتاب المعاصرين القلائل ، وربما الامريكى الوحيد ، الذى نجد أعماله الى حد كبير معنية بمسائل عصرنا بالقدر الذى نجده بدرجات متفاوته في أعمال هرمان ملفيل ودستيوفسكى وكافكا وكونراد وبروست والبوت وييتس وكامى .

لم يكن المضمون فيما يتعلق بالشخصيات والمواقف فحسب هى التى جذبت القراء لاعمال فوكنر ، بل كانت موضوعية الاعمال بجانب ذلك . فالقارىء يشعر من خلال اعماله بأنها تكاد تكون لتجارب شخصية غير بعيدة عن التجارب التى يعرفها القارىء حق المعرفة .

ولفوكنر حساسية للحديث سواء أكان حوارا أو سردا طويلا على هيئة مونولوج مثل حديث جاسون او راليف في رواية « الحقل المقطة » ، بأسلوب متميز عن شتى أنواع الاساليب الاخرى ، مما يشعر القارىء بأنه يقرأ احداثا حقيقية وليست من صنع الخيال .

او كما ذكرت مونيك ناثان Monique Nothan في كتابها عن فوكنر بأن شيئا يشبه الطقوس في أسلوبه . او بطريقة ارستطالية تقول انه يجعل السرد الروائى يندمج مع العاطفة . والعاطفة في رواياته هى الوسط الشخصى الذى يحمل بين طياته الاحساس بالمضمون اللاشخصى .

وصمت فوكنر واقتصاده في الحديث في حياته الخاصة وعدم وضوح الشخصيات في رواياته اذا قارناها بشخصيات همنجوي او سكوت فيتزجيرالد تبدو متناقضة تحتاج لنوع من الالهام لدى القارىء لينتزع المعنى من خلال الظلام

الذي يكتنفه . ويشير مارلو الى ذلك قائلا ان فوكنر لابد أنه يتخيل مشاهد رواياته قبل أن يتخيل شخصياته ، والعمل الروائي لديه لايحدد الموضوع ، ولكن ينبثق من خلال شخصيات مجهولة لديه . وقد تومض في ذهنه فكرة قصة او رواية نتيجة لمشهد عابر من مشاهد الحياة ينبعث منه موضوع الرواية وشخصياتها دفعة واحدة وكأنها كانت مختبئة خلف هذا المشهد ، ويوجد في أقوال فوكنر مايبرر هذا الرأي ، اذ يقول ان رواية « الصوت والغضب » ومضت في ذهنه نتيجة رؤيته سروال فتاة صغيرة ملطخ بالوحل ، وان رواية « ضوء في اغسطس » نشأت عند رؤيته امرأة شابة حبلى تسير في طريق غير مطروق .

ولقد هاجم اعمال فوكنر على مر السنين عدد كبير من النقاد ، وأهم نقد وجه اليه هو ان فوكنر مشوش الافكار واسلوبه غير واضح . فلقد انتقده كل من كلفتو نادیمان في مقاله عن رواية « ابسالوم ، أبسالوم ! » نشر في صحيفة النيويوركر عام ١٩٣٦ ، كما هاجمه الفريد كازين عام ١٩٤٢ ، ولو أن كازين اشاد بقوة الابداع عند فوكنر ، الا أنه اشتكى من عدم فهم فوكنر للجنوب الامريكي فهما حقيقيا . واعجاب فوكنر بالجنوب واشمئزازه منه يمتزجان معا في ذهنه . وكمشارك في الاسطورة الشاملة لتقاليد الجنوب وتدهوره فانه يبدو غبيا وسطحيا وغالبا بلا معنى وبلا مبالاة . فلا تنبثق أعماله من نقد شعوري للمجتمع . ويقول كازين أيضا ان أسلوب فوكنر يبدو نابعا من تصور مشوش غامض غير واضح الهدف أكثر منه انبثاقا من هدف واضح مترابط ، ولو أن آراء كازين أصبحت أميل الى الاعتدال الذي بدا واضحا في حفل أقامته جامعة كولومبيا بمناسبة حصول فوكنر على جائزة نوبل عندما شجب كازين الرأي القائل بأن اعمال فوكنر مظهر من مظاهر الاضطراب العصبي . ولقد وصف كازين رواية « ضوء في أغسطس » بأنها رواية عظيمة ، ولو أنه يصف الرواية في الوقت ذاته بأنها شديدة الغضب في طريقة عرضها ولكنها عديمة المعنى في محتواها . او بمعنى آخر : طبل أجوف .

ويقول الناقد مالكولم كاولي في مقدمة كتابه الشهير « كتيب فوكنر The Portable Faulkner » ان فوكنر كتب روايات عن مقاطعة يوكنا پاتاوفا وسكانها ، وظهرت في اجزاء من روايات أخرى وفي نحو ثلاثين قصة . ولقد كانت رواية « سارتوريس » اول رواية تنشر لفوكنر متضمنة أحداثا تقع في مقاطعة يوكنا پاتاوفا ، وهي قصة رومانسية غير مقنعة . ولقد كتب فوكنر رواية « الصوت والغضب » قبل رواية « سارتوريس » ، ولكنها نشرت بعدها بنحو ستة أشهر ، وهي أكثر رواية من رواياته اثارت جدلا ومناقشات . ويعتبر كاولي رواية « الملاذ » اكثر روايات فوكنر شعبية وأوسعها انتشارا ، بينما رواية « ضوء في أغسطس » في رأيه ، تعتبر أحسن رواياته .

ويقول كاولي إنه كما قسم بلزاك سلسلة رواياته التي أطلق عليها في مجموعها « الكوميديا الانسانية » Comodic Humaine الى مشاهد من الحياة في باريس ومشاهد من الاقاليم الفرنسية ومشاهد من الحياة الخاصة ، فان فوكنر

بالمثل من الممكن تقسيم أعماله الى عدد من الدورات ، واحدة عن الفلاحين وذريتهم ، وواحدة عن هل مدينة جيفرسون ، وواحدة عن فقراء البيض والهنود الحمر وواحدة عن الزنوج . واذا كان التقسيم عن طريق العائلات فاننا نجد دورة عن الاعمال البطولية لعائلتي كمبسون وسارتوريس ، واخرى عن بطولات عائلة سنوبس Snopes وبطولات ذرية ماك كازلين المنبثقة من ذرية كاروثرز ماك كازلين Carothers Mc Coslin ودورة عن بطولات عائلتي راتليف وباندرن Ratliff — Bundern . وجميع هذه الدورات متشابكة معا . وقد نجد قصة قصيرة وكأنها استكمال لرواية تسبقها . وعلى سبيل المثال فاننا نقرأ في رواية « سارتوريس » ان بيرون سرق حزمة من الخطابات من نارسيسا بنبي ، وفي قصة نشرت بعد الرواية بخمس سنوات وهي قصة « كانت هناك ملكة There Was a Queen نجد كيف استردت نارسيسا الخطابات المسروقة . وقد يحدث العكس ، اذ نجد في احدى رواياته استمرارا لاحداث ذكرها في قصة قصيرة سابقة ، فالمرأة التي وصف المؤلف رعبها من الموت في قصة « شمس المساء » The Evening sun قد قتلها زوجها وترك جثتها في حفرة لتلتهما جوارح الطيور في رواية كتبها بعد كتابة القصة القصيرة . وقد يقع فوكنر في تضارب في تفاصيل رواياته التي تتكرر فيها الاشخاص نفسها ، وعلى سبيل المثال ، وجد عاملا في مصنع آلات الحياكة يدعى ف . ك . سيورات V.K.Suratt يظهر في رواية « سارتوريس »

وبعض القصص اللاحقة الاخرى ، وعندما نصل الى الزمن الذي تقع فيه أحداث رواية « القرية » نجد ان اسمه قد تغير . واصبح Ratliff ولو أن شخصيته تظل كما هي ، كما يظل سنه كما هو على الرغم من مرور عشرين عاما بين أحداث الروايتين . وفي رواية « أبسالوم ، ابسالوم ! » نجد أن القصر المقام في مزرعة ستبين مبنى بالطوب في بدء الرواية ، ولكن عند نهايتها نجده مبنيا بالخشب الذي يحترق بأكمله فلا يبقى سوى مداخن المدافىء ! ولو أن هذه الاخطاء قليلة وغير ذات أهمية . ولقد وقع دكنز وسرفانتيس وغيرهما في أخطاء من هذا القبيل قد تكون أكثر أهمية ولكنها هفوات لا تؤثر على قيمة العمل الفني ، وجل من لا يسهو .

ويقول كارل ان فوكنر أساسا ليس روائيا ، وان جميع رواياته تتسم بضعف في التركيب ، وبعضها يتضمن موضوعين رئيسيين او اكثر لاتكاد توجد علاقة بينهما كما هي الحال في رواية « ضوء في أغسطس » بينما في روايات أخرى للمؤلف ، مثل « القرية » تتراص احداثها بجوار بعضها وكأنها خرز في عقد . ولا يمكننا ان نقرر ما اذا كانت الاقسام الاربعة في رواية « الصوت والغضب » مرتبة كما ينبغي ان يكون . فلا يمكننا ان نفهم القسم الاول من هذه الرواية فهما كاملا ، وقد لا يمكننا قراءته الا بعد قراءة الاقسام الثلاثة الاخرى . ويبدو فوكنر في أحسن حالاته في قصصه الطويلة كقصة « الدب » وفي اسطورة اليوكناباتاوفا بشكل عام . وينبغي ان نحكم عليه من خلال اجل أعماله لا من خلال أسوئها كما هي الحال

في الحكم على جميع المؤلفين . وهو في أحسن حالاته ، وربما في أسوأ حالاته في بعض الاحيان يمتلك قوة وثراء للحياة لانجدهما في أي كاتب أمريكي في عصرنا هذا . انه كما قال هنري جيمس وهو يصف الكاتب الامريكي هو ثورن : « يمتلك عنصر العبقرية البسيطة والقدرة على التخيل » . وعلاوة على ذلك فهو ينطوي على حب عميق للبقعة من الارض التي ولد وترى فيها ، والتي ، عكس معظم المؤلفين الآخرين في جيله ، اختارها ليقضي فيها كل حياته تقريبا .

ويقول كاولي ان روايات فوكنر تتسم بصفات تجعلنا نعيش فيها ونتقمصها ونتذكرها اكثر من مجرد ملاحظاتها . وهي عكس ما نجده في معظم روايات هذا العصر ، نجدها زاخرة بدفء العواطف العائلية ، الأخ وأخوه وأخته ، والاب وأطفاله ، ذلك الحب الذاتي المتفاني الذي يربط افراد العائلة لدرجة تحجب عنهم باقي العالم ، وهذه الروابط بوجه عام لاتظهر بين الكبار كما تبدو بين الاطفال من زنوج وبيض ، ولو ان عكس ذلك ، في رأيي ، يبدو واضحا في رواية « الصوت والغضب » ، فالاخ في هذه الرواية يخصي اخاه المسكين المتخلف عقليا بسبب تافه ، والاخ يسرق اموال ابنة أخته ولا نرى في الرواية شخصا يعطف على بنجي المتخلف عقليا سوى الخادمة الزنجية العجوز . كما نجد الأم في رواية « قداس لراهبة » تهجر طفلها الانثى التي تقتلها الخادمة العجوز اشفاقا عليها من المصير المظلم الذي ينتظرها بعد هجر أمها لها . كما نرى مثين في رواية « أبسالوم ، أبسالوم ! » يرفض الاعتراف بابوته لابنه تشارلس ويطرد ابنه هنري . وأرى ان تعاطف فوكنر مع الزنوج اكثر وضوحا من تعاطف افراد العائلة الواحدة من البيض .

فوكنر وجائزة نوبل

في صباح العاشر من نوفمبر عام ١٩٥٠ بينما كان فوكنر ينثر السماد على حقل مجاور لمنزله جاءت الانباء تفيد بحصوله على جائزة نوبل ، فهرولت زوجته خارج المنزل لتزف اليه هذه البشرى . بدت عليه الفرحة فتوقف عن العمل لحظة قصيرة ليحتفل بذلك مع زوجته وابنه وأحد الزنوج الذي كان يساعده في الحقل ، ثم عاد ليواصل العمل . في هذه الليلة فتح فوكنر منزله للأقارب والأصدقاء الذين هرعوا لتهنئته بهذا الفوز العظيم الذي يعتبر حلم كل أديب خلاق مبدع . استقبل فوكنر زواره بحرارة وسرور ولو أنه كان يبدو ساهما ، وما لبثوا أن عرفوا السبب . لقد قرر بينه وبين نفسه عدم الذهاب الى ستوكهولم عاصمة السويد ليتسلم جائزته ، ولم يكن قراره هذا ناتجا عن عزوفه عن الاحتفالات والظهور بين الجماهير فحسب ، او لاعتقاده بأن الجائزة فقدت قيمتها عندما تجاهل المحكمون دريزر وشروود اندرس وهما من أفاضل ادباء المبدعين ومنحوها لشخص مثل سنكر لويس لايرقى الى مستواهما ، ولكن قراره ربما كان راجعا ايضا الى احتقاره للتقدير الرسمي الذي شعر بأنه تأخر كثيرا ، ولما شعر به من هجوم النقاد أو تجاهلهم له . ولم يثنه عن عزمه هذا سوى ابنته جيل ، فكل فتاة تتوق

لرؤية باريس التي سيمر بها في أثناء رحلته ، ولم يشأ ان يحرم ابنته من رؤيتها . ولم يشعر أهل مدينته بمعنى أو مغزى هذه الجائزة ، ولكنهم شعروا بأن مواطنهم فوكنر لابد أن يكون متميزا بميزات لايدركونها . وقال أحدهم ان فوكنر جاءه التقدير من الخارج قبل أن يأتيه من أهل مدينته . ولكن رئيس تحرير الصحيفة المحلية للمدينة المسماة نسر اكسفورد Oxford Eagle نشر الخبر بالبنط الكبير في صدر الصحيفة مع نشر صورة لفوكنر وجعله مساويا في الاهمية لخبر آخر نشره في الصفحة نفسها وبالبنط نفسه عن برنامج لبناء المدارس يتكلف ٦٢٥ دولارا ، كما نشر مقالا بقلم فيليب ستون صديق فوكنر لخص فيه حياة فوكنر واختتم مقاله بقوله « ان فوكنر وأنا قد كبرنا في السن وأصبحنا الآن شيخين . . . . ان فوكنر قد يكون كانسان أعظم منه ككاتب . يتكلم كثيرون منا عن التواضع ، عن الشرف والولاء والعرفان بالجميل . ان بيل (كنية فوكنر) لايتحدث عن هذه الاشياء ولكنه يعيشها . قد يهجرك الناس الآخرون ولكنه ليس ببيل اذا كان صديقك . . . . » .

وبعد أسبوع من وصول نبأ الحصول على الجائزة ذهب فوكنر كالعادة في موسم الصيد السنوى في مقاطعة شاركى الذى اعتاد الاشتراك فيه كل عام ، ولاحظ شيئا من عدم الارتياح لدى بعض رفاقه الذين لم يكن يخطر ببالهم ان لفوكنر هذه الاهمية ، وأصبحوا ينظرون اليه نظرة تتسم بحب الاستطلاع . والى جانب القيمة المعنوية والادبية للجائزة ، فان قيمتها المادية في ذلك العام كانت ثلاثين ألف دولار . قال له أحد رفاق الصيد مازحا : « اظنك الآن يابيل وقد حصلت على كل هذا المال فان هذا دليل على أن عقلك كبير لدرجة لن تسمح لك باصطحابي معك بعد ذلك في رحلات الصيد » . فقال فوكنر : يا للجحيم ، انها لاتزيد عن كونها نقودا ، اذ لايوجد لديهم لحم غزلان هناك » .

وحول النار سأله رفيقه هذا مرة أخرى ليختبره : « ماذا تفعل يا بيل لو وجدت سفير السويد يأتى لنا هنا الآن ويسلمك هذه النقود ؟ » . فأجاب فوكنر الذى كان في هذه اللحظة يغسل الاطباق وقد ارتدى مريلة من الخيش حول وسطه قائلا : « سأخبره ان يضع النقود على هذه المنضدة التي هناك ويلتقط خرقة ويساعدنى » . فزالت الرهبة التي كان يشعر بها رفاقه وعادت الأمور طبيعية كما كانت .

وسافر فوكنر في رحلته الى السويد ليتسلم جائزته من يد ملك السويد بصحبة ابنته ، وكان صديقه ستون من بين الأصدقاء والأقارب الذين ذهبوا لوداعه عند السفر . وعند ظهور فوكنر في الحفل هناك ، تركت كبرياؤه وتصرفاته انطباعا رائعا لدى كل من شاهده . لقد ألقى الخطاب التقليدى الذى يلقيه الحائز على جائزة نوبل في الأدب ، وكان من أروع ما ألقى في خلال هذا القرن .

***

أهم المراجع :

William Faulkner : Mosquitoes

William Faulkner : The Hamlet

William Faulkner : Sartoris

William Faulkner : Go Down Moses

William Faulkner : The Sound and the Fury

William Faulkner : Absalom Absalom

William Faulkner : Sanctuary

William Faulkner : Light in August

William Faulkne : Pylon

William Faulkner : The Unvanquished

William Faulkner : Intruder in the dust

William Faulkner : Requiem for a Nun

William Faulkner : The Wild Palms

Michael Millgate : Faulkner

Robert Coughlan : The Private World of William Faulkner

Robert Pann Warren : Faulker

Malcolm Cowley : Writers at Work

***

مطالعات

المجامع اللغوية
ودورها في تعزيز اللغة في التخطيط اللغوي

زكريا أبو حمديه

تمهيد

يظهر بين الفينة والأخرى حوار وجدل في وسائل الاعلام والنشر العربية المكتوبة منها والمسموعة بشأن استعمال هذه اللغة أو تلك في التعليم العالي ، أو التخصص وما ينبع منه من أبحاث متخصصة . ويؤول محور النقاش الى مدى صلاحية اللغة العربية للاستعمال في هذه المجالات والى مشكلات تنسب الى اللغة نفسها . ونجد أن فرقاء النقاش يتخذون مواقف مختلفة ، بين قول بأنها غير صالحة وذلك لقصور المفردات والمصطلحات فيها عن استيعاب تلك المجالات ، وبين موقف يسلم بهذا القصور ويدعو الى سد هذه الفجوة بوضع مفردات ومصطلحات جديدة .

وعندما يُطرق موضوع المفردات والمصطلحات فان أول ما يتبادر الى اذهان اطراف النقاش وغيرهم هو مجامع اللغة العربية (في بغداد ودمشق وعمان والقاهرة) ومكاتب ولجان او دوائر او مؤسسات اخرى في البلاد العربية ، مثل مكاتب ولجان التعريب والترجمة والنشر . ومن المعروف ان هذه المجامع واللجان .. الخ تقوم بنشر انتاجها في هذه المجالات ، كما تعقد الندوات والمؤتمرات الدورية المحلية والقومية لبحث مشكلات اللغة العربية والعلاجات المقترحة ، وتخرج بتوصيات ترفع الى الجهات الرسمية والهيئات المعنية .

وعليه فانني اعتقد أن القارىء قد يكون لديه ما يعتقد أنه يرضيه من المعرفة بهذه المجامع واللجان والمكاتب العربية .

ومن منطلق اطلاع القارىء بالعربية من ذوي الاختصاص باللغة ومشكلاتها وذوي الاهتمام بشؤونها ، ومنطلق فتح المجال أمام المقارنة والمشابهة بين عمل المجامع بشكل عام فانني أقدم هذا البحث عن مجامع لغوية في اقطار أخرى من العالم حتى تتبين خطوط العمل المجمعي في إطار عالمي .

يبدأ هذا البحث بدراسة مركزة للتخطيط اللغوي ودوافعه وأهدافه واسسه واساليبه ومناهجه . ثم يطرق البحث ظاهرة ظهور الجهود الجماعية المنظمة (والتي تشكل المجامع أفضل مثال عليها) لمعالجة المشكلات اللغوية على مستوى الدولة أو مستوى القومية أو مستوى المجموعة العرقية الواحدة ، الناطقة بلغة غير لغة الدولة التي تعيش فيها . وبعد ذلك يقدم البحث وصفا تحليليا لنشوء ونشاطات المجامع اللغوية التالية : مجمع الايطالية ، مجمع الفرنسية ، مجمع السويدية ، مجمع الاسبانية في مدريد ، مجامع الاسبانية خارج اسبانيا ، مجمع الايرلندية ، مجمع السكتلندية ، لجنة اصلاح الصينية ، مجمع العبرية ، مجمع التركية ، لجنة شونا ، مجمع الفريزية .

ويأخذ الحديث عن هذه المجامع وظروف نشوء كل منها والمنجزات التي قام بها كل منها اطار التخطيط اللغوي بالمنظور الذي قدمته في مستهل البحث .

ان الجهود الجماعية الطوعية والرسمية تجاه حماية لغة ما أو تجاه تعزيز وضعها من ناحية توسيع مجالات استعمالها أصبح في منظور اللغويين المحدثين وباحثي العلوم الانسانية ضمن حقل اكاديمي جديد يعرف بالتخطيط اللغوي .

يُشرع في التخطيط اللغوي نتيجة تقييم وضع وظروف معينة ، وتحديد مشكلة تقدر اللغة فيها على أنها محور المشكلة . ومن ثم توضع خطوات عمل محددة (تكون اللغة هدف العمل) واضحة لعلاج المشكلة عن طريق حلول مقترحة (نابعة من جوانب تقييم المشكلة) وترتب في اولوية بدائلية (Rubin, 1973 : 5) . والتخطيط اللغوي في جوهره لا يختلف عن التخطيط بمعناه العام .

وعليه فان التخطيط اللغوي أفضل ما يُرى ويُفهم من خلال الاطار العام لتخطيط اجتماعي وسياسي واقتصادي لمجتمع ما ، وذلك لتداخل اللغة في جميع هذه المجالات ، ولكون اللغة مصدرا اجتماعيا تتأثر به القطاعات الاقتصادية والسياسية . ويبدو هذا التأثر جليا حين يتطلب التخطيط الاقتصادي أو السياسي أو التربوي الاعتماد على لغة غير اللغة الدارجة

(أي المستعملة) في ذلك المجتمع . كما يظهر أثر التخطيط الاجتماعي في اللغة إذا أدى ذلك التخطيط الى تحدٍ للقيم التي يحملها ذلك المجتمع تجاه لغته في حالة الشعور بأن وضعها مهدد بالاضمحلال أو الزوال . وهذا ما يحدث في المناطق التي تحتلها قوى خارجية تنطق بلغة تختلف عن تلك اللغة ، وتستمر القوة الغازية باستعمال لغتها هي في تسيير أمور المجتمع ، الشعب المغلوب .

ولكي ندرس عمل المجامع في القسم الثاني من البحث لا بد من وضع تعريف للتخطيط اللغوي يحدد مدلوله ، وينظر الى عمل المجامع من مدلول هذا التعريف .

« التخطيط اللغوي مهمة لغوية ظاهرا تنبثق من أسس سياسية واجتماعية واقتصادية نابعة من منظور قيم معينة . وتأخذ هذه المهمة شكلا اداريا منظما بشأن حل لوضع لغوي معضل على المستوى القومي أو مستوى الدولة الواحدة ، ويكون هدف هذا الحل تغيير أو تنظيم أو توسيع الاستعمال اللغوي » .

وعليه فان التخطيط اللغوي هو نوع من التدخل المنتظم في مجرى اللغة واستعمالاتها في المجتمع . والسؤال الذي يمكن طرحه هو : « هل يمكن أن تتدخل في مجرى اللغة بقصد تغييره أو تعديله أو توسيعه ؟ » هناك اتجاهان بين العاملين في هذا الحقل ، وكلا الاتجاهين يعتقد أن التدخل ممكن ، وأحيانا واجب .

ينظر الاتجاه الأول الى اللغة على أنها مجرد وسيلة ، مثلها مثل أية وسيلة أو أداة أخرى متوفرة لدى الفرد والجماعة . ومن خلال هذا المنظور فان اللغة يمكن ، بل وأحيانا ، يجب أن يعمل على تغييرها أو توسيعها أو تعديلها أو تنظيمها وضبطها بحيث تؤدي الغرض الذي تخدمه أو تستعمل من أجله ، وتكون اداة مطواعة للذين يستعملونها (Tauli, 1964 : 605 وكتابه ، 1968) .

أما الاتجاه الثاني فيرى أن اللغة ليست مجرد اداة فحسب ، بل هي رمز لقيم المجتمع العقائدية ورمز لأسس وحدة ذلك المجتمع ، كما أنها رمز للقيم الجمالية التعبيرية فيه . ومن هذا المنظور - فان التدخل في مجرى اللغة أمر ممكن وقد يكون واجبا ، لكن هذا التدخل - حسب هذا المنظور - ينبع من متطلبات المحافظة على تلك القيم التي ترمز اليها اللغة . كما أن اساليب ومناهج التدخل يجب أن تكون مرتكزة على أسس تلك القيم بحيث لا تتعارض معها ولا تناقضها (Rubin, 1973 a : v) .

يتفق كلا الاتجاهين على امكانية وربما ضرورة العمل لوضع علاج ما وخطوات تنفيذه لتصحيح حالة لغوية غير مرضية .

وسواء اكان القارىء يميل الى أخذ الاتجاه الأول أو الثاني أم لم يأخذ بأي من الاتجاهين، فان الواقع التاريخي في الماضي وفي الحاضر يقدم له أمثلة عديدة على التدخل في مجرى اللغة. كما يقدم الواقع التاريخي أدلة شتى على أن اللغة كانت وما تزال هدفا للتدخل بشكل فردي غير مخطط ولا منتظم، وبشكل جماعي مخطط ومنتظم. فالأمثلة في الوقائع التاريخية كثيرة عن أفراد سياسيين وكتاب وشعراء ولغويين نصبوا أنفسهم حكاما وقضاة للاستعمال اللغوي. ونقرأ كذلك في تاريخ الأمم عن ردود الفعل المختلفة لمواقف اولئك الأفراد من قبل عامة الناس والمختصين الناطقين بتلك اللغات (Fishman, 1972)

أما أمثلة العمل الجماعي، فان هذا البحث هو محاولة لاستعراض نوع واحد منها ـ عمل المجامع اللغوية.

ما المشكلات اللغوية التي تسوغ أو تتطلب التخطيط اللغوي؟ سنجيب عن هذا السؤال بطريقة غير مباشرة، وذلك من خلال النظر الى أنواع الأهداف التي تضعها هيئات أو مؤسسات التخطيط اللغوي (بأي اسم تحمله كل منها) والنشاطات التي تقوم بها هذه الهيئات أو المؤسسات، سواء تحققت تلك الأهداف كليا أم جزئيا أم لم تتحقق.

أولا: اعادة استعمال لغة (أو لهجة أو نمط لغوي معين) كانت قد اندحرت عن الاستعمال في مجال واحد أو عدة مجالات من الاستعمال اللغوي في مجتمع ما (باستثناء المؤلفات المكتوبة بهذه اللغة سابقا).

من هذه المجالات نذكر استعمالها في المدارس أو الجامعات أو البحوث المتخصصة أو مواضيع معينة مثل الطب والهندسة ..... الخ. ونضرب مثلا على ذلك اعادة استعمال اللغة العبرية. وقد تكون هذه اللغة نفسها مستعملة في أي من هذه المجالات في مجتمع آخر أو دولة أخرى، الا أن التخطيط يهدف الى اعادة استعمالها حيث كانت تستعمل سابقا قبل كبتها (مثال ذلك ما حصل للغة الاسبانية في الولايات المتحدة لهذه الولايات من الاسبانيين)

ثانيا: تنقية لغة ما من عناصر (صوتية أو نحوية أو صرفية) أصلها من غير تلك اللغة (أي دخلتها عن طريق الاقتراض تحت ظروف معينة) واستبدال هذه العناصر الخارجية بعناصر أخرى. من الوجهة المثالية، تكون العناصر الجديدة مستمدة من اللغة نفسها، ولكن الواقع قد يؤدي الى استبدال عناصر خارجية عن اللغة ذاتها بعناصر غريبة عنها كذلك. وفي هذه الحالة يكون الدافع نابعا من عداء معلن أو غير مصرح به تجاه الناطقين باللغات التي يجري التخطيط لاخراج عناصرها من اللغة موضع التخطيط.

وجرى مثل هذا التخطيط في اللغة التركية في عهد مصطفى كمال اتاتورك وفي اللغة الفارسية في العهد السابق .

ثالثا : افصاح لغة أو لهجة ما بقصد توحيد الاستعمال اللغوي في مجالات معينة (اذ لا يمكن القضاء على الفروق اللغوية بشتى أنواعها او في شتى المجالات) . هذا النوع من التخطيط اللغوي يمكن أن يأخذ احدى الصور أو السبل التالية :

أ ـ تفضيل لهجة معينة على غيرها من اللهجات الدارجة للغة معينة ، وجعل تلك اللهجة هي الفصحى أو الفصيحة . مثال ذلك ما حصل في افصاح السواحلية .

ب ـ دمج عدد من اللهجات المختلفة التي تشترك في عناصر لغوية ما وجعل ناتج عملية الاستصفاء اللغوية هو اللغة الفصيحة واعتمادها في الاستعمال الرسمي والتعليمي والثقافي . نضرب مثلا على ذلك ما حصل في عدد من اللهجات في روديسيا .

ج ـ تفصيح لغة مشتركة (Lingua franca) شائعة في منطقة متعددة اللغات ، بحيث تصبح اللغة الرسمية المعتمدة في المجالات الرسمية وبعض المراحل التعليمية بدل لغة أخرى غريبة عن المنطقة ، وبدل اللغات المحلية المتعددة . جرى مثل هذا التخطيط في ماليزيا واندونيسيا .

من المحتمل أن تظهر مشكلات داخل المنطقة التي يجري فيها نوع الافصاح الأول المذكور أعلاه . فتفضيل لهجة ما على غيرها من اللهجات قد يواجه بالرفض من قبل الناطقين باللهجات الأخرى خصوصا اذا كان الناطقون باللهجة المفضلة قليلي العدد نسبيا ، أو ان وضعهم الاقتصادي أو السياسي أو الثقافي أدنى من وضع الناطقين باللهجات الأخرى . وقد حصل مثل هذا الصراع في كل من بلجيكا والنرويج والهند (Hawgen, 1969) . وفي هذه الحالة يتوجب اعادة النظر في رشاد الأهداف المرسومة ووسائل تحقيقها والبدائل الممكنة لذلك .

رابعا : الاتفاق على إقرار لغة رسمية من غير اللغات الأصلية في ذلك المجتمع أو البلد . ويجدر أن نميز هنا بين دلالة الاصطلاحية في « اللغة الرسمية » و « اللغة القومية » . فالاصطلاح الثاني يستعمل للدلالة على اللغة الأصلية أو إحدى اللغات الدارجة في ذلك المجتمع أو البلد التي يُتفق على اعتبارها لغة التعامل الرسمي لذلك النظام ، اما منفردة أو مع لغة أو لغات أخرى . وينظر في العمل على اختيار لغة رسمية (غير لغة قومية) عندما يتعذر الاتفاق على لغة قومية ، أو تفصيح إحدى اللهجات بإحدى السبل المذكورة سالفا . ويجري هذا العمل في المجتمعات أو الدول متعددة اللغات كما حصل في الهند ونيجريا

والحبشة والفلبين وباكستان حيث اللغة الانجليزية هي إحدى لغات التعامل الرسمي .

خامسا : اصلاح أو تغيير بعض وجوه لغة ما ، خصوصا نظام الكتابة، بحيث تأخذ شكلا غير الذي كان دارجا قبل البدء في التخطيط . ويستهدف هذا التخطيط الاصلاحي في العادة زيادة فعالية اللغة وسهولة تعلمها أو ذلك الوجه منها . الا أن الدوافع الكامنة خلف الدعوة لذلك الاصلاح قد تكون غير لغوية أصلا . بل كثيرا ما تكون هذه الدوافع الكامنة في مزاجية أو عقائدية ذات تبعية خارجة عن ذلك المجتمع أو البلد ، كما حصل بالنسبة لتغيير نظام الكتابة في التركية . ومن أشهر أمثلة هذا الضرب « الاصلاح » (أو بالأحرى التغيير) المثال التركي الآنف ذكره ، وما يجري في الصين بالنسبة لنظام الكتابة .

سادسا : تحديث أو تطوير لغة ما . ويقصد بهذا بشكل خاص توسيع مجالات استعمالات اللغة الى مجالات علمية أو فنية أو غير ذلك ، لم تكن تطرق بتلك اللغة . وفي هذا المجال يكون التخطيط متركزا على زيادة المفردات والمصطلحات المتخصصة نتيجة لزيادة حاجات ذلك المجتمع ، وفي نفس الوقت زيادة حرص ذلك المجتمع على عدم تبني لغة غير لغته في تلك المجالات . (Fergusen : 1968)

وبغض النظر عن طبيعة المشكلة اللغوية التي تتطلب العمل ، وعن كفاءة العاملين في مجال تنفيذ العمل اللغوي فان القرار ببدء التخطيط واتجاه العمل في التنفيذ يخضع في معظم الاحوال لنتيجة الصراع الذي يجري بين المصالح المتضاربة للجماعات التي تؤيد التخطيط في اتجاه ما ، والمعارضين للتخطيط في ذلك الاتجاه . وفي غالب الاحيان يكون القرار النهائي في يد أصحاب السلطة السياسية . وعليه فان أهم صفة للمخطط اللغوي هي أن يكون على دراية بالوضع العقائدي والسياسي والاجتماعي لذلك البلد قبل أن يقيم وضعا لغويا ما بناء على المتغيرات فقط . والا فان عمل المخطط اللغوي لن يكون أكثر من مجرد تمرين لغوي بحث ينتهي أمره في إحدى ادراج المكاتب الرسمية أو على رفوف المكاتب المتخصصة .

مجامع اللغة

اذا أخذنا بعين الاعتبار الصلة الوثيقة بين اللغة وأهلها فاننا سنجد ظاهرة الجهود الجماعية (والفردية كذلك) للحرص على اللغة أمرا طبيعيا . ومن هذا المنطلق بدأ ظهور الحركات اللغوية في معظم مناطق العالم . ونستعرض فيما يلي بعضا من أشهر هذه الحركات ونعطيها اسم « مجامع » في هذا السياق بالرغم من أن بعضها لم يحمل مرادفة هذه الكلمة بالذات .

كان من مظاهر الحياة الفكرية في أوروبا في

عصر النهضة ظهور وانتشار «مجالس الفكر»، وقد أطلق على بعضها اسم «Academy» على غرار الاكاديمية التي كانت مجلس فكر في اليونان القديمة. (وفي اللغة الانجليزية اشتقت كلمة " academic" بمدلول البحث التجريدي أو النظري، كما تستعمل الكلمة كذلك بمدلول غير المتعلق بالواقع من البحث فيقال " an academic question " انظر تعريف الكلمة في معجم Webster). وكان من بين هذه المجالس من تناول شؤون اللغة في مناقشاتها في البيوت الخاصة. فمثلا تشكل في مدينة فلورنس في ايطاليا مجلس في القرن السادس عشر اجتمع فيه بعض ذوي الاهتمام باللغة وعقدوا اجتماعاتهم في بيت عائلة " Rucellai " والذي كان يعرف باسم "Orti Oricellari" (Devoto, 1978). وفي باريس تشكل مجلس ذو اهتمامات لغوية في بداية القرن السابع عشر في بيت "Valentin Conrart" (Hall, 1967). ولما انتشر أمر هذه المجالس اللغوية وراقت اهدافها لبعض الحكام منحت صبغة رسمية، وخصصت لها أماكن رسمية لاجتماعاتها.

مجمع الايطالية

تبنى الحاكم "Cosimo I" مجلس فلورنس اللغوي واسماه «مجمع «التسكانية»، وطلب الى المجمع أن يقوم بترجمة كل ما كان مدونا آنذاك من الفكر والمعارف الى لهجتهم. ولكي يقوم المجمع بعمله في سبيل النهوض بتلك المهمة كان عليه أن يبدأ بدراسة الاستعمال اللغوي الذي كان دارجا في تلك المنطقة، ومن ثم تصنيفه حسب انتمائه اللغوي، وذلك من أجل حصر المادة التي كان سيستعملها في عملية الترجمة، ومن ثم جمعها في مؤلف واحد (بشكل معجم) يسهل الرجوع اليه اثناء عملية الترجمة. وبذا أصبح عمل المجمع مركزا على غربلة أو تنخيل المفردات الدارجة في الاستعمال آنئذ.

وقد صبغت عملية التنخيل اللغوية هذه عمل المجمع، وتمثلت تلك الصبغة في تغيير اسم المجمع عام ١٥٨٣ من «مجمع التسكانية» الى «مجمع النخالة» " Academia della Crusca " قياسا على عملية تنخيل الطحين وفصل النخالة عنه. وكان نتاج عملية التنخيل تلك وضع معجم ظهر في مجلد واحد عام ١٦١٢، وازدادت مواده الى ثلاث مجلدات في طبعة عام ١٦١٩ والتي أهديت الى الملكة ISABELLA. اما طبعة عام ١٧٣٩ فقد كانت في ستة مجلدات. (وقد أصبح هذا الاسلوب من عمل المجمع مثالا احتذته مجامع عديدة ظهرت فيما بعد ـ ابتداء بمجمع الفرنسية).

في القرن الثامن عشر ضعف عمل المجمع في

هذا المجال واقتصر معظم نشاطه على نقاط في التهجئة وصيغ بعض الأفعال ، مما ادى الى حله عام ١٧٨٣ من قبل دوق تسكانيا . الا أن المجمع أعيد تشكيله عام ١٨٠٨ عندما احتل نابليون ايطاليا ووكل نابليون اليه مهمة الاشراف على صفاء الاستعمال اللغوي في الأدب .

اما في الوقت الحاضر فقد أصبح المجمع مؤسسة يقتصر عملها على عدد محدود في الثقافة واللغة ، ولم يعد صاحب السلطة التي كان مخولا بها في الماضي . وفي عام ١٩٧٠ تأسس في ايطاليا مركز قواعد اللغة الايطالية ، وذلك لتنسيق أعمال الهيئات والمؤسسات التي ظهرت خلال العقود الماضية . وقد كان عمل هذه المؤسسات مقبولا أكثر من عمل المجمع مما ادى الى اندحار سلطته ، خاصة أن عمل المجمع لم يتعد مرحلة وضع المعاجم .

اما مركز قواعد الايطالية فينسق العمل مع اتحادات المعلمين بحيث يستعمل المعلمون الفصحى في التدريس ولا يقبلون غير الفصحى من المتعلمين . ومع مؤسسات الاذاعة والتلفزيون والصحافة والطباعة بحيث يتركز عمل هذه المؤسسات على نشر الانتاج اللغوي الفصيح بمختلف أنواعه ، وتقريبه الى متناول المستمعين والمشاهدين والقراء .

اما المستجد من المصطلحات المتخصصة فينسق نشره مع مكتب لغوي ضمن مكتب رئاسة الوزراء : Deveto 1978) 322 — 252)

مجمع الفرنسية .

كان التسعة الذين اعتادوا الاجتماع في مجلسهم في بيت (Cenrart) يركزون مناقشاتهم على تقييم الجديد من المؤلفات . وكانت تصل آراؤهم حول تلك المؤلفات الى عديد من الاشخاص من قطاعات الفكر والسياسة ، ومن بين هؤلاء الكاردينال ريشيليو ولما أصبح هذا الأخير الوزير الأول للملك لويس الثالث عشر ، حاول تركيز سلطة الدولة عبر تشكيل المجالس قضائية وتشريعية واقتصادية .... الخ . وامتدت فكرة ريشيليو في التنظيم السياسي الاداري الى اللغة فرأى أن يشكل مجلس تشريعي للغة الفرنسية . وفعلا أعطى ريشيليو مجلس (Conrart) الصبغة الرسمية عام ١٦٣٥ ، ووضع له قانونا داخليا عرض على البرلمان وسجل المجلس كمجمع في البرلمان عام ١٦٣٧ . اما مهمة المجمع كما حددها القانون فكانت واضحة في المادة ٢٦ ، وهي وضع معجم ومرجع في النحو ومرجع في البلاغة ومرجع في النظرية الشعرية .

(..... il sena compose un Dictionnaire, une Grammaire, une

Rheterique et une Poetique sur les observations de L'A cademie.) (Robentson, 1910 : 13) (Rickand, 1974 : 106) كما نص القانون على أن يكون عدد الاعضاء أربعين ، ولم يتغير هذا العدد منذ ذلك الوقت لدرجة أنه أصبح يطلق على أعضاء المجمع الكنية « الأربعون الخالدون » .

يمكننا القول بأن تأسيس المجمع كان له واقع خارجي وهو وجود مجمع في ايطاليا الذي ذكر سابقا ، مع أنه كان هناك مجامع علمية أخرى في ايطاليا (Academia di Livorna) وغيره .

اما الدافع الآخر والأقوى فكان داخليا ، ويبدو أن الوزير الأول ريشيليو كان واعيا عمله . اذ على العكس من الاعتقاد السائد أن فرنسا كانت وحدة لغوية واحدة في القرن السابع عشر ، فقد كان الوضع اللغوي لفرنسا آنذاك متفككا . فقد كانت مجموعة لهجات الشمال (langue d'eil)تختلف كثيرا عن مجموعة الجنوب (langue d'oc) (Rickand, 1974) اضافة لذلك ، كانت الأمية طاغية ، فقد بلغ عدد الاميين حوالي ثمانية عشر مليونا من مجموع السكان (٢٠ مليونا) . وكان الفرنسيون يستظهرون تصنيفا لغويا متفاوتا ، اذ كانوا يرون الايطالية والاسبانية هما المرشحين للاستعمال الثقافي والرسمي دون الفرنسية متمثلة في لهجات الشمال ، فقد كانوا يعتبرونها غير صالحة لذلك ابتداء . (ولعل امتياز الايطالية والاسبانية عند الفرنسيين من هذه الجهة مرده الى انها كانتا تمتان بسبب وثيق الى الحضارة الاسلامية العربية) .

ولهذه الاعتبارات جميعا فقد كان نشوء المجمع موضع سخرية من كثير من الفرنسيين (Robertson : 1910) بدأ العمل على وضع المعجم فريق من المجمعيين برئاسةبارون Fawne de vaugelas claudeعام ١٦٣٨ .

وقد كان وضع هذا المعجم هوحجر الأساس في حركة توحيد وافصاح الفرنسية (Richand, 1974 : 106) وقد كان ترتيب المفردات في طبعة ١٦٩٤ حسب الجذور اللاتينية ، وفي مجموعات المشتقات الفرنسية من هذه الجذور . وقد كان لقرار المجمع هذا صدى سلبي ، مما حدا بهم الى العدول عن هذا النظام في الطبعة الثانية عام ١٧٤٠ . وقد اعتمد القرار الأول للمجمع على تقديرهم للقارىء الذي وضعوا المعجم له . فقد رأى أعضاء المجمع أن الذين سيحتاجون الى المعجم هم ذوو الثقافة الكلاسيكية ـ أي المستمدة من التراث اليوناني الروماني ، وليس غيرهم من (Rickand, 1974:111)(les ignorans et les simple femmes)وبطبيعة الحال فان وضع المعجم (أي معجم) يصدر

عن موقف يتبناه ازاء نظام التهجئة واشكال الحروف الذي سيتبعه المعجم . وقد كان قرار المجمع في هذا الشأن هو اتباع النظام الذي كان متبعا قبل القرن السابع عشر ، ولم يعد يستعمل في المطابع في القرن السابع عشر . ولهذا احتاجت طباعة المعجم الى أن تغير شركة الطباعة التي تولت طباعة المعجم نظامها خصيصا لطباعته . وكان موقف المجمع هذا مدعاة أخرى لنقد عمل المجمع . الا أن المجمع غير موقفه هذا في اعداد الطبعة الثانية التي ظهرت عام ١٧٤٠ . وفي اخراج هذه الطبعة وجه المجمع اهتمامه الى تعديل نظام التهجئة . فمثلا في المفردات مثل best, escole أسقط المجمع الحرف (S) لانه لم يرمز الى صوت وأضاف اشارة أو فوق حرف العلة السابق للحرف المسقط فاصبحت الكلمات تكتب be-tem ecole كما أسقط الحروف غير الرامزة لاصوات في بعض المجموعات الساكنه مثل (Consonant clustere) obmet-te, aggnaffer, advocat فاصبحت omettre, agrafer, avoct . مثال ثالث أخير على الاصلاحات التي نتجت من عمل المجمع ، هو استبدال (i) ب (y) في نهايات الكلمات ، فمثلا الكلمات amy, cecy, moy أصبحت ami, ceci, moi . وظهرت جميع قراراتهم في اصلاح نظام التهجئة في شكل المفردات كما وردت في طبعة المعجم عام ١٨٣٥ (Rickard 1974 : 137 - 8)

كذلك بدأ المجمع بوضع معجم تاريخي شامل ، الا ان العمل فيه سار ببطء شديد ، وظهرت الطبعة الاولى منه عام ١٩٣٢ . وفي هذه الاونة - اى بعد ظهور المعجم التاريخي الشامل - بدأ المجمع بوضع معجم شامل على غرار المعاجم الانكليزية الامريكية ، ولكن العمل فيه يسير ببطء شديد كذلك ، اذ لم يتم انجاز خمس العمل بعد .

أما في مجال النحو ، فقد ظهر مرجع المجمع في النحو متأخرا . الا ان بعض أعضاء المجمع قاموا بوضع مؤلفات في النحو . ومن أشهر هذه المؤلفات كتاب رئيس المجمع الأول Claude Favre الذي ظهر عام ١٦٤٧ بعنوان (Re-marque sur la languc Fran-caise) وقد استمد المؤلف القواعد من الفصيح من كلام الطبقة العلياوالبلاط (انظر مثيله) King's English. ومؤلفات الكتاب المشهورين المعاصرين " la plus saine de la cour " " la plus saine partie des Autheurs de ce temps " حتى لا يمكن للعامة الاحتجاج ضده (Holmes and Schutz, 1938 : 87 — 8) . وفي حالات معدودة اعتمد كذلك على الحدس اللغوي (لا الاستعمال اللغوي) للعامة من حيث تقييمهم له وسوغ قبول آرائهم بان بعضهم (أي الذين استشارهم) لديه احساس لغوي سليم غير

مشوش بمعرفته اللاتينية أو اليونانية . واستشهد على تأثير اللاتينية واليونانية على بعض المؤلفين بأمثلة عديدة نذكر منها اعتبار بعض المثقفين كلمة erneur مذكرا ، بينما اعتبرها هو مؤنثة ، واضاف بأنه لا داعي لان يكون المنطق أساسا لتقييم الصيغة أو التركيب اللغوي ، لأن في هذا الاستعمال بعض النواحي التي تتفق والمنطق وأخرى تضاده ، وثالثة لا يمكن ادخال المنطق في تحديدها . (" l'usage fait beaucoup de chosses par raison, beaucoup sans raison, et beaucoup contre raison " (Rickard, 1974 : 107) وقد راجعت هذا المؤلف لجنة من المجمع وأقرته عام ١٧٠٥ .

وقد حافظ المجمع على مكانته كسلطة تشريعية للغة الفرنسية حتى مطلع القرن العشرين مما جعل جهوده ـ وان لم تكن مقبولة في جميع الأحوال ـ تثمر في توحيد اللغة الفرنسية ووضع أسس استمر تطبيق معظمها حتى وقتنا الحاضر . ولقد لجأ المجمع أحيانا الى فرض نوع من العقوبات على بعض من خرجوا عن خط تعليماته . فمثلا قام أحد أعضاء المجمع بوضع مؤلف في النحو نشره عام ١٦٩٠ ولم يتبع فيه خط سير المجمع ، لكن عمله هذا كلفه خسارة عضويته في المجمع .

ووقف المجمع خلال النصف الأول من هذا القرن عن متابعة الاتجاهات الجديدة في التحليل اللغوي . ولم يعمل على اجراء أية مقارنة بين منهجه وهذه المناهج المستحدثة ، بل لم يتعرض لها المجمع من قريب ولا من بعيد بالنقد أو غير ذلك . ولهذا فقد أصبح مجمع الفرنسية كسابقه مجمع النخالة في ايطاليا ، محدود العمل والسلطة ، وانتقلت هذه السلطة الى هيئات ومؤسسات تربوية واعلامية وأدبية . فمثلا المعجم السائد الاستعمال الآن ليس Dictionnaire de L'Academie Francaise بل — Petit lareusse I llustre (Rickard, 1974 : 152 — 6) ومن هذه المؤسسات والهيئات التي انتقلت اليها السلطة اللغوية :

ا ـ Office de Vocabulaire Francais واسمه يدل على مسماه . وقد أسس عام ١٩٥٧ لضبط وغربلة المصطلحات المشتقة من الجذور الفرنسية ، ولوقف استعمال المصطلحات الشائعة خطأ . ويتعاون المكتب مع بعض الصحف في القيام باستفتاءات عامة حول الأمور اللغوية ، ويتصل بذوي الاهتمام اللغوي لابداء الرأي في المصطلحات التي يضعها ولاقتراح بدائل للتي لا يستسيغونها . فمثلا يسأل هؤلاء المستشارون هل تستسيغون اقتراض لفظة pipeline ام تؤثرون اقتراح مشتقة من الفرنسية مثل Olé o du أو Antére ? وفي حالة قبول المصطلح الانكليزي فما هو اللفظ الفرنسي المقترح ؟

ب ـ Comité détude.des termes technique Français وقد شكلت هذه اللجنة عام ١٩٥٤ لتحديد شكل ولفظ المصطلحات المتخصصة الجديدة والتكنولوجيا ، واما المؤسسات التالية فهي معنية بشؤون نشر الفرنسية في العالم وتنسيق النشاطات اللغوية والثقافية الفرنسية في العالم ، وكذلك المحافظة على المستوى المقبول في الاستعمال اللغوي .

(١) الاتحاد الدولي لحماية الفرنسية العالمية ١٩٦٣ .
Fédération internationale pour la sauveg arde du Francais Universel .

(٢) اللجنة العليا لحماية اللغة الفرنسية ونشرها ١٩٦٦ .
Haut comité pour la défense at léxpansion de la langue française

(٣) ومنها دائرة / قسم اللغة الجيدة / الفصحية يرأسها السكرتير الدائم (Commision du bon Langue) .

(٣) انماء الاستعمال الفصيح للفرنسية في المناطق الناطقة بالفرنسية خارج فرنسا ١٩٦٧ Association pour le bon usage du français dans L'admimstration

(٤) حلف الفرنسية Alliance Française ١٨٨٣
ولهذه المؤسسة الخاصة أكثر من مائتي فرع حول العالم وتصدر مجلة شهرية . (Rickand, 1974 : 152 — 156)

محاولة فاشلة لانشاء مجمع في بريطانيا .

وفي بريطانيا بذلت محاولات لتأسيس مجمع لغة على غرار مجمع الايطالية ومجمع الفرنسية . ففي نهاية القرن السابع عشر (١٦٩٨) كتب Daniel Defor داعيا الى تأسيس مجمع لتشجيع تعلم الاستعمال اللغوي المهذب ولصقل اللغة الانكليزية وتهذيبها (أو لنقل تجميلها) باخراج التراكيب والاساليب الشائنة وتطهيرها (اللغة الانكليزية) من الاضافات والاختراعات اللفظية غير المتظمة كتلك التي ظهرت في كتابات من وصفهم بالجهلة المتعجرفين . وسانده في هذا الموقف وهذه الدعوى John Dryden . ويعلق اللغوي المعاصر Francis Dinnean على تلك الدعوة بانها كانت نابعة من خوف هذين الكاتبين انه ان لم تثبت الفصيح منها لاغراض استمرارية تعلمها وفهمها على مر العصور فانها ستتغير من عصر الى عصر ومع مرور الزمن تصبح الانكليزية في عصر ما غريبة وغير مفهومة في عصر لاحق ، وقد كان لدى الكاتبين المذكورين أعلاه دليل واضح . فقد كانت انكليزية سلفهما Chaucer غير مفهومة

لـديها . أي ان اللغة تفقد استمراريتها في الاتصال المفهوم لاصحابها من عصر الى عصر ، مما يدعو الى ترجمة مؤلفات عصور معينة للقراء في عصـور أخـرى لاحقـة ,Dinnean) (8 — 157 : 1967 الا ان المطالبة بتأسيس مجمع في بريطانيا هدأت بعد ظهور المعجم الذي وضعه Johnson عام ١٧٧٥ وظهور مرجع النحو الذي وضعه الراهب Lowth عام ١٧٦٢م .

مجمع السويدية Svenska Akademien

امتد الشعور بالحاجة الى تأسيس سلطة لغوية باسم مجمع الى السويد في القرن الثامن عشر ، ولاهداف شبيهة باهداف المجامع التي سبق ذكرها . ففي عام ١٧٨٦ أسس الملك -Gus tavus I I I مجمع السويدية وعهد اليه تعزيز قوة اللغة السويدية والمحافظة على صفائها ، وذلك عن طريق وضع معجم ومرجع في النحو ومراجع أخرى يمكن أن تساهم في دعم وتعزيز الـذوق اللغـوي السليـم ,Mo lde) . (1 : 1975 غير أن معظم عمل المجمع تركز حتى الآن على وضع المفردات (في معجم) وأمور اصلاح التهجئة . فقد ظهر من المعجم الشامل الذي بدأ العمل عليه عام ١٨٩٢ حتى الآن ستة وعشرون مجلدا من الحجم الكبير ووصل الباحثون حتى الحرف (S) . ويعتمد المجمعيون في وضع المفردات على السويدية القديمة والحديثة ولا يلجأون الى الاقتراض من لغات أخرى الا في حالات قليلة جدا ، اذ ان بعض المفردات الجديدة المدرجة في المعجم تعود في استعمالها الى القرن السادس عشر . ويتوقع أن ينتهي العمل في هذا المعجم مع نهاية هذا القرن . ومن ناحية الاحتياجات العلمية بدأ المجمع منذ سنة ١٨٧٤ بوضع ونشر قوائم المفردات التي اقترحها المجمعيون للاستعمال المثقف . ولكون اقتراحات المجمع هذه تلبي الحاجة اللغوية فانها تجد قبولا لدى الكثير من السويديين وهم يعتقدون ان استعمال مفردات غيرها يدل على نقص الثقافة والذوق اللغوي ، حتى ان البعض حظر استعمال كل كلمة لم يضعها المجمع . وقد ظهرت آخر طبعة لمجموعة القوائم في مجلد واحد عام ١٩٧٣ ، وهي تحوي مئة وخمسين الف كلمة .

أما جهود المجمع بالنسبة لاصلاح نظام التهجئة فانها تعلن بشكل اقتراحات فقط ، اذ ان أي إصلاح يجب أن يناقش في البرلمان ويصبح رسميا بعد ان يوافق عليه البرلمان فقط . وكان المجمع قد وقف معارضا لبعض جوانب اصلاح التهجئة الجذري الذي تقدمت به الحكومة للبرلمان ووافق عليه عام ١٩٠٦ . ومع هذا التقييد البرلماني فان المجمع لا يزال يتمتع باحترام اقتراحاته وآرائه لدى المواطنين . فمثلا تقدم اتحاد المعلمين عام ١٩٣٤ بمشروع اصلاح للتهجئة ، وكان المجمع هو المكان الأول لبحث

المشروع ، وقد رفضه المجمع ، ورفض المجمع كذلك مشروعا آخر قدم عام ١٩٤٣ .

بجانب جهود المجمع في البحث والتخطيط اللغوي هناك مؤسسات أخرى يمكن أن تذكر في هذا السياق من حيث كونها تعمل بالتنسيق مع المجمع . ومن هذه المؤسسات : مركز المصطلحات المتخصصة . Tekniska Nomenklatur centralen(T N S)

وقد أسس هذا المركز عام ١٩٤١ بهدف وضع مفردات ومصطلحات بالسويدية مقابلة للمفردات والمصطلحات في المواضيع المتخصصة . وتتألف ادارة هذا المركز من ستة من المختصين ثلاثة في المتقنة والعلوم الطبيعية وثلاثة في العلوم اللغوية والاجتماعية . ويساعد هذه المجموعة مستشار يختاره المجمع . وقد صدر هذ[illegible] الى خمسة [illegible] [illegible] مصطلح .

ومن منطلق التعاون بين دول المنطقة الاسكندنافية (السويد والنرويج والدنمارك) تشكلت في كل من هذه الاقطار لجنة لغوية . تشكلت لجنة اللغة السويدية عام ١٩٤٤ . وتدعمها الحكومة والمجمع ماليا بشكل جزئي ، ويتركز عمل هذه اللجنة على الاستعمالات اللغوية في المجالات الرسمية / الحكومية المتخصصة بحيث تكون مفهومة لدى المواطن الذي يتعامل مع هذه الدائرة الحكومية أو تلك .

كما تعمل هذه اللجنة بالتعاون مع مختلف اتحادات ونقابات القطاعات المهنية والاجتماعية وذلك من أجل تنسيق وحدة الاستعمال اللغوي . وتقوم اللجنة كذلك بطبع كتيبات كل في ناحية معينة من الاستعمال اللغوي ، مثل التهجئة ، اللفظ ، التنقيط ، قواعد الانشاء .... الخ . وقد بلغ عدد هذه الكتيبات خمسة وخمسين كتيبا يقبل المواطنون على ابتياعها ، مما يعطي المركز بعض المردود المالي . كما تصدر اللجنة مجلة شهرية باسم (الاغناء اللغوي) (Sprakvard) . كما أن اللجنة تعمل كمستشار للاستعمال اللغوي عن طريق الهاتف ، اذ يستطيع أي مواطن الاتصال بالمركز للسؤال عن أي استعمال لغوي مفضل . ويتلقى مكتب اللجنة المختص بهذا الشأن أكثر من سبعة آلاف استفسار سنويا (Molde, 1975 : 3 — 4)

مجمع اللغة الاسبانية الملكي : Real Academia Espanola

ظهرت في اسبانيا ابان القرن السادس عشر بعض المجالس الأدبية وانبثق منها اهتمام لغوي . ولعل ظهور هذه المجالس في اسبانيا كما في ايطاليا أن يكون مظهرا من مظاهر استمرار التأثير الحضاري والفكري للمسلمين في الأندلس .

وكان أقدم مجلس عرف عنه أنه أصبح

مجمعا ، هو الذي ظهر في مدريد في الفترة ما بين ١٥٤٤ و١٥٤٧ . ومن غريب أمر هذا المجمع أن الذي دعا الى تأسيسه كان أحد الاسبانيين الذين عادوا من العالم الجديد (Indiano).

أما المجمع الملكي فقد انشيء لكي يكون نقطة لتجميع وتنسيق جهود المجالس المحلية في اسبانيا . أسس هذا المجمع عام ١٧١٣ . وقد لخصت أهدافه في العبارات التالية : تطهير ، وتثبيت ، واضفاء الروعة على اللغة الاسبانية (Guillermo,etal., 1974 ; 317 ff). وقد اتخذ هذا المجمع مجمع الفرنسية مثالا يحتذيه في تشكيله وعمله . فقد عهد اليه وضع معجم ومرجع في التهجئة ، ومرجع في النحو : Diccionario, Ontografia, Gramatica . وكان طموح المجمع في عمل المعجم أن يضع مفردة أو مصطلحا لكل ما يمكن استعماله في اللغة . وكانت نقطة الانطلاق هي مراجعة وجرد المفردات والمصطلحات التي وردت في المدن من الأدب والفكر الاسباني . وقد حاول المجمعيون جهدهم أن يتخلصوا من الغريب ولا يدخلوه في المعجم . وظهرت الطبعة الأولى للمعجم في مجلد واحد عام ١٧٨٠ م . وكانت كل مفردة موثقة باقتباس من مؤلف مشهور يؤيد اختيار تلك المفردة في المعجم ، ولهذا عرف فيما بعد باسم المعجم الموثق . Diccionarie de Autoridades وفي عام ١٩٦٠ بدأ المجمع بوضع المعجم التاريخي للغة الاسبانية في جميع الاقطار الناطقة بالاسبانية ، وفي خلال عشر سنوات وصل العمل الى كلمة (Ajarafe)، وهذا يعني أن العمل على المعجم التاريخي سيستغرق وقتا طويلا (كما هو الحال بالنسبة للمعاجم التاريخية التي يضعها المجمعيون في الأقطار الأخرى) .

أما مرجع التهجئة (Ortografia espanola) فقد أخذ المجمعيون مؤلفا كان قد نشر عام ١٧٢٨ في مدريد كجزء من مسودة المعجم الأولى ، قام بتحضيره المعجمي Adrian Cohnink. وقد أدخل المجمع تعديلات عديدة على نظام التهجئة عدة مرات خلال القرنين الماضيين . وكان هناك شد وجذب بين الذين دعو الى أن تدل التهجئة على الأصل التاريخي للكلمة وبين الذين دعوا الى أن تمثل التهجئة نطق الكلمة . وكان الموقف الأخير هو الممثل في الطبعة الأخيرة لكتيب التهجئة (Nuevas normas de prosodiay ortografia, 1970) هو أن يعطى نطق الكلمة الأولوية في وضع صيغة تهجئتها ، وأن يؤخذ بالاصل التاريخي للكلمة إن كان هذا لا يغير تهجئتها جذريا . ومما يؤخذ على المجمعيين في وضع كتيب التهجئة في طباعاته السابقة انهم لم يطبقوا جميع قراراتهم في التهجئة في طبعات معجمهم ، مثل اعجام النبرة (Stress) والنغمة (Prosody) .

أما في النحو فكان هدف المجمع أن يثبت استعمال التراكيب اللغوية التي تمثل الكتابة الأدبية المصقولة والسليمة بحيث تصبح دارجة في المنطوق من اللغة كذلك . كما ان المجمع وضع ضمن هذا المخطط ان ينظر في ادخال تراكيب جديدة اذا اتفقت ونظام اللغة الاسبانية وظهرت في استعمل الادباء المشهورين المتبحرين في نقد الاستعمال اللغوي . وعهد الى اثنين من المجمعين بوضع هذا المرجع ، وقد تبنى المؤلفان نظام ما نحو اللاتينية في مرجع النحو هذا . وظهرت الطبعة الأولى هذه عام ١٧٧١ . وقد ادخلت على المرجع تعديلات عديدة في طبعاته التي تلت . وقد روعي في طبعة ١٩٧٢ المنقحة والتي حضرها ثلاثة من المجمعيين ، ان يستأنس بالنظريات اللغوية المعاصرة من وصفية وتحويلية . وكان من بين النشاطات لمجمع الاسبانية التي ساعدت بشكل فعال على زيادة كفاية انتاج المجمع اجراء المسابقات في الابحاث اللغوية والكتابة الأدبية ، وتقييمها ، ومن ثم منح الجوائز للمؤلفات التي تنال تقدير المجمع . وكانت هذه المؤلفات تنشر فيما بعد (اما معدلة جزئيا أو كليا) باسم المجمع وهذا ما جعل الانتاج المجمعي غير مقتصر على المجمعين انفسهم . وبالتالي فان النقد أو المعارضة التي كانت تواجه المجامع الأخرى لم تحصل بالنسبة لمجمع الاسبانية .

وفي استعراض مجامع الاسبانية خارج شبه جزيرة ايبريا سيكون مجمع الاسبانية موضع الحديث كذلك من حيث كونه المجمع الأم لها وكذلك من حيث كونه أحد اعضاء اتحاد مجامع الاسبانية .

مجامع الاسبانية في نصف الكرة الغربي .

أسست المجامع اللغوية في أمريكا اللاتينية (وهذا الاصطلاح يتضمن اعتبار المكسيك - في أمريكا الشمالية - إحدى الدول المعنية) على غرار مجمع الاسبانية الملكي ، وتبنت نفس الأهداف واساليب منهاج العمل . وهذا واضح من بنود قوانينها الداخلية .

ولم يكن تأسيس هذه المجامع مجرد فكرة وليدة الاستقلال ، بل سبق ذلك بوادر من مجمع الاسبانية الملكي نفسه ، اذ انه في العام ١٨٦٠ اتخذ المجمع قرارا بالاعتراف بأي مجمع للاسبانية - خارج اسبانيا - يؤسسه ثلاثة على الأقل من الاعضاء المشاركين (في المجمع الملكي في مدريد) في أي قطر في أمريكا اللاتينية اذا تقدم هؤلاء الثلاثة بطلب بهذا الغرض الى المجمع الملكي . ويبدو ان هذا القرار كان قد سبقه بحث الاعضاء المشاركين بمبادرة من العضو المشارك من كولومبيا .

وإذا تفحصنا بعض العبارات التي وردت في القوانين الداخلية لهذه المجامع وجدنا أنها

هدفت الى جعل اللغة عنصرا من عناصر الوحدة مع الوطن الأم ، فقد قال Miguel Antonic Caro عند تأسيس المجمع الكولومبي : « اللغة هي الوطن الأم » (Guillermo, etal., 1974 : 321 ff). وقال أحد المؤلفين الذين منحوا جائزة المجمع الملكي : « لا شيء يمثل الوطن الأم في رأيي مثل اللغة » (نفس المصدر والصفحة) .

كان هذا هو الشعور العام . ولكن كانت هناك اتجاهات معاكسة دعت الى نبذ الاسبانية وايجاد لغة قومية في كل قطر تختلف عن لغة المستعمر السابق ولا تذكرهم به . واعتبر أصحاب هذا الاتجاه أن الابقاء على الاسبانية هو بمثابة مدعى لاسبانيا للتدخل في شؤونهم الداخلية . فمثلا رفض الكاتب البيروي Manuel Gonzalez Prada عرض المجمع الملكي ليصبح عضوا مشاركا فيه (نفس المصدر ص ٣٢٢) . وفي تشيلي والارجنتين كان لدى بعض الكتاب هناك شعور مشابه كذلك . أما بالنسبة لمؤيدي الابقاء على الاسبانية في تلك الاقطار فقد رأوا في اللغة الاسبانية تعبيرا عن الذاتية الثقافية لجميع الاقطار الناطقة بالاسبانية ، كما تبنوا الحجة بأن ترك الاسبانية لكي تتفسخ وتتعفن في اقطارهم ما هو الا دليل على رفض أصلهم العرقي ، ودليل على رفضهم المشاركة في التقدم الحضاري باعلان عجزهم عن ابقاء لغة الثقافة حية في مجتمعاتهم . كما أنهم رأوا في التخلي عن الاسبانية زيادة عوامل التفرقة بين الأقطار ذاتها .

وكانت محصلة الصراع بين الفريقين أن تغلب انصار الاسبانية . وتجلى ذلك في تأسيس المجامع اللغوية فيها ـ كولومبيا ١٨٧١ ، المكسيك ١٨٧٥ ، الأكوادور ١٨٧٥ ، سلفادور ١٨٨٠ ، فنزويلا ١٨٨١ ، تشيلي ١٨٨٦ ، غواتيمالا ١٨٨٨ . وتشابه شروط العضوية في جميع هذه المجامع شروط العضوية في المجمع الملكي ، واهمها الكفاية اللغوية والشهرة في الانتاج في المجال الأدبي أو الدراسات اللغوية . ودعمت حكومات تلك الأقطار مجامعها وساعدت على نشر انتاجها . كما بذل الأعضاء المؤسسون جهودا كبيرة في سبيل انجاح نشاط المجامع . الا أن هذا النشاط تناقص بشكل كبير بعد وفاة المؤسسين مما أدى الى حل العديد منها ذاتيا . غير أنه أعيد تشكيلها خلال العقود الأولى من هذا القرن : تشيلي ١٩١٤ ، بيرو ١٩١٨ ، الأكوادور ١٩٢٣ ، سلفادور ١٩٢٣ ، غواتيمالا ١٩٣٠ .

كما تشكلت مجامع مشاركة في أقطار أخرى : الأرجنتين ١٩١٠ (واعيد تشكيله وغير اسمه عام ١٩٣٠) ، بوليفيا ١٩٢٠ ، كورستاريكا ١٩٢٣ ، كوبا ١٩٢٦ ، بنما ١٩٢٦ ، الدومنيكان ١٩٢٧ ، براغواي ١٩٢٧ ، هندوراس ١٩٤٨ ، بورتوريكو ١٩٥٢ . وقد

حافظت جميع هذه المجامع - باستثناء مجمع الارجنتين - على ارتباطها مع المجمع الملكي في مدريد .

وبالنسبة لانتاج هذه المجامع - في كلا الفترتين ما قبل القرن العشرين وخلاله - فقد كانت في المعاجم والنحو ، والتهجئة ، والأعمال الأدبية والبحث اللغوي والنظري . كانت مؤلفات المجمع في النحو تظهر متأخرة ولا يدخل فيها الاستعمال المثقف الدارج في المؤلفات الأدبية الجديدة . أما وضع المعاجم فقد كان نقطة الارتكاز بالنسبة لمعظم المعاجم ؛ كما أن هذه المعاجم كانت تختلف بعضها عن البعض حسب القطر الذي ظهرت فيه ، وقد وضع كل مجمع معجما . وقد واجهت جميع المجامع مشكلة المفردات الدخيلة ، وترك لكل مجمع أمر حل هذه المشكلة حسب العوامل المؤثرة في ذلك القطر . فمثلا حصل المجمع الكولومبي عام ١٩٦٠ على موافقة مجلس الدولة التشريعي بمنع استعمال المفردات والمصطلحات من اللغات الأجنبية في وثائق العمل التجاري الرسمي ، وأسماء المؤسسات التعليمية والمراكز الثقافية والاجتماعية وفي أسماء المطاعم والمقاهي والفنادق والمرافق العامة الأخرى (نفس المصدر ص ٣٤٥) .

اتحاد المجامع الاسبانية .

امتدادا لفكرة ونشوء التجمعات السياسية بين مجموعات من الدول في مناطق مختلفة من العالم خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، اقترح رئيس جمهورية المكسيك Miguel Aleman عام ١٩٥١ أن يجري تنسيق منتظم بين جميع مجامع الاسبانية ، وان تشرف مظلة ادارية على هذا التنسيق . واستضاف الرئيس المكسيكي في ذلك العام مؤتمرا عاما ضم ممثلين عن جميع مجامع الاسبانية . ولم تظهر معارضة جذرية لفكرة الرئيس المكسيكي ، وعليه تقرر أن تشكل اتحاد لهذه المجامع وان تنتخب مفوضية دائمة للاتحاد ؛ كما تقرر أن يعقد الاتحاد اجتماعا كل اربع سنوات ابتداء من ١٩٥٦ تتناوب المجامع دوريا استضافة هذا الاجتماع . وقد وضع هدف الاتحاد ليكون العمل بانتظام ومواظبة للدفاع عن الاسبانية والمحافظة على وحدتها وتكاملها كلغة مشتركة بين جميع هذه الأقطار، وللتأكد من أن نموها يتبع مسارا اسبانيا أصيلا (ص ٣٢٦) . وأما المفوضية فهي مسؤولة عن الاشراف على تنفيذ قرارات الاتحاد . وقد وقعت دول المجامع على اتفاقية اعتراف مشتركة بالاتحاد .

- وفي عام ١٩٦٠ تقدمت كوبا في الاجتماع الثالث للاتحاد الذي عقد في بوغوتا عاصمة كولومبيا بمشروع لاصلاح نظام التهجئة بحيث تصبح عملية تعلم التهجئة أسهل ، الا أن الاتحاد قرر أن يحيل على المجمع الملكي مهمة تنقيح كتبه في التهجئة ، (Nuevas Normas) المذكور سابقا ، آخذا بعين الاعتبار

اقتراحات الوفد الكوبي . وفي مؤتمر ١٩٦٤ - الذي عقد في الارجنتين - تقدم مجمع الاسبانية في الفلبين بمشروع يستخدم الابجدية الصوتية (Phonetic alphabet) لاغراض تعليم المبتدئين . الا أن الاتحاد رفض هذا الاقتراح ، ووافق فقط على جواز استعماله في الفلبين فقط اذا أدى استعماله الى المحافظة على الاسبانية من الزوال في ذلك القطر . وحذر الاتحاد مجمع الفلبين بأن استخدام تهجئة تختلف عن النظام المعمول به في باقي أقطار الاتحاد سيؤدي الى عزل ذلك القطر ثقافيا عن باقي الأقطار (المصدر ص ٣٥١) .

ومع أن الاتحاد يرى أن نظام التهجئة الحالي غير مرض تماما الا أنه لا بد من القول أن نظام تهجئة الاسبانية أكثر انتظاما واضطرادا من معظم نظم تهجئة اللغات التي تستعمل الأبجدية اللاتينية . وأن الاعجام الذي يشكل مشكلة في الطباعة والكتابة اليدوية والذي يوجد له مثيل في عديد من اللغات الأخرى التي تستخدم نفس الأبجدية (مثل الفرنسية والالمانية وغيرهما) هو نتاج طبيعي لاستخدام أبجدية وضعت أصلا للغة ما ثم امتد استعمالها الى لغات أخرى تختلف عنها .

أما بالنسبة للمفردات والمصطلحات المتخصصة والمعاجم فقد توصل الاتحاد الى وضع نظام مضطرد لجميع المجامع في اجتماعه عام ١٩٦٠ . وملخص القرار هو عدم معارضة ادخال هذه المفردات والمصطلحات في المعاجم ، وذلك لأن معظم المفردات والمصطلحات المتخصصة المستخدمة هي لاتينية الجذور ، ولكون الاسبانية إحدى اللغات الناتجة عن اللاتينية فان الاشتقاق لا ينتج مصطلحات أو مفردات غريبة الجذور عن الاسبانية (كما هو الحال بالنسبة للغات غير اللاتينية مثل العربية واليابانية مثلا) .

مجمع الغالية / الايرلندية .
Comhairle Na Gaeilge

إثر الاحتلال البريطاني لجزيرة ايرلندا في القرن الثامن عشر بدأ الاقبال بين الايرلنديين أنفسهم على تعلم اللغة الانكليزية وترك اللغة الايرلندية ، خاصة في الفترة بين ١٧٥٠ - ١٨٥٠ م . فقد تبين من احصاء أجري عام ١٨٥١ أن ٥ ٪ فقط من الايرلنديين يستعملون الايرلندية دون غيرها و ٢٣ ٪ ثنائيو اللغة (أي يستعملون الايرلندية والانكليزية) ، أما الباقون فيبدوا انهم كانوا قد أصبحوا ناطقين بالانكليزية وحدها .

ومن مراجعة تاريخ العلاقات الايرلندية البريطانية يمكن القول أن تخلي الايرلنديين عن لغتهم كان نتيجة دوافع اقتصادية ، حيث أصبحت الوظائف والاعمال الرسمية والتجارية

تعتمد على الانكليزية وحدها . ولا يزال هذا الدافع حافزا لمعظم الايرلنديين أنفسهم ، وتبين من اجابات طلاب المدارس أن ٣ ٪ منهم يستعملون الايرلندية بالرغم من جهود المجمع ، وأن هذا الاستعمال محصور في محيط البيت والعائلة . كما تبين أن غالبية هذه المجموعة (٣ ٪) تعيش في منطقة الشاطىء الغربي للجزيرة (أي غير المحاذي لجزيرة بريطانيا) وبعيدا عن المدن الكبيرة (Mac-namara, 1971 : 65 — 94) .

أما ظهور مجمع الايرلندية فقد اقترن بظهور الحركة القومية الايرلندية في نهاية القرن التاسع عشر . فقد تكتلت مجموعة ضمن هذه الحركة وشكلت (عصبة الغالية / الايرلندية) عام ١٨٩٣ (نفس المرجع ص ٦٧) ، وقد تأسست فروع لها في مختلف المناطق التي كانت الحركة القومية فيها نشيطة . أما اهداف المجمع فكانت مرتكزة على اعادة استعمال / احياء اللغة الغالية . أما النشاط الرئيسي للمجمع وفروعه فكان يتمثل في فتح مراكز تدريس الغالية للكبار . وقد وجد العديد من الايرلنديين في هذه المراكز التعليمية بؤرة تجمع قومية ، ولكون الايرلنديين منتمين للكاثوليكية (والتي تختلف عن الكنيسة البريطانية / الانكليزية) فقد جمعت هذه المراكز انصار الغالية من مختلف الطبقات . وبهذا أصبحت الدعوة الى اعادة الغاليةجزءا من حكومةقومية ودينية واجتماعية في نفس الوقت . وقد بدأت نتائج قوة هذا التجمع تظهر في التشريعات البريطانية في ايرلندا . فمثلا اضطرت الادارة البريطانية في ايرلندا قبول المراسلات (المواد البريدية) المعنونة بالغالية . كما صدر تشريع في وزارة التربية يجيز تدريس الغالية كاحد المواضيع المدرسية ، كما أصبحت الغالية في الوقت الحاضر إحدى متطلبات القبول في الجامعة الوطنية الايرلندية . أما في مجال البحث اللغوي فقد بدأ المجمع إصدار مجلته الأسبوعية An Claidheamh Soluis عام ١٩٠٥ وهي تحوي قرارات واخبار نشاطات وابحاث المجمع . وتعتبر حركة اعادة الغالية إحدى العوامل التي أدت الى استقلال الايرلنديين الكاثوليكيين عن بريطانيا وتأسيس دولة ايرلندا الحرة عام ١٩٢٢ (المصدر ص ٦٨) .

ومع قيام الدولة بدأ نشاط المجمع يخف نتيجة تقاعس اعضائه الذين اعتبروا أن المهمة التي بدأوا بها قبل تأسيس الدولة يجب أن تقع على كاهل الحكومة الجديدة . يضاف الى ذلك أن عددا من اعضاء المجمع الفعالين قتلوا في حرب الاستقلال ضد بريطانيا ، وان عددا آخر منهم تسلم مناصب سياسية في الحكومة وكرسوا نشاطهم في هذا المجال .

(١) استعمال الغالية في جميع المجالات بقدر الامكان .

(٢) تأسيس كليات معلمين لتزويد المدارس

باحتياجاتها من المدرسين في المرحلة الابتدائية (الا أن هذه المعاهد اغلقت عام ١٩٦٠).

(٣) تأسيس مركز للترجمة تابع للبرلمان (أسس عام ١٩٤٥، واصدر مرجعا في النحو عام ١٩٥٣).

(٤) اعطاء مكافآت ومساعدات مالية للعاملين في تدريس الغالية والمدارس التي تدرسها. وبالرغم من التسهيلات والمكافآت والمساعدات المالية الا أن الاقبال على تعلم وتدريس الغالية لم يرتفع بل بدأ ينخفض كما تدل على ذلك الاحصائية التالية عن المدارس الثانوية التي تدرس الغالية :

ولم يكن الفتور في الاقبال على الغالية مقصورا على المتعلمين، فالكنيسة التي كانت إحدى مراكز التجمع للغالية لم تبن استعمالها في صلواتها إلا عام ١٩٥٦. ومن مجريات الأحداث المتعلقة باعادة احياء الغالية يظهر أن المهمة قد أثبتت أنها أصعب مما كان متوقعا قبل أكثر من ثلاثة ارباع القرن، وكان الخلاف حول جدوى أهداف إعادة إحياء اللغة وحتى حول وسائل تحقيق تلك الأهداف. كما يرجع الفشل النسبي لحركة إعادة اللغة الى درجة ثقة الايرلنديين بامكانية اعادة لغتهم. فقد أجري استفتاء عام ١٩٦٤ حول شعور الايرلنديين تجاه جدوى إعادة اللغة، وكانت نتيجة الاستفتاء أن ٨٣٪ من السكان لا يعتقدون أنه بالامكان جعل الغالية اللغة القومية والرسمية للدولة، بينما يعتقد ٧٦٪ أنه بالامكان الابقاء على الغالية كلغة ثانية في ايرلندا بعد الانكليزية. ويزيد في هذا الانحدار للغة القومية الى المرتبة الثانية في الاستعمال الدارج أن الدولة نفسها تعتمد على الانكليزية في معظم معاملاتها وشؤونها. (هذا بالرغم من أن البند الثاني من المادة الثامنة في قانون الدولة ينص على أن لغة التداول في البرلمان هي الانكليزية وأن سجلاته باللغتين. كما أن لغة الأجهزة الاعلامية وخاصة الاذاعة منها تستعمل الغالية بشكل أقل من الانكليزية، فبرامج الاذاعة بالغالية لا يزيد على ١٠٪ من مجموع ساعات البث (تقرير المجمع عام ١٩٧٢ ق (Fishman, 1974 : 527 — 552).

السنة	عدد المدارس التي تدرسها	عدد المدارس في ايرلندا
١٩٤٤	٩٨	٣٧٧
١٩٥٦	٨٧	٤٧٤
١٩٦٦	٧٢	٥٨٥
١٩٦٨	٥١	٥٩٦

(Macnamara, 1971 : 75)

مجلس السكتلندية .
Comhairle nan Lallans

تستعمل في منطقة سكتلندا لغتان عدا الانكليزية :

الأولى هي الغالية والتي ينطق بها المنحدرون من اصل ايرلندي ، والثانية هي السكتلندية وهي قريبة من الغالية لكونها لغتين قلطيتين (Celtic) وفي السكتلندية لهجتان رئيسيتان لهجة المناطق المرتفعة ولهجة المناطق المنخفضة .

وكانت السكتلندية هي لغة مملكة اسكتلندا قبل القرن السابع عشر ، حين توحدت المملكتان (البريطانية والسكتلندية عام ١٦٠٣) . وكانت غير محدودة في استعمالها آنذاك كما أنها كانت تعتبر أكثر « تطورا » من اللغة الانكليزية — Aitken, 1976 : 48 (55 في Wood, 1977). وفي أعقاب انضمام المملكة السكتلندية للمملكة الانكليزية وتشكيل المملكة المتحدة ، بدأت السكتلندية بالاندحار تدريجيا . ومنذ توحيد البرلمانين عام ١٧٠٧ - وحتى عهد قريب - لم يعد للسكتلندية أي وجود فعلي على نطاق واسع ، خارج المدون منها وخاصة القانون السكتلندي .

إلا أن الشعور بالحاجة الى المحافظة على السكتلندية لم يتلاش عند أهلها ، فقد تأسست جمعية لغوية في لندن عام ١٧٧٧ وفي Inverness في سكتلندا عام ١٨٧١ . وكانت الجمعية في سكتلندا تشرف على تدريس السكتلندية ، وكانت هذه الجمعية تعقد اجتماعات منتظمة لبحث شؤون ووسائل المحافظة على اللغة وتنشر ذلك في مجلتها ، وفي عام ١٨٨٢ تأسس في جامعة ادنبرا كرسي لتدريس السكتلندية وانتقلت الى هذه الدائرة عملية الاشراف على تدريس السكتلندية ، لكن التنظيم الشعبي الطوعي عاد الى الظهور عام ١٨٩١ بانشاء اتحاد منطقة المرتفعات الجبلية وهو حزب سياسي جعل المحافظة على اللغة أحد نشاطاته الأساسية ، وكان هذا الحزب فعالا في تأييد مناصري السكتلندية في البرلمان .

وبعد الحرب العالمية الأولى انتشرت حركة الولاء اللغوي الى المناطق المنخفضة ، وعقدت عدة مؤتمرات لبحث وضع اللغة في التعليم واتخذت قرارات تطالب بتحسين الكتب المستعملة في تدريس اللغة وزيادة عدد الساعات المقررة لها كموضوع مدرسي . وبعد تأسيس الحزب الوطني السكتلندي ازداد الدعم السياسي لانتشار استعمال اللغة ، فبدأت البرامج المحلية لهيئة الاذاعة البريطانية بث برامج بالسكتلندية لمدة ساعة وثلاثة أرباع الساعة أسبوعيا في الخمسينات من هذا القرن . الا أن السكتلندية لم يكن لها أي مركز رسمي بالنسبة للاستعمال في ادارة المقاطعة . وفي عام

١٩٥٢ ظهرت المجلة الفصلية Gairm والتي تعنى بشؤون السكتلندية ، وفي عام ١٩٦١ أشرف مجلس السكتلندية على دراسة علمية لاستقصاء المهارة اللغوية بالسكتلندية لدى طلاب المدارس الابتدائية ، ووضعت امتحانات مقننة لقياس تلك المهارة . وفي المؤتمر الذي عقده المجلس مع الحزب الوطني عام ١٩٦٨ صدر قرار بتعيين عضو ناطق بالسكتلندية في مجلس التنمية السكتلندية ، وبذا أصبح المجلس ذا نفوذ سياسي (Pressure Group) . وتبع ذلك تعيين موظف واحد على الأقل ينطق بالسكتلندية في كل مكتب من المكاتب الادارية للمقاطعة ، كما خصصت منح خاصة ورسمية بهدف زيادة انتشار السكتلندية . وعلى سبيل المثال أعطيت جامعة كلاسكو منحة لوضع معجم تاريخي للسكتلندية ، كما تأسس مجلس لوضع كتب مدرسية بالسكتلندية ممولا بمنحة حكومية . وقد ظهر انتاج هذا المجلس في السبعينات ، وبدأت بعض الجامعات باجراء دراسات لغوية علمية في الصرف المقارن واللهجات وتاريخ اللغة ، والنقد الأدبي والفن الشعبي السكتلندي . وفي نشاط الحزب الوطني السكتلندي ازداد التركيز على اللغة ، فاتخذ الحزب في مؤتمر عام ١٩٦٨ قرارا بانشاء مكتب سكرتيرية السكتلندية للاشراف على وضع مخطط مفصل لسياسة الحزب اللغوية (Mackinnon, 1977 : 1 — 3).

وكنتيجة لفعالية الحزب الوطني السكتلندي بدأ العمل على اعادة ظهور سكتلندا كشخصية سياسية في بريطانيا في الربع الثالث من هذا القرن . وكان من مظاهر النشاط هذا تأسيس مجلس السكتلندية عام ١٩٧٠ . وقد ارتكز مؤسسو المجلس على تجاوب السكتلنديين مع حركة اعادة السكتلندية التي كان بدأ بها أربعة من الشعراء السكتلنديين المشهورين وعلى رأسهم Hugh Mc David وهو الآن الرئيس الفخري للمجلس .

وزاد من فعالية المجلس اعادة تقسيم المقاطعات الادارية في بريطانيا عام ١٩٧٥ ، اذ أصبحت هذه المنطقة وحدة ادارية وشكل لها برلمان افتتح عام ١٩٧٧ . ويطالب هذا البرلمان الآن باستقلال سكتلندا عن بريطانيا ؛ وبذلك أصبح العمل على اعادة السكتلندية مظهرا أساسيا من مظاهر الاستقلال الذي يطالبون به ؛ فأصبحت السكتلندية تدرس بجانب الانكليزية في جميع المراحل الدراسية ، ابتدائية وثانوية وجامعية . ويقوم المجلس بالتعاون مع وحدة التعليم اللغوي الثنائي (التابع لمجلس الجزر الغربية وسكتلندا) بتحضير ونشر المواد التعليمية لهذا الغرض . كما بدأ المجلس باصدار مجلة دورية Lians . وقد تأسست جامعة في جزيرة سكاي باسم Sabhal Mo Oistag بهدف جعل السكتلندية لغة التعليم الوحيدة . كما يطالب المجلس الآن ـ على لسان سكرتيره David Hughes ـــبان يصبح

للسكتلندية أقسام في جميع الجامعات على غرار أقسام اللغة الانكليزية (Wood, 1977 : 1 — 6). هذا من ناحية طموح المجلس كما يظهر في مطالبه، الا أن انتشار استعمال السكتلندية كلغة للتدريس لا يزال محدودا نسبيا.

وما زلنا في معرض الحديث عن مجامع اللغات غير الانكليزية في بريطانيا فيحسن بنا أن ننوه الى وجود حركة مماثلة في مقاطعة ويلز تدعو الى اعادة إحياء لغة ويلز. ففي عام ١٩٦٢ وجه أحد الوطنيين الويلزيين Saunders Lewis خطابا بعنوان «مصير لغة ويلز» (Tynged yr Iaith)، وقد استقطب مشاعر الناطقين بها والبالغ عددهم خمس المليونين ونصف المليون من سكان المقاطعة، خاصة الشباب منهم وحفزهم على مزيد من الاقبال على استعمال الويلزية (Mackinnon, 1977 : 2). ومن مظاهر تشبث الويلزيين بلغتهم أن الحزب الوطني الويلزي (الذي يبلغ عدد أعضائه حوالي ٣٠ ألفا) تبنى قضية إعادة إحياء اللغة، وقد حصلت حوادث عديدة تبين مدى تعلقهم بلغتهم. ومن هذه الحوادث رفض الويلزيين استلام اشعارات الحضور للمحاكم الموجهة اليهم بالانكليزية، وازالة إشارات المرور المكتوبة بالانكليزية فقط.

وفي شهر تشرين الأول عام ١٩٧٩ دعا سكرتير الحزب الوطني الويلزي الى عدم دفع رسوم أجهزة التلفزيون ما لم تخصص الحكومة إحدى قنالات البث للويلزية (الاذاعة البريطانية العالمية باللغة الانكليزية ١٩٧٩/١٠/٢٠، الساعة ٤٥ و١٣).

الصين

لا يوجد في الصين مجمع لغوي بالمعنى الذي نتحدث في هذا البحث. إلا أن محاولات للاصلاح اللغوي جرت وما تزال تجري في تلك المنطقة من العالم. وعليه فانه وان تعذر التحدث عن «مجمع اللغة الصينية» كما تحدثنا عن مجامع في دول أو مناطق أخرى من العالم فان هذا البحث يعتبر ناقصا من ناحية تغطية مناطق العالم المختلفة في هذا المجال، ومن الناحية المنهجية كذلك بدون التحدث عن مشكلات الصينية ومحاولات التخطيط لعلاجها. فان التخطيط اللغوي في الصين لا يختلف جوهرا عن التخطيط اللغوي في الدول شاسعة المساحة متعددة اللغات.

ولكن قبل الخوض في العلاجات اللغوية التي وضعها المسئولون المعنيون بشؤون اللغة في الصين يحسن بنا أن نلخص الوضع بشكل مقتضب جدا.

يتلخص الوضع اللغوي في الصين في نقطتين أساسيتين:

أولا : يمكن تقسيم اللغات التي ينطق بها سكان الصين (بكاملها قبل التقسيم والصين الشعبية بعد ذلك) الى فئتين : فئة اللغات أو اللهجات الصينية (اذ يختلف اللغويون حول تحديد اللهجات واللغات) وفئة اللغات غير الصينية . اما الفئة الأولى فتتضمن ثمانية لغات / لهجات أشهرها وأكثرها انتشارا هي الماندرين (لغة حوالي ٧٠ ٪ من السكان) . أما الفئة الثانية ففيها ست وثلاثون لغة ، تنتشر ست وعشرون منها في جنوب الصين وتنتشر العشرة الأخرى في الشمال . وتنتمي لغات الشمال الى أربع عائلات لغوية . أما لغات الجنوب فتنتمي تسع منها الى العائلة الالطية وأما اللغة العاشرة (التاجية) فتنتمي الى عائلة اللغات الايرانية (Defrancis, 1967 : 131 — 150; Chang, 1967 : 151 — 171).

ثانيا : نظام كتابة الصينية هو نظام الرسم الصوري ، أي الرمز يرسم الى الفكرة (لا الى الصوت كما هو الحال في معظم لغات العالم الأخرى) . وهذا النظام هو تطوير لنظام الرمز الى الشيء بصورته والذي كان استعماله دارجا لمدة عشرين قرنا (بين ٣٠٠٠ و ١٠٠٠ قبل الميلاد) في الرقعة الممتدة من مصر الى الصين .

يرمز في النظام الصيني الحالي الى الفكرة بشكل معين ويجمع أكثر من شكل للدلالة على فكرة كذلك . وهذا يجعل عدد الاشكال أقل نسبيا من عدد مدلولاتها الفكرية . فمثلا يستعمل الشكل للدلالة على معنى أو فكرة « ثقيل » ويستعمل الشكل بمعنى « قوة » . واذا ما جمع الشكلان بسياق تتابعي (الأول الى اليسار والثاني الى يمينه) فان مدلول الشكل المركب هو الفعل « يتحرك » أو « ينتقل » (Falk, 1978 : 154). وكما يتبين للقارىء فانه لا يوجد في الشكل ما يدل على لفظ الكلمة . ولهذا فان هذا النظام الكتابي يقرن في مراحل تعليم القراءة بنظام آخر للدلالة على نطق الكلمة بالنسبة للمتعلم ويستغني عن الرموز الصوتية تدريجيا . وهذا مثال على اقتران الأشكال الكتابية برموز الأصوات . هذا الشكل يعني « قطر » أو « بلد » . وللدلالة على لفظه الى يمينه عدد من الرموز الدالة على نطقه وهي [illegible] وحيث أن الصينية لغة نغمة (tone) (language) فيرمز الى نغمة هذا اللفظ بـ / . ترتب رموز الاصوات من أعلى الى أسفل وتوضع إشارة النغمة الى يمين رموز الاصوات هكذا ، وبذا يصبح الشكل الكامل للفكرة ويكون نطقها « كُوُو » (تقريبا اذ لا نستطيع بيان النغمة هنا) .

وكما يظهر من هذا الوصف الموجز لهذا النظام فان الأشكال الرمزية للأفكار كبير جدا . ويضاف الى ذلك أن نطق هذه الأشكال يختلف من لغة صينية الى أخرى مما يجعل التفاهم بين

الناطقين بهذه اللغات شبه معدوم على مستوى المحادثة . أما على مستوى الكتابة فان التفاهم غالبا ما يكون شبه تام . وربما تكون هذه هي الميزة الايجابية الوحيدة لهذا النظام على أنظمة الكتابة الأبجدية . وكدلالة على هذه الميزة نورد المثال التالي : اذا وجد القارىء ذو الالمام بالأبجدية اللاتينية العبارات التالية :

Drei und funf ist acht. (German)

Tres y cinco son ocho. (Spanish)

Trois et cinq sonne huit. (French)

Uc arti bes sekizdir. (Turkish)

فانه لن يستطيع فهم المقصود بها الا اذا كان ذو المام باللغات نفسها . أما اذا عرضت فكرة هذه العبارات بنظام الرمز الى الفكرة بشكل ، وكان القارىء ملما بهذا النظام (ولا شك في ذلك كما اعتقد) فلن يجد القارىء صعوبة في فهمها ، فهي مجرد 8 =5+ 3 حيث يدل كل رمز الى فكرة وليس الى نطق ، بل أن نطق العبارة يختلف من لغة الى أخرى . وبهذا فان نظام الرمز الى الأفكار باشكال يقطع حواجز اللغات المختلفة .

مما سبق يتبين بوضوح أن هناك مجالين أمام المعنيين بشؤون اللغة في الصين بمجال تبسيط نظام الكتابة أو استبداله ، ومجال توحيد اللهجات واللغات ، أو نشر لهجة أو لغة واحدة في الصين .

ففي مجال الكتابة قام لي سي عام ٢١٣ قبل الميلاد بوضع قائمة من الرموز يبلغ عددها حوالي ثلاثة آلاف رمز اختارها من بين آلاف عديدة كانت تستعمل . وقد قام بهذا العمل بناء على تكليف من هوانك دي الذي وحد الصين تحت حكمه واراد أن يستعمل جميع رعاياه نفس الرمز لنفس الفكرة بدلا من الرموز المتعددة لنفس الفكرة لدى الانظمة السياسية التي كانت سائدة قبل توليه الحكم . ونعيد الى ذهن القارىء ما ذكر أعلاه من أن الهدف الأول لكل من المجامع المذكورة أعلاه كان وضع تنظيم مركزي للاستعمال اللغوي في سبيل ايجاد نوع من الوحدة اللغوية التي تركز السلطة المركزية أو تجميع الأمة .

وعندما تأسست الأكاديمية الصينية للعلوم في القرن الماضي كان من بين لجانها لجنة متخصصة في مجالات اللغة . كما قامت لجنة أخرى بعد قيام الجمهورية عام ١٩١١ ، تبعتها لجان عديدة بشكل غير رسمي . وقد ركزت جميع هذه اللجان اهتمامها على ناحية واحدة من التخطيط اللغوي وهي اصلاح نظام الكتابة .

وكانت في صفوف هذه اللجان أو الهيئات (كما كان يدعي بعضها) دعوتان : دعوة الى تبسيط النظام نفسه ودعوة الى استعمال ابجدية

مستمدة من الأبجدية اللاتينية ـ ولكن الحوار لم يصل الى موقف موحد أبدا ـ كما أن الحرب اليابانية الصينية والحرب الأهلية في الصين نفسها أدت الى تلاشي معظم هذه الهيئات .

وبعد عام ١٩٤٩ عادت بعض هذه الهيئات الى العمل . وكان من أشهرها « اتحاد اصلاح الكتابة الصينية » برئاسة يوتشانك أحد أعمدة الدعوة الى الأبجدية المستمدة من الأبجدية اللاتينية قبل الحرب الأهلية . الا أن حكومة ثورة ١٩٤٩ حددت لهذه اللجان اطار وخطوط العمل اللغوي التي يمكنها أن تعمل ضمنها . ففي مجال الكتابة كانت السياسة العامة ـ كما نشرتها وزارة التربية عام ١٩٥١ ـ وهي تبسيط نفس النظام دون اللجوء الى أية أبجدية لاتينية أو غيرها . وفي نفس الوقت شكلت وزارة التربية لجنة داخلية باسم « لجنة البحوث لاصلاح نظام الكتابة » .

وازاء هذا القرار السياسي بالنسبة للتخطيط اللغوي جاء المدح والدعم والتأييد بالاثبات التربوي واللغوي ليس فقط من دعاة الابقاء على نفس النظام بل كذلك من معظم الدعاة الى الميزات الايجابية لاستعمال الأبجدية اللاتينية المعدلة . وبهذا تركز العمل في هذا المجال على تبسيط نظام الكتابة الصيني (وأن ظهر اتجاه في « الاتحاد » دعا الى استعمال الأبجدية السيريلية المستعملة في كتابة اللغة الروسية ـ واهمل هذا الاتجاه فيما بعد) .

وفي عام ١٩٥٤ تقدمت لجنة البحوث بمشروع لتبسيط الكتابة قلصت فيه عدد الرموز الاساسية الى ٥٤٤ شكلا . كما اشتمل المشروع على اقتراح بتقليص عدد الخطوط في كل شكل من معدل ستة عشر خطا الى معدل ثمانية خطوط . وقد مر المشروع في المراحل الادارية السياسية ووافقت عليه اللجنة المركزية السياسية للدولة عام ١٩٥٦ . وفي نفس السنة قدم مشروع آخر باستعمال الأبجدية اللاتينية بشكل معدل على أساس استعمالها بشكل تجريبي ووافق مجلس الشعب القومي الصيني عام ١٩٥٦ . وهذا النظام المعدل هو المعروف الآن باسم (Lehman, 1975 : 46 — 49) pin yin . وقد طبق النظام هذا في المدارس بشكل تجريبي الا انه لم يتخذ قرار برفضه أو تبنيه عقب انتهاء الفترة التجريبية . ولا يزال كلا النظامين دارجين في المراحل التعليمية الأولى في عدد من المناطق . أما على المستويين الرسمي والشعبي فان النظام الصيني المبسط هو الدارج ، وعلى الصعيد الثاني من التخطيط اللغوي في الصين ـ مجال تعدد اللهجات واللغات واللغة الفصحى والمصطلحات المتخصصة ـ بدأ توجيه الاهتمام اليه في القرن التاسع عشر ابان حكم عائلة تشنك . ففي عام ١٨٨٢ أسست كلية المترجمين وبدأت انتاجها بوضع معجم في المصطلحات الكيماوية . وفي عام ١٨٩٨ أسس مكتب حكومي للترجمة وذلك استجابة للحالة الملحة الى تنمية المعارف في

العلوم الدقيقة (الطبيعية) والاقتصاد السياسي . غير أن أكثر هيئة وفرة في الانتاج في هذا المجال كان « معهد التجميع والترجمة » الذي شكل ضمن وزارة التربية في الثلاثينات من القرن الحالي . فقد وضع هذا المعهد خمسة وعشرين معجما للمصطلحات المتخصصة في الرياضيات والفيزياء والكيمياء والعلوم الطبية والهندسية ، وخمسة مجلدات من المعاجم في الاقتصاد والاحصاء وعلم النفس والتربية .

وفي الوقت الذي لم ينشأ خلاف حول وضع المصطلحات المتخصصة ، فان الآراء حول اللهجات واللغات والفصحى كانت غير متقاربة . فقد ظهر اتجاهان موازيان للاتجاهين بالنسبة لاصلاح نظام الكتابة . فانصار تبسيط نظام الكتابة الصيني دعوا الى الاتفاق على ايجاد فصحى موحدة والغاء استعمال اللهجات المحلية واللغات الأخرى في التعليم والانتاج المكتوب . أما انصار تعديل الأبجدية اللاتينية للصينية فقد أيدوا فكرة تطوير فصحى لكل لهجة ولغة ، واضافة لذلك ايدوا تطور فصحى مشتركة بين جميع اللهجات واللغات (نفس المصدر) .

ويبدو واضحا أن الاختلاف في وجهات النظر هذا كان يسير معظم الاحيان مع الاختلافات الحزبية السياسية الداخلية . اذ عندما وضعت وزارة التربية عام ١٩٣٢ سياسة لغوية بشأن الفصحى اعتمدت فيها لهجة بيكين كأساس لفصحى موحدة مشتركة بين جميع سكان البلاد عارض الحزب الشيوعي هذه السياسة بشدة ، واعتبرها في بياناته مثالا على السياسة التعسفية للحكومة آنئذ . كما وصفها بأنها نوع من الاستعمار الثقافي الشمالي على جنوب الصين ، وانها ستؤدي الى تكريس الطبقية في البلاد . وكما حصل بالنسبة لمشاريع اصلاح الكتابة قبل عام ١٩٤٩ جرى بالنسبة للاتفاق على موضوع الفصحى .

غير أنه بعد أن تسلم الحزب الشيوعي الحكم في الصين تغير موقفه بالنسبة للاتفاق على موضوع للفصحى المقترحة المستمدة من لهجة بيكين ، ودعا الى تبنيها . واستشهد مفكروا الحزب تأييدا لموقفهم الجديد بأقوال ستالين في كتابه « الماركسية ومشكلات اللغويات » .

وهكذا قلب الحزب الشيوعي معاييره وقال ان فرض الفصحى لا يعني تكريس الطبقية بل يعمل على الغاءها . وعليه فقد أصبحت السياسة اللغوية الجديدة تقضي بتطوير لهجة بيكين لتصبح الفصحى المشتركة بين جميع سكان الصين . وشكل الحزب المركزي لجنة لغوية ضمن الاكاديمية الصينية للعلوم لتعمل على تحقيق هذا الهدف : (Barnes, 1974 : 457 — 477) .

عقدت اللجنة مؤتمرا عام ١٩٥٥ دعت اليه مائة وعشرين لغويا من مختلف قطاعات الدولة

والاحزاب الشيوعية الأخرى . وانتخبت من بين الحاضرين لجنة اسميت « لجنة اصلاح اللغة » . وبدأت اللجنة عملها بوضع اسم للفصحى المقترحة وهو p'u — t'ung — hua والذي يعني « اللغة المشتركة » .

وعقب انتهاء المؤتمر اتخذت توصية رفعت الى مجلس الدولة تطلب الموافقة على استعمال الفصحى في جميع المدارس بدلا من اللهجات واللغات الأخرى . واضافة لهذا فقد هاجم المجتمعون في بيانهم النهائي دعاة تعدد اللهجات واللغات ووصفوهم بالعمالة لافكار اللغويين ومن حمل أفكارهم ودعا بدعوتهم ، وان أفكارهم ما هي الا مجرد تمويه أو قناع للدعوة الى تقسيم الشعب الصيني الى دول متعددة . وقد جاء اشد هجوم من مندوب الحزب الشيوعي الروماني Graur .

وفي المؤتمر الثاني للجنة عام ١٩٥٨ حضر الجلسات رئيس الوزراء تشوان لاي . وفي خطاب الافتتاح أفصح تشوان لاي عن رأيه بالتسليم بالصعوبة التي يواجهها الصينيون في التمكن من الفصحى التي فرضت . واقترح بان توضع في المراحل الأولى للتعليم (للصغار والكبار) عدة معايير تتدرج في مستويات قبولها . فالمستوى المطلوب من المدرسين والمذيعين والمثقفين يجب أن يكون عاليا بينما ، يقبل مستوى أقل فصاحة من بقية المواطنين حتى يتسنى لهم التمكن منها . وبالتالي يقترب الاستعمال الدارج بين الناس من الفصحى تدريجيا . وأضاف بأن الهدف من نشر الفصحى في جميع مناطق الصين ليس الغاء أو منع استعمال اللهجات ، بل العمل على رفع الحواجز اللغوية التي تميزها بعضها عن البعض الآخر . (Barnes, 1974 : 463).

أما في الستينات فقد تحول الاهتمام بعيدا عن المشكلات اللغوية الى حركة الثورة الثقافية . ولم يعد الاهتمام بها من جديد الا في السنوات القليلة الماضية . ومن نتائج التحليلات الحديثة لسياسة نشر الفصحى يبدو انها نجحت في المدن الكبيرة وفي مناطق اللهجات واللغات الصينية . اما في مناطق اللغات غير الصينية وخاصة البعيدة منها فقد أعيد استعمال تلك اللغات كنقطة البداية في المرحلة التعليمية الأولى ، ومن ثم الانتقال تدريجيا الى استعمال الفصحى المشتركة كأحدى مواضيع الدراسة وليس كلغة التعليم الأولى . (Lehman, Op. cit.

مجمع العبرية

بدأت نواة حركة اعادة العبرية للاستعمال الواسع بين اليهود مع ظهور الحركة الصهيونية . ويقرن عادة اسم اليزارين يهودا (١٨٥٨ - ١٩٢٢) بهذه الحركة اللغوية . ويجدر القول من البداية أن الحركة اللغوية هذه - مثلها في ذلك

مثل بعض الأمثلة المذكورة آنفا ـ كانت إحدى مكونات ومصادر استقطاب الحركة السياسية. ولا يمكن النظر في منجزات هذه الحركة في معزل عن الحركة السياسية (كما يزعم العديد من الكتاب في هذا الموضوع)..

وضع بن يهودا خطة من سبع مراحل أو خطوات لاعادة استعمال العبرية كلغة قومية لمجموعةمعينة في كيان سياسي يحمل طابع تلك المجموعة. وكانت المراحل / الخطوات هي: نشر نمط البيت الناطق بالعبرية وربط هذه الفكرة بنمط البيت اليهودي القديم، وتشكيل النوادي والاتحادات الناطقة بالعبرية، واصدار صحيفة بالعبرية في فلسطين (اذ كان هناك العشرات من مثيلاتها في مناطق أخرى من العالم ـ انظر دائرة المعارف العبرية بالانكليزية)، واستخدام العبرية في المدارس اليهودية في فلسطين، ووضع معجم عبري، وتشكيل لجنة دائمة متخصصة في تطوير وتعزيز العبرية (Kelman, 1973).

ويقسم موشي ناهر (١٩٧٣) تاريخ مجمع العبرية الى ثلاث فترات: الأولى من تاريخ تأسيس لجنة اللغة العبرية (١٨٩٠) الى عام ١٩٢٠ عقب الاحتلال البريطاني لفلسطين والثانية من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٤٨ وتأسيس الدولة اليهودية في فلسطين، والثالثة من ذلك التاريخ حتى الوقت الحاضر.

يبدو واضحا من الاهداف التي وضعتها اللجنة لدى تأسيسها أن الحركة الصهيونية كانت ترى أنه لا يمكن الفصل بين الدين واللغة من جهة، ولا بين الدين والسياسة من جهة ثانية، ولا بين اللغة والاهداف السياسية من جهة ثالثة. ومن العبث الاكاديمي محاولة الفصل بين العناصر الثلاثة هذه في هذه الحالة على الأقل (Deutsch, 1968). هذا مع العلم أن معظم الكتاب عن العبرية يعتمدون أقوال اليهود في هذا الموضوع أمثال Kellman, Fishman, Nahir, Heyd, Blanc,) (Hoffman, Landau, Morag, Rabin, Hazai والذي ملخصه أن اختيار العبرية كان بناء على افضليتها اللغوية فقط (Nahir, 1973 : 106) وان المهاجرين اليهود الى فلسطين في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانوا بحاجة الى لغة تجمعهم كمجموعة أقلية في فلسطين لا كدولة. فلو لم يكن في مخططهم اقامة دولة لفعلوا مثلما فعلت وتفعل أية أقلية تهاجر الى بلد آخر، وهو اتخاذ لغة البلد المهاجر اليه كلغة أساسية (وربما الابقاء على لغة المهاجر في مجالات محدودة). وكان هذا ما حصل على سبيل المثال، بالنسبة للمهاجرين الناطقين بلغات مختلفة الى الولايات المتحدة الأمريكية منذ بدء الهجرة الى الآن (Abuhamdia, 1978.). وحيث أن المهاجرين اليهود الى فلسطين لم يكونوا من خلفية لغوية واحدة، بل من خلفيات لغوية عديدة،

فمن الواضح أن العبرية لم تكن لغة أية مجموعة منهم ، بل أن اللغة المشتركة بين معظم المهاجرين من أوروبا كانت (Yiddish). والسؤال الذي لا نجد له اجابة في أبحاث اولئك الكتاب هو : لأي سبب تركت اللغة المشتركة بين مهاجري أوروبا ، ولأي سبب تركت العربية وهي لغة البلد المهاجر اليه (كما حصل في أمريكا مثلا) ؟ ويمكن طرح السؤال التالي كذلك (وان كنا لا نجد له اجابة من اولئك الكتاب) : لأي سبب لم يقع الاختيار على لغة أكبر أو أقوى مجموعة من بين المهاجرين ؟ ان الدافع الحقيقي لاختيار العبرية هو ما ذكر اعلاه ، وهو أن العبرية لها قيمتها الدينية والتي اعتمدت عليها الحركة السياسية الدينية اليهودية . وهذا واضح في أقوال بن يهودا ـ مؤسس اللجنة ـ والتي تترك عادة دون النظر في مدلولها البين أو يهمل ذكرها كلية . قال بن يهودا « ان العودة الى العبرية هو منطلق العودة الى أرض اسرائيل ـ على حد قوله ـ وانه بهذا السبيل فقط يمكن تحقيق الخلاص لليهود . فكما أن اليهود لا يمكن أن يصبحوا أمة في دولة الا اذا عادوا الى أرض أجدادهم ، كذلك لا يمكن لهم أن يكونوا أمة في دولة دون العودة الى لغة أجدادهم ، لا ليستعملوها في الصلوات فحسب بل في حديث الشيوخ والشباب والنساء والأطفال وفي كل شؤون الحياة وفي جميع ساعات النهار والليل مثلما تفعل جميع الأمم في دولها . » (Nahir, 1973 : 107) هذا مع أن بعض اليهود المتدينين الغربيين عارضوا استعمال العبرية لقداستها في الأمور الدنيوية (المصدر نفسه) .

تركز عمل اللجنة في هذه المرحلة على اشتقاق ونحت مفردات جديدة من جذور عبرية قديمة وارامية وكنعانية وعربية ، وكذلك على وضع أسس صوتية للفظ هذه المفردات . ومما يجدر ذكره أن اللجنة قررت بالاجماع عدم اقتراض أية كلمة من أية لغة أوروبية حتى ولو كانت دارجة في الاستعمال (المصدر نفسه ص ١١٥) . ومن القوائم التي وضعت في هذه الفترة قائمتان في مواضيع متخصصة وهي : الألعاب الرياضية وعلم النبات والتغذية والأثاث والكهرباء والتجارة والجغرافيا والكيمياء (المصدر نفسه ص ١١٨) .

وبالرغم من انتاج وانجازات اللجنة في هذا المجال الا أن استعمال العبرية في التدريس واجه رفضا من قبل بعض منظمات التعليم اليهودية وعلى رأسها منظمة ايترا الألمانية ، والتي كان لها عدة مدارس في فلسطين وأهم هذه المدارس المعهد اللذي أصبح فيما بعد معهد التخنيون في حيفا . وكان خلاف هذه المنظمة قويا مع انصار العبرية لدرجة أن هذا الخلاف أطلق عليه اسم « حرب اللغات » . وقد كان رد الفعل اليهودي شديدا اثر هزيمة منظمة ايترا في هذه الحرب ، اذ انتشر استعمال العبرية في المدارس اليهودية

بشكل سريع وبذا أصبح ينظر الى اللجنة على أنها حامي المجتمع اليهودي .

هذا عن اختيار اللغة أما عن اختيار نظام الكتابة فلم يكن موضع خلاف على الاطلاق بين أعضاء المجلس . اذ كان أمر استعمال الأبجدية العبرية اما بديهيا أو أمرا لا يحتاج الى البحث في أفضليته . غير أن الخلاف الوحيد الذي حصل كان حول الاختيار بين نظام الأبجدية في العهد القديم أو نظام الكتابة الذي درج استعماله بعد العهد القديم . وللآن لم يجد هذا الخلاف حلا حاسما (Rabin, 1971).

ومن معالم الفترة لاعادة استعمال العبرية تأسيس الجامعة العبرية عام ١٩٢٥ . ولم يحصل خلاف جذري حول استعمال لغة التدريس فيها سواء في المواضيع الأدبية أم الانسانية أو العلمية ، هذا مع العلم أن بعض اليهود كانوا ولا يزالون يعتقدون أن الألمانية أكثر كفاية من العبرية .

أما من ناحية عمل اللجنة فقد تميزت الفترة الثانية بظهور جهود فردية من خارج اللجنة دعمت عمل أعضاء اللجنة . وقد تمثلت هذه الجهود في قيام بعض الكتاب والصحفيين والمترجمين باشتقاق أو نحت مفردات جديدة في أعمالهم ، أما لعدم توفر مفردات من وضع اللجنة أو لعدم استساغة مفردات اللجنة (Blanc, 1954 : 388, in Nahir, 1973 : 127). وكانت هذه الجهود نقطة البدء في دخول مفردات مقترضة بكاملها أو معدلة جزئيا من اللغات غير السامية . غير أن دخول مثل هذه المفردات حفز اللجنة على أن تكثف جهودها من جهة وان تأخذ بآراء من خارج اللجنة حول المفردات التي تضعها . ومن المواضيع المتخصصة التي وضعت لها مفردات خلال هذه الفترة المواضيع التالية : النسيج وعلم النبات والبناء والمصرفية وعبارات المجاملة والجغرافيا وتربية الأغنام والرسم والنحو والصوتيات والملابس وعلم الحيوان والتربية التمهيدية والكهرباء والهاتف والملاحة والدفاع المدني والكيمياء والحياطة وكيمياء الاحياء الدقيقة والتبريد والتدفئة والاشغال اليدوية والاعمال الخشبية اليدوية والفيزياء ومسك الدفاتر وعلم النفس والصباغة والدهان والاذاعة والعلوم الطبية والشعر والمسرح والرياضة . وكانت هذه القوائم تنشر وتجد طريقها الى الاستعمال الدارج خاصة في التعليم ووسائل الاعلام المختلفة . وحسب احصائيات اليهود فقد كانت نسبة الناطقين بالعبرية عام ١٩٤٨ ٧٢٪ من مجموع السكان اليهود (المصدر نفسه ص ١٣١) . وفي هذه الفترة بدأت مجلة اللجنة / المجمع الحالية بالظهور ـ ١٩٣٥ .

تبدأ الفترة الثالثة بالنسبة للجنة باعلان العبرية لغة دولة اليهود في فلسطين عام ١٩٤٨ . ونوقش وضع اللجنة الاداري والرسمي في الكنيست عام ١٩٥٣ ورأى

البعض أن تحل اللجنة ويترك أمر اللغة للناطقين بها بشكل عام وللمهتمين بها بشكل خاص . غير أن الغالبية رأوا أن استمرار اللجنة ضروري خاصة وأن ترك اللغة دون هيئة من المتخصصين لن يؤدي الا الى حالة من عدم الاستقرار والتوازن اللغوي ، اضافة الى أن دوائر الحكومة تحتاج الى هيئة لغوية مركزية . وأخذ الكنيست قرارا بتحويل اللجنة الى مجمع لغوي على غرار المجامع الأخرى في العالم وسجل المجمع بقانون في الدستور . واعطى القانون في نص إحدى مواده السلطة للمجمع في أمور النحو والتهجئة والمصطلحات . وبذا أصبح لزاما على جميع المؤسسات والهيئات التعليمية والدوائر الحكومية والبلدية التقيد بقرارات المجمع وانتاجه .

وقد نص المجمع لعام ١٩٥٤ على مهماته كما يلي :

١) جمع مواد لغوية عبرية واجراء ابحاث تاريخية عن العبرية في جميع العصور .

٢) القيام بأبحاث في النحو العبري .

٣) ترشيد وتطوير وتعزيز امكانات العبرية من الناحيتين النظرية والعملية في النحو والمفردات والمصطلحات المتخصصة والأبجدية والتهجئة وكتابة المواد اللغوية من غير العبرية بهذا النظام (المصدر نفسه ص ١٣٦ - ١٣٧) .

وفي الستينات بدأ العمل في وضع معجم تاريخي للعبرية يغطي فترة الفين وخمسمئة عام ، ويتوقع أن يتم انجازه خلال هذا العقد (الثمانينات) . واذا قارنا هذه الفترة المقدرة تقريبا بعشرات انجاز المعاجم التاريخية فاننا سنجد أن الفرق شاسع جدا . وهذا يعود الى أن العمل على هذا المعجم قد وزع على عدد من فرق العمل التي يختص كل منها بمجال معين . ويضاف الى هذا التوزيع الدعم السياسي والمالي من الدولة ، ومثل هذا غير موجود بالنسبة لمعظم المجامع في العالم .

ومن المعاجم التي وضعت في هذه الفترة ما يلي : الاحصاء والعلوم والآلات المالية وهندسة المواد والعمل والعمال والهاتف والعلوم البحرية والموسيقى والارصاد وميكانيكيات المحركات والادارة العامة والفلاحة والتجارة والسدود والتصوير والفخاريات والاتصالات والاذاعة والتشريح الطبي واللحام والمجاري وهندسة المعادن وهندسة التربة .

أما منشورات المجمع التي لا تزال تصدر منها :

١) محاضر الجلسات والتي تصدر خمس مرات في السنة .

٢) قوائم المفردات والمصطلحات الجديدة .

٣) مجلة لساننا .

٤) مسلسل « لغتنا للعامة » .

٥) النشرة الشهرية « تعلم لغتك » .

٦) النشرة الدورية غير المنتظمة الصدور « الاستعمال الصحيح » . (Rabin, 1976, : 6).

مجمع التركية Turk Dil Kurumu

كان استيلاء مصطفى كمال آتاتورك على السلطة في تركيا يهدف من بين ما يهدف اليه بتر تركيا عن العالم الاسلامي (Tietze, 1975 : 264) . وقد كان من الوسائل الرئيسية لتحقيق هذا البتر تنفيذ الاجراءات اللغوية التي فرضها آتاتورك . فالتركية كلغة تنتمي الى العائلة الالطية . وكانت تتضمن عددا كبيرا من المفردات والمصطلحات المقترضة من الفارسية والعربية ، لكون اللغتين لغتي الثقافة والدين ، كما كانت التركية تكتب بالأبجدية العربية ، وذلك لنفس السبب المذكور ونتيجة للتمازج الوثيق بين الأتراك والشعوب الناطقة باللغتين الأخريين لكونهم جميعا مسلمون . ولم يكن بامكان آتاتورك اجراء التغييرات اللغوية بجرة قلم فقط ، فقد كان عليه أن يجد مبررات تسهل عليه فرض تلك الاجراءات . فادعى آتاتورك أن التركية آنئذ كانت معقدة وغير متجانسة التركيب من الناحية الصرفية والمعجمية ، وانها بذلك لم تكن في متناول عامة الناس . ومن هذا المنطلق دعا الى التغيير تحت شعار « التبسيط » باسم « التتريك » . ويقصد بالتتريك نبذ كل ما هو غير تركي الأصل فيها واستبداله بما هو تركي في أي عصر من تاريخ تلك اللغة (Heyd, 1954 : 20).

شكل آتاتورك عام ١٩٢٨ الجمعية اللغوية التركية ، وحدد مهماتها في الغاء استعمال الأبجدية العربية (ويجدر التنويه بأن الكتاب الغربيين يسمونها الأبجدية الفارسية) واستبدالها بالأبجدية اللاتينية والعمل على « تنقية » المفردات التركية الدارجة . وبرر آتاتورك الشطر الثاني من مهمتها بالاعتماد على نظرية لغوية جديدة تنسب اليه . ومؤدي هذه النظرية أن اللغة التركية هي من الناحية التاريخية أم جميع اللغات ، وأن اللغات الأخرى قد نشأت وتطورت عنها ، وان تطور تلك اللغات طوال العصور التاريخية ما كان ليحصل لو لم تلق اللغة التركية ضوءها لتنير الطريق أمام تلك اللغات . وقد شبه هذا الوضع اللغوي بوضع الشمس والكواكب السيارة التي تستمد نورها من الشمس ، وعليه فقد اطلق على هذه النظرية اسم « نظرية الشمس اللغوية » (Gallagher, 1971 : 163) . وبهذا أصبح وضع التركية المقترح أو المفروض يقبع خلف نظرية يمكن أن تشد اليها الناطقين بالتركية ؛ اذ انه من المتعارف عليه بين السياسيين واللغويين كذلك ان الخطط ـ أية خطط ـ تجد رواجا وربما قبولا أكثر اذا استندت الى منطلقات عقائدية معينة تلقى اعجاب المستهدفين بالتخطيط .

وطلب أتاتورك من الجمعية أن تنسق عملها مع وزارة التربية والجيش وحزبه السياسي (الوحيد في تركيا آنئذ) . وبدأت الجمعية بوضع قوائم من المفردات الجديدة جمعتها في معجم ، كما وضعت معجم مترادفات ومعجم مشتقات . وقد فرض على محرري الصحف وأصحاب المطابع استعمال هذه المفردات بدل المفردات المستأصلة . كما وضعت الجمعية نظام كتابة مستمد من الأبجدية اللاتينية استخدم فيه التنقيط كنوع من الترقيع لسد الفجوة بين الاصوات التركية ورموزها بالأبجدية اللاتينية (كما هو ظاهر في اسم المجمع أعلاه) . وفي أقل من سنة كانت جميع المطبوعات الجديدة بالأبجدية الجديدة (Heyd, 1954 : 35 — 50)

وفي عام ١٩٣٢ صدر مرسوم أتاتوركي بحل الجمعية وتشكيل مجمع التركية . وقد وضع أتاتورك له المهمات التالية : جمع المفردات التركية الأصل من اللغة المحكية والنصوص التركية القديمة ، وتحديد أسس اشتقاق ونحت المفردات (ولم يكن هناك خلاف بين أعضاء المجمع على هاتين المهمتين) ، واقتراض مفردات من الفرنسية والالمانية والانكليزية (في حال غياب الجذور التركية) بدل المفردات العربية والفارسية . لكن هذه السياسة كانت موضع خلاف بين المجمعيين . اذ أن معارضي الاقتراض من اللغات الاوروبية (والذين لم يكن باستطاعتهم اعلان معارضتهم خشية البطش بهم) كانوا يذكرون في جلساتهم الخاصة أن الاقتراض من اللغات الأوروبية سيؤدي الى فوضى لغوية (Gallagher, 1971 : 165). وقد وصلت نسبة الاقتراض من هذه اللغات الثلاث ٢٨ ٪ من المفردات الجديدة . وقد برر المجمع ادخالها بالاعتماد على نظرية أتاتورك الشمسية ، وهو ان هذه المفردات هي غريبة عن التركية سطحيا فقط وان أصلها تركي على أي الأحوال (المصدر نفسه ص ١٧١) .

وقد كانت نتيجة ذلك أن القارىء كان يحتاج الى ترجمة المكتوب أولا الى التركية المحكية . وبالتالي فقد بدأ المحررون اجراء وضع المرادفات بالتركية الدارجة ، أما في الهوامش أو بين أقواس بعد الكلمات الجديدة . وبهذا أصبحت عملية القراءة تؤدي الى انفصام فكري في القارىء ، وهو ما يعرف بين اللغويين المختصين بلفظ (Schizoglassia) وذلك لأن القارىء يكون أمام الاستعداد النفسي بأنه سطحيا يتعامل مع نفس اللغة بينما الحقيقة تختلف عليه في الواقع (Tietze, 1975 : 275). حتى أن بعض المثقفين في الوقت الحاضر يجدون قراءة قصيدة كتبت في القرن الثالث عشر أسهل في الاستيعاب من قراءة ما كتب ابان هذه الفترة (Cornyn, 1962,75 : 273) اذ أنه بالرغم من أن الهدف المصرح به كان احراز

صفاء لغوي الا أن التغيير ادى الى تذبذبات في الاستعمال اللغوي ، والى نقصان الصفاء اللغوي عما كان عليه قبل هذه الاجراءات . فقد كان الاقتراض قبل التغيير من لغتين ، بينما أصبح بعد التغيير من ثلاث لغات . وإذا اضفنا الى وضع الفوضى اللغوية هذا الفجوة التي ظهرت بين الدارسين حسب النظام القديم والدارسين حسب النظام الاتاتوركي فان النتيجة كانت « مستوى ملحوظا من الفقر اللغوي (ترجمة الكاتب) ,Tietze) 275 : 1975 . ويعلق Gallagher (١٩٧١) على حصيلة سياسة أتاتورك فيقول : « ان الاتراك المعاصرين هم الشعب الوحيد في العالم المعاصر الذي يحتاج الى ترجمة ما كتب من تراثه أقل من خمسين سنة . فان القارىء التركي العادي لا يستطيع قراءة خطاب أتاتورك الذي القاه عام ١٩٢٧ واستغرق ستا وثلاثين ساعة في مؤتمر الحزب الجمهوري والمعروف باسم (Nutuk) « نطق » . كما أن دستور الجمهورية الأول الذي كان ساري المفعول من عام ١٩٢٣ حتى عام ١٩٦٠ والذي اعيدت صياغته عام ١٩٤٥ تصعب قراءته على الانسان التركي العادي . ثم أن تغيير نظام الكتابة (من العربية الى اللاتينية) اتخذ بذريعة الادعاء بان الأبجدية العربية غير ملائمة للتركية . لكنه من المعروف أن التركية هي كذلك لغة التركمان القاطنين في أواسط آسيا وان السلطة السوفيتية كانت قد فرضت عليهم استعمال الأبجدية اللاتينية ثم الغت ذلك القرار فيما بعد وفرضت عليهم استعمال الأبجدية السيريلية ، بحجة أنها أكثر ملائمة للتركية من الأبجدية اللاتينية . فكيف اذن يمكن أن تكون السيريلية هي المثل للتركية في المنطقة السوفيتية وتكون اللاتينية هي المثل لنفس اللغة عند أتاتورك ؟ (ص ١٦٤) . من هذا التساؤل يتبين لنا أن القرارات في التخطيط اللغوي تنبع في أكثر الأحيان من منطلقات غير لغوية صرفة ، وأن التسويغ اللغوي أو التعليمي غالبا ما يكون مجرد قناع لدوافع سياسية أو عقائدية أو غير ذلك .

وبعد مدة من وفاة أتاتورك (عام ١٩٣٨) فقد المجمع سلطته اللغوية واوقفت الدولة تمويله ولم يعد من المؤسسات الرسمية باعتبار أن عمله « ليس في مصلحة الشعب » ,Fishman) 1971 : 11).

لجنة شونا The Shona Committee

تردد اسم هذه اللغة في أجهزة الاعلام حديثا فيما يتعلق بمفاوضات الاستقلال ونقل السلطة الى السود في روديسيا . فمما ورد في الانباء عن روديسيا أن زعماء الجبهات يخاطبون الجماهير بالانكليزية الا أن هؤلاء الزعماء يستعينون بمترجمين لينقلوا تلك الخطابات فوريا من الانكليزية الى لغة الجماهير وهي لغة شونا .

اشتق اللفظ « شونا » من « تشيشونا » وهو

اسم إحدى اللهجات المحكية في روديسيا . وبالنسبة للمهتمين بالسياسات اللغوية والتخطيط اللغوي فان شونا تقترن بظاهرة فريدة من نوعها في التخطيط اللغوي ، ذلك أن شونا هي نتاج عملية استصفاء لغوي لست مجموعات من اللهجات المنتشرة هناك وهي : كوريكوري ، زيزورو ، كرنكا ، نداوز ، كالانكا ، منيكا . وشونا هي اللغة الوطنية ولم تصبح اللغة .

أما تاريخ هذه اللغة فيمكن تتبعه من ١٩٢٩ . ففي ذلك العام شكلت حكومة روديسيا لجنة للنظر في امكانية ايجاد لغة واحدة للاستعمال في المجالات الرسمية والتعليمية . وكان أمام تلك اللجنة عدة سبل للحل : أما استخدام لغة الاقلية الحاكمة ، أو استخدام إحدى اللهجات (كما ورد عن الصيغة أعلاه) ، أو الاتفاق على نظام جديد . وقبل اتخاذ قرار معين قامت اللجنة بدراسة تحليلية ومقارنة لمجموعات اللهجات . وقد وجدت اللجنة أن هناك عناصر مشتركة بين تلك اللهجات ويمكن استصفاء لغة فصحى منها . واقترحت اللجنة أن يطلق على هذه اللغة اسم « شونا » . ورأت اللجنة أن تجري عملية الاستصفاء بأخذ عناصر معينة من كل من مجموعات اللهجات . ولسبب غير معروف لدى الكاتب لم يؤخذ وقتها باقتراحات اللجنة .

غير أن الحكومة دعت فيما بعد باحث لغات البانتو المشهور كليمنت دوك ليقوم بنفس مهمة اللجنة ، وليقدم تقريرا بذلك الى الجمعية التشريعية (Ansre, 1974 : 378 ff.).

وبعد عامين قدم دوك تقريرا ذكر فيه ان اللهجات تشترك في مفردات كثيرة وسمات صوتية أساسية وسمات نحوية كذلك ، وان كانت بعض تلك اللهجات أقرب الى بعض اللهجات من غيرها . وبذلك سوغ تصنيفها في المجموعات الستة المذكورة أعلاه . كما بين قناعته بأن تلك اللهجات سواء منفردة أم في مجموعات متقاربة ما هي الا فصائل لغة واحدة . وعليه فقد أوصى بأن يستصفي من تلك اللهجات لغة واحدة (وهذا لا يختلف في جوهره عن توصيات اللجنة التي اهملت) . كما أخذ دوك برأي اللجنة بالنسبة للاسم المقترح . أما اقتراحاته فتتلخص في التالي :

أ ـ أن يكون في روديسيا لغتان رسميتان : الأولى في منطقة مجموعات اللهجات الستة والثانية في منطقة ندبيلا .

ب ـ أن تكون شونا هي اللغة الرئيسية .

جـ ـ أن يستمد نحو شونا من مجموعتي اللهجات كرانكا و زيزورو .

د ـ أن تستمد المفردات بشكل رئيسي من مجموعات اللهجات زيزورو و كرانكا وندداو وبشكل بسيط جدا من مجموعة كوريكوري ، وان لا يشجع استعمال المفردات من اللهجات الأخرى .

هـ ـ أن يكون امتحان الخدمة المدنية (وامتحان الشرطة كذلك) ذا شقين : شفوي بلهجة المنطقة التي يعين للعمل فيها وكتابي يعتمد على شونا فقط .

و ـ أن توضع أبجدية لكتابة اللغة .

هذا ولم يرد في توصيات دوك أي شيء عن كيفية الانتقال من مرحلة تعدد اللهجات الى مرحلة اللغة الموحدة . وهذا مما حدا بكثير من الرسميين وبعض المثقفين ان ينتقدوا النظام اللغوي الجديد بأنه نظام سيكون محصورا في المكتوب فقط . ولهذا وصفت شونا آنئذ بأنها اللغة المعاصرة الوحيدة التي لا ينطق بها (نفس المصدر ص ٣٨١) . كما أن الأبجدية التي وضعها دوك كانت أكثر دقة مما هو ضروري للكتابة (more phonetic than phonemic).

وفي عام ١٩٥٥ شكلت لجنة أخرى سميت لجنة لغة شونا . وكانت مهمة اللجنة ايجاد مزيد من الانتظام والاضطرادية في الاستعمال اللغوي الذي بدأ تنفيذه حسب الخطة المقررة . فوضعت اللجنة أبجدية مختصرة أكثر من أبجدية دوك ، واستمدت اللجنة هذه الأبجدية من الأبجدية اللاتينية كما فعل دوك . كما طالبت اللجنة بالاسراع في انجاز المعجم الذي كان دوك قد اقترح وضعه . وقد قام بوضع معجم شونا القس هنان وظهر عام ١٩٦٣ . واستمد هنان المفردات من مجموعات اللهجات زيزورو وكرانكا و منيكا و كوريكوري .

أما في مجال الصرف فقد تبنت اللجنة مؤلف الاستاذ فورتشن الذي ظهر عام ١٩٥٥ والذي اعتمد على اللهجات كرانكا و منيكا (نفس المصدر ص ٣٨٢) .

ومن أجل اعداد الكتب التعليمية والترجمة والتأليف شكلت الحكومة دائرة جديدة باسم « مكتب المطبوعات » . وقد اشرف هذا المركز على اعداد الكتب التعليمية المستعملة الآن بلغة شونا وعلى كتابة ونشر مجموعات من القصص والمطبوعات الأخرى التي عززت انتشار واستعمال شونا في المجالات الرسمية والتعليمية في مختلف مناطق شونا . كما كانت اللجنة تقوم بتحرير الكتب التي تؤلف بشكل فردي بحيث تتفق والنظام المعتمد لشونا .

ومع أن مخطط لجنة شونا مثله في ذلك مثل اقتراحات دوك ، لم يضع خطوات محددة للمرحلة الانتقالية بالنسبة للمنطوق ، الا أن أجهزة التربية والتعليم والاعلام بمختلف أشكاله وتعيين الموظفين والمدرسين في غير مناطق لهجاتهم بقدر الامكان قد عزز انتشار شونا وانتشار استخدامها ، كما تدرس في المدارس ومراكز تعليم الكبار بشكل لم يكن في مقدور اللجنة أن تحققه لوحدها . وما ترجمة خطابات السياسيين في تجمعات الجماهير الى شونا الا

دليل واضح على نجاح انتقال شوننا من لغة مكتوبة فقط الى لغة محكية كذلك . كما يمكن أن يشار هنا الى أن الفروق بين مجموعات اللهجات قد تقلصت ، مع أن هذا كان على حساب تقلص بعض اللهجات في مناطقها .

مجمع الفريزية

اللغة الفريزية هي أقرب اللغات الجرمانية الى اللغة الانكليزية . ويقطن معظم الناطقين بها في مقاطعة فريزلاند . وفريزلاند هي إحدى المقاطعات الاحدى عشرة التي تشكل هولاندا ، وتقع في الشمال الشرقي لهولندا . ويسكن هذه المقاطعة في الوقت الحاضر أكثر من نصف مليون نسمة ، يشكلون ٤٪ من مجموع سكان هولاندا . وقد أصبحت هذه المقاطعة جزءا من هولاندا في القرن السادس عشر اثر الاحتلال الهولندي لها .

وكنتيجة للاحتلال الهولندي أصبحت الهولندية اللغة الرسمية ولغة الكنيسة والتعليم في تلك المقاطعة ، مثلها في ذلك مثل بقية المقاطعات القديمة . ومع مرور الزمن انحصر استعمال الفريزية تدريجيا الى أن أصبحت تستعمل في مجال البيت والعائلة . وبذا أصبح الفريزيون ثنائي اللغة في هذا المجال اللغوي وآحادي اللغة في بقية المجالات (Pietersen,. 1978 : 353) .

غير أنه ظهر شعور لدى الفريزيين مثل شاعر الفريزية المشهور Gysbert Japiks بوجوب اعادة لغتهم الى مجالات استعمالاتها السابقة قبل الاحتلال . وكان هذا متمثلا في البداية في جهود افراد فقط . وفي منتصف القرن التاسع عشر (١٨٤٤) تجمعت بعض الشخصيات المعنية بشؤون الفريزية ودعت الى تشكيل تنظيم يكون هدفه اعادة إحياء اللغة ، وأطلق على هذا التنظيم اسم « حركة الفريزية » . وحيث أن اللغة لم تكن قد اندحرت نهائيا فان العمل على اعادة استعمالها تمثل بشكل رئيسي في الدعوة الى المزيد من استعمالها خارج نطاق العائلة والبيت وتقوية الدوافع الفردية تجاه استعمالها في الكتابة كذلك .

ومع مطلع هذا القرن أعيد استعمال الفريزية في الكنيسة بدل الهولندية ، كما ترجم الانجيل الى الفريزية عام ١٩٤٣ ، وظهرت آخر طبعة من الناحية اللغوية عام ١٩٧٦ (المصدر نفسه) . كما انه نتيجة للتأثير الذي مارسته حركة الفريزية مدعومة بتأييد الناطقين بها استجابت سلطات التربية والتعليم الهولندية لرغبة الفريزيين وسمحت باستعمال الفريزية كموضوع دراسي فقط على أن يكون تدريسها بشكل طوعي وخارج ساعات الدراسة والمنهاج الدراسي في منطقة فريزلاند .

وفي عام ١٩٣٨ استجابت الدولة لمطالب حركة الفريزية بتأسيس « مجمع الفريزية » على أن يكون هدفه القيام بابحاث لغوية بالفريزية . وكان للمجمع نشاط ملحوظ في مجال العمل

اللغوي ومجال تجميع الفريزيين حول استقلال لغوي في معظم شؤون المقاطعة . ومن أهم نتائج هذا العمل ادخال بند في قانون التعليم الابتدائي في جميع هولاندا يجيز استعمال « لغة اقليمية بجانب الهولندية » (دون تحديد أية لغة بالذات) اذا كانت تلك اللغة منطوقة في تلك المقاطعة » (المصدر نفسه ص ٣٥٩) وكان هذا البند هو المدخل القانوني لاعتبار الفريزية إحدى المواضيع الدراسية في المقاطعة بشكل رسمي .

وبدا تدرج الوضع من مرحلة اهمال الفريزية الى اعتبارها موضوعا اختياريا لا منهجيا الى موضوع اساسي على مستوى المقاطعة ، وهي المنطقة المعنية باهتمام المجمع .

وفي عام ١٩٥٠ كان المجمع أحد الأطراف التي قامت باجراء التجارب التعليمية لدراسة امكانية استخدام الفريزية كلغة التدريس لتحل محل الهولندية وتصبح الهولندية مجرد موضوع دراسي فقط ، أي لغة ثانية أو أجنبية . وما حل عام ١٩٥٥ حتى أصبحت الفريزية على قدم المساواة مع الهولندية في بعض المدارس . ومن هذا التاريخ أصبحت المدارس ثنائية اللغة (أي التي تستعمل لغتين في التدريس) مقبولة ومنتشرة في فريزلاند . كل هذا والأمر ما زال في اطار النص القانوني « يجوز استعمال لغة أقليمية » في التدريس . أما في المجالات الأخرى فقد بدأ استعمال الفريزية في المجالس التشريعية في المقاطعة والمجالس البلدية كذلك . كما استجاب البرلمان الهولندي عام ١٩٥٥ لطلب الفريزيين اعتبار الفريزية لغة مقبولة في المرافعات (الشفوية) في محاكم المقاطعة .

ومع انتشار المدارس ثنائية اللغة وافقت الدولة على تأسيس « مكتب الارشاد التربوي » لرسم خطوط ومعالم منهاج تلك المدارس ، وشارك المجمع في وضع هذه الخطوط . ويتوقع أن يصدر هذا العام (١٩٨٠) قانون يجعل استعمال الفريزية اجباريا في جميع المراحل التعليمية (المصدر نفسه ص ٣٩٥) . أما الآن فلا تزال الفريزية إحدى المواضيع الاختيارية في امتحانات شهادة الدراسة الثانوية في هولندا بالنسبة لسكان المقاطعة (. A. VO., H. A. V. O., V.W. O.) (نفس المصدر ص ٣٦٠) .

أما في المرحلة الجامعية فتدرس الفريزية في عدة جامعات ، كما توجد في بعض الجامعات مناصب « كرسي » مثل الجامعة الحرة في امستردام والجامعة الحكومية في كرونتكن ، وجامعة بلدية امستردام والجامعتين الحكوميتين في ليدن واترخت . أما في الدنمارك (حيث تقطن أقلية فريزية) فتدرس الفريزية في جامعتي كيل وكوبنهاكن .

ومما يجدر ذكره عن نشاط المجمع القيام باستفتاء واحصائيات لغوية . فمثلا قام المجمع عام ١٩٦٧ بدراسة أنماط القراءة والمحادثة بين الناطقين بالفريزية ، ونشر التقرير عام ١٩٦٩ ، وهذا ملخصه :

٧١٪ يستعملون الفريزية كلغة البيت الوحيدة .

٦٩ ٪ يقرأون الفريزية بدون صعوبة .

٦٢ ٪ يستعملون الفريزية في التعامل التجاري العادي .

٤٣ ٪ يشترون مطبوعات كتبت بالفريزية .

٤٢ ٪ يستعملون الفريزية في المجالات الرسمية .

٤١ ٪ يقرأون بانتظام مطبوعات كتبت بالفريزية .

٣١ ٪ يكتبون الفريزية بدون صعوبة .

(المصدر نفسه ص ٣٦٤ ـ ٣٧١)

ويبدو دافع الارتباط باللغة واضحا في الفرق بين اقتناء وقراءة المطبوعات المكتوبة بالفريزية .

خاتمة

عرض هذا البحث تصورا معينا لمفهوم التخطيط اللغوي بابعاده المختلفة ، وقدم وصفا تحليليا لاثني عشر مجمعا ولجنة لغوية في العالم .

وقد كان اختيار هذه المجامع بناء على الصبغة الغالبة لعمل كل منها من ابعاد التخطيط اللغوي باستثناء مجمعي الاندونيسية والماليزية (وذلك لعدم توفر معلومات بالانكليزية بعد ١٩٦٧ عنهما) . فبعضها يركز اهتمامه على وضع المفردات والمصطلحات أكثر من الاعمال الأخرى . والبعض الأخر معني بشكل خاص بنظام الكتابة وأساليب تبسيطها ، ومثال ثالث يعمل في التفصيح وتوحيد اللهجات ، ومثال رابع عمل على تغيير مصادر المفردات غريبة الأصل عن اللغة نفسها .

كما يمكن تصنيف هذه المجامع حسب الدوافع التي أدت الى تأسيسها . فبعضها أسس للمحافظة على استمرار استعمال لغته ، وآخر أسس لوضع نظام لغوي جديد ، وثالث قام لاعادة احياء لغته في مجالات معينة . واذا اردنا أن نضع تصنيفا ثالثا لهذه المجامع فيمكن النظر الى كل منها من ناحية أسس تشكيله . فبعض هذه المجامع تأسس بناء على رغبة وجهود أفراد فقط ، وبعضها ظهر نتيجة لحركة سياسية أو عرقية أو دينية ، ونوع ثالث قامت السلطة الحاكمة بتشكيله ، وذلك كأحد العوامل التي ارتكزت السلطة عليها لتثبيت سلطتها ، ونوع رابع تأسس على المستوى الفردي ثم تبنته السلطة الحاكمة حيث أنها وجدت فيه دعما اضافيا لسلطتها .

وقد أخذ تسلسل الحديث عن هذه المجامع تصنيفا غير التصنيفات المذكورة اعلاه ، بل كان حسب الترتيب الزمني الذي ظهرت فيه المجامع في كل قارة (باستثناء مجمع الفريزية) . فبدأ الحديث أولا عن مجامع أوروبا ثم أمريكا اللاتينية ثم آسيا وأخيرا أفريقيا .

ولا بد من اعادة القول هنا بأن هذا البحث لم يتعرض لمجامع اللغة العربية ، وذلك لاسباب أهمها أن المعلومات عنها متوفرة لدى القارىء بالعربية أو يمكن للقارىء أن يحصل عليها مباشرة . كما أنه يفضل أن ينظر الى عمل مجامع العربية ليس فقط من ناحية ما تقوم به من أعمال ، بل خلال الاطار العام لوجود وعمل المجامع في بقية مناطق العالم كهيئات تخطيط لغوي .

أما عن مدى نجاح مجامع اللغة بشكل عام في تحقيق أهدافها فسيكون هذا هو محور البحث القادم ان شاء الله .

المصادر

Abuhamdia, Z. 1978. **Facilitating and Constraining Factors in the Implementation of Language Planning Policies ... in the U. S.** Unpublished Ph. D Dissertation. University of Pittsburgh.

Aitken, A. 1976. " The Scots language and the teacher of English, " in **Scottish Literature in the Secondary School.** Edinburgh : Scottish Education Department.

Ansre, G. 1974. " Language standardization in Sub — Saharan Africa, " in Fishman (ed.), PP. 369 — 390.

Barnes, D. 1974. " Language planning in Mainland China : standardization, " in Fishman (ed.), pp. 457 — 480.

Borsmeir, D. (Ed.) . 1976. **Readings in the Theory of Grammar.** Cambridge, Mass. : Winthrop.

Chang, Kun. 1967. " National languages in China, " in Sebeok (ed.) , pp. 151 — 176.

Comhairle Na Gaeilge. 1974. " Towards a language policy ; implementing a language policy, " in Fishman (ed.) , pp. 519 — 526.

Corays, W. 1962/75. " Committees, " in Householder and Saporta (eds.) , pp. 271 — 278.

De Francis, J. 1967. " Language and script reform in China, " in Sebeok (ed.) pp. 131 — 150.

——————. 1975. " Language planning in China, " **Language Planning Newsletter** Vol. 1 (2) pp. 1 & 5.

Deutsch, K. 1968. " The trend of European nationalism : the language aspect, " in Fishman (ed.) , pp. 598 — 606.

Devoto, G. 1978. **The Languages of Italy.** Chicago : The University of Chicago Press.

Dineen, F. 1967. **An Introduction to General Linguistics.** N. Y. : Holt.

Falk, J. 1978. **Linguistics and Language, 2nd ed.** N. Y. : Wiley.

Fellman, J. 1974. " The role of Eliezer Ben Yehuda in the revival of the Hebrew language : an assessment " in Fishman (ed.) , pp. 427 — 456.

——————. 1976. " Language planning in Israel : The Academy of the Hebrew Language, " **Language Planning Newsletter, Vol 2 (2), pp. 1 & 6.**

Ferguson, S. 1968. " Language development, " in Fishman, et al. pp. 27 — 36.

Fishman, J. (Ed.) . 1968. **Readings in the Sociology of Language.** The Hague : Mouton.

——————. 1971. " The uses of sociolinguistics, " in Perren and Trim (eds.) , pp. 19 — 40.

————— , 1972. **Introduction to the Sociology of Language.** Rowley, Mass. : Newbury.

————— (Ed.) . 1974. **Advances in Language Planning.** The Hague : Mouton.

————— (Ed.) . 1978. **Advances in the Study of Societal Multilingualism.** The Hague : Mouton.

————— , et al. (Eds.) . 1968. **Language Problems of Developing Nations.** N. Y. : Wiley.

Gallagher, C. 1971. " Language reform and social modernization in Turkey, " in Rubin and Jernudd (eds.) , pp. 159 — 178.

Guillermo, et al. 1974. " Linguistic correctness and the role of the academies in Latin America, " in Fishman (ed.) , pp. 315 — 368.

Hall, R. Jr. 1971. **Introductory Linguistics.** N. Y. : Chilton.

Haugen, E. 1966. **Language Conflict and Language Planning. The Case of Modern Norwegian.** Cambridge, Mass. : Harvard University Press.

Haugen, E. 1969. " Language planning : theory and practice, " in Actes du Xe Congres International des linguistes, Bucarest, 1967, A. Graur (Ed.) (Bucarest : Editions de L'Academie de la Republique Socialist de Roumanie) , pp. 701 — 711.

Hazai, G. 1974. " Linguistics and language issues in Turkey, " in Fishman (ed.) , pp. 127 — 162.

Heyd, U. 1954. **Language Reform in Modern Turkey.** Jerusalem : Israel Oriental Society.

Holmes, U. and A. Schutz. 1938. A History of the French Language. N. Y. : Farrar and Rinehart.

Householder, F. and S. Saporta. 1975. **Problems in Lexicography.** Bloomington : Indiana University Press.

Kelman, H. 1971. " Language as an aid and barrier to involvement in the national system, " in Rubin and Jernudd (eds.) , pp. 21 — 52.

————— . 1973. **The Revival of a Classical Language.** The Hague : Mouton.

Lehman, W. (Ed.) 1975. **Language and Linguistics in the People's Republic of China.** Austin : University of Texas Press.

Lunt, H. (Ed.) 1964. Proceedings of the X th Congress of Linguists. The Hague : Mouth.

MacKinnon, K. 1977. **Language Education and Social Processes in a Gaelic Community.** London : Routledge.

Macnamara, J. 1971. " Successes and failures in the Movement for the Restoration of Irish, " in Rubin and Jernudd (eds.) , pp. 65 — 94.

Mold, B. 1975. " Language planning in Sweden, " **Language Planning Newsletter Vol. 1 (3) , pp. 1, 3 — 4.**

Nahir, M. 1973. **The Hebrew Language Academy.** Unpublished Ph. D. Dissertation, University of Pittsburgh.

Neustupny, J. 1974. " Basic types of language problems, " in Fishman (ed.) , pp. 37 — 48.

Perren, G. and J. Trim. (Eds.) . **Applications of Linguistics.** Cambridge University Press.

Pietersen, L. 1978. " Issues and trends in Frisian bilingualism, " in Fishman (ed.) , pp. 353 — 399.

Rabin, C. 1971. " Spelling reform — Israel 1968, " in Rubin and Jernudd (eds.) , pp. 95 — 122.

———— , 1976. " Language treatment in Israel : especially the development and spread of Hebrew, " **Language Planning Newsletter,** Vol. 2 (4) , pp. 1, 3, 4, 6.

Rickard, P. 1974. A History of the French Language. London : Hutchinson.

Robertson, D. 1910. **The French Academy.** N. Y.

Rubin, J. 1973. " Language planning : discussion of some current issues, " in Rubin and Shuy (Eds.) , pp. 1 — 11.

———— , 1973. " Introduction, " in Rubin and Shuy (eds.) , pp. V—X.

———— , and B. Jernudd (Eds.) , 1971. **Can Language Be Planned ?** Honolulu : The University Press of Hawaii.

———— , and R. Shuy (Eds.) . 1973. **Language Planning : Current Issues and Research.** Washington, D. C. : Georgetown University Press.

Sebeok, T. (Ed.) , 1967. Current Trends in Linguistics, Vol. 2. The Hague : Mouton.

Tauli, V. 1964. " Practical linguistics : the theory of language planning, " in Lunt (ed.) , pp. 605 — 607.

———— , 1968. **Introduction to a Theory of Language Planning.** Uppsala : Almqvist & Wiksells.

Tietze, A. 1975. " Problems of Turkish lexicography, " in Householder and Saporta (eds.) , pp. 263 — 272.

Wood, R. 1977. " Potential issues for language planning in Scotland, " **Language Planning Newsletter,** Vol. 3 (1) , pp. 1 — 6.

* * *

تأثر الفكر الأندلسى بالحركة العلمية فى المشرق الاسلامى

سوادى عبد محمد

كلية التربية - جامعة البصرة

يثير موضوع التأثيرات التي أورثها المشرق العربي الاسلامي في مجمل حركة الفكر الاندلسي ، وبصورة خاصة في مجالات العلم والأدب والفن والفلسفة ، مناقشات مستفيضة بين المتخصصين وذوى الاهتمام خلال الفترة الواقعة منذ بداية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي وحتى نهاية الحكم العربي لبلاد الاندلس العربية الاسلامية .

ويمكن أن نشير الى ما يعيننا على إظهار بعض التأثيرات من خلال هذه المناقشات ، وما أتت بها من نتائج على تطور الفكر الأندلسي في المجالات المشار اليها . فمن جهة ، يعتقد بعضهم أن هذا الموضوع من السعة والشمول بحيث يمكن أن تتاح للباحث فيه ، معلومات كثيرة وغنية ربما تصل - حسب زعمهم - الى الحكم بأن كل ما انتجته بلاد الاندلس خلال الحكم العربي من حضارة فكرية ومادية هو من صنع المشرق بأفكاره وثقافته وسياسته . (١) ويذهب بعضهم الأخر الى القول بأنه لا يمكن إنكار ما للمشرق من تأثيرات في الاندلس ، ولكن في مجالات العلم والادب والفن والفلسفة ، تبدو قليلة ومحدودة ولا بد ان تقتصر على المراحل الأولى .

ومهما يكن من أمر ، فلا بد من القاء بعض الضوء على الحركة العلمية في اهم مراكزها في

---

(١) انظر احمد بن عبد ربه الاندلسي كتاب العقد الفريد (تحقيق احمد امين واحمد الزين وابراهيم الابياري ط ٣ ، القاهرة ـ ١٩٦٥) ص ١ ، المقدمة .

المشرق أولا ، ومن ثم استقراء نتائجها وتتبع آثارها ومؤثراتها في الاندلس ، بما يتوفر لدينا من معلومات وحقائق . فالمراكز العلمية المشرقية ، كانت تتركز في بغداد والبصرة وخراسان وبلاد الشام والحجاز ومصر (٢) .

وقد اشتهرت هذه المراكز منذ تأسيسها أو تمصيرها ، بكثرة معاهد العلم ودور الكتب وحلقات الدرس ، مما جعلها تلعب دورا كبيرا في ظهور جمهرة من المشتغلين في العلم والأدب والفن والطب والفقه والفلسفة . وبسهولة يمكن الاستدلال على ذلك باستعراض مئات التواليف والتصانيف في تاريخ العلماء والفقهاء والاطباء والفلاسفة والمهندسين والحفاظ والنحاة واللغويين والحساب والمعلمين والقصاص والادباء والشعراء والقراء ، وقراء الانغام والمتكلمين والزهاد والكيميائيين والكتاب والمجتهدين والطبيعيين والساحين وعلماء الفلك . (٣) كما ان في كتب التراجم والسير والمعاجم والرجال والطبقات مئات الاشخاص ، ترد اسماؤهم على انهم من هؤلاء الأعلام (٤) .

نبغوا في هذه المراكز ، وأوجدوا قاعدة عريضة للاهتمام بالمعرفة الانسانية من جوانبها كافة ، وقد أسهم عدد غير قليل من الاعلام في الدراسات الدينية وكانوا يشتغلون بالتدريس في المدرستين النظامية والمستنصرية ببغداد ويدرسون علوم القرآن وفضائله والتفسير والخلاف والاصول والفقه (٥) وفي دراسات علوم الحديث (٦) والدراسات اللغوية والأدبية في النحو والصرف والعروض والبلاغة والنثر الأدبي والشعر (٧) وفي الدراسات التاريخية

(٢) مثل بيت الحكمة والجامع النصري في بغداد ومكتبة ابن سوار في البصرة ودار العلم بالموصل ومكتبة ابن الشاطر والجامع الأموي في دمشق والجامع الأزهر ودار الحكمة بالقاهرة [illegible] في خراسان مراكز علمية ، وكذلك كانت بقية مساجد الشرق في أرقى صورة في هذه الفترة .

(٣) فرانز روزنثال ، علم التاريخ عند المسلمين (ترجمة : صالح العلي ، بغداد ١٩٦٣) ص ٢١٨ - ٢٢٠ .

(٤) انظر ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط ١ ، القاهرة ١٣٦٧ هـ) وابن الدبيثي ذيل تاريخ بغداد (التاريخ المذيل له على تاريخ ابن السمعاني) وابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب (تحقيق د . مصطفى جواد ١٩٦٢ - ١٩٦٥) .

(٥) ابن الساعي ، الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير جـ ٩ (تصحيح وتعليق د . مصطفى جواد ، المطبعة السريانية الكاثوليكية بغداد ١٩٣٤) ص ٢٩٧ - ٢٩٨ السبكي طبقات الشافعية الكبرى (تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو) القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٧٠ جـ ٨ ص ٣٦٨ ، [illegible] المسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك (تحقيق [illegible] رسالة ماجستير ، بغداد ١٩٧٠) الورقة ٨٥٤ .

(٦) ابن الفوطي تلخيص مجمع الآداب جـ ٤ (تحقيق محمد عبد القدوس القاسمي طبع الهند ١٩٤٠) ص ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٦٨٩ ابن خلكان ، وفيات الأعيان (مطبعة السعادة القاهرة ١٩٤٩) جـ ٤ ص ٣١ ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة (المنسوب لابن الفوطي ، طبع بغداد ، مصطفى جواد) ص ٣٧ .

(٧) الغساني العسجد المسبوك ورقة ١٩٠ ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ (دار صادر دار بيروت ١٩٦٧) جـ ١٢ ص ٣١٢ الفلك الدائر على المثل السائر لضياء الدين نصر الله بن الأثير ، ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب جـ ٤ قسم ١ ص ١٩١ .

والجغرافية (٨) كما نبغ في العلوم العقلية والفلسفية والطب اعلام تركوا تأثيراتهم الواضحة في الحركة العلمية المشرقية ومنهم ابو الريحان البيروني (٩) وجابر بن حيان (١٠) وموفق الدين عبد اللطيف البغدادي (١١) والجاحظ (١٢) وجعفر البلخي (١٣) والرازي (١٤) وابن سينا (١٥) وابن الهيثم (١٦) واخوان الصفا (١٧) والفارابي (١٨) والقزويني (١٩) وداود الانطاكي (٢٠) والكندي (٢١) والخوارزمي (٢٢) وثابت بن

---

(٨) من المؤرخين الذين تجدر الاشارة الى بعضهم ابن الاثير البغدادي (ت ٦٠٧ هـ) الذي نقل عنه القفطي في تاريخ الحكماء وابن الفوطي وابن الفرج الشكري وكتابه الاختصاص في التاريخ الخاص وموفق الدين ابن الفياء البغدادي (ت ٦٢٩ هـ) وغيرهم كثيرون ممن اشتغل في حقل التاريخ منذ القرن الأول الهجري حتى نهاية القرن الثامن . أما في الجغرافيا فنزعم ياقوت وكتابه معجم البلدان ، والمقدسي وكتابه احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، وابن عبد الحق وكتابه مراصد الاطلاع في الامكنة والبقاع ، وغير هؤلاء من الجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين الذين اثروا بكتبهم وتآليفهم .

(٩) وكان فلكيا رياضيا رحالة فيلسوفا وجغرافيا يدل على واسع الاطلاع وله اثر بالأساتذة .

(١٠) وهو الكيميائي العربي المشهور ، درس العلم على يد اساتذة بعصر الصادق ، وله اثر في الطب والرياضيات والفلسفة .

(١١) ولد ببغداد وهو عالم وطبيب واديب ، درس الحساب والرياضيات والكيمياء ، اشتغل في مصر والشام بالتدريس بالأزهر ، وبرع كذلك في العلوم الحديثة وعلوم العربية .

(١٢) ابو عثمان بحر بن محبوب البصري ، نبغ في علم الحيوان ، ومن اشهر كتبه (الحيوان) .

(١٣) من اعظم فلكيي العرب ، الف في هذا العلم اكثر من ثلاثين كتابا .

(١٤) احد مشاهير اطباء العرب في العصور الوسطى ، الذي علمه على يد اساتذة (حنين بن اسحق) وكان من رواد علم الكيمياء ثم انصرف الى الطب ، وهو واسع الاطلاع تزيد كتبه عن (١٢٠) كتابا في الفلسفة والطبيعة والرياضيات والفلك والطب .

(١٥) الحسين بن عبد الله ، واحد من رواد الفكر الانساني ، اشتهر بالطب والفلسفة وعني بالرياضيات والفلك اشهر كتبه (القانون في الطب) و (الشفاء) .

(١٦) الحسن بن الهيثم ، ولد في منتصف القرن الرابع الهجري وعاش في البصرة ثم انتقل الى القاهرة وبرز في تحصيل العلوم الفلسفية والطبية والفلكية والرياضية لكنه اشتهر في علم الطبيعة وعلم الضوء وكانت له في حقل الطبيعة دراسات وبحوث وله كذلك رسائل في علم الحساب والجبر وحساب المثلثات والهندسة الاقليدية المستوية والمجسمة ، توفي في القاهرة سنة ٤٣٠ هـ .

(١٧) جمعية سرية فلسفية علمية مكونة من عدد من العلماء والفلاسفة ، يحاولون الوصول الى الحقيقة في السياسة والاخلاق من طريق امتزاج الشريعات الاسلامية اسست في العراق ولهم دائرة معارف مؤلفة من ٥٢ رسالة في علوم الطبيعة .

(١٨) من اشهر الفلاسفة الاسلاميين ، أولع بالدراسات العقلية مثل الرياضيات والفلسفة والمنطق والطب والموسيقى ، تزيد مؤلفاته على السبعين مؤلفا في الطبيعة والرياضيات والميتافيزيقيا والاخلاق والسياسة .

(١٩) ابو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود ، وكان معنيا بالتأليف في الجغرافية والتاريخ ، من اشهر كتبه (عجائب المخلوقات) الذي بحث في الفلك والطبيعة والنبات والحيوان والمعادن .

(٢٠) كان يتكلم ... والطبيب الحاذق ، اهتم بدراسة الطب الاسلامي وكتب الادوية والوصفات واشهر كتبه (تذكرة اولي الالباب والجامع للعجب العجاب) .

(٢١) ولد يعقوب الكندي في الكوفة سنة ١٨٥ هـ ، اشتهر بالفلسفة والطب والمنطق والرياضيات والحساب والهندسة والفلك ، الذي كان مهندسا كبيرا وطبيبا وفيلسوفا عظيما .

(٢٢) محمد بن موسى ، ولد بخوارزم واقام في بغداد ، اول من عمل في بيت الحكمة ، برز في الرياضيات والفلك ، وهو اول من الف الجبر والمقابلة ، وله افكار اساسية اعتمد عليها علماء العرب في دراساتهم وبحوثهم الرياضية .

قرة (٢٣) وغيرهم من العلماء والفقهاء ورواد الفكر .

إن هؤلاء وغيرهم كثيرين ، أسهموا في خلق حركة علمية وفكرية مشرقية متميزة أخذت تنتقل تأثيراتها تدريجيا الى بلاد الأندلس ، وذلك منذ قيام الحكم العربي فيها ، وبدأنا نلمس بوادر للاهتمام بعلوم المشرق وأفكاره هناك . وفي بداية العصور الوسطى وخلالها كانت الثقافة المشرقية قد تركت ظلها في الثقافة والفكر الاندلسيين ، ووفق الاندلسيون بين ثقافة المشرق وبين البيئة الطبيعية والاخلاقية والاجتماعية ، في الوقت الذي اخذت تتموقع حضارة متميزة للاندلسيين لها شخصيتها وطابعها ، غير انها دأبت على الاهتمام في ان تصون اللغة العربية ، وان تحتفظ بالتقليد الكلاسيكي الذي جرى عليه المشرق ، وخاصة التقاليد في المجالات الفقهية والدينية والعلمية والادبية والفنية والفلسفية ، وحرص حكام الاندلس في ان يضعوا دولتهم على منوال الشام والعراق وبلاد فارس فيما هي عليه من وجود المدارس ومعاهد العلم ودور الحديث والمساجد التي تدور فيها حلقات الدرس ، والمتكفات التي تدرس فيها العلوم الدينية وعلوم العربية والخانقهات والربط والبيمارستانات . ويبدو واضحا ان هذا التقليد اخذ يتعمق منذ ارتقاء عبد الرحمن بن معاوية (الاول) الحكم بسبب تعضدُه بالعنصر العربي ، واطفائه لجذوة النزاع العشري القديم المحتدم بين القيسيين واليمانيّين . على ان فترات الاستقرار السياسي والاجتماعي كانت دائما اكثر الفترات ملائمة لازدهار الفكر وتطوره في هذه البلاد ، وكان نصيب الامير القرطبي الرابع عبد الرحمن الثاني كبيرا في انماء هذا الازدهار ، ففي عهده استطاع المشرق ان يترك بصورة حاسمة بصماته الثقافة الاندلسية ، وبرز هذا الامير كأكبر الحماة للعلماء وصديقا مخلصا للادب والفنون ، كما كان شغوفا بكل ما يتصل بعلمَيْ الفلك والرياضيات ، ويجد متعة في دراسة الكتب القديمة في الفلسفة والطب ، فأحاط نفسه بجمهرة من علماء الفلك ، ولم يكن غير المشرق بعلمائه ورجالاته ومؤسساته ومراكزه العلمية ليرضى طموحاته وتطلعاته ، لذلك يمكن الاقتناع بما ذهب اليه احد الباحثين ، بان المعطيات المفيدة التي كانت تصل الى حد يثير العجب عن دور المشرق في تكوين الثقافة الاندلسية كانت مؤكدة من وجهة النظر التاريخية ، ولا نحتاج ان نُحمِّل النصوص الدقيقة التي جاء بها المؤرخون اكثر مما تحتمل ، او نضطر الى التفتيش ما بين سطورها . (٢٤)

---

(٢٣) ومنهم من [illegible] ، اعظم مهندسي العرب في الاندلس ، وقد ترجم الكتب [illegible] في الفلسفة [illegible] .

(٢٤) ليفي بروفنسال Levi Provencal حضارة العرب في الاندلس (ترجمة ذوقان قرقوط) بيروت ص ٣٧ .

لقد كانت مدينة قرطبة المركز العلمي (٢٥) ميدانا لهذه التأثيرات . لقد انتقلت اليها المظاهر الفكرية بما وفد اليها من العلماء والفقهاء المشارقة . ويمكن بهذا الصدد ان نستفيد من الفصل المهم الذي عقده المؤرخ التلمساني المعروف بالمقري في كتابه (نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب) فهو خير ما يصور لنا هذا الاهتمام بايراده لجمهرة من هؤلاء العلماء والفقهاء والأدباء المشارقة ، الذين استقروا في بلاد الاندلس فتركوا تأثيراتهم الفكرية والعلمية (٢٦) كما يمكن ان نجد معلومات مفيدة عن هؤلاء العلماء في كتاب (بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس) لاحمد بن يحيى الضبي ٥٩٩ هـ (٢٧) . وفي كتاب (تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس) للحافظ عبد الله بن محمد الأزدي المعروف بابن الفرضي ٤٠٣ هـ (٢٨) . ولعل ما اشار اليه الاستاذ ليفي بروفنسال صحيح من أن المشرق قد فاز بنصيب كبير في تكوين الثقافة الاندلسية فكل ما كان يفد من بغداد او من المدن الكبرى الاخرى في العالم الاسلامي ، كان يستقبل باعجاب او بامتثال في الاقل في ربوع بلاد الاندلس . (٢٩)

لعل دراسة بعض صنوف العلوم المختلفة في الاندلس من خلال المصادر وفيه بحيثنا على تلمس الطابع المشرقي فيها ، وأول هذه العلوم التي في الاشارة اليها هي ، العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية ، حيث برز عدد من العلماء في الفقه والمذاهب والحديث وعلم الكلام والشرائع والمنطق والتفسير والنحو والعروض ، كما ظهر في الفلسفة والموسيقى علم الفلك والطب والكيمياء والرياضيات وعلوم الحياة والتاريخ

(٢٥) مدينة عظيمة على نهر الوادي الكبير بالاندلس ، وهي قاعدة الدولة الاموية وحاضرتها ومركز علمي وحضاري [illegible] . اكتسبت شهرة عالية واصبح اسمها يقترن بالعلم والثقافة وقد قال احد الشعراء فيها يقول :

بأربع فاقت الامصار قرطبة ... منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم اعظم شيء وهو رابعها

(المقري ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (مطبعة السعادة مصر ١٩٤٩ ط ١) جـ ٥ ص ٢١٠ - ٢٠٣ .

(٢٦) ن . م . ص ٢٠٧ ، ٢٤٠ .

(٢٧) الضبي ، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الاندلس (المطبعة الاوربية مجريط ١٨٨٤)

(٢٨) ابن الفرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلم في الاندلس (القاهرة ١٩٥٤)

(٢٩) حضارة العرب في الاندلس ص ٣٧ [illegible]

والجغرافية ، وأصبح للأندلسيين في جميع هذه العلوم ابحاث مستفيضة وقواعد مستقرة . ومن الجدير بالاشارة الى ان ظهور يحى بن يحى الليثي (٣٠) يمثل بداية الاهتمام بالعلوم الدينية في الاندلس ، فقد رحل الى المشرق وتوجه الى الحجاز فسمع من مالك بن أنس ، وسفيان بن عيينة ، وتفقه على عبد الله بن وهب ، ولما عاد الى قرطبة روى كتاب « الموطأ » لمالك بن أنس لتلامذته ، وانتهت اليه الرئاسة في الفقه والقضاء في هذه المدينة . (٣١)

ويبدو ان يحى بن يحى الليثي قد خلق الاتجاه لدى اهل الاندلس في دراسة الفقه والحديث على مذهب مالك بن أنس ، كما سهل على عبد الملك بن حبيب ١٧٩ هـ/٨٥٣م الذي كان هو الآخر قد درس الفقه على مذهب مالك بن أنس في المدينة المنورة ورحل الى المشرق وتردد على حلقات الدرس هناك ، واصبح من اكبر العاملين على تحويل اهل الاندلس الى المالكية . (٣٢)

وشجعهم على أن يفدوا الى المشرق للدراسة على علماء المشارقة والأخذ عنهم (٣٣) لأنهم احاطوا باحاديث الرسول وما روى عنه .

ويبدو ان الاندلس قد حققت وحدتها الدينية باتباعها المذهب المالكي ، حيث لم ترتد عنه بعد ذلك ، وقد حل هذا المذهب رسميا محل مذهب الأوزاعي ١٥٧ هـ . ويجمع مذهب مالك بن أنس ١٧٨ هـ عند انتشاره في هذه البلاد بين ملقيه الأوزاعي (الاخذ بالحديث والتقيد بأصوله) وبين حرية المذهب الحنفي في (الأخذ بالقياس) (٣٤) . ويروى المقرى أن عددا من فقهاء المالكية المشارقة من اهل بغداد ودمشق ونيسابور دخلوا الاندلس وحثوا طلبتهم ، ومن حضر مجالسهم ودروسهم على المواظبة والدرس ، ومن هؤلاء الفقهاء عبد اللطيف بن

---

(٣٠) أصله من بربر مصمودة ، وقد سمع مالك بن أنس (عاقل الأندلس) انظر : المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ ٢ ص ٢١٧

(٣١) وكان متصرفا في ضروب العلم حافظا في الآداب ورواية الاخبار مشاركا في الفقه والرواية (ابن الفرضي تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس جـ ٢ ص ١٨٥ ، ابن حيان القرطبي ، المقتبس من أنباء أهل الأندلس (تحقيق د . محمود علي مكي ، دار الكتاب العربي ، بيروت) ص ٨٤ ، ٨٥

(٣٢) ويبدو ايضا ان « شبطون بن عبد الله الغازي بن قيس ، ادخل « الموطأ » لمالك بن أنس الى الأندلس في عهد الامير عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) واصبح المذهب [illegible] (بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي (ترجمة د . حسين مؤنس ط ١) القاهرة ، ١٩٥٥ ص ٣

(٣٣) كان اهل الاندلس [illegible] (بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ص ١٩٦)

(٣٤) [illegible] (حضارة العرب في الأندلس ص ٤٣ ـ ٤٤)

ابي الطاهر احمد بن محمد الهاشمي الصدفي ، وهو من أهل بغداد ، سمع عن أبي الوقت السجزي وابي الفرج ابن الجوزي ، وقد وفد الى غرناطة واقام فيها (٣٥) وعلي بن بندار البغدادي (٣٦) وابو نصر سهل بن علي النيسابوري (٣٧) وابو المكارم هبة الله بن الحسين ، اللذي وصف بأنه من أهل العلم عارفا بالاصول حافظا للحديث ، دخل الاندلس وولي قضاء اشبيلية (٣٨) وابو زكريا يحيى بن عبد الرحمن العشي الدمشقي ، وكان فقيها على مذهب الشافعي ، عارفا بالاصول والتصوف وله كتاب (الروضة الانيقة) وان اصله من دمشق ثم رحل الى المغرب ولقي عددا من الفقهاء وتلقى على ايديهم الوعظ والتذكير ، ثم دخل الاندلس وتجول بلادها واستوطن غرناطة واتصل برجالها وطلبتها (٣٩) .

ومن الجهة الاخرى ، فقد رحل عدد من فقهاء الاندلس الى المشرق ، ومنهم حسين بن محمد بن خيون الصدفي المعروف بابن سكره ، وهو إمام محدث زاهد كثير الرواية ، دخل العراق وروى عن جماعة من فقهاءها وعلمائها (٤٠) ويوسف بن محمد بن سليمان الهمداني ، وهو من أهل شلونه ، رحل الى المشرق واقام في رحلته عشرة اعوام ، وقد اهتم بكتب محمد بن جرير الطبري في تفسير القرآن فنقل الى اهل الاندلس ما تعلمه (٤١) .

أما فيما يتعلق بعلوم اللغة العربية وآدابها ، فلدينا من الحقائق التاريخية ما يجعلنا نعتقد بأن تأثيرات المشرق كانت واضحة وجلية في بلاد الاندلس ، فقد رحل كثيرون من هذه البلاد الى المشرق لطلب العلم في العربية (٤٢) كما ان

(٣٥) نفح الطيب جـ ٤ ص ٦٥

(٣٦) ن . م ص ٦٦

(٣٧) ن . م . ص ٦٧

(٣٨) ن . م . ص ٦٨

(٣٩) المقري ، نفح الطيب جـ ٤ ص ٦٨

(٤٠) ابن الفرضي تاريخ العلماء والرواة للعلم ج١ ص ٢٥٣ - ٢٥٤

(٤١) ن . م . ص ٢٠٦

(٤٢) احصى احمد الياسين عدد الترجمات التي ضمها المقري في كتاب نفح الطيب للعلماء الراحلين الى المشرق والقادمين [illegible] (١٨٠) ترجمة (انظر : رضا عبد الجليل الطيار الدراسات اللغوية في الاندلس العراق ، ١٩٨٠) ص ٤٤

التقليد الاندلسي القديم في جلب الكتب المشرقية الحديثة الصدور الى الاندلس بقي مستمرا (٤٣) وخاصة الكتب اللغوية ، مثل الكشاف للزمخشري (٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ) ومقامات الزمخشري الخمسون ، وكتاب تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري ٣٩٣ هـ واكمال ابن القطاع ٥١٥ هـ لكتاب الأفعال لابن القوطية ٣٦٧ هـ (٤٤) .

على أن التأثير الذي تركه العالم اللغوي أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي ، صاحب كتاب الامالي ، كان واضحا في بلاد الاندلس ، فقد امتاز هذا العالم بسعة الاطلاع في العلم وطول الباع في اللغة وفنونها ، وأقبل عليه علماء الاندلس وأدباؤها للاستفادة من محاضراته في اللغة والادب ، التي كان يمليها في أيام الاخمسة بقرطبة ، وفي المسجد الجامع بالزهراء (٤٥) كما حدث بهذا القالي عن نفسه ، فرددوا ذكره ، وشهدوا له بالتقدم والاجادة ، (٤٦) واشار ابن خلدون الى أن (القالي قدم من المشرق فأورث أهل الأندلس علمه) (٤٧) وذكر ابن الفرضي ، انه عندما وفد أبو علي القالي الى الاندلس (فسمع الناس منه وقرأوا عليه كتب اللغة والاخبار والامالي وعظمت استفادتهم منهم) (٤٨) وقد أتقن القالي علوم اللغة والشعر والنحو على طريقة البصريين (٤٩) وبحث على (ابن درستوية) عبد الله بن جعفر الفارسي النحوي (٥٠) كتاب « سيبويه » ودقق النظر فيه وأملى شيئا من حفظه مثل كتاب (النوادر) و (الامالي) وكتاب (المقدود والمقصور) الذي رتبه على التفعيل ومخارج الحروف وكتاب (البارع في اللغة) مرتب على حروف المعجم وكتاب (الابل ونتاجها) وكتاب (حلى الانسان والخيل

(٤٣) ن . م . ص ٥٥

(٤٤) ن . م . ص ٥٥

(٤٥) مدينة بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر وسماها باسم جاريته الزهراء (المقري نفح الطيب جـ ١ ص ٣٦١)

(٤٦) المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٣٥٨ ، ٣٦١

(٤٧) العبر وديوان المبتدأ والخبر (منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ١٩٧١) جـ ٤ ص ١٤٦

(٤٨) تاريخ العلماء والرواة للعلم ص ٩٥

(٤٩) المقري ، نفح الطيب جـ ٤ ص ٧٢ (أنا وصف بانه احفظ اهل زمانه باللغة والشعر ونحو البصريين) ن . م . ص ٧٣

(٥٠) وهو احد النحاة المشهورين ، وكان شديد الانتصار للبصريين في النحو واللغة وعلوم العربية

وشياتها) وكتاب (فعلت وأفعلت) وكتاب (مقاتل الفرسان) وكتاب شرح فيه المعلقات (٥١) وكان قد كتب مؤلفه الشهير (الامالي) في مدينة قرطبة التي استوطنها ، وأصبح هذا الكتاب مرجعا مهما من مراجع علم اللغة هناك .

ويشير ابن خلكان الى اجتماع اللغويين والنحويين بأبي علي القالي عند دخوله الاندلس ، فتلقوا عنه علومهم وآدابهم وتأثروا به (٥٢) حتى اتخذوه حجة وإماما في فقه اللغة وعلوم العربية . ومن الذين تأثروا به ابو بكر محمد بن الحسن بن بشر الزبيدي الاندلسي الاشبيلي (٥٣) وابو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن ابراهيم بن القوطية الاشبيلي الأصل القرطبي المولد والدار ، والذي كان من أعلم أهل زمانه باللغة العربية ، راويا للاشعار ، صحيح الالفاظ ، واضح المعاني ، حسن المطالع والمقاطع (٥٤) وأبو عمر يوسف بن هارون الكندي الرمادي الشاعر الذي امتدح القالي (٥٥) .

ومن الجدير بالذكر أن أبا علي القالي ، اوجد اهتماما خاصا لدى الاندلسيين في فن تصنيف معاجم اللغة ، حيث تطور جنبا الى جنب مع الدراسات النحوية ، وأصبحت طلائع مؤلفات الاندلسيين في هذا الباب مختصرات لمعاجم مشرقية مثال ذلك (كتاب نوادر اللغة) الذي وضعه القالي ، فهو أشبه لما ورد في (الكامل) لابي العباس المبرد من الغريب . وكذلك وضع أبو بكر محمد بن الزبيدي مختصرا لكتاب (العين) للخليل بن احمد الفراهيدي ، وكان

---

(٥١) ياقوت ، معجم البلدان جـ ٢ ص ٣٥٢ ابن خلكان ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان (دار الثقافة بيروت) جـ ١ ص ٢٢٦ – ٢٢٨)

(٥٢) وفيات الاعيان جـ ٤ ص ٣٦٩

(٥٣) ن . م . جـ . ص ٢٢٦ – ٢٢٨ ، جـ ٤ ص ٣٧٢ وكان إماما في الأدب واللغة [illegible] الأندلس ، [illegible] على أبي علي القالي لما دخل الاندلس (المقري ، نفح الطيب جـ ٤ ص ٧٤ – ٧٥ ، جـ ٤ ص ٣٧٢)

(٥٤) ن . م . ص ٣٦٩

(٥٥) ن . م . ج . ٧ . ص ٢٢٥ – ٢٢٦ [illegible]

وروض تعاهده السحاب كأنه ... متعاهد من عهد اسماعيل
قسنا الى الأعراب تسلم أنه ... أولى من الاعراب بالتفضيل
حازت فنونهم لغات فرقت ... منهم وحازت لغات كل قبيل
فالشرق خال بعده فكأنما ... نزل الخراب بربعه المأهول
وكأنه شمس بدت في غربنا ... وتغيبت عن شرقهم بأفول

سويا بحسب مخارج الحروف، وقد ذاع هذا المختصر بين اهل العلم في الاندلس واصبح معتمدهم في الدراسة. (٥٦)

وهنالك عدد من الشعراء الاندلسيين الذين أفصحوا بالعربية متأثرين بزملائهم المشارقة، منهم مغيث بن الحارث بن الأيهم الغساني، الذي تأدب بدمشق مع بني عبد الملك بن مروان، وصار يقول من الشعر والنثر ما يصح اعتباره فريدا (٥٧) وعبد الخالق بن ابراهيم الخطيب الذي وصف بانه اديب قوي العارضة مطبوع الشعر (٥٨).

أما في مجال الفن القصصي الشرقي الذي انتقل الى الاندلس، فأهمها قصة المعتمد بن عباد الاشبيلي وخطبه الجميلة الرميكية (٥٩) وقصة عن الخليفة الاندلسي الحكم المستنصر ٣٦٦ هـ أو ما أدخله من تعديل على بعض الآلات الموسيقية، وقصة عن امرأة اندلسية مسلمة كانت تمثل بالقتلى المسيحيين انتقاما لواحد من اهل قرابتها وقع في القتال الناشب بين الجانبين في بعض الثغور الأندلسية (٦٠) وقد اتخذت جميع هذه القصص المنحى المشرقي في المعالجة والموضوع.

ومن الجدير بالذكر الى ان هناك كتبا مشرقية ادخلت في باب التأليف القصصي قد عرفت في الاندلس، وكان لها صدى ونفوذ كبيرين في هذه البلاد، ومن اهمها كتاب ألف في عصر هارون الرشيد لأبي سري سهل بن أبي غالب الخزرجي سماه كتاب (ربيعة وعقيل) (٦١) وهذا حل

---

(٥٦) بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي ص١٥٩

(٥٧) المقري، نفح الطيب جـ٤ ص١١

(٥٨) ن. م. ص١٥٠ ومن الشعر [illegible]:

[illegible]
[illegible]
[illegible]

(٥٩) [illegible]

(٦٠) اثر العرب في النهضة الاوربية ص٩٩

(٦١) ابن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة للعلم في الاندلس جـ١ ص[illegible]

كثيرين من الأدباء الأندلسيين على تقليده أو معارضته (٦٢) .

اما ابرز من تضلع في الشعر الغنائي فهو أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى البغدادي ٤١٧ هـ ١٠٢٦ م الذي كان أصله من الموصل واستوطن قرطبة (٦٣) وكان تأثيره واضحا في ظهور عدد من تلاميذه ممن أخذ عنه أصول هذا الفن وفيما خلفه من تأليف ورسائل (٦٤) .

وفي هذا الصدد لا بد من التطرق الى الأثر الذي تركته مقامات (٦٥) ابي علي محمد بن قاسم الحريري في الأدب الاندلسي . درس الحريري في البصرة وكتب مقاماته هناك ، وموضوعاته تدور حول الأدب ، وقد سمعها كثير من الأندلسيين ، وكان لها صدى بين أدبائهم حيث نشروها في بلادهم وقرأها طائفة من الاندلسيين على الحريري نفسه . ومضى نفر منهم ينسجون على منوالها مثل جعفر بن عبد الرحمن بن أحمد الازدي ٥٧٥ هـ الذي انشأ مقامات على غرارها (٦٦) وكذلك ألف أبو طاهر محمد بن يوسف السرقطي الاشترقوني مجموعة مقامات يقول أحد الباحثين انها لا زالت مخطوطة في مكتبة برلين (٦٧) ووضع ابو طالب عقيل بن عطية القضاعي المراكشي ٦٠٨ هـ شرحا على مقامات الحريري . (٦٨)

غير أن أكبر شراح المقامات في العالم الاسلامي آنذاك هو أندلسي من مدينة شريش اسمه ابو العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى الشريشي ٦١٨ هـ ، وكان بارعا في علوم اللغة والعروض ، وقد وضع ثلاثة شروح لمقامات الحريري تغني عن كل شرح تقدمها (٦٩)

---

(٦٢) أثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٨٧ ـ ٨٨ ، كان الأمير المنصور بن ابي عامر الذي استولى على مقاليد السلطة خلال الربع الأخير من القرن الرابع الهجري كثير الشغف بهذا الكتاب .

(٦٣) وكان قد وفد على المنصور بن ابي عامر وزاره من [illegible] (المقري ، نفح الطيب جـ ٢ ص ٥٢ ، ٦٦)

(٦٤) ومن اشهر كتبه كتاب « الفصوص » [illegible] (المقري نفح الطيب جـ ٤ ص ٧٥ ـ ٧٦)

(٦٥) المقامة [illegible] (أثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٨٨)

(٦٦) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ١٨١

(٦٧) م . ن . ص ١٨١ ـ ١٨٢

(٦٨) م . ن . ص ١٨٢

(٦٩) وكان الشريشي لا يكتفي بما يجمع على المقامات من الشروح الأدبية بل يضيف من عنده كثيرا من الموضوعات ذات الاهمية البالغة . [illegible] (م . ن . ص ١٨٢)

ويصح ان نقول بان فن المقامة الاندلسية الذي هو نتاج المقامة المشرقية قد تطور وابتعد عن الجمود المشرقي وتحرر من فيقهه اللغويين المتكلفة ، واصبحت المقامة قصصية الطابع واكثر شعبية بتقديمها الصور البديعة للمجتمع الاندلسي ، كما تميزت بالواقعية .

ومن الجدير بالذكر ، ان يهود الاندلس قد تأثروا بمقامات الحريري ، فنسج أحد ادباء اليهود الاندلسيين مقامات باللغة العبرية على النهج نفسه الذي اتبعه المؤلف البصري الكبير ، كما انتهج سليمان بن صقبيل القرطبي ، مقامات بالعبرية ، وتبعه مقلد يهودي آخر للحريري وهو يهوذا بن سليمان الحريزي ، حيث ترجم مقامات الحريري الى العبرية ، والف كتابا بعنوان (تحكموني) (اي الرجل الحكيم) بدا فيه وهو يعارض مقامات الحريري ويرد عليها بمقامات انشأها (٧٠) .

أما في الشعر ، فقد اتخذ الشعراء في الاندلس ، قصائد العرب الجاهليين نماذج ينظمون على منوالها وخصوا (المعلقات السبع) (٧١) بالدراسة والاقتداء ، ولكنهم تحولوا عنها الى قول الشعر الذي يخدم الاغراض العسكرية والاجتماعية ، لشد عزائم الجند في ميادين القتال ، وبث الحمية في قلوب الناس لذكر الوقائع الحربية لغرض ترديها في الطرقات والميادين والشوارع ، ثم انصرفوا الى الموضوعات التي كان يطرقها شعراء بغداد والبصرة ودمشق ، وهي تتعلق بالغزل والوصف وذكر محاسن الجمال والرياض الخضراء (٧٢) وعلى العموم فالشعر الاندلسي نبع من بحر الشعر المشرقي ، فقد تأثر الاندلسيون من ناحية البراعة الشعرية وليس من ناحية التفكير وتسلسل انماط الافكار ، فلم يستطيعوا ان يدخلوا على الشعر من التغيير الا ما يمس المعنى ، كما كان يعمل المشارقة ، وقد طرق الشعر الاندلسي فنون الشعر كافة من الزهد الى الهجاء وقصائد الحماسة والنسيب والمديح والرثاء والوصف ، وهو ما كان عليه الشعر في المشرق . وكانت الخمريات اكثر فنون الشعر ذيوعا بين شعراء الاندلس ، كما أولعوا بالوصف للطبيعة والجمال ، غير أنهم لم يظهروا براعة في الشعر السياسي أو الحماسي (٧٣) ولعل من المفيد

(٧٠) كتاب اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص٩٢

(٧١) لامرىء القيس وزهير بن ابي سلمى والنابغة الذبياني ولبيد بن أبي ربيعة وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد

(٧٢) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص٣٧

(٧٣) ن . م . ص٥٩

القول بان الشعر الاندلسي لم يصل الى أوجه إلا بعد قيام الدولة الأموية عام ٣١٧ هـ/٩٢٩ م ، حيث عرفت الاندلس دواوين المتنبي وغيره من الشعراء في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ٣٥٠ هـ/٩٦١ م وفي عهد خليفته ابنه الحكم المستنصر ٣٦٦ هـ/٩٧٦ م ، وذلك عندما وفد سفراء الثقافة المشرقية ومنهم أبو علي القالي البغدادي الذي وفد عام ٣٣٠ هـ/٩٤١ م وصاعد بن الحسين البغدادي الذي دخل الاندلس عام ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م ، وقد ادخل الى هذه البلاد طريقة جديدة في دراسة الشعر الجاهلي (٧٤) كما بذل محاولاته في تأليف كتاب (الفصوص) بصورة يفوق فيها كتاب (الأمالي) لابي علي القالي ، ولكن معارضوه قذفوه في النهر فقال أحد الشعراء :

قد غاص في الماء كتاب الفصوص
وهكذا كل ثقيل يغوص

فأجابه صاعد :

عاد الى معدنه ، انما
توجد في قعر البحار الفصوص (٧٥)

والى جانب ترحيب الاندلسيين ، وخاصة الأمراء منهم ، باهل العلم من المشارقة ، فقد نشط هؤلاء باقتناء الكتب النادرة والحصول عليها من مصادرها ، كما اجتهدوا ، على حد قول احد الباحثين ، في ان يكون لقصورهم مجد ادبي يحاكي ما كان لقصور خلفاء المشرق ، واهتموا برعاية الأدب والعلوم والفنون ، لكي تصل قرطبة الى مستوى يضاهي ما وصلت اليه دمشق وبغداد (٧٦) ويشير ابن سعيد المغربي إلى أن الأمير عبد الرحمن الأوسط كان يبعث رسلا للبحث عن الكتب والمؤلفات في المشرق (٧٧) كما ان ابنه الحكم المستنصر كان معنيا هو الآخر بالعلم ومكرما لأهله وجماعا للكتب بانواعها ، وبما لم يجمعه أحد غيره من الامراء والملوك ، وكان يستجلب المصنفات من الاقاليم والنواحي ، ويبعث باستقدام العلماء والفقهاء من المشرق (٧٨) وأوجد في قرطبة عددا كبيرا من الكتبة والمجلدين والمزخرفين والناسخين ، استقدم بعضهم من صقلية ومن بغداد ، وكانوا يعملون تحت إشراف المشارقة من حاشية الخليفة لاغناء مكتبته التي كانت تحتوى على النفائس ،

(٧٤) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٦٠

(٧٥) المقري ، نفح الطيب جـ ٤ ص ٧٥ - ٧٦

(٧٦) بالنثيا ، المصدر نفسه ص ٤

(٧٧) المغرب في حلى المغرب جـ ١ ص ٤٥

(٧٨) ن . م . ص ٤٥

حيث ضمت حوالي أربعمائة الف مجلد ، اغلبها كتب المشارقة (٧٩) وترد تفاصيل مفيدة عن الدور الذي قام به الحكم المستنصر في انشاء المكتبة الأموية الكبرى (٨٠) بالقصر الأميري ، وهي أعظم مكتبات قرطبة (٨١) حتى ان ابن حيان ذكر بانه لم يسمع في الاسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين وايثارها والتهمم بها ، كما افاد على العلم ونوّه باهله ورغب الناس في طلبه ، ووصلت عطاياه وصلاته الى فقهاء الامصار النائية (٨٢) وقد جمع في داره ، الحُذّاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد ، حتى اجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم يكن لأحد من قبله ولا من بعده (٨٣) ويبدو ان اغلب الكتب المشرقية والمضبوطة التي تضمها هذه الخزائن هي التي أسهم في صناعتها الفنيون المشارقة ، حيث كان في مقدمة الوراقين الوافدين من المشرق « ظفر البغدادي » وهو من رؤساء الوراقين المعروفين بالضبط وحسن الخط ، وعباس بن عمرو الصقلي ، ويوسف البلوطي ومن في طبقتهما ، وكذلك ابو اليسر ابراهيم بن احمد الذي اشتهر ببراعة خطه وحسن وراقته ، فكتب بيده اكثر كتبه ، وكان قد تلقى معارفه في بغداد (٨٤) .

والى جانب هذه المكتبة ، فهناك سبعون مكتبة عامة في الاندلس ، حتى غدت العناية بالمكتبات ظاهرة عامة لدى الناس ، حيث كانوا يتبارون في جمع الكتب والمؤلفات والمصنفات ، وأصبح الحصول على الكتب المشرقية خاصة يشغل اهتمام الاندلسيين (٨٥) .

ومن المفيد ان نشير الى ما يذكره المقرى بهذا الصدد نقلا عن ابن حزم الاندلسي قائلا « اخبرني تليد الخصي ، الذي كان على خزانة الكتب والعلوم بدار بني مروان (ان عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب اربع واربعون فهرسا ، وفي كل فهرس عشرون ورقة ، واقام بنو مروان للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت اليها بضائعه من كل قطر » (٨٦) ويذكر هذا

---

(٧٩) المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٣٧١

(٨٠) لما تولى عبد الرحمن الناصر عمل على جمع مكتبات القصر وتنظيمها لتكون بداية للمكتبة الأموية التي اهتم بها عصره في جمعها وتنسيقها .

J . Ribera : Disertaciones y Opusculos) Madrid — 1928 P . 191 M 192

(٨١) عهد الحكم بإدارة المكتبة الى أخيه عبد العزيز ويساعده الفتى سابور الفارسي الذي اعتمد الحكم ليكون وصيفا خاصا له ، وكان من عليه عصره

Modesto Lafuente :Historia General de Espana , Tome , 111 , p . 337

(٨٢) محمد عبد الله عنان ، الدولة العامرية ونهاية الخلافة جـ ٢ من كتاب دولة الاسلام في الاندلس (مصر ، ١٩٥٨) ص ٢١ ، ٢٢

(٨٣) المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٣٦١

(٨٤) م . ن . جـ ٤ ص ١٠٥

(٨٥) الذهبي ، دول الاسلام (مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ١٣٦٤ هـ) جـ ١ ص ٤٠٤

(٨٦) نفح الطيب جـ ١ ص ٣٦١

المؤرخ نقلا عن ابن خلدون (انه لما وفد ابو علي القالي صاحب كتاب الامالي) من بغداد أكرم الأمير عبد الرحمن الاوسط مثواه وحسنت منزلته عنده واختص بابنه الحكم المستنصر واستفاد من علمه (٨٧) وكان الحكم يعينه على التأليف بواسع العطاء ، ويشرح صدره بالافراط في الاكرام (٨٨) .

ان الكتب التي حرص الحكم المستنصر على الحصول عليها من المشرق كثيرة ومنها كتاب « الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، فقد ارسل اليه ألف دينار من الذهب العين لكي يزوده بنسخة مكتوبة قبل ان تصدر في بغداد (٨٩) وغني عن البيان ما لهذا الكتاب من قيمة ادبية ولغوية ، حيث تبدت أهميته في سعي الاندلسيين الى استنساخه ونشره في بلاد الاندلس ، كما الف ابو الفرج الاصفهاني كتابا آخر لانساب بني امية وارسله الى الحكم المستنصر ، ونشر في الاندلس (٩٠) .

ومن الجدير بالذكر ان الحكم المستنصر قد فعل ذلك مع القاضي ابي بكر الابهري المالكي الذي استقدمه من المشرق واقام في دانية ثم قصد سرقسطة ، واستقر به المقام آخر الأمر في غرناطة (٩١) حيث قدم له شرح كتاب (المختصر لابن عبد الحكم) الذي قرأه اهل الاندلس وتداولوا نسخه التي كتبت هناك(٩٢) .

أما إرسال الأمير عبد الرحمن الاوسط للعالم الاندلسي المشهور عباس بن ناصح الجزيري (٩٣) الى المشرق الاسلامي للحصول على الكتب ، فقد ترك تأثيره في حركة العلوم العقلية في الاندلس ، حيث ان له بكتاب (السند هند) (٩٤) وهو يحتوي على مباحث في علم الفلك والفلسفة والمنطق . ويؤكد ابن سعيد المغربي بأن عباس بن ناصح الجزيري ٢٦٠ هـ « هو الذي ادخلها الاندلس وعرف اهلها بها

---

(٨٧) أمر ابنه ان يلتقي مع أبي علي القالي الى قرطبة [illegible] وفد من وجوه رعيته [illegible] ، [illegible] قرطبة في [illegible] [illegible] الأدب في طريقهم [illegible] (د . م . جـ١ ص٣٦٢ جـ١ ص ٧١

(٨٨) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص١٤٦ ، نفح الطيب جـ١ ص٣٦٢ . ويذكر ابن خلكان أن ابن القوطية القرطبي كان يبالغ في تعظيم ابي علي القالي واكثرا ما يفيد من علمه . (وفيات الاعيان جـ ٤ ص٣٦٩) .

(٨٩) المقري ، نفح الطيب جـ١ ص٣٦٢

(٩٠) المقري ، نفح الطيب ص٣٦٢

(٩١) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص١٠٧ ، ١٠٨

(٩٢) المقري ، المصدر نفسه ص٣٦٢

(٩٣) [illegible] الاندلسي [illegible] ، وكان من أهل العلم بالعربية واللغة والشعر [illegible] في الفقه والرواية ، [illegible] الى مصر [illegible] الى الحجاز [illegible] العرب [illegible] بالعراق [illegible] ابي نواس [illegible] الى الأندلس (جلال الدين السيوطي بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة جـ٢ (الطبعة الاولى ، عيسى البابي الحلبي وشركاه) ص٤٨

(٩٤) [illegible] الكلمة [illegible] السنسكريتية ([illegible]) ، [illegible]

ونظر هو فيها (٩٥) واطلع علماء الاندلس على هذا الكتاب ونظروا فيه وتأملوه واعتمدوه في مؤلفاتهم وخاصة في علم الفلك والرياضيات والفلسفة والمنطق ، وبذلك تتجلى التأثيرات التي يتركها كتاب (السند الهند) الذي كان مقسما على جزأين ، أحدهما في بحث الازياج (٩٦) (الجداول) والآخر في رسائل هذه الجداول فيما اقدم عليه ابو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي ٣٩٤ هـ/١٠٠٤ م العالم الفلكي الاندلسي (٩٧) وتلامذته (٩٨) ، تأليف الازياج وفقا للمبادىء والافكار التي جاءت في هذا الكتاب المشرقي (٩٩) ، كما كتب العالم ابو القاسم اصبغ بن محمد بن عبد الله (١٠٠) الذي كان قد رحل الى المشرق فسمع بمكة والكوفة (١٠١) الأزياج والاطارح (١٠٢) والرسائل (١٠٣) متأثرا بهذا الكتاب ، وكذلك ابو ابراهيم بن يحيى النقاش بن زرقالى العالم الفلكي المشهور (١٠٤) الذي وضع الجداول الفلكية واسطرلابا واجهزة دقيقة مثل (الزرقالية) و (الصفيحة) التي كانت

(٩٥) المغرب في حلى المغرب ، جـ ١ ص [illegible]

(٩٦) الزيج ، كتاب يعرف منه سير الكواكب ومنه يستخرج التقويم أي حساب الكواكب لسنة وأخرى (ابراهيم مصطفى ، احمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر ، المعجم الوسيط ، المكتبة العلمية ـ طهران) جـ ١ ص ٤١٠ .

(٩٧) ومن كتبه « رسالة الاسطرلاب » و [illegible] علم العدد ، وملخص لزيج البتاني [illegible] الكواكب ، كما [illegible] ترجمة لكتاب [illegible] الفلك Planisphaerio، [illegible] (بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٤٤٨) ، كما اصلح الزيج الذي وضعه محمد بن احمد الخوارزمي وغير من أصل المشرق اسم[illegible] الاندلس .

(٩٨) ومن هؤلاء التلامذة أبو القاسم اصبغ بن محمد المهري ٤٢٦ هـ/١٠٣٤ م من أهل غرناطة الذي كان متقدما في علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم (ابن حيان القرطبي المقتبس من ابناء اهل الأندلس (تحقيق د . محمود علي مكي ، بيروت ١٩٧٣) ص ٢١٢ وابن الصفار ابو القاسم احمد بن عبد الله بن عمر الذي عمل زيجا مختصرا على مذهب السند هند) . (بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٤٤٩) .

(٩٩) صاعد الاندلسي ، طبقات الأمم (مطبعة السعادة ـ القاهرة) ص ١٠٧ .

(١٠٠) الحميدي ، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس (تحقيق محمد تاويت الطنجي القاهرة ـ ١٩٥١) ص ٣١٢ ، السيوطي ، بغية الوعاة ص ٤٤٩ .

(١٠١) ابن الفرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلم في الاندلس جـ ١ ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨ .

(١٠٢) الأطروحة ، ما يطرح المسألة تطرحها للنظر والبحث ، الجمع أطارح (ابراهيم مصطفى وزملاؤه المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٥٥٩) .

(١٠٣) الرسالة ، ما حمله الرسول ، والجمع رسائل ، ورسيل الرجل الذي معه في نضال أو نحوه (ابن دريد ، كتاب جمهرة اللغة ، دار صادر ، مؤسسة الحلبي وشركاه ، القاهرة الطبعة الاولى) جـ ٢ ص ٣٣٥ .

(١٠٤) كما أنه وضع مع ابن صاعد [illegible] جداول طليطلة المعروفة بالزيج الطليطلي واخترع اسطرلابا سمي باسمه Azrachel ويعتبر من أعظم اهل الفلك من العرب إطلاقا .

تسمى في اوربا ، وابتكر في علم الفلك نظريات جديدة عن الكواكب السيارة والحركات الدائرية للنجوم (١٠٥) اعتمادا على كتاب (السند وهند) (١٠٦) .

اما فيما يتعلق بالفلسفة ، فلدينا ما يشير الى ان تاريخ الفكر الفلسفي في بلاد الاندلس هو صورة مطابقة لما كانت عليه الثقافة الاسلامية المشرقية دون ان تكون له بالتراث المحلي صلة حقيقية يقوم عليها الدليل (١٠٧) وانه خلال العصور الاسلامية الاولى في هذه البلاد لم تكن سوى آراء غامضة في البحث عن الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وفي اصول التفكير الفلسفي ، ولا بد من القول ، ان الفلسفة لم تدخل هذه البلاد كعلم قائم بذاته وانما ، وصلت اليها من المشرق في صحبة العلوم النظرية والتطبيقية ، مثل علم الفلك والرياضيات والطب ، أو أنها ، كما افاد بعضهم ، قد تسربت اليها في ثنايا الاعتزال وبعض المذاهب الدينية (١٠٨) .

وأشار أحد الباحثين الى ان تاريخ الفكر الفلسفي الاندلسي هو اقتباس أمين عن الثقافة الاسلامية المشرقية وبدون اية روابط ايجابية تذكر . وقد برهن على ذلك من خلال التقاليد المحلية التي كانت تفصح عنها هذه البلاد (١٠٩) .

ولكن بحلول القرن الرابع الهجري نبغ محمد ابن عبد الله بن مسره القرطبي (١١٠) فيلسوف قرطبة الأول ، الذي اتقن دراسته على يد المشارقة ، حيث رحل الى المشرق فكان مذهبه يجمع بين التصوف والاعتزال ، ففي الاعتزال كان يقول بالاستطاعة والوعد والوعيد ونفي رؤية الله وهي آراء تتفق مع آراء المشارقة . وقد تأثر بابن مسرة كل من ابن حزم الاندلسي (١١١) وصاعد بن احمد عبد

(١٠٥) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٤٥١

(١٠٦) ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ص ٤٥ - ٤٦

(١٠٧) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٣٣٢ .

(١٠٨) م . ن ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(١٠٩) ليفي بروفنسال ، حضارة العرب في الاندلس (ترجمة ذوقان قرقوط ، بيروت) ص ٦٢

(١١٠) خرج من الاندلس فارا بعد أن اتهم بالزندقة ودخل المشرق واتصل بطائفة اهل الجدل واصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم انصرف الى الاندلس واظهر نسكا وورعا واغتر الناس بظاهره فاختلفوا اليه وسمعوا منه (ابن الفرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس جـ ٢ ص ٤١) .

(١١١) وهو ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم ، ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ هـ وكان حافظا لعلوم الحديث وفقهه مستنبطا للاحكام ومعروف بالجدل والمناظرة (انظر ترجمته : الحميدي جذوة المقتبس ص ٢٩٠ - ٢٩٣ ياقوت معجم الادباء جـ ٢ ، ص ٢٣٥ ابن خلكان وفيات الاعيان جـ ١ ص ٣٤٠ - ٣٤٢

الرحمن بن صاعد الطليطلي ٤٦٢ هـ (١١٢) وعدد كبير من الاندلسيين ممن اخذوا عنه وتتلمذوا عليه ، ويورد بالنثيا قائمة باسمائهم (١١٣) .

والى جانب ذلك فقد ظهر فلاسفة آخرون اخذوا عن المشارقة ، منهم ابن باجه ٥٢٣ هـ وهو من مدينة سرقسطه ومن شراح فلسفة ارسطو ، وابن طفيل ٥٨١ هـ وكتابه (حي بن يقظان) من أحسن ما تفخر به الفلسفة العربية ، وكان قد تأثر بفلاسفة المشرق الذين تناولوا هذا الموضوع ، وابن رشد ٥٩٥ هـ الذي يعتبر من أعظم شراح كتب ارسطو ، وقد عرف بالشارح ، وميز بين آراء ارسطو وافلاطون ، ونبذ كثيرا من آرائهما التي لا تتفق مع الدين ، وفي علم الكلام ظهر كتاب (الدليل في الطريق من أوقاويل اهل التحقيق) (١١٤) لعبد اللطيف بن ابي الطاهر بن هبة الله الهاشمي (١١٥) وهو من أهل بغداد دخل الاندلس ونشر علومه فيها . وقد أثار هذا الكتاب اهتماما واسع النطاق في الاندلس ، وخاصة في مدينة غرناطة ، كما كان ابو البركات عمر بن مودود الفارسي التجاري من أهل التصوف والتحقق بعلم الكلام في مدينة قرطبة في نهاية القرن الخامس الهجري (١١٦) ويبدو تأثير ابي المكارم هبة الله بن الحسين في أوساط المهتمين في الأندلس واضحا في أصول علم المنطق ، حيث تتلمذ على يديه بعض من أهل اشبيليه سنة ٥٧٩هـ (١١٧) كما الف ابو محمد بن احمد بن حزم الاندلسي كتابا في المنطق اسماه (التقريب لحد المنطق والمدخل اليه) وجعله بالفاظ أهل العلم لا بالفاظ أهل الفلسفة ، متخذا أمثلته فيه من الامثلة الفقهية (١١٨) وهو المنحى الذي كان يتجه اليه المشارقة ويفضلونه .

(١١٢) ابو القاسم الطليطلي سكن قرطبة وكان تلميذا لابن حزم ، له كتاب « طبقات الامم » وهو موجز للتاريخ البشري . وقد بين آراءه الفلسفية على آراء فيلون السكندري وافلاطون لا نية وقليس ومن تلاميذه الياس بن يوسف الطليطلي .

(١١٣) ومن بين أولئك التلاميذ حي بن عبد الملك القرطبي واحمد بن سليمان الملكي واحمد بن فرج بن عقيل بن ليس وغيرهم كثيرون (وتاريخ الفكر الاندلسي ص ٣٢٨)

(١١٤) ابن حزم الاندلسي ، جمهرة أنساب العرب (تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مصر ١٩٦٢) ص ٩

(١١٥) المقري ، نفح الطيب جـ ٤ ص ٩٥

(١١٦) ن . م ، ص ١٤٠ - ١٤١

(١١٧) المقري ، نفح الطيب جـ ٤ ص ١٤١

(١١٨) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ص ٩

أما نشوء المدرسة التاريخية العربية الاندلسية وتطورها ، فيمكن القول باطمئنان انها تمت على يد المؤرخين المشارقة ، فأول مؤرخ لهذه البلاد هو عبدالملك بن حبيب ١٧٩ ـ ٢٣٨هـ ، الذي رحل الى المشرق وتردد على مجالس العلم في مدنه المختلفة ، وأصاب في الاندلس بعد عودته شهرة واسعة ، حتى لقبه الناس بـ (عالم الاندلس) واستقر في مدينة قرطبة ، وفي مسجدها الجامع كان يعقد حلقات دروسه [١١٩] وانتهج في كتابه تاريخ الاندلس منهجا مشرقيا ، وكان كتابه في التاريخ الموسوم (كتاب في ابتداء خلق الدنيا وذكر ما خلق فيها من ابتداء خلق السموات وخلق البحار والجبال . . . الخ) [١٢٠] يمثل خطوة رائدة في علم التاريخ حيث جعل فيها تاريخ العالم مقدمة لتاريخ الاندلس ، وهو اقدم مؤلف لمؤرخ اندلسي عن تاريخ هذه البلاد . وقد نقل عن شيوخه المصريين ، كما اعتمد كذلك على ما كان يتناقله الاندلسيون في أيامه من روايات في شأن افتتاح الاندلس [١٢١] وفي أوائل القرن الثالث الهجري ، ظهر المؤرخ محمد بن موسى الرازي ، وهو مشرقي الاصل من مدينة الري ، وقد وفد الى الاندلس سنة ٢٤١هـ واستوطن قرطبة ، وأهم مؤلفاته كتاب (الرايات) الذي نحا فيه منحى المشارقة ، وقد خلفه ابنه احمد بن محمد الذي لقب (بالتاريخي) لكثرة اشتغاله بالتاريخ [١٢٢] .

ولكن تجلت التأثيرات التي تركها المشرق الاسلامي في هذا الجانب بظهور أعظم مؤرخ انجبته الاندلس ، وهو حيان بن خلف بن

(١١٩) وكان الى جانب ذلك نحويا عروضيا وشاعرا حافظا للأخبار متصرفا في فنون العلم . وله مؤلفات كثيرة في علوم الطب والفلك والانساب والفقه . (كتاب أثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية، الفصل السابع ، الدكتور جلال الدين القبال ص ٣٧٠ ، ٣٧١)

(١٢٠) توجد منه نسخة مخطوطة في المكتبة البودلية بأوكسفورد

ms , marsh ,288 , Bodleian Library , Oxford

(١٢١) المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٣٧

(١٢٢) ومن مؤلفاته :

١ ـ اخبار ملوك الاندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم

٢ ـ كتاب في أنساب مشاهير اهل الاندلس في خمسة مجلدات

٣ ـ كتاب في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان فيها .

٤ ـ كتاب من كبار الولاة الاندلسيين

حسين بن وهب القرطبي ، الذي وصف بصاحب لواء التاريخ بالأندلس ، فكان أفصح الناس فيه وأحسنهم نظما له (١٢٣) ومن كتبه (المقتبس من أبناء أهل الاندلس) وقد وصفه ابن حزم الاندلسي واثنى عليه (١٢٤) وكذلك ابن سعيد المغربي (١٢٥) والكتاب الآخر « المتين » الذي ذكره ابن خلكان ، وهو يقع في ستين مجلدا (١٢٦) . وهناك طائفة من مؤرخي الاندلس ، كتبوا مختصرات لتاريخ محمد بن جرير الطبري ٣١٠هـ ، فذكروا اخبار المشرق عنه وأضافوا اليه اخبار المغرب والاندلس ، مثل عريب بن سعد ٣٦٩هـ الذي كان من أصل نصراني ثم استعرب ، واحمد بن محمد بن سعيد بن الجسور ٣١٩هـ (١٢٧) وكان تلميذا لقاسم بن اصبغ الذي برع في الوثائق والاحكام ، ويوسف بن محمد بن سليمان الهمداني الذي عني هو الآخر بكتب محمد بن جرير الطبري ، فكتب تفسيرا للقرآن وتاريخ الملوك ، والذيل وهو كتاب العلماء ، وكتاب (بعض تهذيب الآثار) وكتاب (اختلاف العلماء) (١٢٨) .

وفي حقل الجغرافية يمكن الاشارة الى جهود الرحالة ابي محمد تاج الدين عبدالله بن حمويه السرخسي ٥٩٣هـ الذي استقر في الاندلس بعد رحلة زار خلالها المشرق واطلع على أحواله ، وكتب في رحلته قائلا (فحدث باعث يدعو الى الحركات والاسفار ومشاهدة الغرائب في النواحي والاقطار) (١٢٩) ومن مصنفاته كتاب « المسالك والممالك » ، وهو كتاب جغرافي ترك صدى واسع النطاق في الأوساط العلمية في الأندلس . كما لابد لنا أن نشير الى ظهور الجغرافي الاندلسي الكبير ابي عبيدة بن ابي مصعب البكري ٤٨٧ والذي أفاد من الجغرافيين المشارقة مثل اليعقوبي ٢٨٤هـ

---

(١٢٣) ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٢١٨

(١٢٤) يقول عنه بانه كتاب التاريخ الكبير في اخبار اهل الاندلس ، وهو نحو عشرة اسفار من أجلّ ما ألف في هذا المعنى (المقري ، نفح الطيب جـ ٤ ص ١٦٧)

(١٢٥) وكان يشتمل على النص الذي أورده ابن حزم فيقول ، وقد ذكر ابن حزم كتاب المقتبس وهو في عشرة مجلدات (ن . م . ص ١٧٢)

(١٢٦) وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٢١٨ . ويقول عنه ابن سعيد المغربي ، وكتاب ابن حيان الكبير المعروف بالمتين في نحو ستين مجلدا يذكر فيها اخبار عصره ويلمس ما شاهده (المقري ، نفح الطيب جـ ٤ ص ١٧٦)

(١٢٧) الضبي ، بغية الملتمس في رجال أهل الاندلس (طبع في مدينة مجريط ١٨٨٣) ص ١١٦

(١٢٨) ابن الفرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس ص ٢٠٦

(١٢٩) المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٩٩

احمد بن جعفر بن واضح في كتابه (البلدان) وابن خرداذبة (٣٠٠هـ) عبيدالله بن احمد في كتابه (المسالك والممالك) وابن رسته ٣٢٢هـ واحمد بن عمر في كتابه (الاعلاق النفيسة) والاصطخري ٣٤١هـ ابراهيم بن محمد الفارسي الكرخي في كتابه (صورة الأقاليم) و(مسالك الممالك) وابن حوقل ٣٦٧هـ ابي القاسم النصيبي في كتابه (صورة الارض) فقد تأثر بهم عندما وضع كتابه (المسالك والممالك) الذي تناول فيه جغرافية العالم واتبع المنهج التاريخي الجغرافي المشرقي ، كما وضع (معجم مااستعجم) وهو قاموس جغرافي للبلاد التي جاء ذكرها في أشعار العرب . أما الرحالة ابن جبير ٤١٦هـ محمد بن احمد الكناني في الاندلس البلنسي فانه اكثر الجغرافيين الاندلسيين تأثرا بالمشرق وبافكاره ، فقد قام بثلاث رحلات اهمها الرحلة الى المشرق حيث زار بغداد والكوفة والموصل وخراسان ودمشق ، واطلع على معالمها الثقافية والعلمية ، واكتسب خلال رحلاته هذه كثيرا من المعارف ، وسجل انطباعاته وما شاهده ، فكان لذلك اثره في ظهور أدب الرحلات في بلاد الاندلس ، ثم ظهر بعد ذلك الجغرافي الاندلسي علي بن سعيد المغربي ٦٨٥ هـ ونورالدين الغرناطي متأثرا بأساتذته المشارقة ، بعد أن جال في الديار المصرية والعراق والشام فجمع وصنف كتابه (المغرب في حلي المغرب) (١٣٠) وكتابه الأخر (بسط الارض في الطول والعرض) كما وضع مختصرا لجغرافية بطليموس (١٣١) ونقل ابن سعيد عن الادريسي ، واعتمد على مؤلفاته البلدانية (١٣٢) .

أما على نطاق العلوم العقلية او النقلية ، وهي العلوم التطبيقية او التجريبية ، فقد أسهم بعض علماء المشارقة بنقل تراث الشرق الى الاندلس ، فالمشارقة كما هو معروف هم أصحاب الفضل الأول في وضع الطريقة العلمية والمنهج التجريبي في العلوم العقلية ، ويشهد على ذلك رسوخ قدمهم في العلوم والمعارف بصورة عامة . وفي علم الحساب ينبغي أن نشير الى علي بن محمد الانطاكي التميمي نزيل الاندلس الذي كان بصيرا بعلم الحساب حيث (ادخل للاندلس علما جمًا فيه)

---

(١٣٠) ويتصل في جغرافية الاندلس ، وخصائصها وفضائلها ويقع في خمسة عشر مجلدا ، وكان المؤرخون يكثرون من النقل عنه ، بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٢٤٤ .

(١٣١) ونقل عن هذا الجغرافي كل من أبي الفدا والمقريزي وابن خلدون وابن خلكان والمقري (ن . م . ص ٢٤٨)

(١٣٢) ومن الجهة الأخرى فقد اورثت المدرسة الجغرافية الاندلسية اعمالا لدى المشارقة في القرنين السابع والثامن الهجريين ، فقد عرف ياقوت شهاب الدين الرومي البغدادي في اخراج كتابه المشهور ، معجم البلدان ، وابو عبد الله محمد الانصاري الدمشقي المعروف بشيخ الربوة في تصنيف كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) على هذه المدرسة وما جادت بها من افكار وموضوعات في مجال جغرافية البلدان (بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٢٤٩)

(١٣٣) ومن المرجح جدا انه تأثر بالعالم المشرقي الكبير محمد بن موسى الخوارزمي الذي يرجع اليه الفضل في وضع علم الحساب عند المسلمين عموما ، اذ كان كتابه في هذا العلم ، الاول من نوعه ، من حيث الترتيب والتبويب والمادة ، وقد اصبح مرجعا اعتمده العلماء الحاسبون (١٣٤) كما ان كتابه (الجبر والمقابلة) هو الآخر يعتبر مصدر استقى منه العلماء في الشرق والغرب على السواء . ويذكر ابن الفرضي ، ان مسلم بن احمد بن ابي عبيدة الليثي المعروف بصاحب القبلة ، وهو من اهل قرطبة ، كان قد رحل الى المشرق (وكان عالما بالحساب والنجوم) (١٣٥) واخذ منه بعض اهل الاندلس وترددوا عليه وتوفر على حل ما اشكل في هذا المضمار . اما علي بن محمد بن علي القرشي القلصادي ، الذي كان عالما بالحساب فقد انصرف بعد عودته من المشرق واستقراره في مدينة غرناطة ، الى تقديم المزيد من المؤلفات والآثار في علم الحساب ومنها كتاب (كشف الجلباب في الحساب) وكتاب (القانون في الحساب) وكتاب (التبصرة في علم الحساب) وكتاب (كشف الاسرار في علم الغبار) (١٣٦) حيث اقبل الناس عليها وتوسعوا فيها .

ونتيجة لتأثيرات المشرق ، ظهرت الى الوجود المدرسة العلمية في الرياضيات والفلك ، التي كان يقودها ابو القاسم مسلمة بن احمد المعروف بالمجريطي ٣٩٤ هـ/١١٠٤ م الرياضي الفلكي المشهور ، التي نشطت في نقل (رسائل اخوان الصفا) الى الاندلس (١٣٧) وهذه الرسائل هي للجمعية العلمية العربية التي نشأت في البصرة في القرن الرابع الهجري ، ولها فرع في بغداد ، وعملت بصورة سرية واشتهرت بالآراء العلمية الحرة (١٣٨) وقد قام الطبيب

---

(١٣٣) المقري ، نفح الطيب جـ ٤ ص ١١٠

(١٣٤) وفي علم الحساب فرقة معروفة باسم الغوريثمي (Algorithm) نسبة الى محمد بن موسى الخوارزمي

(١٣٥) تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس جـ ٢ ص ١٢٥ ـ ١٢٦

(١٣٦) السخاوي ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع جـ ٦ (القاهرة ـ ١٣٥٤ هـ) ص ١٤ ، اسماعيل البغدادي ، هدية العارفين ([illegible] ١٩٥٥) ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ ، بالنثيا تاريخ الفكر الاندلسي ص ٥٥٣ ـ ٥٥٥

(١٣٧) بالنثيا ، المصدر نفسه ص ٣٣٣

(١٣٨) وقد جمعت بين سرية الشرقة [illegible] والمذاهب [illegible] رسالة [illegible] رياضية تعليمية [illegible] ، [illegible] وعلم الفلك والرياضيات ، [illegible]
(د . عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء [illegible] ص ٦٩ ـ ٧٤)

الفيلسوف ابو الحكم عمرو بن عبد الرحمن بن احمد بن علي الكرماني ٤٨٥ هـ بنشر هذه الرسائل في مدينة سرقسطة ، ويذكر صاعد بن احمد الاندلسي بهذا الخصوص قائلا « إن الكرماني من أهل قرطبة واحد الراسخين في علم العدد والهندسة ، رحل الى ديار المشرق وانتهى منها الى حران من بلاد الجزيرة وعني هناك بعلم الهندسة والطب واتقنه ، ثم رجع الى بلاد الاندلس واستوطن مدينة سرقسطة وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل اخوان الصفا ، لانعلم احدا ادخلها الاندلس قبله » (١٣٩) ويذهب بالنثيا الى القول انه « بدخول رسائل اخوان الصفا الى الاندلس ، تكون قد دخلت فلسفة افلاطونية حديثة بالاضافة الى ما جاء به الفلاسفة الاندلسيون الآخرون » (١٤٠) .

وقامت في الاندلس الى جانب ذلك نهضة طبية تطورت على غرار طب المشرق ، غير ان علماء الطب وكتبه ومشتغليه في الاندلس أولوا الجراحة الطبية عنايتهم الخاصة من دون فروع الطب الأخرى ، وقد غذى المشرق الاسلامي هذه بأفكاره ، فازدهر هذا العلم بين مسلمي الاندلس على يد الطبيب المشرقي يونس بن احمد الحراني (١٤١) الذي وفد من المشرق سنة ٢٣٧ هـ/٨٥٢ م وأخذ عنه كثيرون وتأثروا به ، ومنهم ابناه احمد وعمر ، حيث امتاز الاول بالخبرة في تحضير الادوية واشتهر الثاني بالكحالة . ويغلب على الظن بان عمر بن يونس ابن احمد الحراني علّم ابا القاسم خلف الزهراوي طريقة استخراج ماء العين (الكتاراكتا) بواسطة الابرة (١٤٢) .

واشار ابو القاسم صاعد بن احمد الاندلسي الى أن أحمد وعمر رحلا الى المشرق واقاما هناك عشرة أعوام ودخلا بغداد وقرآ فيها على ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الصابي ٢٨٦ هـ (١٤٣)

---

(١٣٩) طبقات الأمم (مطبعة السعادة مصر) ص ١٠٩

(١٤٠) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٣٣٢

(١٤١) ابن ابي اصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الاطباء (طبعة القاهرة ١٨٨٢) حـ ٢ ص ٤٢

(١٤٢) عرف الزهراوي بين اهل الشرق والغرب على السواء بالبراعة في الجراحة الطبية ، فقد عمل طبيبا في بلاط الامير عبد الرحمن الثالث وأجرى العمليات الجراحية واستعمل الآلات وكان كتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » اكبر تصانيفه واشهرها (ابن ابي اصيبعة المصدر نفسه (بيروت ١٩٦٥ ص ٥٠١) وهو موسوعة طبية تقع في ثلاثين جزءا ، نشر الجزء الثلاثون من كتابه باللاتينية باسم « الجراحة » Chirurgia وهو اهم كتاب في تاريخ الطب على الاطلاق ، حيث جعل الجراحة علما قائما بذاته مستقلا عن الطب (بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٤٦٦) واشار فيه الى اهمية الكي واستئصال السرطان ووصف الكسور والقلع واستخراج حصى المثانة بالشق والتفتيت .

(١٤٣) نبغ في الطب والرياضيات والفلك والفلسفة وكان من اعظم المترجمين في العالم الاسلامي آنذاك حيث ترجم كتبا كثيرة من علوم الاقدمين في الرياضيات والمنطق والطب (د . عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص ١٦٩)

كتب جالينوس ، ثم انصرفا الى الاندلس سنة ٣٥١ هـ/٩٦٢ م فاستخلصها الامير الحكم المستنصر لخدمته في الطب . وقد خلف احد في قرطبة آثارا نفيسة (١٤٤) واضاف ابن أبي أصيبعة أن أحمد بن يونس الحراني كان (عاقلا عالما بما شاهد علاجه رآه عيانا بالمشرق) (١٤٥) .

وأورث الطبيب محمد بن عبدون الجيلي علومه الطبية بلد الاندلس ، وكان قد رحل الى المشرق سنة ٣٤٧ هـ ودخل البصرة ومصر ودبر بيمارستانيها ومهر في الطب واحكم كثيرا من أصوله ، وكان شيخه فيه ابو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام الجستاني البغدادي ، ثم عاد الى الاندلس سنة ٣٦٠ هـ فخدم الامير الحكم المستنصر في الطب (١٤٦) اما ابو العباس احمد ابن محمد الملقب بابن الرومية من اهل اشبيلية فقد طاف بنواحي المشرق وسجل ملاحظاته ومشاهداته في رحلته ، وكان اول من درس النبات بطريقة مباشرة ، واستخلص انه ليس مجرد عشب يتداوى به بل موضوعا للدراسة والمعاينة ، وتأثر بدراساته ابن البيطار ٦٤٦ هـ ابو محمد عبد الله بن احمد الذي يعد اكبر علماء النبات في المشرق آنذاك (١٤٧) .

ويبدو ان جهود ابن البيطار مهدت لظهور أشهر الاطباء في هذه البلاد ومنهم ابو الوليد محمد بن رشد ٥٩٥ هـ بلغ الطب أوجه في عهده ، فقد جمع المشتغلون فيه بين الفلسفة والطب (١٤٨) .

وفي باب الموسيقى والغناء ، يجدر بنا ان نعالج التأثيرات التي أورثها الموسيقار المشرقي ابو الحسن علي بن نافع الملقب « زرياب » ٢٣٨ هـ/٨٥٢ م (١٤٩) في نقل التراث الموسيقي والغنائي وما يرافقها من التقاليد الحضارية المشرقية الى بلاد الاندلس . وكان زرياب قد وفد الى هذه البلاد سنة ٢٠٦ هـ

---

(١٤٤) طبقات الامم ص ١٢٤

(١٤٥) عيون الانباء في طبقات الاطباء جـ ٢ ص ٤٦

(١٤٦) صاعد الاندلسي ، طبقات الامم ص ١٢٤ - ١٢٥ ثم انظر بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٤٦١

(١٤٧) استوطن ابن البيطار اشبيلية ثم طلب الشرق ووصل الى مصر وأقام فيها ، ومن أهم مؤلفاته كتاب « الجامع في الادوية المفردة » و « الجامع لمفردات الادوية والاغذية » وكتاب « المغني في الادوية المفردة » ابن ابي اصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الاطباء ص ٦٠١ - ٦٠٢

(١٤٨) من كتب ابن رشد في الطب « الكليات في الطب » غير انه انصرف الى ترجمة كتب ارسطو وشروحها ، حتى سمي « الشارح » ، انظر : كتاب أثر العرب والاسلام في النهضة الاوروبية ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(١٤٩) ابن حيان القرطبي ، المقتبس من انباء اهل الاندلس ص ٣٦

فقربه الأمير عبد الرحمن بن الحكم وارتفعت مكانته لديه ، واشار ابن خلدون الى « قدوم زرياب على الحكم بن هشام فركب لتلقيه وبالغ في اكرامه واورث صناعة الغناء بالاندلس » (١٥٠) .

وكان زرياب الى جانب ذلك ، عالما بالنجوم وقسمة الأقاليم السبعة ، واختلاف طباعها واهويتها وتشعب بحارها وتصنيف بلادها وسكانها ، كما انه استطاع ان يحل الرموز الموسيقية في كتاب « المجسطي » لبطليموس . وكان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الاغاني بالحانها وهي المقطوعات التي ذكرها بطليموس (١٥١) واوجد زرياب مدرسة فنية استطاعت فيها الموسيقى الاندلسية ، التي كانت في البداية وثيقة الصلة بالمدرسة المشرقية ، ان تكتسب سمات الاصالة . كذلك يمكن ان يقال عن زرياب فيما عدا ذلك بانه مجدد اجتماعي صاحب ذوق رفيع ، ومن تجديداته التي اسندها المؤرخون اليه ، أنه علّم اهالي قرطبة آداب المائدة وفتح معهدا حقيقيا للجمال (١٥٢) .

ونبغ من أهل الاندلس موسيقيون صنعوا الحانا مبتكرة على الطريقة المشرقية ، ومن هؤلاء عبد الوهاب بن عبد الحسين بن جعفر الحاجب الذي كان يقيم مع أهله في بيته حفلات موسيقية ، وابو جعفر الوقشي الوزير الطليطلي الذي يبدو أنه اخترع عودا يختلف عن اعواد المشرق في الشكل (١٥٣) .

ومصابيح جارية الكاتب ابي حفص عمر بن قهليل ، اخذت الغناء عن زرياب (١٥٤) بالاضافة الى بنيه وبناته الذين مارسوا صناعة الغناء في طول بلاد الأندلس وعرضه (١٥٥) .

---

(١٥٠) العبر وديوان المبتدأ والخبر (منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت ـ ١٩٧١) جـ٤ ص ١٤٧ . وقال المقري « وزاد زرياب بالاندلس في اوتار عوده وترا خامسا اخترعه ، واخترع مضربات العود من قوادم النسر » نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب جـ٤ ص ١٢٢ .

(١٥١) المقري ، نفح الطيب ص ١٢٢

(١٥٢) ويضيف المقري « ان زرياب له جمع في عصابة ضروب الظرف [illegible] » المصدر نفسه ص ١٢٣

(١٥٣) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٥٥

(١٥٤) المقري ، المصدر نفسه ص ١٢٧

(١٥٥) ن . م . ص ١٢٥

وانتقلت تأثيرات المدرسة المشرقية في الترجمة والنقل ، الى الاندلس من بداية القرن الثالث الهجري ، وكان لمدرسة طليطلة ، دور مهم في نشر واذاعة العلم العربي في أوربا ، حيث اهتمت بنقل وترجمة العلوم الطبية والفلسفية والرياضية والجغرافية ، وذلك على غرار مدرسة بغداد التي عرفت ببيت الحكمة (١٥٦) فقد حلت حلوها فضمت مجموعة كبيرة من النساخ والمترجمين الذين اتقنوا عدة لغات ، وترجمت فيها كتب اليونان الكبرى مثل كتب افلاطون وارسطو في الفلسفة ، وابقراط وجالينوس في الطب ، واقليدس وارخميدس وبطليموس في الرياضيات (١٥٧) كما انها كانت تقوم بعملها المنظم في نقل ثمار العلوم الاسلامية الى اللغة اللاتينية التي كانت لغة العلم في سائر انحاء أوربا .

وكانت ترجمات كتاب « ديو سقوريدس » في الطب ، وهو مصور الحشائش بالتصوير العجيب قد دخلت الاندلس ، وكان الكتاب مكتوبا بالاغريقي الذي هو اليوناني (١٥٨) واهم هذه الترجمات ترجمة حنين بن اسحق العبادي (١٥٩) الى العربية ويبدو انها ترجمة مستقلة عن السريانية التي كان قد ترجمها اسطيفانوس بن باسيلوس تلميذ حنين بن اسحق عن الاغريقية (١٦٠) .

وظهر عدد من المترجمين الاندلسيين وهم متأثرون بهذه الترجمات ، وفيهم ابو يوسف حسداى بن اسحق بن عزرا بن شيروط ٣٥٩ هـ وزير عبد الرحمن الناصر ، الذي كانت له اهتمامات كبيرة في الطب والشعر والموسيقى ، وابو عثمان الجزار الملقب باليابسة ، ومحمد بن سعيد وعبد الرحمن بن اسحق بن الهيثم الصقلي ، وكان الأخير متضلعا باللغة اليونانية (١٦١) لقد احدث هؤلاء

---

(١٥٦) ابن النديم ، الفهرست (القاهرة) ص ١٥٩ ـ ١٦٠

(١٥٧) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء جـ ٦ ص ٢٥٩

(١٥٨) ن . م . ص ٤٦ (وهو ضمن الهدايا التي كان قد أرسلها الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع بسفارته الى الامير عبد الرحمن الناصر)

(١٥٩) وهو من اهل الحيرة تعلم العربية وسمع محاضرات ابن ماسويه في جند يسابور ثم تعلم الاغريقية وعاد الى البصرة واقام فيها ، ودرس العربية ثم انتقل الى بغداد واتقن الترجمة ، وعهد اليه الخليفة المأمون بادارة دار الحكمة وتخرج على يديه مترجمون عظام (راجع آل حنين ودورهم في الترجمة) حكمت نجيب عبد الرحمن ، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب (جامعة الموصل ـ ١٩٧٧) ص ٢٣ ـ ٣٦

(١٦٠) د . دي لاسي اوليري ، انتقال علوم الاغريق الى العرب (ترجمة متى بيثون ويحيى الثعالبي (ط ١ ، بغداد ـ ١٩٥٨) ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥

(١٦١) يبدو ان اهل الاندلس في تلك المدن لم يكونوا يعرفون الترجمة العربية لكتاب « ديو سقوريدس » التي صنعها اصطفن بن باسيل في عهد الخليفة العباسي المتوكل ، او الترجمة الأخرى التي انجزها حسان الناتلي لسنة ابن سينا سنة ٣٢٤ هـ (بالثا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ١٦٣)

نهضة في نقل كتب اليونان الى العربية ، أو اسهموا في ترجمة التراث العربي الاسلامي في العلم والادب والفن والفلسفة السياسية والاجتماع الى الاغريقية أو اليونانية .

ومن الجدير بالاشارة الى أنه امكن في هذه الفترة استنساخ في بعض مؤلفات الفكر اليوناني في العصور الكلاسيكية والهلنستية لحساب المراكز الثقافية ، وخاصة قرطبة وطليطلة ، عن طريق المشرق الاسلامي ، حيث ارسل الامير الحكم المستنصر رسله للتحري والحصول على نسخ عن ترجمات الآثار العلمية لبلاد فارس القديمة وبلاد اليونان ، وعمل على جلب اهم المؤلفات النادرة والمتعلقة بالعلوم القديمة والحديثة ، وخاصة العلوم الرياضية والطبية من بغداد ومصر وأماكن أخرى في المشرق ، وأوجد عددا كبيرا من الباحثين والناسخين ، واخذوا يتابعون تحرياتهم عن التآليف بمختلف اللغات في طول العالم الاسلامي وعرضه لنقلها الى العربية (١٦٢) .

ومهما يكن من أمر ، فان استقصاء التأثيرات التي أورثها المشرق الاسلامي في بلاد الاندلس كانت مفيدة وحاسمة لأنها أوضحت عن مدى صياغتها لنهضة حضارية واسعة ومتميزة لها خصائصها ومعاييرها وأسسها في جميع الميادين العلمية والثقافية والفكرية ، كما انها مهدت لظهور عدد كبير من العلماء الفقهاء والمعلمين والأطباء والفلاسفة العظام .

لقد تجلت لُنا نتائج هذه التأثيرات بوضوح ، وأصبحنا نتلمسها بسهولة وبدون عناء . فلولاها لم يكن لنا ما نقوله عن عوامل نضوج الفكر الأندلسي واستكماله بالصورة التي كان لها خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، بالطريقة التي دخل فيها هذا الفكر . اللذي تأصل في نهاية هذه الفترة الى أوروبا وتأثيراته هناك وحدوث عصر النهضة الأوروبية ، حيث كان عاملا مؤثرا من عواملها .

وأخيرا يصح لي القول ، عند ما اختتم هذا البحث ، وانا اردد لنفسي على الأقل بانه يمثل اضافة ذات قيمة لدراسات الاتصال الحضاري ، ومعالجة موضوعية لنتائج هذا الاتصال على النطاق الثقافي والفكري ، وذلك بهدف الوصول الى الحقيقة ، بوضع الحضارة العربية والاسلامية في المشرق العربي والاسلامي في اطارها الصحيح والمؤثر في أسس ومفاهيم الفكر الاندلسي ، إضافة الى ان هذا البحث ، يلقي بعض الضوء على حركة التاريخ الحضاري ، ويعين على التقييم السليم لأثر حضارة المشرق ومحاولة رسم أحدث صورة عن هذا التأثير من النواحي الفكرية .

---

(١٦٢) ليفي بروفنسال ، حضارة العرب في الاندلس ص ٦٣ - ٦٤ .

اهم مصادر البحث

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ (دار صادر دار بيروت ١٩٦٧)

ابن أبي اصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء (طبعة القاهرة ١٨٨٢)

آنخل جنثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي (ترجمة د . حسين مؤنس ط ١ ، القاهرة ١٩٥٥)

ابن الدبيثي ، ذيل تاريخ بغداد (الذيل على تاريخ ابن السمعاني)

د . دي لاسي اوليري ، انتقال علوم الاغريق الى العرب (ترجمة متى بيشارة ويحيى الثعالبي ط ١ ، بغداد ١٩٥٨)

الذهبي ، دول الاسلام (مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، الدكن ١٣٦٤ هـ)

الحميدي ، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس (تحقيق محمد تاويت الطنجي القاهرة ١٩٥١) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة (المنسوب لابن الفوطي ، طبع ببغداد د . مصطفى جواد)

ابن حيان القرطبي ، المقتبس من أنباء أهل الأندلس (تحقيق د . محمود علي مكي ، دار الكتاب العربي بيروت)

ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر (منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ١٩٧١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ١ القاهرة ١٣٦٧ هـ)

ابن حزم الأندلسي ، جمهرة أنساب العرب (تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مصر ١٩٦٢)

السخاوي ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (القاهرة ١٣٥٤ هـ)

ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب (تحقيق د . شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٥٥) السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (ط ١ عيسى البابي الحلبي وشركاه)

السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى (تحقيق محمود محمد الطناحي القاهرة ١٩٦٠)

ابن الساعي ، الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ج ٩ (تصحيح وتعليق د . مصطفى جواد ، بغداد ١٩٣٤)

كتاب أثر العرب والاسلام في النهضة الأوربية (الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠) ليفي بروفنسال ، حضارة العرب في الأندلس (ترجمة ذوقان قرقوط ، بيروت)

صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم (مطبعة السعادة ، القاهرة)

الضبي ، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس (المكتبة الأندلسية مجريط ١٨٨٤)

ابن الفرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلم في الأندلس (القاهرة ١٩٥٤)

ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب (تحقيق د . مصطفى جواد)

فرانز روزنثال ، علم التاريخ عند المسلمين (ترجمة د . صالح العلي ، بغداد ١٩٦٣)

د . عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه (دار المعارف بمصر ، ط ٩ ، ١٩٧٧)

ابن عبد ربه ، كتاب العقد الفريد (تحقيق احمد امين مع آخرين ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٦)

الغساني ، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك (تحقيق شاكر محمود عبد المنعم ، ١٩٧٠)

محمد عبد الله عنان ، الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية مصر ١٩٥٨)

المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (مطبعة السعادة ، مصر ١٩٤٩)

رضا عبد الجليل الطيار ، الدراسات اللغوية في الأندلس (العراق ١٩٨٠)

ياقوت ، معجم البلدان (دار صادر ، بيروت ١٩٥٧)

صدر حديثاً

ديكنز والعالم الخفي

حكايات الجان، الفنتازيا وصناعة الرواية

تأليف: هاري ستون

سمير البريري

يتربع تشارلز ديكنز ، وبحق ، على عرش الرواية الانجليزية ، وليس أدل على عظمته من شهرته على المستويين المحلي والعالمي ، وتمكنه في حياته من أن يجلب بفنه الروائي اهتمام الشعب البريطاني بمختلف طوائفه بدءا بالملكة فكتوريا ، التي كانت شغوفة بقراءة رواياته ، وحتى العوام . بيد ان ديكنز لم ينعم بهذه الحظوة من قبل جمهور القراء طويلا . فبعد وفاته عام ١٨٧٠ بدأ يفقد مكانته بالتدريج ، ومن بين الأسباب التي أدت الى ذلك ما قاله هنري جورج لويس (عشيق الروائية الشهيرة جورج اليوت وأحد جهابذة النقد الادبي في العصر الفكتوري) من أنه كان قد زار ديكنز ولم يجد على أرفف مكتبته كتبا لكبار الفلاسفة(١) ، وربما كان هدفه إعلاء شأن عشيقته على حساب ديكنز . وقد تضمن هذا التحول في النظرة لديكنز الادعاء انه كاتب ميلودرامي كاريكاتوري تتسم رواياته بالطرافة والاضحاك والتهريج ، وأن قيمتها الترفيهية تعلو على أية قيمة أخرى ، وانه تنقصه النظرة الجادة والعمق الفلسفي والاتقان الفني . وظل هذا المفهوم عن ديكنز سائدا حتى نهاية الثلث الأول من القرن العشرين ، وكان لهذا آثاره على استهانة كبار الروائيين في هذه الفترة من امثال فرجينيا وولف

---

(١) انظر .G. H. Lewis, "Dickens in Relation to Criticism", Fortnightly Review, xvii (Feb. 1872), 143—154

• Harry Stone, Dickens and the Invisible World Fairy Tales, Fantasy, and Novel — Making; PP: xii — 370. London, Macmillan, 1979 £12. 00.

Virginia Woolf و . إي . م . فورستر E.M. Forster بديكنز وحال ذلك بينهم وبين فهم طبيعة فنه فهما صحيحا . ولم يكن ينظر في رواياته الى المعاني المستترة والرموز واللبس وازدواج الدلالة واللعب بالالفاظ والتكرار ذي المغزى وتيار الوعي ومخابىء العقل الكامن والمجانسة بين المتناقضات التي غالبا ما يبحث عنها القارىء في روايات جيمز جويس[٢] James Joyee مثلا . وفي الحقيقة تتوفر كل هذه العناصر في روايات ديكنز ولفهمه يجب استيعابها كاملا . وتعد الفصول الافتتاحية في **ديفيد كوبرفيلد** وما بعدها من روايات لديكنز أقرب من التكنيك لقصيدة « الأرض الخراب » The Waste Land لاليوت ولرواية عولس Ulysses لجويس عن رواية إما Emma لجين أوستن مثلا . .

ولم يستعد ديكنز مكانته ولم تتغير هذه الصورة بأحكامها النقدية الجائرة الا بالجهود النقدية لناقدين شهيرين : إدموند ويلسون Edmund Wilson في امريكا وجورج اوروويل George Orwell (الروائي المعروف) في انجلترا[٣] عندما أعادا تقييم فنه الروائي ، وأكدا جديته والجانب المأساوي في رواياته ، وكشفا عن حسه الاجتماعي والنفسي الصادق . ثم توالت الدراسات التي اخذت تكشف تباعا عن مدى ثراء فنه[٤] ، ولست هنا بسبيل الخوض في هذا الموضوع وربما فعلت ذلك مستقبلا . والحقيقة ان هناك جانبين لديكنز : الهزلي والجاد ، شطحات الخيال والواقعي ، وتكمن مقدرته الفنية في توظيف الفنتازيا لتعميق الواقعية ، وكيف ان ذلك يؤدي الى فهم اعمق وأوسع للحياة من مجرد الواقعية البسيطة ، فلم تكن الفنتازيا مجرد زينة عقيمة بلا معنى ولكن شكلت رؤيته للمجتمع التي أراد أن ينقلها للقارىء .

وفي الكتاب الذي تعرض له يتناول المؤلف هذا الجانب من ديكنز ويبحث كيف وجدت حكايات الجان والفولكور والأحلام والخرافات والخوارق وغيرها من عناصر العالم الخفي طريقها الى خيال ديكنز ، وكيف أنها شكلت فنه

(٢) في بحث نشر حديثا للناقد Mark Spilka عن أوجه الشبه بين شخصيتا Leopold Bloom في رواية جويس Ulysses وشخصية Pickwick في رواية ديكنز The Pickwick Papers (Novel, xii, 1 (Fall, 1979), 121—146) يورد المؤلف ملاحظة مفادها أن جويس قد اعترف في احدى مقالاته بأن لديكنز أثر كبير في اللغة الانجليزية لايعدله في ذلك سوى شكسبير .

(٣) انظر : Edmund Wilson, "Dickens : the two Scrooges", (1939), collected in The Wound and the bow (Mifflin and Allen, 1941); George Orwell, "Charles Dickens" (1939), available in Critical Essays (Secker and Warburg, 1954) and elsewhere.

(٤) من اعلام الرواية الانجليزية الذين لاقوا نفس الحظ تقريبا جورج اليوت George Eliot (١٨١٩ ـ ١٨٨٠) ففي الفترة مابين بداية القرن العشرين وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية كانت قد فقدت المكانة التي احتلتها في حياتها وقد أعاد لها مكانتها ف . ر . ليفز F. R. Leavis في كتاب التراث العظيم The Great Tradition (١٩٤٨ ـ ٤٦) حيث عدها واحدة من بين القلائل الذين صنعوا تراث الرواية الانجليزية .

الروائي ، ومدى ارتباطها الوثيق بمعانيه الأساسية وواقعيته ، فديكنز كالساحر يخفي ليكشف . ويعد هذا أول كتاب يصدر عن الموضوع ، فرغم انه لم يغب عن أنظار النقاد السابقين من أمثال فورستر ، أول مؤرخ لحياة ديكنز ، عنصر الفنتازيا في الروايات الا انه لم يعط الدراسة الوافية ، وبقيت المعالجات السابقة لهذا الجانب بلا عمق أو شمول(*) .

وفي سبيل معالجته للموضوع يغطي المؤلف الخلفية التاريخية والمضامين الثقافية ومؤثرات الصبا وكيف تطور استخدام ديكنز للفنتازيا . وكان من الطبيعي ان يعرج على بعض النقاط ذات الصلة بالموضوع ومنها القصص الفوطي وأدب الاطفال ومسرح العرائس وغيرها من الفنون الشعبية . وقد تطرق المؤلف الى جميع روايات ديكنز ، وأخذ تسعا منها وحلل عنصر الفنتازيا منها بشيء من التفصيل : مذكرات بيكويك The Pickwick Papers ، اوليفر تويست Oliver Twist ، نيكلاس نيكلبي Nicholas Nickleby محل العاديات الاثرية The Old Curiosity Shop بارنابي ردج Barnaby Rudge مارتن تشزلويت Martin Chuzzlewit وكتب عيد الميلاد Christmas Books .

ويرى المؤلف ان ديكنز لم يبلغ درجة عالية من الاتقان الفني في استخدامه لعنصر الحكايات الا في دومبي وولده Dombey and Son ويبلغ القمة الفنية في ديفيد كوبرفيلد David Copperfield . وقد خص لكل رواية منها فصلا قائما بذاته ، كما أفرد الفصلين الآخرين لرواية آمال كبار Great Expectations مركزا على مهارة ديكنز في مزج الحقيقة بالخيال ، وكيف انه يضفي على الاحداث والوقائع اليومية الصبغة الخرافية لحكايات الجان ، وبذلك نجح ديكنز في ان يعطي الرواية الواقعية بعدا روحيا جديدا ، وان يعطي القارىء احساسا بفعل القوى اللامعقولة في مجريات الحياة اليومية . .

في الفصل الأول يمهد المؤلف لموضوعه بعرضه للأهمية البالغة التي كان ديكنز يعلقها على حكايات الجان في تربية النشء وذلك بسرد كيفية تحول الصداقة التي ربطته بجورج كروكشانك George Cruikshank الكاتب والرسام التوضيحي ، الى عداوة بعد ان اعتدى كروكشانك على ما اعتبره ديكنز حرمة حكايات الجان . ويتلخص الامر في ان جورج كروكشانك كان مدمنا للخمر في مقتبل عمره ثم تحول عنها حيث انها كانت السبب في موت والده وخشي ان يلقي هو نفس المصير . وبعد تحوله عنها اصبح داعية متعصبا للامتناع عن

(*) تناول ستيفن بريكيت روايات عيد الميلاد لديكنز في أحد فصول كتابه الفنتازيا الفكتورية التي نشر حديثا
Stephen Prickett, Victorian Fantasy; PP. xvi 257. Bloomington, Indiana U. P. 1979.

المسكرات وهاجم الخمر وشرورها في كل منتدى .. وفي احدى زياراته لديكنز جذب الكأس من يد احد الضيوف وحاول الاطاحة بها مما أثار الضيف عليه . ولم تكن الخمر من وجهة نظر ديكنز من اعداء البشرية الحقيقيين وتلك في نظره هي الجهل والفقر والاهمال والقسوة واليأس . وقد فكر كروكشانك في اعادة كتابة بعض تلك الحكايات وتزويدها برسوم توضيحية بقصد التهذيب والارشاد ، وبالفعل نشر إحداها متخذا منها وسيلة للحث عن الامتناع عن المسكرات ببيان ما لها من أثر كبير في احباط الآمال .. وقد اثار هذا غضب ديكنز الجم لما فيه من تلفيق وتنافر مع الخيال الابداعي وهو روح تلك الحكايات . وقد رد ديكنز على كروكشانك بمقال تحت عنوان « الاحتيال على حكايات الجان » (١٨٥٣) .. ومما جاء فيه « انه في عصر النفعية يصير الاهتمام بحكايات الجان امرا ذا أهمية بالغة . . . فاي أمة بدون خيال ، بدون رومانسية لا تستطيع ان تحتفظ بمكان سام تحت الشمس » وتدد ديكنز بكل من تسول له نفسه ان يغير هذه الحكايات بقصد طرح أفكار معينة ، فمن رأيه أن هذه الحكايات يجب ان تتناقلها الأجيال بأمانة ودون عبث . وكان لهذا المقال اثر في ازدياد شعور ديكنز باهميتها ، ومن المعروف انه كان ينادي دائما بنصيب أكبر من الخيال لا الحقائق للاطفال . ويصلح هذا النداء ان يكون عبارة استهلالية لرواية اوقات عصيبة Hard Times التي بدأ ديكنز كتابتها بعد أشهر قلائل من كتابته المقال . وفي الرواية قرأت سيسي جوب Sissy Jupe الكثير من تلك الحكايات : عن القزم والاحدب والجنيات ، مما أصاب غضب السيد جراد جرايند Grad-grind المواعظي .

وظل ديكنز طوال حياته يؤكد على الفائدة الجمة التي تعود على الطفل من قراءة تلك الحكايات وذلك في رسائله ومقالاته وأحاديثه ، وكان لها فضل كبير في إخصاب خياله وهو في مرحلة الطفولة . وكان يتذكر بمرارة كتب الحساب والهجاء وقواعد اللغة التي كانت تبعث في نفسه الملل وهو طفل ، وقد ضمّن روايته آمال كبار (الفصل ٢٢) عن مكنون الاسم فيليب وصديقنا المشترك (جزء ٢ فصل ١) Our Mutual Friend عن بغضه للصغيرة مارجري ، هذه المعاني . .

ويتناول الفصل الثاني الذي وضع له المؤلف عنوان « إرث حكايات الجان » الاتجاهات السائدة نحو تلك الحكايات في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، وما اعترى ادب الاطفال من تطور في هذه الحقبة . يستهل المؤلف الفصل بالقول أنه في سنة ١٨١٢ عام ميلاد ديكنز كان ادب الاطفال في حالة يرثى لها ، اذ كان يتكون اساسا من الحكايات التي ترمي الى ابراز المغازي الخلقية وكذلك الأناشيد التعليمية . أما الحكايات الحقيقية فقد ضرب بها عرض الحائط . ويعزى هذا للعداء الذي نصبه المتطهرون للأدب الماجن ، مما يفسر ندرة

الحكايات في القرن السابع عشر . وبحلول القرن الثامن عشر خف تأثير الحركة التطهيرية ولكن حل محلها اتجاه يحمل نفس العداء لتلك الحكايات ألا وهو الحركة العقلانية التي حكمت على تلك القصص العجيبة بانها ضرب من التفاهات . ويقال ان اللورد تشستر فيلد Chesterfield حذر ابنه بالتبني وابنه بالمعمودية ان يتجنبا حكايات الجان والرومانسيات وقصص العمالقة والسحرة وكل ما هو خرافي . ويمثل تحذير اللورد الاتجاه السائد في القرن الثامن عشر تجاه الحكايات ، وربما كان هذا هو السبب في هجوم ديكنز على اللورد ممثلا في شخصية سيرجون تشستر Sir John Chester الشرير في روايته بارنابي ردج Barnaby Rudge الذي ربى طفله بالتبني هيو Hugh كما لو كان حيوانا ، ويكاد ديكنز يقول من رسمه لتلك الشخصية ان هذا هو حال من لا خيال له . واعتبر العقلانيون ان الادب المناسب للاطفال هو ذلك الذي يعلمهم التصرف باسلوب سليم ، وكيفية ضبط العواطف وتجنب الاندفاع والتهور . وعليه رفضوا كل ما هو غير عقلاني وخيالي متجاهلين بذلك قدرات الاطفال وحياتهم العاطفية . ومن أشهر المؤلفات في هذا الصدد كتاب سانفورد ومرتون (١٧٨٣) لتوماس داي Sandford and Merton by Thomas Day والذي اعتبره ديكنز رائدا للخيال ، حيث ان كل حادثة من حياة الشخصيات استغلها المؤلف لبث الوعظ والارشاد . وفي سلسلة تلك الكتب القصصية المواعظية يذكر المؤلف طريق الحاج (١٦٧٨) The Pilgrim's Progress by Bunyan وهو اساسا لغير الاطفال ، وكتاب للاولاد والبنات (١٦٨٦) A Book For Boys and Girls لنفس المؤلف . وآخر لجيمس جينواي James Janeway عن مصير الاطفال الاشقياء . وتوالت الكتب من هذا النوع في الصدور في القرنين التاليين ومنها كتب مسز تريمر Mrs. Trimmer الشهيرة (في القرن الثامن عشر) التي ناصبت فيها العداء للفنتازيا وروائعة مسز شروود Mrs. Sherwood (في القرن التاسع عشر) تاريخ عائلة فيرتشايلد The History Of the Fairchild Family, being a Collection of Stories Calculated to Show the Importance and Effects of a Religious Education والتي لاقت رواجا على امتداد القرن لما فيها من تربية وتحذير للصغار . ولكل من بيب Pip في آمال كبار (الفصل ١٣) وآرثر كلينام Arthur Clennam في الصغيرة دوريت Little Dorrit (الفصل ٣) تجارب مع مثل هذه الكتب في طفولتهما . ولم تكن كل الكتب بهذه النوعية ، فكان قد صدر لاسحق واطس Isaac Watts في اوائل القرن الثامن عشر مجموعة من الاشعار تعليمية في جوهرها ولكن باسلوب ملطف ، وكان هذا بمثابة بداية لسلسلة

من كتب الاطفال قام بنشرها جون نيوبري John Newbery وآخرون ، جمعت بين الاسلوب التعليمي من ناحية والتسلية والمتعة من ناحية اخرى . ولم تحل هذه المجموعة محل الكتب التحذيرية السابقة التي بقيت الدعامة الرئيسية لأدب الاطفال ، ولكن وجدت طريقها لمكتبات بعض الأسر . وبجانب تلك ، كان الباعة الجائلون يوزعون الكتيبات الشعبية والنشرات بأسعار زهيدة ، وكانت تخاطب اطفال الريف الذين لم يكن لهم حظ التعليم على ايدي معلمين خصوصيين . وكان من بين ما تضمنته قصص الانجيل والمغامرات والجريمة وكتب التنكيت والقصص العاطفية وبعضا من حكايات الجان والرومانسيات والأناشيد وغيرها .

وكانت فرنسا قد سبقت انجلترا في العودة للاهتمام بحكايات الجان واتخذ هذا الاهتمام شكل تجميعها واعادة قصها . ومن الرواد في هذا المجال شارل بيرو Charles Perrault ومن بين ما جمعه حكاية الجمال الناعس Sleeping Beauty وسندريلا Cin-derella وذو اللحية الزرقاء (قاتل زوجاته) Bluebeard ولم ينس بيرو انه يعطي عنوان المختارات والتي صدرت في سنة ١٦٩٧ صبغة اخلاقية . وترجمت تلك المجموعة للانجليزية عام ١٧٢٩ ، وكانت قد سبقتها ترجمة لمجموعة اخرى لمدام دولوني Madame d'Aulony عام ١٦٩٩ . وسرعان ما ظهرت تلك الحكايات كل على حدة في طبعات رخيصة ووجدت طريقها لكل قرية ولكنها كانت ماتزال بعيدة عن ادب الاطفال المحترم . وفي صبا ديكنز كانت الحكايات الثلاث : **الجمال الناعس وسندريلا وذو اللحية الزرقاء** وقد اصبحت انجليزية تماما مثل **جاك قاتل العملاق Jack and the Giant Killer وتوم ثم (عقلة الاصبع) Tom Thumb وجاك وساق الفاصوليا Jack and the Beanstalk** .

ومن التطورات المرتبطة بأدب الاطفال أيضا صدور رواية روبنسون **كروسو (١٧١٩)** Robinson Crusoe بمغامراتها وعنصر التشويق فيها ، وسرعان ما ظهرت في شكل متقضب بثمن زهيد مما ساعد على انتشارها . وتلتها رحلات جلفر (١٧٢٦) Gulliver's Travels وهي وثيقة الصلة بحكايات الجان بما فيها من اقزام وعمالقة وحيوانات ناطقة وبلاد عجائب . وقد لاقت نفس الرواج . وكان لترجمة الف ليلة وليلة The Arabian Nights للفرنسية (١٧٠٤ - ١٧١٧) وهي أول ترجمة للحكايات بلغة غربية ، وتبعتها في نفس الوقت تقريبا ترجمة بالانجليزية عن النص الفرنسي كان لها أكبر الأثر في هذا التطور . وقد ظهرت بعض حكايات الليالي منفردة في طبعات شعبية كحكاية « علي بابا والأربعون حرامي » و « سندباد البحار » و « علاء الدين والمصباح السحري » وسرعان ما أصبحت أكثر الحكايات

المتداولة شعبية . وعن طريق ترجمة الليالي وذيوعها دخلت ادب الاطفال عناصر جديدة لم تكن موجودة من قبل ، كالفوانيس السحرية والجنيات ذات القوى الخارقة ، وقصور الجان ، والكنوز المهولة وفتيات الرقص و « الحرامية » والبنات المبرقعات والخطط المحكمة والتحول السحري . . . الخ . وربما يكون عالم الليالي قاسيا وحق وحشيا بعض الشيء ، ولكن فيه تغرد الطيور ويعشق الأحبة ويقع السحر . وكان الفارق واضحا بينها وبين الحكايات التعليمية . وقد افرزت « الف ليلة وليلة » سحرها على ديكنز كما أفرزته على كثيرين من قبله ومن معاصريه . وعدد المؤلف بعضا من هؤلاء الكتاب : بيرون Byron وساوثي South-ey ومور Moore وجونسون Johnson وبكفورد Beckford كما بين ان قرابة الليالي لحكايات الجان الغربية ليست بالامر الغريب فتلك الحكايات اصلها شرقي عتيق ، ويعزي انتشار الليالي في الغرب الى تلك القرابة . بيد انه على الرغم من شعبية الليالي لم تجد حكايات الجان طريقها لمعظم مكتبات الاطفال .

كما كانت هناك محاولات لنشر مختارات من الحكايات ففي سنة ١٨٠٤ نشرت مجموعة بعنوان قصص تابارت الشعبية Tabart's Popular Stories ضمّت بعضا من الليالي . كما اصدر سير ريتشارد فيليبس Richard Philips مجموعة اخرى تحت عنوان حكايات الجان الشعبية Popular Fairy Tales او المكتبة الليليبوتية Lil-liputian Library كما قام توماس كروكر Thomas Croker بجمع مجموعة اخرى . وترجمت مجموعة من الحكايات عن الألمانية لاقت نجاحا ووجدت طريقها لمكتبات الاطفال ، ومن بينها قصة سنو وايت Snow White وهانزل وجريتل Hansel and Gretel كما قام فيلكس سمرلي Felix Summerly بنشر مجموعة اخرى ، وكان من اهداف هذه المجموعة تنمية خيال وعواطف وتذوق الاطفال . والمهم هو انه في اربعينات وخمسينات القرن التاسع عشر كانت الحكايات قد رسخت نفسها في وجه التيار المعارض ، وبذلك بدأت تتحول النظرة اليها وتوالى في الاربعينات والخمسينات ظهور قصص الاطفال ومن بينها كتب عيد الميلاد الخمسة لديكنز وترجمة لمجموعة هانز كريستيان اندرسن Hans Christian Andersen وملك النهر الذهبي The King of the Gol-den River لرسكن Ruskin والوردة والخاتم The Rose and the Ring لثاكري Thackeray ويظهور مغامرات اليس في بلاد العجائب Alice,s Adven-tures in Wonderland للويس كارول Lewis Carroll (١٨٦٥) كانت فكرة ربط ادب الاطفال بالناحية التعليمية قد اندثرت تماما . وكان مقياس انتصار الخيال اخيرا هو شعبية قصص اندرسون وكارول . وترتبط رياح التغيير ايضا بالحركة الرومانتيكية التي صاحبها

اهتمام بالفولكلور والخرافة وموضوعات ما وراء الطبيعة وشعبية الليالي العربية والحكاية الشرقية عموما وظهور الادب القوطي ، بما فيه من اشباح وعمالقة وزنزانات وبنات مقهورات واوغاد وسحر . . . الخ . وأكدت الحركة الرومانتيكية على ان الطفل ليس رجلا مصغرا مشحونا بالخطايا والشرور بل سمته البراءة الطاهرة كما تشكله خبراته الاولى ، وهو ليس فاسدا بل ان المجتمع هو الذي يفسده . وهذه الفكرة عبر عنها الشاعر بليك Blake بعبارته « الحمل الصغير » وايضا وردزورث Wordsworth « بأفضل الفلاسفة » . ويمثل اوليفر تويست اليتيم مبدأ « الخير الذي يصمد في وجه الظروف القاسية » وأن ما يحتاجه الطفل هو الخيال والحرية والمتعة وليس الخوف والحقائق والقيود . . بيد ان الافكار الجديدة هذه كانت في نظر البعض تقدمية الى حد كبير .

وفي الفصل الثالث يتطرق المؤلف لموضوع ما للخرافة من اثر في اذكاء خيال ديكنز في صغره ، ويبين لنا ان ديكنز تعرف على عالم الحكايات حتى قبل ان يتعلم القراءة بواسطة مربيته ماري ويلر Mary Weller وجدته لابيه وكانتا مشهورتين بقصهن الحكايات الممتعة . وتكرر سماع ديكنز لهذه الحكايات مرات ومرات فكونت جزءا اساسيا من حياته الباكرة . . وقد جاءت ماري لتعمل مع الأسرة عندما كان في الخامسة ، وبقيت معها حتى بلغ الحادية عشرة . ورغم انها كانت في الثالثة عشرة من عمرها عندما بدأت العمل الا انه عهد لها بملاحظة الاطفال ، ويبدو انها كانت ناجحة في عملها ، فكان غرامها بالحكايات المروعة لا حد له ، وكان ديكنز لها صاغيا طبعا يرتعد من هول الحكايات ولكن يحرقه الشوق لسماع المزيد . . ومن بين القصص التي كانت تحكيها له « الكابتن القاتل » Captain Murderer و « تشيبس والشيطان » Chips and the Devil وهي تعج بالرعب والخوارق والاثارة ويوضح لنا ديكنز انه سمع كل هذه القصص قبل ان يبلغ السادسة من العمر وقد هزت أوتار طبيعته فزادت من حساسيته . وشكل عالم الحكايات الغريب الذي انبهر به جزءا هاما من نظرته في الحياة . ومن الملاحظ انه في الروايات وخاصة قصص عيد الميلاد اشارات واشارات لعديد من الحكايات ، كما ان الكثير من الاحداث في الروايات تعد امتدادا لمحتوى تلك الحكايات ، ومنها يورد المؤلف : نيل مستر دوريت ثروته في الصغيرة دوريت ، ودورمس بتسي كعرابة في ديفيد كوبرفيلد ، وتعاويذ نيكلاس السحرية في نيلاس نيكلبي ، وتحول سكروج الغريب في انشودة عيد الميلاد ، ودور الصغيرة نيل المهذىء في محل العاديات الاثرية ، وملجأ فلورنس المسحور في دومبي وولده وتنكر مستر بوفين الحميد في صديقنا المشترك وشيطانية كويلب في محل العاديات الاثرية ومهمة القتل المطلوبة لجوناس تشزلويت في مارتن تشزلويت وتجولات ديفيد المتسمة بالرعب في ديفيد

كوبرفيلد ، وسحر ريتشارد كارستون المؤذي في بليك هاوس ، وظهور ماجويتش من بين القبور في آمال كبار ومنزل مسز كليتام المسكون بالاشباح في الصغيرة دوريت ، وطريقة اكل مسزفولز الغولية في بليك هاوس . لقد استحضر ديكنز رؤى الطفولة في كتابة رواياته ومزجها بواقع الحياة اليومية . كما تعززت الصور التي كونها في مخيلته عن العرابة والحيوانات الناطقة والغول والتحول السحري تلك التي قابلها في حكايات ماري ويلر وجدته بقراءاته الاولى التي منها دخل عالم الحكايات الشعبية الفسيح . وكان من بين ما قرأه حكايات بيرو ومدام دولوني الفرنسية ومختارات من الف ليلة وليلة والحكايات الانجليزية ، وقد شجعه أبواه على قراءة تلك الحكايات ، كما شجعا المربية وجدته على المضي في حكاياتها . وربما كان انشغال أبويه عنه بأمور المعيشة مدعاة ايضا للاستغراق في القراءة التي غذت ونمت ذوقه وخياله . ولم يقتصر الامر على السماع والقراءة فقط بل امتد الى تلاوة اقوال حفظها أمام الاسرة . وقد انعكس ذلك بالطبع في رواياته فنجد مثلا ويلكنز ميكوبر Wilkins Micawber (وهو قريب الشبه بشخصية والد ديكنز) دائم التعليق على الاحداث باستشهادات حفظها . كما امتدت هوايات ديكنز لتشمل التمثيل والغناء المنزلي خاصة . كما يعود حبه للفكاهة والاثارة والمبالغة التي تظهر بجلاء في رواياته لتلك الايام الاولى من حياته .

ففي السابعة من عمره كان يقوم بتمثيل أدوار من مسرحيات قرأها من مختارات جمعتها السيدة انتشبولد Inchbald وزار في هذه السن المبكرة المسرح في لندن وشاهد المهرج جريمولدي Gri-maldi وهو يمثل ايمائيا ، كما شاهد على مسرح مدينة روشستر كل شيء من شكسبير الى تمثيليات ايمائية ومسرحيات هزلية . فكان ما شاهده ترجمة حية لما قرأه وحفظه وتخيله . وكانت التمثيليات الايمائية اقرب ما تكون لحكايات الجان فمعظمها مأخوذ عنها وخصوصا تلك التي كانت تقام في اعياد الميلاد . كما انها كانت تجمع كثيرا من عناصر الحكايات للاحداث السحرية ومناظر التحول وتحقيق الأماني . ولم يقتصر الامر على هذه وتلك فقط بل كان للمسرح اللعبة ، وهو مسرح عرائس مصغر من ورق بكامل الشخصيات والمناظر والذي ازدهر لفترة أيام صباه ، اثره البالغ على اخصاب خياله وقد اعطى هذه الفرصة لديكنز ان يمارس التمثيل والاخراج بنفسه وهو في سن العاشرة تقريبا ، وتحول مسرح العرائس هذا فيما بعد الى مسرحه القصصي الرحيب .

وفي القسم الثاني من الفصل يواصل المؤلف سرد المؤثرات على حياة ديكنز الباكرة فيوضح أن ديكنز كان في صغره ضعيف البنية ، رقيق الصحة وحال هذا بينه وبين الاشتراك في انشطة الصبا مما دفعه أكثر للمطالعة فملأ رأسه بالأحلام والرومانسيات . ويحكي انه كان يراقب الاطفال من نافذته وهم يلعبون في قناة

الكتيبة بينما هو يقرأ في سريره فكان بمثابة المشترك معهم والمراقب في نفس الوقت ، المنتمي واللامنتمي ، القريب والبعيد ، وازدواجية الرؤية هذه اساسية لكل فنان وبالتأكيد لديكنز . وتمتد تلك الازدواجية لتجمع المشرق والمظلم جنبا الى جنب فيه ، كما اوضح ذلك كارلايل في رسالة لفورستر في فبراير ١٨٧٤ . وتظهر هذه الازدواجية بجلاء في الروايات ، فاوليفر تويست بطل من اسرة طيبة ولص في نفس الوقت ، كما ان نيل الصغيرة ملاك وطريدة ، وفلورنس دومبي وريثة غنية وابنة غير محبوبة ، وديفيد كوبرفيلد ابن مدلل وطفل متشرد انهكه التجوال ، ومستر دوريت سيد مجتمعات ومن ارباب السجون ، كما ان بيب مهذب مهندم وصبي حداد ، وبرادلي هيدستون معلم محترم وقاتل ماكر ، ومستر جاسبر عضو في جوقة الكنيسة وعدواني يتعاطى الافيون . والمتتبع لطفولة ديكنز لا يجد غريبا ان يظل طوال حياته مهتما بموضوع العزلة والحرمان ، فلتحول امه عنه لرعاية جيش من الاخوة والاخوات ولصحته السقيمة وعزلته سبب رئيسي لانكبابه على القراءة . واهتم ديكنز حتى في صغره بقراءة روائع النثر القصصي التي كان الآباء يعتقدون بعدم صلاحيتها كمادة قراءة للأطفال . ولكن لم يكن الحال كذلك مع ديكنز ، فكان والده يهتم باقتناء تلك الروايات وكان يحتفظ بها في غرفة مجاورة لغرفة ديكنز ، ويعرفنا ديكنز على لسان ديفيد كوبرفيلد بهذه المجموعة من الكتب وعن مدى شغفه بقراءتها (الفصل ٤) وكان من بينها رحلات جليفر وطريق الحاج وفيليب كوارل Philip Quarll ومقالات اديسون Addison وستيل Steele وجونسون Johnson وجولد سميث Goldsmith . وقد ساهمت تلك المطالعات إسهاما بالغا في تشكيل خيال ديكنز وقدرته على الكتابة . فمذكرات بيكويك على سبيل المثال مبنية على مطالعاته في سرفانتس Cervantes وجولد سميث وفيلدنج Fielding وسمولت Smollett ففيها المجموعة المتجولة ونساء باحثات عن الرجال وصورة سجن المدانين وآثار دونكشوتية وسانكوبانزا Sancho Panza الوفي .

ويبقى للمؤلف ان يذكر الف ليلة وليلة وهي تعد بمثابة اهم كتاب قرأه ديكنز قبل بلوغه الثانية عشرة . وهناك اشارات واشارات للحكايات الشرقية أكثر من أي عمل خيالي آخر في رواياته ، وكما هو الحال عن كتبه المفضلة ظل ديكنز يعاود قراءة الليالي العربية طوال حياته . وقد اعترف في رسالة بانه كان من بين أكثر قرائها شغفا بها ورجوعا اليها باستمرار . ومن الملاحظ ان الليالي قد شكلت جزءا من مطالعات حتى الاطفال المحرومين في رواياته من أمثال سكروج ، كما خصص ديكنز اربع فقرات مطولة في « شجرة عيد الميلاد » للحكايات ذاتها (قصص عيد الميلاد ، الجزء الاول) كما ان ستير فورث جعل ديفيد يتبع نمط شهرزاد في قص

حكاياتها بأن يروي جزءا منها كل صباح وآخر كل ليلة (ديفيد كوبرفيلد ، الفصل ٧) . وعندما بدأ ديكنز يعمل في مستودع دهان تلميع الاحذية بعيدا عن كتبه ومسرح عرائسه تحول الى قص القصص لزملائه في العمل . كما انه كان قد تعود ان يشتري بعض المجلات الاسبوعية مثل « البورتفوليو Portfolio » و« سجل الرعب Terrific Register » بعد أن يتقاضى أجره كل سبت . وكانت من بين ما تحتويه موضوعات مثيرة على القتل والاعدام والكوارث والهروب والاحلام والخزعبلات والاشباح التي كان يجد في قراءتها متعة ما بعدها متعة . وفي ختام الفصل يوجز المؤلف ما جاء به بقوله ان ديكنز ولد في عصر يعادي الخيال في ادب الاطفال فزاده دافع المعارضة اعتزازا بقيمة الخيال ، في عصر كان ينظر فيه الى حكايات الجان على انها ضرب من التفاهة ، الا انه كانت له جدة ومربية لهما باع طويل في سرد تلك الحكايات . كما ان صحته السقيمة تسببت في عزلته ولكنها في نفس الوقت عوضته بحياة الخيال ، كما ان اهمال والديه في رعايته سبب له ايلاما شديدا ، بيد أن ذلك أعطاه حرية أن يملأ مخيلته بحكايات « الكابتن القاتل » و« جاك قاتل العملاق » و« الخاتم الذهبي » و« سجل الرعب » كما ان سرده القصص وغناءه الهزلي وترديده ما حفظه من نصوص وشغفه بمسرح عرائسه كلها جعلته ينشد الاستجابة والقبول من المتفرجين ولكن نفس هذه الخبرات علمته ان يتخيل نفسه في الشخصيات والمواقف وان يسيطر على جمهور النظارة وان يحس بمتعة الخلق ، وتولد لدى ديكنز دافع الكتابة إثر تركه مستودع دهان الاحذية وخضع كل ما كتب لتأثير خياله . وتحمل كل رواية من رواياته دلائل تؤكد مدى شغفه بحكايات الجان .

وفي الفصل الرابع يبدأ ستون في تحليل الروايات من زاوية موضوعه ويرى ان مذكرات بكويك هي أقل الروايات تأثرا بحكايات الجان ، فالتيار العام في الرواية ، بالرغم من اللمسات الكاريكاتورية هو واقعي غير مثير : تغص الرواية بالمناظر الريفية والحافلات بطيئة الحركة ومن الشخصيات بالخدم ورجال القانون والصحفيين والمحتالين . ويتركز هدف ديكنز في الرواية في امتاع وتنوير القارىء وذلك من خلال سلسلة سريعة من المغامرات تعكس الحياة اليومية بتنوعها ومرحها وحوادثها المؤسفة . ولم يتجنب ديكنز طابع الحكايات في روايته عمدا ولكن غمره الواقعي فاكتفى بتصويره . بيد ان عنصر الحكايات لم يغب تماما عن الرواية فيتقدم الاحداث يأخذ مستر بيكويك دور العراب بطيبته وقوته السحرية اكثر فأكثر . فبفضله سافر جنجل Jingle وتروتر Trotter الى جزر الهند الغربية حيث ابتسمت لهما الحياة ، وبفضله ايضا تزوجت إميلي ووردل Emily Wardle سنود جراس Snodgrass كما تزوجت ماري Mary سام ويلر Sam Weller . ومن عناصر الحكايات ايضا التي تلمحها

في الرواية القصص العديدة المقحمة في نسيجها . وقد ذهب بعض النقاد الى ان هذه الاقاصيص مأساوية قوطية بينما القصة الرئيسية هزلية ، الا ان هذا الرأي تعوزه الدقة ، فبعض تلك الاقاصيص لا هو بالمأساوي ولا بالقوطي ولكن في نظر المؤلف هناك شيء واحد يجمع الاقاصيص التسع ، وهو انها مرتبطة ارتباطا وثيقا بحكايات الجان ، فيسودها عنصر الخوارق والارواح الشريرة والاشباح والغرابة والتحولات . كما يتبع ديكنز في هذه الاقاصيص اسلوب الحكايات فقصة « كاتب الابراشية » The Parish Clerk مثلا تبدأ بـ « كان ياما كان » وتنتهي بنهاية سعيدة للجميع . ويرى المؤلف ان من اهم تلك القصص قصة الغيلان Goblins والتي كانت بمثابة النموذج لرواية انشودة عيد الميلاد A Christmas Carol التي كتبها ديكنز بعد ذلك بسبع سنوات ، وغيرها من كتب عيد الميلاد ووجه الشبه كبير بين سكروج في الرواية وجابريل Gabriel في القصة ، فكل منها عكر المزاج يقوم بمغامرة في ليلة عيد الميلاد بدلا من الاشتراك في الاحتفالات الخاصة بتلك المناسبة ومكان المغامرة هو المقابر . وكان من جراء حشر ديكنز لتلك القصص في مذكرات بيكويك تباين النغمة والموضوع . ومهما يكون الامر فالواقعي والسيريالي اقل امتزاجا في تلك الرواية عنه في اي رواية اخرى وليس أدل على ذلك من ان ديكنز قد تخلى عن حشر قصص في رواياته بعد بيكويك وان القصص في حد ذاتها داخل بيكويك أكثر من النصف الاول عنها في النصف الثاني . وفي الحقيقة لا نرى مزجا للواقع بالخيال بصورة مرضية حتى رواية دومبي وولده . وبين دومبي وبيكويك كتب ديكنز خمس روايات : اوليفر تويست (١٨٣٧ ـ ٣٨) ، نيكلاس نيكلبي (٣٨ ـ ٣٩) محل العاديات الأثرية (٤٠ ـ ٤١) بارنابي ردج (٤١) . ومارتن تشزلويت (٤٣ ـ ٤٤) . وتعيد كل من نيكلاس نيكلبي وبارنابي ردج ومارتن تشزلويت نمط الحكايات المستعمل في بيكويك مع اختلاف في التركيز كما يقحم حكايتين في نيكلبي مما يقطع سلسلة الاحداث الرئيسية ولكن يقع ذلك في بداية الرواية . ويعد هذا آخر استخدام له لهذا الاسلوب . وتظهر نكهة حكايات الجان حتى في اسلوب الفصل الأول الذي يبدأ بالعبارة المشهورة « كان ياما كان » كما تتسم القصة الرئيسية في الرواية بطابع الخطابات ، والقصة عتيقة وهي عن كيف أن السيدة نيكلبي الارملة الساذجة تأتي الى مدينة كبيرة تطلب العون من عم أولادها الثرى ولكنها تكتشف بالتدريج أنه شخص في منتهى البشاعة والوحشية دأب على نصب شراك لهم . وفي الرواية أيضا صورة دوثبويز هول Dotheboys Hall وهي بمثابة زنزانة يقطنها أولاد صغار أشرار يأكلون الكبريت تحت امرة سكويرز Squeers وحش أعور . وزد على ذلك عنصر السحر والمولود راما واستدرار عواطف القراء . كما أن شخصية

مادلين براي Madeline Bray هي بمثابة الأميرة في الحكايات ، فرغم فقرها فهي في حقيقة الأمر وريثة لممتلكات هائلة حجبها عنها آرثر جرايد Arthur Gride البخيل الشبع . وكما هو الحال في حكايات عديدة توافق مادلين على الزواج من هذا المخلوق الكريه اذا ماسدد ديون أبيها ثم تنكشف الأمور على حقيقتها ويتم انقاذ مادلين بطرق أشبه ما تكون بالسحر وتعود لها مملكتها وتتزوج نيكلاس وتعيش في « التبات والنبات » . ومن الواضح أن الصراع بين قوى الخير والشر في الرواية يتسم بطابع الصراع في الحكايات فينال اشرار الظلام الهزيمة على يد خصومهم الخيرين ، وهذا مايعود له ديكنز دوما في رواياته . كما أن انتصار قوى الخير على قوى الشر له طابعه السحري أيضا . وعن بارنابي ردج يذكر ستون أنها تقوم على مفاهيم الحكايات فهي تدور حول جريمة القتل الأزلية ويستخدم ديكنز فيها عنصر الخوارق والأشباح . كما أن شخصية بارنابي في حد ذاتها قائمة على الفنتازيا وينطبق نفس الشيء على والده القاتل ، فهو تائه جوال كابنه يضطهد ويطارد اسرته . كما تقاسي الرواية من نقطة ضعف الروايات السابقة الا وهي عدم امتزاج الخيال بالواقع . ونفس الشيء يصدق على مارتن تشزلويت والتي تتمركز قصتها حول شخصية العراب كما في بيكوويك ونيكلبي وهو وراء النهاية السعيدة للقصة . وهناك وجه شبه بين مارتن العجوز ومس هافيشام في آمال كبار فيحيط بكل منهما مجموعة من الاقارب ينتظرون موتهما بفارغ الصبر ، بيد أن عناصر الواقع والخيال تمتزج امتزاجا كاملا في آمال كبار . ومن الواضح أن بعض الشخصيات الأخرى في تشزلويت مستمدة من حكايات الجان مثل بيكسنيف Pecksniff ونادجت Nadgett تلك الشخصية الشبحية والتي لها أكثر من وجه ، يستطيع أن يغير نفسه في غمضة عين ، كما أن بيلي Bailey كالعفريت يقفز من بين الأموات . أما جوناس Jonas فهو كالغول ويذكرنا بجرايد Gride ورالف نيكلبي Ralph Nickiepy ولسيري جامب Sairey Gamp صفات خارقة عديدة فهي شخصية بشعة تشرف على المواليد والوفيات ولديها مقدرة على الخلق ، فقد ابتدعت شخصية مسز هاريس من بنات خيالها الذي يخدم اهواءها ومرتيجيونج . Montague Tigg شخصية حكاوية أيضا ، هو المخادع الذي يستطيع أن يتنكر وأن يغير شكله الى مالانهاية وهو قريب الشبه بالشيطان . ولايقتصر طابع الحكايات على الشخصيات فقط فالرحلة الى أمريكا تأخذ شكل الحكايات فهي رحلة البحث عن جنة عدن حيث أن مارتن جاء اليها أساسا للبحث عن الثروة والعودة بها الى انجلترا ، ولكن عندما يصلها يكتشف أنها جهنم لافردوس . كما أن الريح التي تبدأ بها الرواية لها طابع السحر في الحكايات ولكنها في نفس الوقت ريح حقيقية . ثم يتطرق ستون الى البناء الخرافي في الرواية

وكيف أنه يشكل جزءاً من عالمها حيث يأخذ الجماد صفات الاحياء فالمداخن تكلم بعضها بعضا كما تحس الاشجار أنها حبيسة وتتلكأ عربات النقل في الحارات الضيقة .. الى غير ذلك . ويعد قتل جوناس لمتجيو من اللمسات الجيدة ، ولطالما كان ديكنز مولعا بتصوير القتل وتبعاته في رواياته . جوناس شخصية معقدة منقسمة على نفسها تتنابه أفكار مزعجة وقد وفق ديكنز حقا في خلقه لتلك الشخصية بابعادها السحرية ، فحجرته مثلا قبل أن يرتكب جريمته تعكس كمرآة سحرية ما يدور في رأسه (الفصل ٤٦) . وفي طريقه لارتكاب جريمته يبدو الموقف كما لو أن الطبيعة تراقبه ، فالناس يصيبهم الجفول ويرى الأطفال خيالات داكنة في نومهم والكلاب تنبح والفئران تتبعه ، كما أن وقع أقدامه يترك أثرا أحمر اللون مثل قابيل . ويعد وصف الغابة التي ترتكب فيها الجريمة رائعا حقا فهي غابة حقيقية وفي الوقت نفسه تعج برموز الحياة والموت . وبعد القتل تنتاب جوناس الهواجس لاعن الغابة ولكن عن حجرته الخالية التي من المفروض أن يكون نصفه العادي فيها . وبينما نصفه القاتل في طريقه للحجرة يزيد شعوره بالانفصام . وعند سماعه قرعا على باب الحانة التي توقف عندها للشراب يتهيأ له أنه قرع على باب حجرته هو ويرتعد لذلك . وكالطرق على البوابة في مكبث ، فالطرق هنا نذير شؤم وينتاب جوناس الهلع من مجرد التفكير في غرفته الخالية (الفصل ٤٧) . حقالقد برع ديكنز في مزج الواقع والرمزي والنفسي والخارق في تلك الواقعة ، ويساعد العنصر الخرافي في تفهم بشاعة الجريمة ومغزاها الغيبي . ويرى المؤلف أنه برغم كل هذا فعنصر الحكايات ليس سائدا في مارتن تشزلويت .

وتبقى من مجموعة الروايات التي كتبها ديكنز قبل دومبي وولده روايتان الثانية : اوليفر تويست والرابعة محل العاديات الأثرية . ويسود في كلتيهما عنصر السحر ويمتزج أكثر بالواقع . وترتبط قوى الظلام التي تسيطر على الجزء الأكبر من اوليفر تويست بحكايات الجان ويقبع في وسط هذه القوى شخصية فيجن Fagin وهو مستقى كلية من الخرافات والحكايات الشعبية ، فهو صديق الشيطان ويحمل معه جو الشر الذي يسود أساطير العصور الوسطى ومسرحيات عصر النهضة وقصص الأطفال المرعبة . هو الشخص المخيف البخيل قاتل الأبرياء ومفسد الأطفال وينبيء مظهره وبيته وعتاده عن شيطانية . وفوق كل هذا يضفي عليه ديكنز من فكاهة وحيوية وخصوصيات مايجعله شخصية ديكنزية خالصة . ولفيجن أعوان يتسمون بصفات خارقة فشريكه منكس Monks هو شرير الخرافات بعينه بما له من صفات قوطية وميلودرامية ويقبع منكس في محيط أوليفر كجلاد شرس وكقوة مؤذية . والأسلحة التي يستخدمها هي تماما ما نعهده في الحكايات : شخصيات تنكرية ، نسب مجهول ، وصايا اتلفت ، شهود عيان مخادعون ، خواتم

مسروقة ، تعاويذ سحرية ، والمقدرة على الاختفاء دون ترك أي أثر . (ويتبين لنا في النهاية أنه أخ غير شقيق لاوليفر) ويضطهد أوليفر مستعينا بفيجن ، لأن ميراث أوليفر متوقف على شرط أن لايكون قد أساء لاسمه بعمل غير شريف ، وهذا الشرط في حد ذاته من الصعب تصديقه فهو أقرب للحكايات منه لواقع الوصايا في القرن التاسع عشر . وفيجن ومنكس شر خالص بينما أوليفر حسن خالص . ومن طبيعة الشر ملاحقة الخير والنيل منه ومن ، طبيعة الخير المقاومة والانتصار على الشر ، وكل ذلك هو عالم الحكايات بعينه . ومن قوى الشر في الرواية أيضا سايكس Sikes وهو أقرب للواقع من غيره ، ولكن بعد قتل نانسي Nancy نلحظ أنه قد أحاطه ظلال من السحر ، كما أنه تحركه دوافع اجرامية ويصيده الخوف تماما كما هو الحال مع جوناس تشزلويت وردج العجوز . ويصاحب هذا الوحش الجهنمي كلب شيطاني أيضا ، ويجمع الاثنين شكلهما الشرير . وثلاثتهم فيجن ومنكس وسايكس هم من قاطني عالم ما تحت الأرض الحالك في الرواية . ومن الملاحظ أن التعامل بين الأفراد عادة مايتم بالليل او في غرف ظلماء لاتراها شمس النهار ، وبرغم ما للشر من قوة الا أنه يستسلم أمام قوى الخير ، وتسود تلك لمالها من قوة سحرية تفوق قوة البشر .

ومن قوى الخير مستر براون لو Brownlow الثري المحسن وهو عراب الحكاية وولي أمر أوليفر ويتزعم عناصر الخير الاخرى : آل مايلاي Maylies ومسز بدوين Bedwin ولوسبرن Losberne وجرمويج Grimwig وغيرهم ، كما يساعدهم على قهر الشر ! وهو كمستر بيكويك دافعه الاحسان ، وعصاه السحرية هي النقود كالعادة . ومن الواضح أن قوى الخير في الرواية مبالغ فيها وخرافية كقوى الشر تماما . ويبقى ان نتساءل مالسر في أن أوليفر تويست وهي الرواية الثانية لديكنز يسودها جو الحكايات وان عناصرها الخيالية والواقعية أكثر التحاما عما عليه الحال في الرواية الأولى أو الثالثة أو السادسة ؟ وتكمن الاجابة كما يرى المؤلف في طبيعة الدوافع التي كانت تغذي الرواية فقد ارتبطت بمخاوف وآمال ديكنز الذاتية وكانت تلك المخاوف شديدة وما كان بالامكان تصويرها بغير مبالغة أمثلة نمط الحكايات ، ونفس الأمر فيما يتعلق بآماله فقد استدعت حدتها النمط الخرافي للتعبير عنها ولم تقتصر هذه المخاوف والآمال على بعض المشاهد المتفرقة ولكنها ارتبطت بالحركات الرئيسية في الرواية .

ويشترك محل العاديات الأثريةمع اوليفر تويست في غلبة عنصر الخرافة وامتزاجها بالواقع . وكانت فكرة الرواية في البدء في تصور ديكنز بمثابة قصة تقارن بين الاضداد : الشباب والشيخوخة ، الجمال والقبح ، الريف والحضر ، الحياة والموت . وقد أعطى الرواية صيغة المجلة التي كانت ستنشر فيها Master

Humphrey's Clock وهي الصيغة الخرافية . وعندما زيدت لحجمها الحالي لم يغير هذا من روحها فبقيت على ما كانت عليه . وفي قلب الرواية توجد عناصر خرافية عدة : أولها الوحيد البائس الذي يتجول في غابات هذا العالم المخيفة يهاجمه وحوش وعفاريت ونقاس نيل Nell الطفلة الضائعة من هجمات هذه المخلوقات الشرسة . ورغم أنها كأوليفر سلمت من هذا الهجوم الا أنها كسمايك Smike ماتت في النهاية من جراء الصراع . وتشكل المدينة بؤرة الشر في الرواية وذلك من الناحية المعنوية ، أما على مستوى الأفراد فمنبع الشر كله هو القزم القبيح الشكل كويلب Quilp وصفاته الجنية ظاهرة للعيان فرغم انه قزم الا ان رأسه ووجهه يصلحان لجسم عملاق وله أنياب بدل الاسنان ، وكله مكر وخديعة ، يأكل البيض بقشره ويبتلع القريدس الضخم برأسه وذيله ، ويجرع الشاي المغلي دفعة واحدة ويعض الشوكة والملعقة حتى تنحنيان ، وتصرفاته شاذة لدرجة أن النساء يرتعدن منه ويساورهن الشك في أنه آدمي (الفصل ٥) وقد دأب كويلب على تعذيب زوجته الجميلة وحماته التي أطلق عليها اسم التنين . ولهذا الشيطان السادي قوى خارقة أخرى فهو يأتي من لامكان ويختفي في لمح البصر وينام وعيناه مفتوحتان ويستطيع أن يتعلق في السقف بأرجله ، ودائما تحيط به سحب من الدخان الكثيف ، كما انه يمارس السحر والتعاويذ ويسحر نل Nell بقوته الجنسية ، ويعد موت زوجته يخبرها أنها ستكون زوجته الثانية . ويرافق كويلب طفل برمائي يقف دائما على رأسه ويجثم على النار كما لو كان علجوما (الفصل ٤ ، ٦٧) ولكويلب طاقة تسود الرواية وتعطيها الحياة . وبحيويته الشيطانية يقهر ويستعبد كل من يقترب منه ولايشفي غليله غير الموت ، وكحياته فموته له طابع السحر ويسبقه طرق على الباب ، وتدفن جثته كما لو كان وحشا أو مصاص دماء . وعلى النقيض من كويلب هناك نل أميرة حكايات الجان . في الفصل الأول من الرواية نكتشف أنها تنام في سرير صغير يمكن أن تنام فيه جنية . وفي الفصل نفسه يعرفنا ديكنز بأنها صغيرة وروحانية وضعيفة البنية تشبه الجنية . وحتى بدون هذه النعوت ندرك على الفور أنها من عالم الجن فجمالها تام وحبيتها كامل وحكمتها بالغة وهي تسحر الجميع الا الاشرار منهم ، وتقود جدها العجوز بيدها فهي مرشدته ومستشارته . أنها تعطينا صورة الشاب الحكيم يوجه الشيخوخة الحمقاء . ولايقتصر عنصر الحكايات في الرواية على الشخصيات والافعال فقط بل يتعداها الى الأماكن ، فبعضها لها صفات أماكن الحكايات وينطبق هذا على كوخ آل جار لاندز Gar-lands وبيت دك Dick والمركيزة The Marchioness تربط دك بالمركيزة علاقة أشبه بتلك التي في سندريلا والجميلة والوحش . وتزخر قصتها باشارات عديدة لحكايات الجان ، فمثلا عندما يفيق دك من الهذيان يقول « أنها ليلة

من ليالي الف ليلة وليلة . . . أنني في دمشق أو القاهرة الكبرى . . . المركيزة هي جنية (الفصل ٤٦) .

ويتلخص الفصل في أن ديكنز في رواياته الست الأولى يستعمل كل وسيلة من وسائل حكايات الجان التي استعملها في رواياته الأخيرة ولكن ما ينقص الروايات الأولى هو امتزاج الخيال بالواقع . وقد شهد ديكنز بذلك عندما تمنى لو كانت مذكرات بيكويك أشد تماسكا . وصحيح القول أنه حتى دومبي وولده لم يكتب ديكنز رواية مترابطة تماما .

وفي الفصل الخامس يتناول المؤلف روايات عيد الميلاد وهي الروايات الخمس التي كتبها ديكنز في الفترة بين مارتن تشز لويت ودومبي وولده وهي : انشودة عيد الميلاد (١٨٤٣) A Chrismas Carol وموسيقى الاجراس (١٨٤٤) The Chimes، والجُدْجُدْ على المدفأة (١٨٤٥) The Cricket on the Hearth ومعركة الحياة (١٨٤٦) The Battle of life، والرجل الممسوس (١٨٤٨) The Haunted man، وتستمد هذه الروايات مادتها من حكايات الجان بموضوعاتها واحداثها وطرائقها . وقد شهد ديكنز بذلك حينما قال انه في كتابتها كان يأخذ حكايات الاطفال المعهودة ويعطيها شكلا أرقى . وقد اتبع ديكنز في هذه الروايات كلها عدا معركة الحياة نموذج حكاية جابرييل جراب Gabriel Grub في مذكرات بيكويك . وهذا النموذج يتلخص في ان شخصية رئيسية تكون على خطأ يضطر نتيجة لاحداث غير عادية ان يعيد تقييم نفسه بعد ان يكتشف اخطائه . وتعج هذه الروايات بالاحداث السحرية كما ان شخصياتها خارقة . ولقد بدأ ديكنز يرى من خلال هذه الروايات وما تحتويه من عناصر خرافية بجلاء اكثر كيف يستخدم الفنتازيا في خدمة بناء الشخصيات والمناظر والاجواء والاحداث ، وساعدته في ان يمزج الواقع بالخيال بطريقة لم يعهدها من قبل . وعن طريق هذا الالتحام يعكس ديكنز مدى تعقد الحياة واعاجيبها . تبدأ انشودة عيد الميلاد بالبداية التقليدية « كان يا ما كان » ويبني ديكنز في هذه الرواية حوارا يعج بالتجسيد والتشخيص وعزو الصفات البشرية الى غير العاقل . فتتحول المباني والبوابات واعمدة الستائر ومقارع الابواب الى اشياء ذات احساس ، ويربط السحر الاشياء بعضها ببعض ، فشقة سكروج Scrooge مثلا في مبنى منعزل يخبرنا الراوي انه لابُدّ وان يكون قد لعب الغميضة مع بيوت اخرى في شبابه وخرج عن الطريق وتاه وبقي هناك منذ ذلك الحين (الفصل الاول) . وهذا المكان يناسب رجلا ضائعا مقطوعا عن العالم ، كما ان له جوه الخاص وروحه الحارسة . ويخيم الضباب والصقيع على بوابة المبنى السوداء كما لو كان الطقس في حالة مواساة . انه عالم مليء بالسحر والاشباح . وتعد انشودة عيد الميلاد

افضل رواية في المجموعة ولكن ليس في كل الامور . فثاني الروايات مثلا ، موسيقى الاجراس ، اكثر واقعية واكثر خيالا في نفس الوقت . وكما هو الحال في مارتن تشزلويت تبدأ القصة بتشخيص للريح : ريح شتوية تولول وتنوح وهي تمر ليلا عبر الكنيسة في لندن وتتنهد الريح في المماشي وعند المذبح وفي القناء وفي برج الكنيسة . ويعتبر تشخيص الريح هذا لمسة فنية رائعة . وتعد معركة الحياة اقل روايات المجموعة نجاحا لان ديكنز طرح فيها جانبا عنصر الخرافة . اما في الرجل الممسوس فيعود عنصر الحكايات ، وظهرت الصورة التوضيحية التي اقترحها ووافق عليها ديكنز في مواجهة صفحة العنوان على شكل شبح الانا الثانية للشخصية الرئيسية ردلو Redlaw يهمس في اذنه بينما الشياطين والغيلان تتبارى مع الملائكة . وعلى صفحة العنوان ظهرت صورة تجمع ملاكا مشوقا وشبحا اسودا ذا غطاء يقود طفلا في اتجاهات متعددة . وقد استعان ديكنز في كتابة الرواية بحكايات الطفولة المفضلة لديه : الف ليلة وليلة ، حكايات الجان Tales of the Genni جاك قاتل العملاق Jack the Giant Killer، الأطفال في الغابة The Chidren in the Wood وكلها وجدت طريقها الى الرواية . وردلو نفسه له شكل الساحر او العراف كما ان ميلي Milly مثل نل Nell في محل العاديات الاثرية هي اميرة الجان ، كلها حسن في حسن ، وتكون وسيلة النجاة السحرية لردلو .

وخلاصة القول ان ديكنز حاول بعد انشودة عيد الميلاد أن يجمع بين عناصر الحكايات ومظاهر واحداث الحياة العادية من اجراس وصراصير ليل وغلايات شاي . كما انه خفف بعض الشيء من استعماله لتلك العناصر . ففي موسيقى الاجراس يدخل هذا العنصر الروائي في وسطها فقط وفي الجُدْجُد في البداية والوسط فقط ، كما أنه زاد من العنصر الواقعي ففي معركة الحياة استغنى كلية عن الخوارق مما كان له اثره في تضييق المجال امامه وعدم تمكنه من بسط ومفق النقاط . أما في الرجل الممسوس فقد عاد الى اصيغة انشودة عيد الميلاد ولكنه وجه اهتمامه نحو وسائل اكثر تهذيبا من الاشباح والعفاريت واكثر توافقا مع المضمون الواقعي . ومما اضافته كتب عيد الميلاد لفن ديكنز الفنتازي انه تعلم كيف يجعل حالة نفسية معينة او جوا ما ينفذ في القصة كلها ، كما انه ربط استعماله للرموز ببنية الرواية ، كما عمقت تحليلاته النفسية وشجعته ان يعكس الحالات الذهنية في الجو المحيط وان يوضح الانقسامات الداخلية من خلال الانا او النفس الثانية ، وان يصور الصراعات النفسية عن طريق الرمز . وقد عززت بعض هذه الاساليب ما كان يتبعه من قبل ، كما دفعه البعض الاخر نحو اتجاهات جديدة . ويستطيع القارىء ان يرى انعكاسات

تجارب روايات عيد الميلاد في الروايات التي تلتها : فالاجراس التي تلاحق ترولي Trolly فاقد الامل في الاجراس تماثل الاجراس والعجلات واقدام الخيل التي تلاحق كاركر Carker الهارب في دومبي وولده ، وأيضا الطقس الموضوعي الذي يضبط ويربط انشودة عيد الميلاد يماثل الطقس الموضوعي الذي يشكل ويوحد بليك هاوس ، كما ان تحليل طفولة سكروج وآثرها في رجولته في انشودة عيد الميلاد يتحول الى تحليل ادق لطفولة كلنام Clen-nam وآثارها في الصغيرة دوريت ، كما ان اللوازم الدالة leitmotifs والتكرار والرقيات في الرجل الممسوس تسبق تلك في قصة مدينتين A Tale of Two Cities ووحدة الجو والروح والموضوع في انشودة عيد الميلاد ، تؤذن بوحدة اقوى في آمال كبار ، كما ان التناول الذي يموضع الانفصام في ردلو في الرجل الممسوس يتطور الى النفسين المستقلتين اللتين تعكسان انفصام شخصيات اخرى مثل ويميك Wem-mick في آمال كبار وجاسبر Jasper في ادوين درود Edwin Drood.

ويفرد المؤلف الفصل السادس لرواية دومبي وولده فيبين أنها ككتب عيد الميلاد تمزج الحقائق الاجتماعية والنفسية والرمزية والخرافية ، وان هذه العناصر يلعب كل منها على حدة دورا اكثر بروزا، وفي نفس الوقت يلتحم اكثر مع الاطار العام . ويستمر العنصر السحري كما في الروايات السابقة في ضبط بنية الرواية كما يساهم ايضا بدرجة اكبر في نسيج القصة صفحة بصفحة ، ولأول مرة في رواية ديكنزية تصبح حكايات الجان قوة سائدة ومنتظمة ، اذ غدا السحر وسيلة رئيسية لديكنز لتكامل وتعميق المعنى . وتتركز القصة حول العلاقة التي تربط مستر دومبي بينته فلورانس التي لايميل اليها ، ويتصف دومبي رجل الاعمال بالبرود والكبرياء والانانية الا انه ليس سيئا بالدرجة الاولى ، ولكن الثروة والسلطة تكمنان وراء عجرفته . وكل همه ان يرى شركة الشحن والتجارة في يد وريث ذكر ، وباعتقاده انه بماله يمكنه شراء اى شيء وربما حتى وريث . وحدث بعد ستة اعوام من ميلاد فلورانس ان توفت زوجته وهى تضع مولودا ذكرا ولسرعان ماتركزت كل افكاره حول الوريث . وتبدأ الرواية بمولد بول Paul ووفاة امه وكل احداثها تدور حول خطيئة دومبى في رفضه لحب ابنته التي وهبته اياه مختارة ثم هزيمته وتحطيم فلسفته المادية . كان عليه ان يدرك أن ما حاولت فلورانس اعطاءه لاتقاس قيمته بأية اموال ، وكان عليه ايضا ان يعرف ان الحب لايشترى وانه لكى يحبك الاخرون عليك ان تحبهم وعليك ان تكون في وضع يؤهلهم لحبك . وقد عالجت نفس الموضوع بعدئذ الروائية جورج اليوت في روايتها سيلاس مارنر Silas Marner ود . هـ . لورانس في قصته « فائز الحصان الهزاز » —The Rocking-Horse Winner ويلاحظ القارىء في بداية الرواية ان دومبى يهمل ابنته فقط ولكن

بالتدريج يأخذ في حسدها والحقد عليها بسبب الحب الذي تبعثه في الآخرين ، ومن ثم يبغضها كشاهد على فشله في ان يدفع الآخرين لحبه . ويعتبر الأب ضحية النفس الباردة والمادية المطلقة التي تتجسد ايضا في كاركر مدير اعماله ولذا فهو يستحق منا الشفقة لا الكراهية .

ويمتزج موضوع العمل التجاري بعنصر السحر والجان فلدومبي تأثير سحري معد ايما ذهب على غيره من الشخصيات وفي بداية الرواية يستأجر بولي تودل Polly Toodle لارضاع بول (ولديكنز هنا هدف في جعل امرأة من اسرة متواضعة ترضع الوريث المرتقب الا وهو اذابة الفروق بين آل دومبي وآل تودل) ولكن يؤكد لها ان لبنها ما هو الا سلعة تشترى ويحذرها من ان تكون اي علاقة مع مولوده ، كما يعطيها اسما جديدا يقرب من الأسماء التجارية « ريتشارد » بدلا من تودل ؛ وبرغم ذلك فدومبي عاجز عن ان يخلص نفسه من الوساوس انطلاقا من تفكيره الطبقي ودافع التملك ، فباعتقاده ان لبن بولي سيفسد وليده وأنها ربما استبدلته بابنها ، وهذا ما سيحدث ولو بصفة مؤقتة . تأخذ بولي الوليد من حضانته الفخمة الى حيث يسكن آل تودل في ستاجز جاردنز Stagg's Gardens وهو حي شعبي (مهدد بمجيء الخط الحديدي اليه ذلك الذي سيحيله الى جحيم) وتأخذ ابنها الحقيقي مكان بول على صدرها ، واستبدال الاطفال في حد ذاته عنصر من عناصر الحكايات ، فالأمير الوريث حل محله المدعي الفقير . ويجدر الاشارة الى ان دومبي اول رواية تحول السكة الحديدية الى موضوع فني ، فلها وظيفة رمزية اذ تمثل التصنيع كما انها ذات قوة سحرية خارقة غيرت وجه الارض . كما وانها تحمل معاني متناقضة ، فبينما تهدد ستاجز جاردنز بالدمار الا ان تودل يعيش هو واسرته منها فهو يعمل وقادا بها (يترقى الى مهندس) . والقطار نفسه خادم مطيع يحمل دومبي اينما اراد ولكنه في نفس الوقت يقضي عليه حيث يأخذه صوب إيدث Edith ليتزوجها زواجا ماديا بحتا يهدف انجاب طفل له بعد وفاة بول . وينتهي هذا الزواج بالفضيحة والافلاس اثر هروب ايدث مع كاركر الذي يلقى حتفه تحت عجلات القطار آخر الرواية .

والشكل المعرفي الذي يأخذه القطار طوال الرواية يثريها ويؤلف بين اجزائها . فالقطار الذي يأخذ دومبي لايحدث اكثر من مجرد وسيلة انتقال انه « وحش منتصر ، الموت بعينه » وهو يجر وراءه المخلوقات الحية بمختلف اعمارها ودرجاتها (الفصل ٢٠) . انه مخلوق خارق للطبيعة يثير الرعب والخوف كالتنين ، ينفث هبات من هواء وبخار ثم يسرع على سكة لا نهاية لها محدثا جلبة وهديرا وصراخا (الفصل ٢٠) . وتتكرر تلك الصورة في الرواية مرات ومرات . ولمتزج سحرية القطار بواقعية القصة وتتولد واقعية اكثر شمولا وعمقا ، واقعية تتجاوز الواقعي الصرف . لقد تحطم كاركر

باصنامه الجديدة التي عشقها ، بتلك الآلة الحديدية فاقدة الاحساس .

كما ان العديد من الشخصيات في تصويرها لمسات من حكايات الجان فكاركر Carker هو الشيطان الفولكوري بعينه الذي يظهر غالبا متخفيا كحيوان ، كقط ، كذئب ، وكثعبان . ترتعد فلورانس كلما اقترب منها ، ويكاد يغمى عليها عندما يثبت عينيه الثعبانين عليها . وينبح ديوجينس Diogenes بشراسة عندما يظهر امامه ، وله تأثير السحر على روب Rob فيتبعه هائماً على وجهه في الشارع . وميجور باجستوك Major Bagstock شيطان مصغر ، وكما ذكر ديكنز في احدى رسائله فهو مفستوفيل Mephistophelean نيراني ويُعوى ويسدد النظرات الغرامية كما انه نذير شؤم يسره البلاء الذي يجلبه . وباستطاعته ان ينتفخ بطريقة بشعة ، وعيناه مثل عيني الكركند تبعجان من رأس كرأس الغول وتسميه مسز سكيوتن Skewton الغول الغادر ، ويصير لونه ازرقا ارجوانيا من اقل استفزاز ، ويتوقع المرء ان يرى اللهب يخرج من فمه (الفصل ٢٠) . وتنم تعبيراته المفضلة - « اللعنة » و « ماكر شيطاني » - عن دوره الجهنمي . اما كابتن جاك بانسبي Jack Bunsby فهو وسيط الوحي ينبيء بالغيب له شكل الاشباح ، له عين ثابتة والأخرى متحركة طبقا لمبدأ بعض النارات (الفصل ٢٣) . اما مسز ماك ستنجر Mrs Mcstinqer فهي امرأة مشاكسة ، غوله آكلة لحوم البشر ، بسحرها سلبت بانتصبي ارادته وتزوجته . كما يحيط بالطفل بول جو من السحر والغرابة ، لقد ولد وعلى سحنته علامات الزمان ، فوجهه مغطى بألف تجعيدة (الفصل الاول) ، ثم ندرك انه روح عابرة ، عمره قصير على الارض ، مصيره الفشل . وهو غريب الشكل كالقزم الخرافي ، نسخة مصغرة من ابي الزمان نذير الموت ، إنه النموذج الاصلي لذرية أدبية نذكر منها على سبيل المثال « فاذر تايم » Father Time.

في رواية توماس هاردي Thomas Hardy جود المغمور Jude The Obscure . ورغم شبابه يبدو عجوزا . ويؤكد لنا هذا التصوير ان بول تجسيد خرافي للزمان والموت ومع هذا يبقى طفلا حقيقيا فيه صراحة الاطفال وسذاجتهم بل ولغتهم ايضا (على غير لغة أوليفر العجيبة) كما ان سيكولوجيته اكثر واقعية فهو يشعر بالغيرة والعداء والعرفان بالجميل ايضا (على غير اوليفر بحُسنه الخالص) .

وفي الرواية امثلة كثيرة على نسبة صفات البشر للجماد . فالساعة التي نراها في مدرسة دكتور بليمبر Blimber هي ساعة حقيقية يدوي صوتها في كل ارجاء المدرسة ، ومن الملاحظ انه عندما جاء بول الى المدرسة سأله الدكتور « وكيف حال صديقي الصغير ؟ » ولما لم يجبه على الفور اخذت الساعة تردد نفس السؤال مرات عديدة (الفصل ١١) . والمدرسة

بكاملها لها حياتها الخاصة بها فعندما اعترى بول القلق ومرض اعترى المدرسة جو من الغرابة وتأثرت الساعة بمرضه فمرضت معه ، كما ان الساعة بتكاتها تعد الايام الباقية من حياة بول . وعند وفاته تتكتك ساعات الاطباء الانيقة . كما ان الدرج في قصر دومبي هو مثال آخر لشيء عادي يكتسب معنى رمزيا خاصا وذلك من خلال توظيف وسائل حكايات الجان ، فيقترن هذا الدرج بالموسيقي والغناء ، وبالتكرار يصبح اللازمة دالة في نفس الوقت الذي هو فيه درج حقيقة . ويكتسب معنى سلم الحياة الذي تمضى عليه الشخصيات اما ظافرة او مدحورة ، احدى نهايتيه تهبط للجحيم والاخرى تصعد للسماء . وهذه اللازمة تنذر بموت مسز دومبي ، وموت بول وكذلك تعاضده مع اخته في وجه الاب الكاره ، وصعود او هلاك الشخصيات الرئيسية . يبدأ بول رحلة الموت بهبوط درج مؤسسة د . بليمبر ويهبط معه فلورانس بعد ان غنت لتوها احدى الاغاني ، ويذكره غناها بهمهمة البحر . وعندما يصل قصر دومبي يحمل على درجة . وبعد موته يتحسس مستر دومبي طريقه ليلا على الدرج صوب غرفة ابنه الخالية ليتعبه ووحده حتى بزوغ النهار ، ويرتبط نواح فلورانس بالغناء ، وعندما تهبط الدرج في الليل لتجثم امام باب غرفة ابيها تلتمس حبه تجد الباب مغلقا في وجهها . ونلاحظ ايضا ان كاركر يهبط الدرج ليلقي حتفه وذلك بعد ترتيب امر هروبه مع ايديث كما تهبط هي الدرج في عجلة من امرها لملاقاته ومواجهة الادانه . وتتكرر تلك اللازمة الدرج/الموسيقي ـ في الرواية حتى نهايتها وبذلك تربط اجزاء الرواية بعضها ببعض . وهناك ايضا لازمة البحر الذي ينحسر ويمتد طوال الرواية ليربط مسز دومبي وبول وفلورانس ومستردومبي حول مكونات الحياة والموت . وتؤكد اللوازم الدالة الروابط الخفية والتطابق السحرى بين الجماد والانسان : قطار شيطان ، ساعة ناطقة ، وبحر يهمهم (همهمة الموت والخلود . يقترن موت بول بالبحر وتقترن حياة بول آخر ابن فلورانس بالبحر فهو قد ولد على ظهر سفينة) ، ففى عالم ديكنز ترتبط الاشياء ارتباطا وثيقا بنظائرها الآدمية وهذا يثبت طبيعة الكون الواحدة . وتلك اللوازم السحرية اسلوب جديد في ديكنز يفصل ما بين الروايات قبل وبعد دومبي وولده ، ويرجع الفضل في ابتداعها لروايات الميلاد وبها يلحم ديكنز الاساليب القديمة بمفاهيم حديثة في وحدة اعمق واكثر تعبيرا ، وواقعية اكثر فنا .

ويرتبط الاطار الداخل للرواية وخاصة فيما يتعلق بفلورانس وولتر بحكاية سندريلا . وتلخص افتتاحية تلك الحكاية الموقف الاساسي في الرواية : « يحكي انه كان هناك سيد فقد زوجته فقرر الزواج مرة ثانية . غير ان السيدة التي وقع عليها الاختيار كانت اكثر عجرفة وكبرياء . وكان للسيد طفلة تشبه والدتها المتوفاة في حلاوة طبعها وشكلها ، وقد حزنت لفقد والدتها كثيرا » ومافلورانس الا الاميرة المتخفية

التي فقدت ميراثها ، الا انها في نفس الوقت الكنز الذى على دومبي ان يعتز به ويقدره . كما ان دومبي يجمع ادوار زوجة الاب الشريرة والشقيقات من زوجة الاب المتكبرات والامير الباحث . انه يضطهد ويعمل على اذلال ابنته الاميرة . ورغم ان ديكنز يعطى موضوع سندريلا (لير/كورديليا Lear/Cordelia طابعا خرفيا الا انه في نفس الوقت يحافظ على واقعية القصة ويضيف اليها من ذكرياته هو عن اهمال والديه له . وولتر هو امير الحكاية الذى تتزوجه فلورانس ـ الاميرة في النهاية . ويختلط حبه لفلورانس بحب اخيها بول لها ، كما يأخذ دور الاخ البديل بعد فقدها لاخيها . ونلاحظ في الرواية ان قصر دومبي هو قصر حقيقة يحيط به في نفس الوقت جو خرافي ، فدرجه سحرى ومناوره سماوية وثرياه تبكى كما ان ستائرة تتدلى ومراياه تفقد بريقها وخشبه يصر ومفاتيحه تصدأ وتتكاثر فيه الفئران والعناكب والخنافس والفراشات باعداد مخيفة ، وكل هذه من مظاهر خراب القصر مما يعكس مرور الزمن واهمال دومبى لفلورانس السندريلا والجمال الناعس .

وفي نهاية الفصل يلخص المؤلف آراءه بقوله ان دومبي وولده . تشكل حقا تقدما فنيا ظاهرا : من طريقة الحكايات العشوائية الى الصيغة الجديدة في جعل الفنتازيا تغمر الاحداث والشخصيات في طول الرواية بالمعانى والمغازى وتزيد من ربطها ببعضها ، وفي التحام الفنتازيا بالواقع الذى يكاد يكون كاملا .

وبالطبع لم يخل اسلوب ديكنز الجديد من العثرات الفنية ، فبينما نجح في استخدامه اللازمة الدالة الخاصة بالموسيقي الا انه لم يوفق في تلك عن البحر كنذير شؤم ، واذا كان قد وفق في تصويره لشخصية مسزبراون في المواقف الاولى التي تظهر فيها فتبدو وكأنها خليط من تمامة فكتورية وحيزبون فولكورية ، الا انها في المواقف اللاحقة عندما يبدأ دورها يعظم في الحبكة تحولت الى النمط السحرى الميكانيكي القديم . كما ان كاركر ايضا يهبط في بعض الاحيان الى كونه مجرد شرير قوطى شبيه بالكابتن القاتل ، حتى اسنانه المتلألئة . ورغم ان رسم شخصيته لايدانى رسم شخصية ستير فورث في ديفيد كوبرفيلد الا انه ينطوى على فن ارفع من ذلك الذى ينطوى عليه تصوير شخصية منكس المتعذر تصوره .

وفي الفصل السابع افاض الباحث في تحليل رواية ديفيد كوبرفيلد التي تمثل فعلا مرحلة النضوج في فن ديكنز الروائي . ويرى ان عناصر حكايات الجان في الروايات متجددة في واقع الحياة وان الامتزاج بينهما يبلغ درجة الانصهار مما يعطي الرواية عمقا واستطرادا . وتعتبر الفقرات الخمس الاولى في الرواية من ابرع واغرب الافتتاحيات في ادب ديكنز ، ففيها استطراد وتوان وغرابة وخلو من المعنى ، ويمكن تفسير ذلك في ضوء الجو الخرافي العام للرواية فهذا الجو إذن موجود من البداية . ويبدو كما لو كان ديكنز يلعب بالقارىء وهذا بمثابة تنبيه له

من ان عناصر العالم الغير مرئي سائدة في الرواية . ومن الملاحظ ان كل شخصية رئيسية فيها قد صورت كما لو كانت شخصية من حكايات الجان . تبدو بتسيتروتوود Betsey Trotwood في الظاهر ساحرة اكثر من عرابة فاسلوبها جاف مستبد وتدخل الرواية من اولها ومنذ دخولها والسحر يحيط بها من كل جانب . انها عرابة ديفيد الجنية وظهورها يتم فجأة وبلا مقدمات فقبل ميلاد ديفيد بساعات قلائل تسير متوهجة كما لو كانت قد خرجت من الشمس الغاربة مباشرة الى حياة ديفيد التي لم تبدأ بعد . وطوال المساء تنتاب بيت آل كوبر فيلد باسطة نفوذها على شيء . كانت تتوقع ان يكون المولود انثى ولكن عندما جاءها الخبر بانه ذكر شعرت بالاهانة واختفت من القصة فجأة تماما كما ظهرت ، وفي ذلك يقول ديكنز « اندفعت خارجة ولم تعد واختفت تماما كجنية ساخطة » (الفصل الاول) . بيد انه على الرغم من اختفائها الجني الا ان وجودها يظل يخيم على الرواية . فعندما يهرب ديفيد من بؤس العمل في شركة ميردستون وجرنبي Murdstone And Grinby بعد وفاة امه كان يحدوه الامل ان تؤويه عرابته القوية . فكثيرا ما سمع من امه وعندما يصل الى بيتها تقابله ممسكة بسكين وهي تصيح « اغرب عني . . لا أولاد هنا » . ولكن بالرغم من فظاظتها تأخذه وتؤويه . ورغم انها شاذة في تصرفاتها وغريبة الاطوار الا أنها تخرج من الرواية حقيقة من لحم ودم ، فواقعيتها اكثر تصديقا ممن سبقتها من العرّابات . ويبدو ان الوظيفة الفنية لها هي تأكيد المآسي التي قابلها ديفيد في طفولته وكذلك صراعه في عالم اختلط فيه الصالح بالطالح ، ورغم انها شخصية جنية الا انها لا تدفع بديفيد ان يهرب من الحياة بل على النقيض من ذلك تدفعه نحوها وتساعده ان يكتشف نفسه ، ولكن تبقى في الوقت نفسه عرابة خرافية . وتكمن براعة ديكنز هنا في مزجه السحري بالعادي . وعموما فالعمة بتسوليست شريرة كما تبدو فهي على العكس تماما من مس هاليشام في آمال كبار التي تبدو عرابة خيرة ولكنها في حقيقة الامر حيزبون . وبرعايتها يبدأ ديفيد حياة جديدة تماما . ومن الشخصيات التي لها أصول سحرية أيضا يوريا هيب Uria Heep ، له وجه شبيه بالجيفة ، يراه ديفيد ذات مرة يتنفس في منخر فرس كما لو كان ينفث سحره فيه ، يداه نحيلتان ، شعره احمر ، عيناه بلا جفون ولا أهداب ، كما أنهما لا تنامان ودائما تلمعان كشمسين حمراوين . وهذا الشخص المنفر لا يستطيع ان يبتسم ، وكل ما يستطيعه هو ان يوسع فاه محدثا جعدتين في اسفل خديه ، كما ان حركات جسده ثعبانية . وتنم هذه الصفات الجسدية العفريتية عن حقيقته الداخلية الشيطانية . ويتصف افراد عائلته بنفس الصفات السحرية البشعة فلامه عين شريرة وكمدام ديفارج (قصة مدينتين) تبدو وكأنها القدر بعينه ينسج مصير من تود اصطيادهم . وبتوالي أحداث الرواية تزداد الصور المجازية

التي تربط يوريا بالشيطان . فبعد ان إستوظف ميكوبر Micawber لديه ظل يعيد القول بانه قد باع نفسه للشيطان (الفصل ٤٩) ، وكثيرا ما اطلق عليه لفظ شيطاني ، وجهنمي ، وثعباني وعفريتي . ومما يدل على مدى تعقيد مزج المتناقضات ـ الواقعي والسحرى ـ في يوريا هو ان ديكنز جعله شيطانا وفي نفس الوقت قرين ديفيد . وهذا الخلط يستمد اصوله من حكايات الجان . ففيها تجد ان الحسن لا يتناقض فقط مع ضده بل يصبح النقيض بذاته . جدة الصغيرة رايد نجهود Little Red Riding-hood المحبة تتحول فجأة الى ذئبة شرسة ، كما تتحول والدة سندريلا التي تحميها الى زوجة اب شريرة وهذا في حد ذاته يبين مدى كون الانسان مركبا ومتقلبا . ويعترف ديفيد في البداية انه منجذب نحو يوريا ويبادله يوريا هذا الشعور ، ويلتقى الاثنان ايضا في حبهما لا يجنس Agnes ، كما ان مغزى الاسمين يبين ان العلاقة بين الشخصين علاقة معقدة ، ففي الانجيل اشتهى ديفيد زوجة يوريا باثشيبا Bathsheba وتسبب في موت يوريا ليتزوجها . وحتى بعد زواج ديفيد من دورا في الرواية نجده يشتهي الجنس اكثر عندما يدرك ان يوريا يود الزواج منها ، كما يتسبب في موت يوريا موتا مجازيا ويتزوجها . بيد ان هناك بعض التباين بين الانجيل والرواية ، ففي الانجيل نرى ديفيد مذنبا ويوريا بريئا والعكس تماما في الرواية . وهذا الاختلاف اشارة الى ان يوريا هو الذات الشريرة لديفيد . كما ان اثم ديفيد في الانجيل مكشوف اما في الرواية فهو مستتر ويموضعه يوريا . حقا لقد وفق ديكنز في تصوير الجانب النفسي لشخصية يوريا وذلك باستعماله الرمز والمسرحة والقياس وحركة الحدث بدلا من التقرير والعرض .

ويحيط جو حكايات الجان بشخصيات أخرى في الرواية مثل ستيرفورث Steerforth وروزا دارتل Rosa Dartle الشائي ومن يدور في فلكها : الصغيرة أميلي Emily ، مسز ستيرفورث ، وايجنسي . ويعد ستيرفورس من الشخصيات الجذابة ولكنه زئبقي المزاج وتندمج هذه الصفات البشرية بأخرى خارقة ، فله سحر على الأخرين من الصعب مقاومته ، ويقترن بهذا السحر قدرة على التكيف بسهولة مع أي شخص وأي موقف ، وليس هذا الشيء العادي . ويعتبر حب ديفيد الصبياني لاميلي غرام فيه نكهة حكايات الجان . فقد اعترف لها بانه لايستطيع ان يحب احدا غيرها وأنه مستعد لسفك دم اي شخص يتجرأ على التقرب منها (الفصل ١٠) . ولكن يتبين أنه مخطيء فسوف يحب غيرها كما أنه سوف لايعجز فقط عن سفك دم غريمه بل سوف يسهل مهمته أيضا . كما كان يحلم بسعادة خرافية بعد أن يتزوج منها ، بالعيش بين الأشجار والحقول يوقفان الزمن عند الصبا يمرحان معا والشمس مشرقة في المروج المزهرة في براءة وسلام ، ويدفنان مع الطيور بعد موتهما (الفصل ١٠) والاشجار واضحة هنا

لحكاية « أطفال الغابة » . ويتناقض هذا الحلم في تصويره للثبات وعدم التبدل مع التغير والاضطراب الذي سيحدث . وتعتبر روزا دارتل من الشخصيات الخرافية أيضا ومن أهم العلامات تلك الندوة التي تغطي فمها وذقنها وقد تسببت من جراء قذف ستيرفورث المطرقة في وجهها وهو في نوبة عصبية . وتشير الندبة الى جروح روزا الظاهرية ، وسببها جميعا اطلاق ستيرفورث العنان لرغباته وشهواته : الظاهرية بقذفها بالمطرقة والغير ظاهرية بحبها ثم هجرها . فالندبة اذن ماهي الاسمة ستيرفورث التي تركها عليها وتعود للحياة كلما ثار غضبها أوغيرتها ـ ولكن لاتعود شيطانية روزا هذه السمة الشيطانية وحدها فهي شيطانة في حد ذاتها سوداء الشعر والعينين لايتحمل ديفيد نظرات عينيها الغريبتين وبريقها الجائع الذي اذا ما استثير يتوهج كالنار (الفصل ٢٩ ، ٥٦) وفي بعض الأحيان يرتعد ستيرفورث حتى من مجرد التفكير فيها ويعترف لديفيد بأنها تبدو كغول أمامه (الفصل ٢١) . ولايقف الأمر عند عدوانية روزفهي جذابة الى حد بعيد ، فحتى وهي في أعنف مواقفها لاتفقد انوثتها الفتانة التي تغوي وتوقع في الشرك . ويقع ديفيد تحت تأثير سحرها لبعض الوقت . وليس أدل على سحرها من تأثيرها عليه بعد لقائها الاول : فعندما يذهب للنوم في بيت ستيرفورث يتهيأ له أن الصورة المعلقة في الغرفة هي صورتها ويضيف لها الندبة ، وحتى يهرب من التفكير المستمر فيها يخلع ثيابه ويأوي الى فراشه ويغط في النوم ، بيد أن أحلامه كانت عنها (الفصل ٢٠) . كما تشبه في الرواية « بأميرة الأساطير القاسية » (الفصل ٤٦) ، وبشيطاناتها تجد متعة في ايذاء من ينافسها أو يخذلها . ورغم هذا الجو الفنتازي الذي يحيط بروزا ، الا أنها شخصية واقعية في نفس الوقت . فتاريخ حياتها الباكرة مشوق الى حد كبير . بعد فقدها أبويها جاءت لتعيش مع أقاربها آل ستيرفورث ، واستغل ستيرفورث عاطفتها المشوبة وأجبرها على حبه ولكن سرعان ما سئم منها . أما أميلي بأسلوبها الجذاب وعينيها الزرقاوين وسحرها هي سيرانه جنية سحرها هيام ديفيد . انها سندريلا تواقة تصاب بخيبة أمل : فتاة فقيرة تتوق أن تكون سيدة تهرب مع أميرها ، ولكن بدلا من أن تصبح أميرة تصير منبوذة . ويعد خلاصها من ستيفورث وليتمرLittimer هروبا جنيا بحتا . ومن الشخصيات الحميدة أيضا دورا فرغم أنها تسبب الضرر لديفيد الا أنها ليست شيطانة متآمرة . البيت الذي تعيش فيه فخم وخرافي كقصور الحكايات وعندما تعرف عليها ديفيد افتتن بها تماما وبدت له جنيه هيفاء رشيقة (الفصل ٢٦) . ويمتزج الخيال بالواقع في وصف ديكنز لمغازلة ديفيد لها . وعند زواجه منها يشير ديفيد الى زواجه على أنه « زواج جني » (الفصل ٤٣) ، كما ظهر « ملاح هرم » خلفه في هذه المناسبة ، اشارة الى قصيدة كولريدج بهذا العنوان . واثناء الاحتفال تمسك

دورا بيد اجنسي وفي هذا اشارة لزيجتي ديفيد: زواج محتوم لزوجة من الجان، وزواج مستقبلي لزوجة ملائكية. وبمعنى رمزي فهو يتزوج الاثنين معا وفي وقت واحد، فالزوجتان سويا تمثلان المرأة التي يتوق اليها. في اشارة بيشبي ان ديفيد ودورا هما من أطفال الغابة ربط لمصير هذا الزواج بالحكاية الشعبية المعروفة، فسوف ينتهي نهاية غير سعيدة كما أن ديكنز يعتمد في تصوير هذا الزواج على خبرات ذاتية ـ علاقته الغرامية بماريا بيتديل Maria Beadniell وخيبة أمله في زواجه الحقيقي. ومن الشخصيات الشبيهة بشخصيات الحكايات الانسة ميردستون Miss Murdstone فيعتقد أنها تنام واحدى عينيها مفتوحة وتغمغم في الكنيسة كالرعد الخفيض. كما أن لها ولأخيها تأثيرا على ديفيد كتأثير ثعبانين على طائر صغير تعس (الفصل ٤). وعندما يدخل آل ميردستون منزلا، يجلبون معهم دفعة باردة من الهواء. انهم في الحقيقة شياطين وأساليبهم شيطانية كما يوضح لنا ديفيد (الفصل ٤، ٩). ويبدو مستر ميردستون لديفيد كعملاق ومستحضر أرواح شرير. ويجبن ديفيد أمام هجومه، ولاتقتصر فعالية سحره على ديفيد وحده فيمتد ذلك الى أمه (التي تزوجته) انه يحملها على طاعته هو لاابنها. وفي تصوير آل ميردستون بهذه البشاعة السيريالية يؤكد ديكنز ان شرهم فائق في تعذيب الطفولة وهذا بالنسبة له خطيئة لاتغتفر. واستعمال عنصر الحكايات هنا، كما هو في رسم شخصيات أخرى، يعطي طابع العمومية للقضايا التي يطرحها بطريقة غير مباشرة.

كما تموج الرواية بالموتيفات مثل الأحلام التحذيرية والقصور السحرية (منزل ويكفيلد) والخرافات الفعالة (لايموت باركيس الا في انحسار الجزر) وبها صورات مثل جريزلدا Griselda (اجنسي) وزيجات يناير ـ مايو (د. واني مشرونج) وزوج الأم الشرير (ميردستون). حقيقي ان الرواية بشخصياتها ومضمونها قائمة على حكايات الجان. وقد مكنت اللمسات والموتيفات الحكاوية هذه ديكنز من أن يبين ويؤكد ويربط، كما ان السحر الحكاوي ساعده في نقل رؤياه للقارىء.

ثم حلل المؤلف احد فصول الرواية (الفصل ٥٥ «العاصفة») فصل الذروة الذي يعتبر عملا فنيا رائعا، حيث نقل فيه ديكنز المعنى النفسي عن طريق الحدث والصورة والتماثل والرمز لا عن طريق التفسير. ثم انتقل بعد ذلك الى تعليق على الصفات الخارقة في اجنسي وكيف أن دورها كملاك صالح يبدأ مع ظهورها في الرواية، واذا كانت هي الملاك الصالح فستيرفورث هو الملاك الطالح. ويعترف ديفيد بأنه وهو معها يشعر بأنه انسان آخر وأنه قد تغير إلى الأفضل. ويشعر أن لها وجها سماويا مبهجا وان مسكنها مكان مقدس (الفصل ٤٩) وكالجنية الخيرة التي تعود لتنقذ

تحميها ، وتعود ايجنسي بأعجوبة عندما يحتاج لها ديفيد في اعقاب انباء انهيار عمته . يرى وجهها « ويفكر في شباك الكنيسة ذي الزجاج الملون » ويقول لها لو كان لديه قبعة ساحر لتمنى رؤيتها (الفصل ٣٥) . وفي موقف آخر كان يعتريه القلق فتظهر أمامه وتلمسه بينما الساعة تدق الثانية عشرة . وعندما يحتاج ديفيد لعمل ، تساعده في الحصول عليه ويقول لها « ماذا كنت أصنع بدونك . أنت ملاكي الطاهر » (الفصل ٣٥) . تؤكد كل هذه الصور دورها الملائكي ويتبين لديفيد أن حبه لها قوي ومتين لاكحبه لدورا . وتعترف له هي الأخرى بأنها قد أحبته طوال حياتها (الفصل ٦٢) . ورغم أنه كان قد أفتتن بجمال دورا الا انها ليست رفيقته بمعنى الكلمة ، وتعجز عن أن تلبي أمانيه . وتعتبر ايجنسي النصف المكمل لمفهوم ديكنز عن المرارة : ملاك بريء معين ومتفاهم . وكأم أو أخت تسهر على راحة ديفيد وتحمل له هدوء البال والراحة بيد أنها ليست جذابة جنسيا ، هي روح بلا جسد وعاش معها « في الثبات والنبات » كما هو الحال تماما في الحكايات .

وفي الفصلين الثامن والتاسع يتناول المؤلف بالتحليل رواية آمال كبار (١٨٦١) . وقد بدأ الفصل الثامن بلفت الانتباه الى حقيقة أن مس هافيشام في الرواية هي ذات الرداء الأبيض التي كتب عنها ويلكي كولينز Wilkie Collins روايته المشهورة والتي كانت قد صدرت قبل شهور من بدء صدور آمال كبار . ثم تتبع الأصول التي شكلت خيال ديكنز في رسمه لتلك الشخصية ، ففي ١٨٥٣ كتب في مجلة Household Words مقالا بعنوان « حيث توقف نمونا » "Where We Stopped Growing" وفيه يصف سيدة غريبة الأطوار عرفها في شبابه تقارب تماما مس هافيشام : عروس في ملابس بيضاء هجرها عريسها وتوقف الزمن بالنسبة لها . وربما كان ديكنز قد شاهد مسرحية ابريل ١٨٣١ على مسرح ادلفي هول حول الموضوع ذاته . اضيف الى ذلك ولع ديكينز الدائم بكل ما هو غريب وبالأدب القوطي وحكايات الجان . وتزخر هذه بقصص ذات الرداء الأبيض . كما أن هناك بعض القصص عنها في آخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر مثل الراهبة ذات الرداء الأبيض لمونك لويس Monk Lewis وفير ايموجين Fair Imogine ذات رداء أبيض أخرى لنفس المؤلف . كما أن مس هافيشام هي واحدة من بين شخصيات ديكينزيه أخرى خاب أملهن ووقف الزمن بالنسبة لهن : بتسي تروتوود التي سبق الاشارة اليها ومس فلايت Miss Flite في بليك هاوس Blak House ويرى المؤلف انه رغم ما يقال عن مس هافيشام من انها شخصية خيالية تماما من الصعب تصديقها فهي متجذرة في واقع الاحداث اليومية .

ثم ينتقل ستون في الفصل التالي الى ما هو أهم وهو تحليل عنصر الفنتازيا في الرواية ،

ويبدأ بتحليل المشهد الاول الذي يقع في فناء الكنيسة حيث توجد المدافن ، عشية عيد الميلاد . ويذكرنا هذا المنظر وما ينذر به من شر بقصص الاشباح وحكايات الاطفال . يقف بيب في المشهد بجوار مدافن والديه واخوته الخمسة ولأول مرة في حياته يحس بنفسه وبالحياة من حوله ، وبينما هو منغمس في التفكير يظهر من بين القبور مجرم فار من العدالة وعلى رجله القيد ويمسك ببيب ويقلبه رأسا على عقب ، ويرى بيب خلال ساقيه المعكوستين برج الكنيسة ثم تبدوله الكنيسة كلها وكأنها تلف وتدور ، وتتكرر هذه الحركة . ثم يدخل بيب وهو يرتعد خوفا في نفق سرى مع المجرم الهارب ثم يجرى عبر السبخة صوب منزله . تماما كما في « جابريل جراب » Gabriel Grub والانشودة عن الميلاد والرجل الممسوس يظهر شبح من الماضى عشية عيد الميلاد ليهلب البطل الاثم . وعندما يظهر ماجويتش Magwitch الخارج على القانون من بين القبور ويقلب وعي بيب النامي رأسا على عقب فان هذا يمثل حكاية الجان المقلوبة (سندريلا) التي سوف يحكيها ديكنز (حيث الاخوات القبيحات يتحولن الى جو Joe وما جويتش الخيرين والعرابة مس هافيشام ليست الا ساحرة والاميرة إستيلا Estella زيف براق) . ويرى المؤلف ان طابع الحكايات يضفى اتساقا وتكثيفا على المضمون الذاتي والاجتماعي والاخلاقي للرواية ، كما يعطيها طابع عمومية الاساطير .

وتشترك آمال كبار مع ديفيد كوبرفيلد في انها تتعلقان باسطورة الرغبة والجزاء وانهما على لسان البطلين وان كلا من البطلين طفل يتيم يتم انقاذه بعد بؤس طفولته وتكفله سيدة غريبة الاطوار ويلقى ثروة ليست في الحسبان ، بيد انه لا يبلغ آماله في النهاية . ثم يعرض المؤلف العنصر الذاتي في الرواية ويوضح وجه الشبه بين بيب (وأيضا ديفيد) وديكنز فكلاهما نشأ فقيرا ، منبوذا كان يطمح في النهوض بنفسه وحقق ثروة واختلط بعلية القوم بيد انه لم يجد السعادة التي كان ينشدها ، وكان دائما يحاول التستر على بؤرة خجله وهي طفولته . ويعد ماجويتش الذي يظهر من بين القبور تشخيصا لهذه الوصمة ، كما ان محاولة بيب الهروب منه بعد عودته من منفاه يطابق محاولة ديكنز الهروب من ماضيه . كما ان احداث الرواية تقع في تشاتام ولندن وكلا المكانين أسهما في تشكيل حياة ديكنز نفسه ، كما ان غرام بيب يعكس حياة ديكنز الغرامية والمعقدة ، ففي حب بيب لاستيلا ، ذلك الحب العقيم ، انعكاس لحب ديكنز الصبياني لماريا بيدنل Maria Beadnell او حبه فيما بعد لالين تيرنان Ellen Ternan التي كانت تصغره بعدة اعوام . كما ان شعور الكراهية الذي يكنه بيب لاخته الشرسة السليطة مسز جارجرى Mrs. Gargery والتي قامت على تربيته يعكس احاسيس ديكنز السلبية تجاه امه . ويلاحظ المؤلف انه بينما نجد ان العنصر الذاتي في الروايات الاولى كما في مارتن تشزلويت مثلا

دخيل على العناصر المكونة الأخرى ، التحم هـذا العنصـر بغيره في روايات عيد الميلاد الخمس ، وفي الروايات التي تلت تلك بعمق ، ويقوي هذا العنصر الجانب السيكولوجي فيها . ومن استخدام ديكنز لأسلوب الفنتازيا يرى المؤلف انه في الروايات الأخيرة بعد تمرسه في هذا المضمار غالبا ما يخلق جوا يأخذ الخرافي فيه طابع الواقعي ، وبالعكس يضفي على احداث الحياة اليومية جوا من السحر والغرابة ، ويتم كل ذلك بحداقة وبراعة . ومن نقاط القوة في الروايات الاخيرة ايضا تطور اسلوب ديكنز في تصوير الجوانب المتعددة للشخص الواحد او ما يطلق عليه مضاعفة الذات Doubling of the Ego ، فردلو Redlaw في الرجل الممسوس منقسم الذات وايضا جوناس تشز لـويت ولكليهما صورة مضادة . اما في بيب فالانقسام ليس ذاتيا تماما ، فالشخصيات الاخرى المرتبطة به تعد امتدادا له وتلقى الضوء على شخصيته هو . هناك بيب البريء المهذب وهناك ظله ماجويتش المجرم الطريد ، كما انه يقترن بكل من إشتيلا التي عصرتها قوى مماثلة ، وبيدي Biddy التي قاومت هذه القوى ، وجو Joe الذي يسلم من الفساد ، وهربت Herbet الـذي يعد نموذجا افضل لـه ، ومس هـافيشام الـذي يرتبط ذنبها وجزاؤها بذنبه وجزائه ، ودرامل Drummle يعد نموذجا افضل له ، ومس هافيشام الـذي يرتبط ذنبها وجزاؤ ها بذنبه وجـزائه ، ودرامـل -Drum mle ذلك النموذج السيء لـه ، واورليك Orlick الذي يعد امتداد شريرا له . ويعقد ديكنز الموقف اكثر فيجعل من جو ايضا نقيضا لاورليـك ، كما ان إستيـلا تناقض بيـدى وماجويتش يغاير مس هـافيشام ، وفي نفس الوقت يتشابه ماجويتش مع كومبيـسون -Com peyson وكمبيسون مع مس هافيشام وهكذا دواليك . ويعد ويميك Wemmick منقسما على نفسه فهو يحيا حياتين مختلفتين ، وبيب نفسه يتأرجح بين دافع الرغبة ودافع الواجب . وبهذه التناقضات يعطي ديكنز بنية ومعنى للرواية . ويعتبر تصوره لشخصية اورليك مثالا على كيف ان هذا الاسلوب اصبح اساسا في فنه وصفات اورليك الجنية ، وعلاقاته الشريرة تزيد من واقعيته ولا تنقصها . هو الشيطان بعينه داكن البشرة مؤذ ورغم انه في الخامسة والعشرين الا انه يطلق على نفسه اورليك العجوز . انه عتيق لازمني كالشر نفسه ، ولا يقضي ايام الاحاد في الكنيسة بل منطرحا على البوابة وهو يقترن دائما بـالبوابـات ، انه حـارس بوابة جهنم وعمله كحداد لا يخلو من الرمزية فالشرر يتطاير من سندانه صوب بيب وهو عـلى النقيض من جو الحداد الودود الذي يقوم بدور العراب لبيب ، بيد انه بشره لا يستطيع ان ينال من جو عندما يعاركه ، ولكنه ينال من زوجة جو الحيزبون اذ يصرعها ، وعلى الرغم من البغضـاء التي بين بيب واورليك الا ان هناك انجذاب بينهما ويعتبر بيب شريكا في جريمة قتل اخته ، اذ انه زود ما

جوتيش بالمبرد الذي قطع قيده الحديدي والذي استعمله اورليك في الهجوم عليها .

وتتضح ادوار الشخصيات الرئيسية في الرواية اذا ما وضعت في اطارها الجني ، مما يربط الرواية ويدعم عنصر السخرية فيها ، كما يمتد تأثير حكايات الجان الى الاسماء والصور المجازية والاحداث والاطر المكانية والزمانية . كما ان الامور كما هو الحال في الحكايات نادرا ما تكون كما تبدو . ويتضح دور ماجوتش كمعذ ومنقذ في نفس الوقت اذا ما وضع في اطار الحكايات . لقبه جزء من سخرية ديكنز ، فلفظ الساحر في اللقب Witch يتناسب مع دوره في اول الرواية فقط اذ يتحول في النهاية الى عراب جني مخلص . وربما يشير اسمه الاول « هابيل » Apel الى دوره الحقيقي ، فرغم أنه مجرم وطريد الا انه يتعرض لآثام الآخرين أكثر من تعرض الآخرين لايذائه . ويقوم دوره كعراب على السخرية ، فبعد ان مد بيب له يد المساعدة رد هذا الجميل له كما يحدث في الحكايات وجازاه خير جزاء . ولكن التعقيد واللبس يكمنان في ان فعل الخير الذي أتاه بيب يعد ذنبا في نفس الوقت ، فهو قد سرق وكذب وعقد اتفاقا مع مجرم فار . كما ان جزاء احسان بيب الذي قدمه له ماجوتيش من تعليم ومركز اجتماعي وثروة ، وكلها آمال جنية كان يصبو اليها ، يتحول الى لعنات . وكما في حكاية « الجميلة والوحش » يعد قبول بيب للوحش وتقديمه الاحسان والمشاركة الانسانية هي التي حولت وحشية ماجوتيش (وبيب في نفس الوقت) الى جمال والى وسيلة للخلاص .

وتشترك مس هافيشام مع ماجوتيش في ان مظهرها غير مخبرها وللفظة sham (شيء زائف) التي تشكل جزءا من اسمها مغزى في هذا الصدد . تبدو في البداية عرابة في رداء ساحرة كمارتن تشز لويت العجوز وبتسي تروتود وهذا ما يظنه بيب الا ان مس هافيشام ، ذات الرداء الابيض ، ليست عرابة على الاطلاق . انها حيزبون ولا جدال ، وعرابتها ليست الا زيفا ، وقد ساعدت بيب ان يخدع نفسه ، فباعتقاده انها هي التي منحته الهبات وانها تربي له اعظمها وهي الاميرة السندريلا وما هذه الهبات الا لعنات ساحرة ـ لعنة البرودة والمعاناة التي صبتها على استيلاولعنة الامل والعذاب على بيب . انها ساحرة في مظهرها ، في عزلتها ، في سكنها ، في انتقامها ، في هلاكها . وتعتبر السندريلا التي ترعاها جزءا من زيفها وجزءا من حكاية ديكنز المقلوبة . فاستيلا الحقيقة ليست هي الاميرة ، النجمة الساطعة كما تبدو وكما يشير اسمها . فهي من نسل مجرم وامها قاتلة وان كان بيب سيد زائف فهي سيدة زائفة ايضا . كلاهما اداة للانتقام والاثنان يرتبطان بماجوتيش (بالمولد وهو بالتبني) ولمس هافيشام تأثير ضار على كليهما . ويشقى الاثنان بسبب انخراطهما في الرذيلة ويمران بمرحلة انبعاث جديد . والاميرة الحقيقية في الرواية هي بيدي Biddy المتواضعة ،

ولكن على عكس ما يحدث في الحكايات لايوفق بيب في كسبها . كما ان الامير الحقيقي ليس بيب او درامل او جاجرز ، بل جو البسيط المهذب حقا الذي يتمكن من ان يكسب الاميرة .

وقد خص المؤلف مس هافيشام بالنصيب الأوفر من التحليل حيث امتزج في تصوير شخصيتها الواقع مع الخيال امتزاجا كاملا . تقابلنا للمرة الأولى وهي جالسة أمام « التسريحة » تنظر في المرآة التي تكشف ظاهرها لاباطنها . وكالرجل الممسوس تنتابها الهواجس وقامت بتجميد نفسها الى الأبد . ومثله أيضا ارتكبت اثما كبيرا ولكن اثمها عكس اثمه : أراد هو أن يمحو الماضي ، أن يمنعه من أن يتعقبه ، بينما هي تحاول أن تصر عليه وتؤكد أنه سيلاحقها دوما . لقد أوقفت الزمن عند الساعة التاسعة الا الثلث في صباح يوم زفافها اذ كانت تتأهب للذهاب الى الكنيسة فيصلها خطاب فسخ الخطوبة من عريسها . توقفت كل ساعاتها عن الحركة وتجمد كل شيء في غرفتها ، ونجد مبعثرا على المزينة حليها وقفازها ، ساعتها ، سلسلتها ، منديلها ، كتاب الصلوات ، وفردة حذاء زفافها الأبيض . وبالغرفة فساتينها المبعثرة وحقائبها التي كانت تعدها . وعبر الصالة توجد غرفة الطعام بها منضدة طويلة عليها مفرش بال ، وفي وسط المنضدة كعكة العرس وقد أصابها العفن .

انها تلبس بعضا من حليها اشارة لحزنها الدائم والذكرى الأليمة ، وقد وضعت حجابا أيضا على رأسها . وبفعل الزمن فقدت فردة حذائها كذلك ، وملابسها لونها الأبيض . انها « القبح التاعس » لا « الجمال التاعس » تنتظر أميرها الموعود في سكون الموت ، أمير سوف لايأتي ، سوف لايقبلها أو يوقظها ، كما أنها بفردة حذاء واحدة تشبه سندريلا التعيسة . ولاتتوقف عناصر الحكايات في تصويرها عند هذا الحد فيراها بيب أعجب سيدة وقعت عيناه عليها أو سيراها في حياته (الفصل ٨) كما أن جسدها أصبح « جلدا على عظم » ولم يبق من بريقها سوى بريق عينيها الغائرتين . وعندما ينظر اليها بيب يتذكر التماثيل الشمعية الشبحية أو الهيكل العظمي ، وتبدو ملابسها له كما لو كانت ملابس القبور ، والحجاب الطويل كما لو كان كفنا . لم ترمس ها فيشام الشمس منذ يوم كارثتها ، ولكن الزمن قد انتقم منها لمحاولتها ايقافه طبعا وكل ما لها بالفساد والعفن . تبدو لبيب وهي تدخل غرفة الطعام كما لو كانت حيزبون المكان (الفصل ١١) . لم يرها تأكل أو تشرب على الاطلاق فهي كالغول أو مصاص الدماء تأكل سرا في الظلام (الفصل ٢٩) وتجبره أن يلف حول غرفتها وحول غرفة الوليمة وتكرر هذا الدوران اسبوعا بعد اسبوع وشهرا بعد شهر وعندما يصيبها الاعياء تجلس على كرسي يظل يدفعه حول هذه الغرفة وتلك . انه أسير سحرها ، لقد نسجت دائرة من السحر حوله سيبقى يدور فيها حتى ينفك سحرها . ياله من مسكين انه لايعرف كم هو في قبضتها .

ويتزايد هيمنتها عليه تأمره أن يحقق القدر الذي أعدته له : أن يحب استيلا .

وتنتاب مس هافيشام ساتيس هاوس Satis House ولكنها في الوقت ذاته تطاردها خطيئتها التي لاتغتفر . انها لصة القلوب البريئة « سرقت قلب استيلا ووضعت ثلجا مكانه » (الفصل ٤٩) . ولهذه الخطيئة لابد أن تعطى النار وهذا هو مصيرها . ويحيط قصرها جو جني ، أنه سجن وقوة عدالية وجحيم في نفس الوقت ، ويسوم بيب ويظلل حياته . القصر كئيب مغلق الأبواب سدت الطرق اليه ، صدأت القضبان الحديدية على أبوابه وشبابيكه ، ممراته حالكة وفي غرفه الباردة الكئيبة التي لايدخلها الهواء ولا الشمس دائما تحترق الشموع الشترية . وليل القصر الدائم له تأثيره على كل من يتجول فيه ، فالليل يدخل قلوبهم ، يعمي بصائرهم . وتشير مظاهر الخراب والاهمال والخلاء الى فراغ داخلي . الحدائق مهجورة والصدأ والأعشاب والقطر في كل مكان . في حدائقه الخربة يرى بيب استيلا تجره وراءها وتختفي عن الأنظار وتذوب عنه في الأركان وتتلاشى في السماء . انها سيرانه مغوية تجره الى الخراب ، تختفي دائما ولاتمكنه من نفسها ، انها تتصرف طبقا لاسمها فهي النجم الدليل ولكنها توجه بيب مقلوب الرأس الى الجحيم لاالجنة . نراها في المشاهد الأولى تحمل المفاتيح وترعى البوابات ولكن بيب لايدرك أنه واقع تحت وهم وتحت قوة تجذبه الى القصر .

وفي رؤياه المقلوبة رأسا على عقب يبدو القصر كما لو كان قصر « الجمال الناعس » واستيلا هي الأميرة ومس هافيشام العرابة الجنية وقد اختارته ليؤدي دور الفارس الشاب في الرومنسيات ويتزوج الأميرة (الفصل ٢٩) . وهذا بالطبع لايتم وتتزوج استيلا من غيره وتتحطم الآمال في البيت الخرب وكما في حكايات الجان يختفي كل شيء مع اختفاء حلم بيب .

ثم ينتقل المؤلف الى العلاقة التي تربط ماجويتش وبيب والتي تدين بالكثير من مغزاها الى عناصر الحكايات . فعندما يتقابلان يقع بيب تحت تأثير ماجويتش السحري ويغرس الأخير نظراته المغناطيسية في عيني الطفل البريئتين ويستسلم بيب للشرب . ويستمد ديكنز الصور المجازية عن الشر من حكايات الجان وتلك تتضمن اشباح المقابر ، النظرات المهلكة ، الاتفاقات ، المنازل المسكونة ، الدوائر السحرية ، الساحرات ، الغيلان ... الخ وتبقى القصة رغم ذلك واقعية سيكولوجيا . تتركز العلاقة حول بالغ شرس وطفل أشبه بالمتشرد . يهدد ماجويتش بيب باكل خدوده الممتلئة ويأخذ بيب هذا التهديد بكل جدية وبعد ذلك يقسم أنه سوف ينزع قلبه وكبده ويشويها ليأكلها . وهذا التهديد غريب حقا . ويدخل بيب تحت هذا الضغط عالم الاثم والجريمة ، يدخل في اتفاق مع صاحبه الشرس بعدها يتوجه الى محل الحدادة ويرى ماجويتش وهو يندفع نحو النهر ، ذلك النهر الذي يجري في

طول الرواية متخذا معنى رمزيا ، النهر الذي سيحمل ماجويتش وبيب للموت والخلاص . وهذا المشهد الافتتاحي التحذيري يذكرنا بمشاهد أخرى في روايات سالفة في دومبي وولده وديفيد كوبر فيلد . ولكن يستخدم ديكنز هنا عناصر حكايات الجان لتخدم غرضه بطريقة أكثر فنا . فماجوتيش أكثر من عفريت أطفال (مسز بيشن Mrs Pipchin مربية بول في دومبي) أو ساحر (مسز براون) انه جزء من بيب ، جزء من الحسن والسيء فيه . ويقترن بيب بماجويتش من البداية . فمثلا وهو عائد له بالطعام والمبرد يحس كما لو كان هو مقيدا مثله ، ورغم أن ماجوتيش مؤذ الا أنه ضحية ومشرد مثل بيب . انهما تناظرا رغم فارق السن والظروف ، جريمتهما واحدة ومعاناتهما واحدة ، ومصيرهما واحد ورغم الخلافات الظاهرية بينهما الا انهما في الباطن متشابهان تماما . السرقة هي أول عمل يقوم به بيب كفرد واع . انه يبدأ حياته الارادية بالخطيئة ولكن خطيئته هي بدافع العطف والشفقة ، فهو يسرق ليعيش انسان غيره طريد بلا أصدقاء . ويتذكر ماجويتش أول عمل قام به عندما بدأ يعي وهو سرقة اللفت من احد الحقول ليقتل جوعه ، وقد نتج عن خطيئة بيب شعوره بالذنب والعزلة وتعد بداية لمحنة ، كما أنها تؤدى الى خلاصه في النهاية . وقدر ماجويتش أن يدخل السجن وعالم الاجرام ، ففي مجتمع كمجتمعه ليس أمامه غير السرقة أو الموت جوعا ، كوحش خرافي يؤثر على كل من يحيطون به ، فكل من يتنفسون معه يعرفون الأحلام الضائعة والآمال المحطمة . حقا لقد برع ديكنز في تصوير علاقة النفس الثانية الخفية التي تربط بيب بماجويتش ، كما أن ماجويتش هو الشبح الذي يطارد بيب وهو شخص حقيقي في نفس الوقت ، عنيف وفظ .

ويخلص المؤلف الى أن آمال كبار هي أكثر من حكاية جان استطالت ، أنها رواية تشترك مع حكايات الجان في التحولات ، رواية تلحم العناصر الذاتية والسوسيولوجية والسيكولوجية والميثولوجية في وحدة واحدة وواقعية في نفس الوقت . لقد أخذ ديكنز دقائق الحياة العادية وترجمها الى عالم الرومنسيات . وكيمياء الفن هذه جزء من موهبة ديكنز في المماثلة والتحويل . وفي الرواية حوّل ديكنز خبراته الأولى وأخيلته ونهايات حكايات الجان وشخصيات العرايات واحباطاته الى حكاية متشعبة تكثف الواقع وتعمق فهمنا للحياة . وقد زودته حكايات الجان بمجموعة من الموتيفات : الهبة التي تتحول الى لعنة ، العرافة المرائية ، العراب المتخفي ، الأميرة الخطرة ، المتاهة المهينة ، البيت المسكون والرحلة الى عالم الاجرام ، وكلها ساعدته في نقل رؤياه الشعرية في الحياة . ومن الموتيفات الرئيسية في الرواية موتيف الضوء والنار الذي يتضمن الشموع ، النار التحذيرية ، كير الحداد ، المدفأة ، الشرر ، ضوء الغاز . . . الخ وعن طريق اعتماد على حكايات الجان اكتسب مجموعة من

الطرائف المرتبطة بها : التكرار ، الطقسية ، الرمزية ، السحرية ، نسبة صفات البشر الى الجماد ، اللازمة الدالة ، ازدواجية النفس الثانية . وبهذه الموتيفات وهذه الطرائف أضفى على أبسط الأشياء والشخصيات في الحياة اليومية ـ أشياء مثل البوابات و النيران والأيدي ، وشخصيات مثل المعتكف والمحكوم عليه ومحدث النعمة ـ مخاوف وأحلام حكايات الجان .

وترتبط عمومية ديكنز كما ترتبط موتيفاته وأساليبه بالتزامه بحكايات الجان . وقد مكنه هذا الالتزام من أن يطرق نفس الأماني والنوازع التي تطرقها الحكايات وتلك الأماني وليدة استجابات الانسان الأولية للحياة . وقد تمكنت حكايات الجان كغيرها من الخرافات ، والأساطير والحكايات الرمزية والفنتازية وغيرها من مظاهر العالم الخفي من أن تبقى على مر الزمان لكونها تتضمن آمال الانسان وآلامه . وفي نفس الوقت تحمل حكايات الجان شعورا بغموض الحياة وعجبها وبالقوى المبهمة التي تكمن في طبيعة الأشياء . وقد تمكن ديكنز من أن يضمن أعماله هذه الاسرار بفضل حصيلة من الحكايات ومكنونات العالم الخفي بغن فج في البداية ، مصقول فيما بعد . ورغم أن هذا الجانب في رواياته يعكس خصوصيات زمانه وطابعه الشخصي الا أن خياله المتشبع بالحكايات والمضمون الخرافي والاسطوري لكتاباته يربطه بكتاب كبار برعوا مثله في هذا المضمار من أمثال سوفوكليس وشكسبير ودوستوفيسكي .

ولعله قد تبين لنا من هذا العرض قيمة هذا المؤلف بحيث استحق أن يكون أفضل كتاب عن فن ديكنز الروائي لعام ١٩٧٩ ، ولعل أهم ما يتميز به أنه بحث علمي منظم قام به ناقد متخصص يتمتع بثقافة نقدية راقية ، وبالاضافة الى كونه استاذ الأدب الانجليزي بجامعة كاليفورنيا فهو قد شغل منصب رئيس جمعية ديكنز الدولية ، وله أكثر من خمسين دراسة نقدية عن أعماله . لقد رصد المؤلف ظاهرة استخدام ديكنز لعنصر الفنتازيا في رواياته وحاول تفسيرها وتتبع المراحل المختلفة لتطوير استخدامه هذا العنصر وكان في تناوله التفصيلي لكل من دومبي وولده ، وديفيد كوبرفيلد ، وآمال كبار يعرض كل جوانب موضوعه في استيعاب وافاضة وان كان لي بعض التعليقات على الكتاب فتلك هي :

ان المؤلف لم يعط الف ليلة وليلة حقها الكامل في كونها أحد العوامل الرئيسية في اخصاب خيال ديكنز ، وكان من الواجب عليه أن يتناول تأثيرها باسهاب . لقد عكف ديكنز على قراءتها مرات ومرات في صغره وكبره . وتأتي الليالي بعد كل من العهد الجديد وأعمال شكسبير في الاستشهاد منها في الروايات[٦] .

(٦) انظر لنفس المؤلف, Harry Stone, ed., Charles Dickens' Uncollected Writings from Household Words (Indiana U. P., 1968), Vol. 2, P. 674.
عن إستشهادات ديكنز من الليالي في بعض أعماله التي ظهرت في مجلة الاسبوعية "Household Words" والتي لم تكن قد جمعت بعد .

(ومن الجدير بالذكر أن روائع الروايات لابد وأن تقوم على أحد الفنون الشعبية : الأساطير ، حكايات الجان ، المسرح الشعبي .. الخ) ويشير ديكنز لليالي بصفة دائمة في رسائله ، كما كان دائم الرجوع اليها في أحاديثه العامة ومنها أحاديثه في بوسطن وفرجينيا في زيارته للولايات المتحدة عام ١٨٤٢ . ويرى أنجس ويلسون Angus Wilson ، الروائي المعاصر ومن أشد المعجبين بفن ديكنز في كتابه عالم ديكنز The World of Dickens ان الف ليلة وليلة تعد بمثابة شخصية مسز هاريس العلمية بأمور شتى التي ابتدعتها مسزجامب في مارتن تشزلويت للاستعانة بها عندما يكون خيالها في حاجة لعون . وقد اعتمد ديكنز نمط شهرزاد المباشر في سرد حكاياتها (يتركها شهريار كل صباح منتظرا في شوق مواصلة سردها) وذلك في علاقته بقرائه . كما أن قراءاته لنتف من رواياته أمام الجماهير في أواخر أيامه تعد اعادة لنمط السرد المباشر في الليالي .

من الأسباب التي ربما أثرت في تشكيل رؤية ديكنز المزدوجة للحياة ومظاهرها والتي لم يوضحها الكتاب بما فيه الكفاية أن تمثيل مسرحيات شكسبير كان مقصورا على بعض المسارح في العاصمة وبالطبع لم يكن هذا كافيا لجمهور النظارة .

وكانت المسارح على مشارف لندن والتي كان يرتادها ديكنز في صباه بسد هذه الثغرة ، ولكن ما كان بالامكان أن تعرض مسرحيات شكسبير صافية خالصة ، فكان من الضروري حتى لاتفقد هذه المسارح تراخيصها أن يتخلل المسرحيات المأساوية شيء من الموسيقى والأغاني الراقصة ، والتفكه الخارج على النص . فكانت الليدي ماكبث مثلا تؤدي بالاضافة الى دورها المفجع بعض الرقصات ، وكان بولونيوس يقوم بعزف المزمار وهكذا اختلط المبكى والمضحك أمام سمع وبصر ديكنز .

يشكل عنصر الفنتازيا في الروايات ما يمكن أن يطلق عليه البعد البشري فيها (يدخل في هذا الاستخدام الشعري أو التعبيري للخلفيات التي غالبا ما يعطيها ديكنز الحياة وكيف أن العالم الخارجي يعكس العالم الداخلي للشخصيات) . وديكنز بهذا يعتبر رائدا من رواد الحركة الرمزية والتعبيرية ، وكان أحرى بالمؤلف أن يبرز هذا المعنى بوضوح أكثر . ويشترك ديكنز مع الأخوات برونتي The Brontes وتوماس هاردي Thomas Hardy في هذا المجال ، فقد استمدوا جميعا الاستخدام الدلالي للخلفيات من القصص القوطي . كما لم يبرز المؤلف وجه الشبه بين رمزية ديكنز ونهج الرمزيين المحدثين . ويشكل النهر على سبيل المثال أحد الرموز الغالبة في ديكنز كما أوضحت الناقدة Dorothy Van Ghent في كتابها عن الرواية الانجليزية ، فله كما هو الحال في آمال كبار قوة سحرية : يغرق الأفراد ويبرز الادلة التي ليست في الحسبان ويحول كيميائيا كل ما يلمسه ، كما أنه العنصر

الدافق الذي يربط الأفراد بمختلف طوائفهم وكذلك بعواقبها وربما يقذف بالضحية في حضن القاتل .

ويرتبط بنقطة احياء الخلفيات هذه موضوع احياء الجماد عامة (واعطاء الأشياء كما هو في الحكايات قوة وتأثيرا تفوق قوة البشر) وعكسه تجميد الاحياء . وعن طريق هذه التبادلية والسيولة بين الناس والاشياء يدين ديكنز المجتمع غير الادمي ، ويبين أن الانسان مسجون في مجتمع يفقده الصفات البشرية ويؤكد الصراع بين الآدمي وغير الآدمي ، بين القوى الايجابية قوى الحب والاخاء والقوى السلبية قوى الاستغلال وافكار الحياة . فكل من دومبي Dombey والسير ليستر ديد لوك Sir Leicester Dedlock وجراد جرايند Gradgrind وميردل Merdle وكثير غيرهم ظَلَمَة فقدوا آدميتهم ، هم أكثر من أشرار ميلودراميين ، انهم يمثلون المجتمع المادي بعقمه الروحي وفقدانه القيم الانسانية . كما أن مس هافيشام تحيل كلا من بيب واستيلا الى مجرد أشياء باتخاذهما اياهما وسيلة للانتقام لقلبها الكليم . وتكمن الجريمة في نظر ديكنز في تلك النظرة للأشخاص على أنهم مجرد أشياء ووسائل لغايات .

ومن مظاهر الانفصام انقسام النفس الواحدة الى نفس تَخْدُم ونفس تُخْدَم ، فمارتن تشزلويت مثلا « معطف وعبادة نفسه ودائما يلف نفسه بنفسه » (الفصل ٣٣) . ومثل هذا الانفصام يمكن الفرد من أن يقوم بأعمال لصالح نفسه كما لو كانت لصالح الغير . وخير مثال على ذلك بكسنيف Pecksniff الذي نشاهده « ينزع قفازيه ليدفىء يديه أمام المدفأة بكل سخاء كما لو كانت يدي شخص آخر وليست يديه هو » (الفصل ٣) . كما أن بعض الشخصيات يبالغ في وصف أحد اعضاء الجسد فيها حتى أنها تبدو كما لو كانت مقتصرة على هذا العضو فقط ، فأصبح جاجرز Jaggers ، الضخم يبدو منفصلا عنه وهذا بمثابة انعكاس لموضوعية القانون الذي يمثله جاجرز ، وأحبال ماجويتش الصوتية شبيهه بآلية الساعة نتيجة الخوف والظلم ، وفم ويميك Wemmick وعليه الابتسامة المريضة الزائفة يشبه صندوق البريد (آمال كبار) . والشكل آخر للانفصام يكمن في وجود نفسين للشخصية الواحدة : نفس عامة زائفة تظهر للآخرين ونفس خاصة تبقى مستترة . ويرتبط هذا بموتيف Doppelganger (الشبح) ، وخير مثال على ذلك جوناس تشزلويت Jonas Chuzzlewit الذي يتنكر ويغادر غرفة نومه من باب خلفي ليقتل تج Tigg وباعتقاد كل من في البيت انه ما زال في غرفته . لقد ترك نفسه العامة في الغرفة ولكن هذه النفس تستقل بذاتها وتطارد القاتل وتقرأ في الفصل ٤٧ أنه « كان مرتاعا لدرجة رهيبة من هذه الغرفة اللعينة مما جعله يخاف بطريقة جنونية ليس فقط على نفسه من نفسه . لقد أصبح شبح نفسه وغدا الروح الطاردة والرجل المطارد في

نفس الوقت » . وترتبط فكرة النفس الثانية هذه المستمدة من الحكايات بفكرة المونتاج أو الوصل أو تركيب شخصية على أخرى أو صورة على أخرى ، وهذا ينطبق بالاضافة الى الثنائي ماجويتش Magwitch وبيب Pip على استيلا Estella ومس هافيشام Miss Havisham وجو Joeواورليك Orlick في آمال كبار . وبذلك يبطل اتهام ديكنز بأنه لايستطيع أن يجمع الخير والشر في شخصية واحدة . ففي عالمه الشيطاني الذي لاتحكمه القوانين الطبيعية يكمل كل قرين صنوه . ويمكن تفسير عنصر المصادفة في الروايات ، والذي كان موضع نقد شديد من النقاد ، اذا ماربطناه بالعالم « العفاريتي » الذي يصوره ديكنز والذي يمكن أن يرتبط فيه مالايرتبط عادة . ولواقعة قلب ماجويتش بيب رأسا على عقب في بداية آمال كبار ارتباط بالقضية الأساسية في الرواية ، بالدرس الذي على بيب أن يعيه وهو أن يتجنب خلط عالم الأوهام بعالم الحقيقة والواقع . والسديم هو الصورة الافتتاحية لهذا الوهم في الرواية عندما يكبر بيب ينظر بعين الاحتقار لعالمه المتواضع ويرفض هويته الحقيقية من أجل المثل الخداعة لمجتمع المظاهر الزائف . لقد سيطرت عليه فكرة أن يكون سيدا محترما . وفي هذا الاطار تأخذ واقعية قلبه دنيلا رمزيا هاما . لقد نسي بيب أنه هو المقلوب وليس الكنيسة ، لقد اختلط عليه الظاهر بالواقع .

وربما يجد بعض القراء أن المؤلف ينسب الى حكايات الجان أكثر مما يجب وأن اصداء تلك الحكايات ونظائرها التي أوردها غير مؤكدة تماما كصورة البحر في دومبي وولده مثلا أو ربطه مجرد حمل بولي تودل Polly Toodle ابنها على صدرها بدلا من بول دومبي عند زيارتها لمنزلها في ستاجز جاردنز Stagg's Gardens بفكرة تبديل الأمير في الحكايات (ص ١٥١) ولكن تلك المسألة توكيد فقط ولاتؤثر على سلامة معالجة ستون لموضوعه . وتعد فكرة اللوازم الدالة التي أسهب في تحليلها في كل من دومبي وولده وديفيد كوبرفيلد من نقاط القوة في الكتاب . وكلما تركز النقاش في الكتاب حول استخدام ديكنز للحكايات كجزء من طريقته في اعادة تشكيل الحياة في رواياته لاحول مجرد أوجه التطابق بين الأحداث والشخصيات و تلك الحكايات كلما كان النقاش مفيدا ومثيرا . لقد اختار المؤلف عبارة ديفيد « والحياة كانت . . . حكاية جان عظيمة كنت على وشك البدء في قراءتها » كاقتباس استهلالي epigraph للكتاب . ويشترك ديكنز مع ديفيد في أن القراءة والسرد واعادة التشكيل هي سبيلهما الى فهم وتغيير عالميهما .

وربما يلاحظ القارىء بعض حالات التكرار ولكنها قليلة جدا ، فمثلا واقعة قذف ستيرفورث Steerforth لروزا Rosa بالمطرقة قد تكررت ثلاث مرات في صفحتين متتاليتين (٢٣٨ ، ٢٣٩) .

ولا أنسى اخيرا أن أثني على الجهد الضخم الذي بذله المؤلف في بحثه الذي بلغ ٣٧٠ صفحة من القطع الكبير والذي طالما انتظرناه ، ولست أشك في أن الكثيرين من المهتمين بفن الرواية عامة وادب ديكنز على وجه الخصوص يشتركون معي في هذا الشعور .

القرد الذى فينا

مصطفى عوض ابراهيم

لاشك أن فكرة الاصول القردية للانسان ليست محدثة ، بل تمتد جذورها الى أكثر من مائة عام عند ظهور نظرية داروين عن التطور بالانتخاب الطبيعي ، حين قرر أن الانسان ما هو الا نتاج للتطور ، مثله في ذلك مثل كل أشكال العضويات التي بدأت وحدات بسيطة ثم تعقد تركيبها ووصلت الى الشكل الذي نراها عليه الآن بالانتخاب الطبيعي ، خلال الزمن وحتى قبل عصر داروين ، فقد درج علماء التقسيم على وضع الانسان من الناحية البيولوجية ضمن شعبة الثدييات التي تشمل العديد من أنواع الحيوانات الأخرى الاقل رقيا ، ولكنهم ميزوا مع ذلك بينه وبين الثدييات الأخرى بوضعه في رتبة أعلى وهي رتبة الرئيسات التي تتضمن الرئيسات الدنيا ، وهي الليمورات والصعابير واللوريسات وذباب الشجر ، والرئيسات العليا وهي نسانيس العالم القديم ، ونسانيس العالم الجديد ، والقردة العليا (الغوريللا والشمبانزي ، والأورانج أوتان) واخيرا الانسان على قمة تلك الشجرة العائلية .

ولكن بعد ظهور نظرية داروين وصدور كتابيه أصل الانواع ، وأصل الانسان بدأ العلماء بتتبع الأصل التطوري للانسان سواء بالبحث عن الحفريات لمعرفة الحلقة المفقود بين القردة والبشر ، التي تحدث عنها داروين وقرر وجوب وجودها ، أو بدراسة سلوك أقرب أقارب الانسان وهي القردة العليا ، للتدليل على صحة نظريته وصدقها لمعرفة أوجه التشابه والاختلاف

بينها وبين البشر في عديد من النواحي ، مثل طريقة الحصول على الغذاء ؛ والسلوك الجنسي ، وطرق التفكير ، وأساليب التصرف في مختلف المواقف ، ونوعية الحياة التي يحيونها والبيئات التي يحتلونها ، والأنشطة التي يمارسونها وطرق العناية بالصغار ... وغيرها . وفي السنوات الأخيرة قام العديد من علماء الانثروبولوجيا والحيوان والرئيسات بدراسات حقلية رائدة لتلك الحيوانات في بيئاتها الطبيعية لمعرفة العديد من تلك النواحي . والكتاب الذي نعرض له هنا هو أحد هذه الكتب التي تتناول سلوك القردة العليا بالدراسة ، في محاولة لفهم سلوك الانسان والطرق التي يختلف فيها عن تلك الحيوانات ، في ضوء الدراسات الحقلية التي قام بها المؤلف على الجيبون ، والسيامنج ، والغوريللا ، والشمبانزي ، والشمبانزي القزم او البونوبو ، وأخيرا الأورانج أوتان . وذلك من خلال أصطحاب القارىء في رحلة قصيرة داخل أدغال افريقيا ، وغابات جنوب شرق أسيا ، لتتبع تلك الحيوانات في بيئاتها الطبيعية ، ثم الغوص به (اي القارىء) في اعماق التاريخ البعيد لتتبع أسلافه واصولهم ، وأخيرا العودة به مرة أخرى الى مجتمعه الانساني ، للتعرف على سلوكه وميزاته الاجتماعية ومنجزاته ، وفشله واخفاقه ، وآلامه وأحلامه وتطلعاته ، من خلال مقارنته بابناء عمومته القردة العليا .

اذا تخلى عن ملابسه واساليبه الفكرية ولغته ، فالقرد داخلنا ونحن مغلفون بملابس ، ولذلك فهو يذكر انه لكي نفهم انفسنا يجب أن نفهم تلك القردة من حيث البيئات التي يقطنونها والغذاء الذي يتناولونه ، والحيوانات الاخرى التي تشاركهم البيئة وامزجتهم ، وطباعهم ، وتكيفاتهم التشريحية والحركية وشكل تنظيمهم الاجتماعي ، ومقدار ذكائهم ، وطرق الاتصال بينهم والصفات التي يشتركون فيها مع الانسان وغيرها من التي يختلفون عنه فيها . فالواجب علينا دراسة القرد في حالة رغبتنا في اقامة نظريات عن اصل وبدايات الانسان .

ويتناول المؤلف في الفصل الاول أول نوع من أنواع القردة التي يعرض لها وهو الجيبون Gibbons ويصف البيئة الغابية لذلك النوع الذي قام بدراسته في الملايا Malaya عام ١٩٧٣ باسلوب شاعري يكاد يشعر القارىء بانه داخلها .

ويصف الحيوانات التي تشارك هذا النوع في البيئة ، ويستعرض تحركات الجيبون وتنقلاته على الاشجار ، حيث ينتقل لمسافة كيلو مترين فقط في اليوم الواحد للبحث عن مصادر الغذاء التي تتألف معظمها من أشجار الفواكه وخاصة اشجار التين . وعلى الرغم من ان الجيبون هو اقل القردة قرابة وشبها للانسان كما يذكر المؤلف الا ان هناك بعض الجوانب التي يشترك معه فيها مثل افتقاره للذيل ، وقدرته على الوقوف

متنصبا ، والحياة العائلية المونوجامية التي تميز تلك العائلة ، وكذلك الاقليمية التي يتصف بها ، فهو يحتل اقليما يدافع عنه ، وهو (اي الجيبون) يختلف تماما عن الحياة الأمومية البوليجامية التي تميز مجتمعات النسانيس ، وينتقل المؤلف في فصله الثاني الى نوع آخر من انواع عائلة الجيبون وهو السيامنج Siamangs الذي يحتل نفس البيئة مع الجيبون حيث قام بدراستهما معا . وهو يذكر ان السيامنج اسهل في تتبعه من الجيبون وهذا راجع الى عدم قدرته على التنقل بسرعة الجيبون ، لأنه أكبر حجما وهو يستعمل عددا محددا من الاشجار التي يتغذى أو ينام عليها . وهو غالبا يتغذى على نفس الشجرة التي ينام عليها ، واشجار التين تمثل مصدرا غذائيا هاما له حيث تعتبر ثمارها وجبة اساسية في حياته . ولكنه كثيرا مايوازن بين وجباته بالحصول على بعض نسب من البروتين ، حيث يقوم بزيارة بعض أشجار الحشرات ، ويقتات كذلك على بعض اوراق الاشجار . والسيامنج يمضي معظم أوقاته في الغذاء وليس في التنقل والتحرك بين الاشجار ، ويصف الكاتب السيامنج بانه حيوان مونوجامي مثل الجيبون ، ويتميز بالاقليمية كذلك ، ولكنه يتميز بأنه يحمل صغيره أثناء ترحاله وتجواله ، وكثيرا مايحمل الذكر الاب صغيره وبذلك يعطي الفرصة للانثى لبناء قوتها من جديد للبدء في حمل آخر ، ولكن الصغير يجب أن ينام مع أمه اثناء الليل ، ويتساءل المؤلف عن الاسباب التي لم تجعل السيامنج والجيبون يعيشان في تجمعات اكبر .

ومؤلف الكتاب هو جون ماكينون John Mackinon ولد في ليدز Leeds عام ١٩٤٧ . بدأ اهتمامه بحياة الأدغال والتوحش منذ نعومة اظافره الى ان اصقلها بكلية ونشستر Winchester Colleage وأمضى عاما كاملا في دراسة سلوك الحشرات والشمبانزي في تنزانيا مع جان جودال قبل ان يذهب الى اكسفورد Oxford للحصول على درجته العلمية في علم الحيوان . وقد حصل على درجة الدكتوراه نتيجة ابحاثه التي اجراها على الاورانج اوتان ، حيث وطدت من مكانته كعالم حيوان . وقد ألف مكينون العديد من الكتب ، نذكر منها بحثه عن القرد الاحمر ، وحيوانات آسيا ، وقام كذلك بتصوير العديد من الافلام التليفزيونية عن حيوانات الغابة . ويعيش دكتور مكينون حاليا مع زوجته وطفليه بغابات اندونيسيا في مشروع بحث هناك .

ويتألف الكتاب من ثلاثة اجزاء تتضمن أحد عشر فصلا بالاضافة الى المقدمة . وينقسم الجزء الاول الى ستة فصول ، يعالج المؤلف حياة القردة الخاصة ويفرد لكل نوع فصلا كاملا ، بحيث يتناول ستة أنواع وهي الجيبون ، والسيامنج ، والغوريلا ، والشمبانزي ، والشمبانزي القزم أو البنوبو ، وأخيرا الاورانج - أوتان . وهذا الجزء تأسس على

مذكرات المؤلف الميدانية عن تلك الحيوانات في بيئاتها الطبيعية ، وهو يصف لنا في هذا الجزء حياة القردة الخاصة واسلوب التغذية لديها ، ونمط دفاعها عن اقاليمها أو بيئاتها ، والسلوك الجنسي والتزاوج عندها وطرق تربيتها للصغار والتفاعل او العلاقات بين افراد النوع ، وبين النوع ككل وبين الانواع الأخرى .

ويتألف الجزء الثاني من فصل واحد وهو يدور حول الحفريات المبهمة والحلقات المفقودة التي تعتبر المؤشرات والدلائل الملموسة عن انحدار الانسان من انواع اخرى ، ويتتبع المؤلف في هذا الفصل الحفريات التي اكتشفت ، محاولا العثور على الاصل المشترك بين الانسان والقردة العليا . والجزء الاخير من الكتاب ينقسم الى اربعة فصول يتناول فيها المؤلف اثر التكنولوجيا على البشرية ، وكيف انها كانت السبب في كونْنا بشرا ، وسلوك الانسان داخل العائلة مقارنا بسلوك عائلات القردة ، والانسان ومجتمعه المحلي والاختلافات بينه وبين مجتمعات القردة ، واخيرا الانسان ومستقبله والطريق الذي يسير فيه من خلال الاجابة على سؤال وهو الى اين ايها البشر ؟ .

وفي المقدمة يذكر المؤلف أنه سوف يحاول حل تلك المشكلة التي تربطنا بابناء عمومتنا القردة العليا من خلال القيام برحلة الى الغابات الاستوائية في افريقيا وجنوب شرق اسيا ، وكان هدفه المباشر هو الحصول على فهم أفضل لتلك الحيوانات . ولكن القوة الكامنة وراء ذلك الهدف هي الحصول على أفضل فهم لنفسه . ويقرر المؤلف ان الانسان ما هو الا قرد ، وذلك مثل النسانيس ، ويجيب على ذلك بانه راجع بلاشك الى تخصصهم الغذائي كآكلي فواكه ، فالفواكه من الأشياء النادرة في الغابة بمقارنتها باوراق النباتات والاشجار الغزيرة ، التي تمثل الوجبة الرئيسية للنسانيس التي تتغذى على الفواكه بطريقة عرضية عندما تجدها أمامها ، ولكنها لاتبذل اي جهد في البحث عنها كالسيامنج ، ويقرر الكاتب ان السيامنج والجيبون لو انها التجأ الى اوراق الاشجار سيجدان منافسة شديدة مع النسانيس الوفيرة العدد . ويتتبع الكاتب في الفصل الثالث نوعا آخر من القردة العليا وهي الغوريللا Gorillas حيث قام بزيارتها في جبال زائير عام ١٩٧٥ ، وبنفس الاسلوب الذي اتبعه في الفصول السابقة بدأ في وصف البيئة التي تعيش فيها الغوريللا والمسالك والدروب التي ارتادها للكشف عن مسار جماعات الغوريللا باقتفاء أثرها ، ويذكر أن الغوريللا حيوان اقتصادي . فهي تستغل مصادرها الغذائية بطريقة اقتصادية ولاتدمر المصدر تماما ، فهي سرعان ماتنتقل الى مصدر آخر حيث تكون الاعشاب والحشائش نمت مرة اخرى في المصدر الاول لتعود اليه مرة اخرى ، وهي تعيش وتنتقل في جماعات من مكان لآخر حيث يتولى الذكور حماية الجماعة من

اي خطر يتهددها . وهذا الذكر يلعب دورا رئيسيا في تحديد اماكن الترحال والنوم . ويقوم كذلك بتحديد أوقات أنشطة الجماعة . هي تتغذى على كميات هائلة من الاعشاب والنباتات ، وهذا راجع بالطبع الى كبر احجامها . ويخصص الكاتب الفصل الرابع للشمبانزي Champanzees والنقطة الجوهرية التي يعالجها هي المتصلة بالسلوك الجنسي حيث تعبر الاناث عن حاجتهن للجنس بتغيرات فسيولوجية تصيب عجزهن حيث ينتفخ ويتغير لونه الى الاحمرار . ويلتقي الذكور بالاناث أثناء احمرار عجزهن ، ويذكر المؤلف ان ذكر الشمبانزي يتمتع بالقدرات الجنسية الهائلة ، فداخل خصيتيه اعداد لاحصر لها من الحيوانات المنوية ، وهو ينظر الى العملية الجنسية على انها شيء تافه او قليل الاهمية ، فهي لاتتعدى كونها طريقة من طرق تحية الذكر للأنثى ، فمن الممكن ان يستمر الذكر في تناول غذائه اثناء الممارسة ، فالجنس يحقق وظيفة اجتماعية في نظر المؤلف اكثر منها جنسية . ويرتبط افراد تلك المجتمعات سويا تبعا لحاجتهم المتبادلة للحماية والدفاع . وظاهرة تقسيم العمل تظهر في ذلك المجتمع ، فيقوم الذكور بصيد بعض الحيوانات ، أما الاناث فتصيد الحشرات . والشمبانزي من الحيوانات الكسولة في رأي المؤلف ، فهي تشبع احتياجاتها الغذائية اليومية في ساعات قليلة ، أما بقية اليوم فهي تقضيه في الاسترخاء والمرح والاستمتاع بالجنس ، وتقع ساعات الاسترخاء في منتصف اليوم حيث ترتفع درجة الحرارة ويقل النشاط .

وينظر المؤلف الى اللعب عند الشمبانزي على انه طريقة لتعلم المهارات ، فهو يتعلم المهارات الخاصة بسرعة الحركة . وفنون الحرب والنزال ، وطريقة صنع الادوات والاشياء .

فالشمبانزي حيوان اجتماعي ، متعاون ، يعيش داخل انساق اجتماعية وله ثقافة متطورة ، ويستخدم الأدوات ، ويصيد الحيوانات ليأكل ، حيوان له لغته الخاصة في التحدث والاتصال ، كل ذلك يجعل الشمبانزي مشابه الى حد كبير للظروف البشرية اكثر من اي نوع ذكرناه من قبل كالقردة الدنيا والغوريلا .

اما الفصل الخامس فهو عن البونوبو Bonobos او الشمبانزي القزم ، ويذكر المؤلف انه تم التعرف عليه كنوع يختلف عن الشمبانزي عام ١٩٢٩ ونظرا لندرته فقد نظر اليه العلماء على أنه اذكى انواع القردة واقربها الى الانسان . وقام الكاتب بزيارة هذا النوع في زائير عام ١٩٧٥ ، ويختلف البونوبو عن الشمبانزي في الحجم ، وهو اكثر تخصصا وتكيفا للعيش في الغابات الاستوائية ، بعكس الشمبانزي الذي يحتل بيئة أوسع ، حيث يعيش في مناطق السفانا والمناطق الغابية الاستوائية ايضا ، وهو يذكر ان مجتمعات البونوبو تختلف

عن مجتمعات الشمبانزي من حيث العدد ايضا ، فاكبر جماعة شاهدها العلماء كانت تتكون من عدد من الذكور وثلاث اناث فقط ، واغلب الظن انها تجمعت لممارسة الجنس فقط وجماعات البونوبو تتميز بالاستقرار والثبات ، فهي لاتقبل اعضاء جدد في الجماعة مثل الشمبانزي .

وفي رأي المؤلف ان البونوبو فرع حديث نسبيا من الشمبانزي ساعد الانتخاب الطبيعي على ظهوره ، والعديد من النواحي السلوكية لديه تشير الى انه عاش في فترة من الفترات على الارض ، ولكن لم تعد تلائمه تلك الوسيلة حيث اصبح من السهل افتراسه من حيوانات الغابة المفترسة . ويختلف البونوبو كذلك عن الشمبانزي في النظام الابوي والعائلي الذي يتكون غالبا من الذكر والانثى ، ويقع الجهاز التناسلي لانثى البونوبو اسفل البطن مباشرة وذلك يساعد على سهولة التكاثر على الاشجار ، والبونوبو اكثر قدرة كذلك على الحركة والفرار من الاشجار . ويؤكد المؤلف ان اكبر دليل على ان البونوبو وافد الى الغابة هو افتقاره الى ظاهرة الصياح او الصراخ ، وكذلك افتقاره الى الاقليمية (الحماية والدفاع عن البيئة) وسبب عدم وجود الاقليمية لديه هو انه كان يوما ما شمبانزي متعاونا يعيش داخل مجتمع اكبر في راي المؤلف . وتطرق المؤلف في الفصل السادس الى الحديث عن الاورانج اوتان Orang — Utans الذي زاره في بورنيو Borneo وسومطرة Sumatra عام ١٩٦٨ و ١٩٧١ ويطلق عليه اسم انسان الغابة وهو حيوان بطيء يتحرك حوالى ٥٠٠ ياردة في اليوم بأكمله ، ويتحدث المؤلف كذلك عن الحياة الجنسية للاورانج اوتان ويذكر انها مشابهة الى حد كبير للسلوك الجنسي عند الانسان ، والممارسة الجنسية تستغرق وقتا اطول من مثيلتها لدى الشمبانزي ، فهي عمل غرامي وغزلي ، ويمارس الاورانج الجنس على الاشجار بطريقة اكروباتية حيث يقفز الذكر على الانثى ويعانقها من الامام والخلف ومن اعلى واسفل . وبعد ان ينتهي المؤلف من عرض الجزء الاول من كتابه ينتقل الى الجزء الثاني الذي يتألف من فصل واحد فقط بعنوان الحلقات المفقودة Missing links ويعالج في هذا الفصل (وهو الفصل السابع) مشكلة التطور وأصل الانسان في ضوء ماتجمع لدينا من ادلة مادية ملموسة وهي الحفريات Fossils ، ويتعرض بصورة سريعة لنظريات التطور كنظرية الخلق الخاص ، ونظرية الكوارث ، ونظرية التطور بالانتخاب الطبيعي لداروين ووالاس ويلخصها فيما يلي : -

١ - تميل العضويات الى الاختلاف والتنوع داخل النوع .

٢ - تميل العضويات الى التزايد في العدد بزيادة ذريتها .

٣ ـ تميل العضويات كذلك الى الاحتفاظ باعدادها حيث تموت اعداد كبيرة من صغارها .

٤ ـ يميل الصغار الى مشاكله الآباء لأنهم يحملون المادة الوراثية الموجودة في بويضة الأم ومني الأب .

٥ ـ تنتخب الطبيعة الصفات الاكثر تكيفا مع البيئة وتلك الصفات تنتقل عبر الاجيال .

٦ ـ يتغير شكل النوع ليلائم الظروف البيئية . ويمكن ظهور نوع جديد في حالة حدوث تزاوج بين الانواع المنعزلة وراثيا .

ويذكر المؤلف ان داروين لم يكن على علم بالطريقة التي تنتقل بها الواحدات الوراثية ، اما اليوم فنحن على علم بقوانين الوراثة وبالتكوين البيوكيميائي لحمض الـ D .N.A ،وكذلك اصبحنا نملك حفريات عن انسان وقردة ماقبل التاريخ تساعدنا على اقتفاء أثر الانسان في عصور ما قبل التاريخ ، بالاضافة الى المناهج البيوكيميائية التي ظهرت أخيرا وساعدتنا على قياس التشابهات بين القردة الحالية والانسان ، وزادت من قدرتنا على تفسير السجل الحفري كقياس درجة التشابه في مجموعات الدم ومعدلات الترسب في الدم ، وبناء جزيأالهيموجلوبين ، وكذلك المقارنة بين نواة الكروموسوم في كل من القردة والانسان . تلك التي اثبتت التشابة بين الغوريللا والشمبانزي والانسان ، واثبتت اختلافا بينه وبين الاورانج اوتان والجيبون ، وهذا على النقيض من التصنيف الاول الذي يضع الغوريللا والشمبانزي والاورانج ـ أوتان في خط واحد . وبعد ذلك ينتقل المؤلف الى سرد رحلة تطور الانسان والقردة بادئا بالقردة المصرية Aegiptopithecus وقرد الشجر Dryopithecinss والقردة المسماة Dendropithecinss وقرد البروقنصل Proconsul وقردة راما Ramapithecus والقردة القديمة -Paranthropus وانسان جنوب افريقيا القرد -Australopithecus والنقطة الجوهرية التي يركز عليها المؤلف هي المتصلة بتحول القردة الى بشر ، وذلك راجع الى تغير الظروف المناخية في مختلف العصور ، والتي ادت الى تدمير البيئة الشجرية لبعض تلك الانواع مما ادى بها الى النزول من الشجر والسير على الارض ، وتحولهم الى الصيد بدلا من التقاط الفواكه كطريقة في الحياة ، وهذا أدى الى تغيرات تشريحية في شكل اليد وقدرتها على قبض واستعمال الاوات ، وكذلك في شكل العمود الفقري والسير على قدمين بدلا من اربع . وكذلك تطور جهاز الكلام والذكاء كوسيلة من وسائل الاتصال بين الجماعة التي تعيش على الصيد ، وكذلك التغيرات التي طرأت على شعر الجسم .

ويستعرض المؤلف في الجزء الثالث من

الكتاب الظروف التي ادت بنا الى ان نصبح بشرا ، والمميزات الاجتماعية والفكرية للانسان ومنجزاته ومخاوفه وآلامه واحلامه وتطلعاته ، وذلك في اربعة فصول هي الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر . ويبدأ المؤلف الفصل الثامن قائلا ان الانسان عاش كصائد ـ جامع ما يزيد عن ٩٠٪ من تاريخه ، وان استعمال الادوات هي الخطوة الاولى في تاريخ البشرية حيث يختلف عن القردة في طريقة استعمالها ، فالقردة تستخدم الادوات لقضاء حاجة معينة وتلقيها بعد ذلك ، اما الادوات البشرية فتتميز بالاستمرارية حيث يحتفظ بها الانسان لاستخدامها في ظروف اخرى مشابهة . وينتقل المؤلف الى تطور اساليب الاتصال واللغة عند الانسان ، ويستعرض بعض الدراسات اللغوية التي اجريت على الشمبانزي لتعليمه اللغة ، وهو يذكر ان اللغة يجب ان تكون واحدة داخل افراد الجماعة كوسيلة للاتصال والتفاهم ، وكلما زادت المسافة بين أفراد الجماعة قلت اهمية الاشارات ، واصبح للاصوات معنى ومغزى ، واللغة تساعد الانسان على حل بعض مشاكله بالطرق السليمة مع غيره دون الخوض في صراع ، مثلما يحدث بين الحيوانات الأخرى ، ويتساءل المؤلف عن ماهية الكلام ودلالته بالنسبة للبشر واختلافه عن اساليب الاتصال المألوفة عند القردة ، ويجيب على ذلك بقوله ان معرفتنا بالطريقة التي يخزن بها المخ المعلومات مازالت غامضة ، ويستعرض آراء مختلف الباحثين وآراءهم بالنسبة للطريقة التي يعمل بها العقل ، حيث يذكرون انه توجد ثلاث خرائط عصبية خلوية داخل المخ عن البيئة المكانية والزمانية التي نعيش فيها ، وعن الاماكن التي نعرفها ، والناس الذين نقابلهم ، فهناك تطورات اولية توجد في عقل الفرد تثار بمجرد سماعه اى لفظ أو عبارة يستطيع بها ادراك وفهم المعاني ، ويناقش المؤلف كذلك الكتابة واثرها على تطور اللغة ورقي الثقافة وانتقال المعلومات عبر المكان والزمان ، فثقافتنا البشرية تتميز بالتراكم والاكتساب من الاجيال السابقة . ويذكر ان الممارسات الثقافية الفريدة في سلوك الانسان هي السحر والدين الذي يلجأ اليه الانسان عندما تعترضه مشاكل يصعب عليه حلها ، فعندما عجز عن تفسير الظواهر البركانية افترض انها مساكن للآلهة . ويتناول ايضا الظواهر الثقافية الأخرى كالفن والموسيقى ، وهو يعتبر الفن نوعا من تأكيد الذات او الأنا EGO ، والتعبير عن الذات ايضا ، حيث ان الانسان يعيش داخل مجتمع لايعترف بالفردية ، وهنا جاءت قيمة الفن للتعبير عن تلك الفردية .

ويؤكد المؤلف على ان اللغة والتكنولوجيا والمنتجات الفنية كان لها ابعد الاثر في تباعد الانسان عن القرد والحيوانات الأخرى من الناحية الثقافية .

وينتقل الكاتب بعد ذلك الى الفصل التاسع من كتابه بعنوان الانسان والعائلة . وهو يذكر ان

السلوك الاجتماعي هو السلوك التعاوني الذي نراه بين فردين او اكثر .

وهو يعتبر الرئيسيات كلها اجتماعية في سلوكها ، لأنها تعتني بالصغار وتتفاعل مع بعضها في شكل السلوك الجنسي بين الذكور والاناث . ويناقش الاختلافات بين الانسان والقردة من حيث شكل العائلة وتنظيمها والعلاقات بين مختلف افرادها ، كما يتناول بعض المشاكل الاجتماعية مثل الاغتصاب والدعارة ، ويصف الاغتصاب بانه سلوك ذاتي ، عدواني غير اجتماعي وشكل مرضي من اشكال الحصول على الجنس واشباع الرغبات ،وفي بعض الاحيان يؤدي الاغتصاب وظيفة اجتماعية اكثر منها جنسية ، فهو نوع من تأكيد الذات والشعور بالقدرة على السيطرة على المرأة . وينظر المؤلف كذلك الى الدعارة Prostitution على انها من الحرف القديمة التي احترفها الانسان ووظيفتها تقديم الجنس .

وفي الفصل العاشر بعنوان « الانسان ومجتمعه المحلي » ينتقل المؤلف الى صورة اكبر من صور العلاقات الاجتماعية التي تنشأ بين عدة عائلات تشترك في تنظيم اجتماعي معقد يطلق عليه المجتمع المحلي . وهو يقول في ذلك ان العائلات الانسانية غير مكتفية ذاتيا ولذلك يجب ان تتعاون العائلة مع بقية افراد القرية الذين تربطهم بهم علاقات يومية . وهم يتعاونون ايضا مع الدوائر الاجتماعية الأوسع ، وتربطهم علاقات بالمجتمعات المحلية المجاورة ، بكل القرى التي تنتمي الى نفس القبيلة ، وبكل القبائل التي تشترك معهم في اللغة . وبكل القوميات الأخرى من نفس الجنس ، واخيرا يتفاعلون مع النوع ككل . ويذكر المؤلف ان النوع الوحيد الذي يشبه الانسان من حيث تنظيمه الاجتماعي هو الشمبانزي .

واخيرا يستعرض المؤلف في الفصل الحادي عشر والاخير ماسبق ان تناوله في الفصول السابقة بصورة سريعة محاولا القاء نظرة على المستقبل من خلال معرفة الطريق الذي سرنا فيه في الماضي . هويتساءل عن ذلك قائلا هل يمكن ان تساعدنا معرفتنا بالماضي في تخطيط رسم مستقبلنا لعبور طريق اللامجهول ؟

وهو يؤكد على أننا نواجه الآن مشاكل لم نواجهها من قبل ، واصبح الانتخاب الطبيعي محدود الفائدة ومن هنا يجب ان نعتمد على ذكائنا الجماعي ويتساءل عن نوع المستقبل الذي ينتظر الجنس البشرى ، وهل سيتطور هذا الجنس ام سيفنى . وهو يؤكد على انه ليس هناك تهديد للنوع ككل بسبب الكوارث المنتظرة،نتيجة قلة الاكسجين في الغلاف الجوي ، أو نتيجة الحركات البركانية والزلازل التي تهدد البشر ، فكلها في اعتقاد الكاتب كوارث محلية لاتمثل

تهديدا للنوع ككل . فليس هناك خوف من الطبيعة ، وانما الخوف يكمن في الانسان نفسه بسبب تزايد الكثافة السكانية وقلة المصادر البيئية التي لايحسن الانسان استغلالها ، والانسان في رأي المؤلف يلوث بيئته وانهاره ومجاله الجوي المحيط به ، فأكبر عدو للانسان هو الانسان نفسه . ويتساءل المؤلف قائلا ان العالم ينقسم الى معسكرين يتنافسان في سباق التسلح ، فهل تكفي تلك الاسلحة لتدمير الحضارة ان لم تكن البشرية جمعاء في حالة نشوب حرب نووية بين الكتلتين ؟ ويجيب المؤلف على ذلك بان هناك بعض الامان حيث لن تستطيع اي كتلة تحقيق النصر النووي الكامل دون ان تعاني هي نفسها من الدمار ، ولكن هل ستستمر الحالة كذلك ام ستنجح احدى الكتلتين في ابتكار درع نووي كامل لحماية نفسها ؟

وهنا يذكر الكاتب ان التاريخ لايقدم لنا عزاء ، حيث لم تحدث حروب نووية خلاله من قبل . ويقول انه يجب على النوع البشري ككل ان يتحد داخل عسكر واحد . ولكن ضد من ؟ هنا يقرر الكاتب اننا يجب ان نتوقع ونتخيل وجود حياة على الكواكب الاخرى ، فنحن معرضون لأخطار خارجية من مخلوقات على مستوى عال من الذكاء خارج كوكبنا ، ونحن في حاجة الى تهديدات خارجية لتماسك ونتحد كنوع ، ويقول انه في حالة غياب تلك الاخطار فنحن في حاجة الى اختلاق نوع آخر من الاخطار في شكل اشباح وشياطين وارواح شريرة ، ومن المنطقي ان نتصور وجود أناس لهم قوى خارقة في العوالم الاخرى ، وعلينا ان نعد انفسنا لمواجهة هذا الخطر المشترك بأقصى ما يمكن .

ويذكر المؤلف ان هناك تهديدات اخرى اكثر واقعية في حاجة الى اتحادنا وتماسكنا ، فيجب علينا توحيد جهودنا في البحث عن مصادر الطاقة والبترول والمعادن والفحم والاسماك البحرية وغيرها ، كل تلك مشاكل يجب ان نواجهها على الصعيد العالمي اذا كنا نبحث عن حل لها . فيجب علينا جميعا ازالة الحدود القومية بيننا ، ونشترك في لغة واحدة تساعدنا على التبادل الثقافي الحر ، وانتقال المعارف العلمية والتكنولوجية . ويهاجم المؤلف الاساليب التي تتبعها الدول الكبرى في حفظ التوازن وتزويد الدول الأخرى بالاسلحة لحفظ الصراع ، ويؤكد ان الطريقة المؤثرة لحفظ ومنع الصراع هي التهديد بالحرمان والقطع ، ويستشهد على ذلك بالتأثير السياسي لقرار حظر البترول العربي .

ويتناول المؤلف بعد ذلك اثر التصنيع والحضارة على البشرية ، فالشعور بالضياع والاغتراب وعدم القدرة على تحقيق الذات والامراض العصبية والنفسية ، والنوازع التدميرية وجرائم القتل والطلاق وهجر الاطفال

والمشاكل الجنسية ، كلها ظواهر منتشرة في المجتمعات الغربية على الرغم من التقدم الاقتصادي والعلمي في تلك المجتمعات ، ويناقش بعد ذلك موضوع الزيادة السكانية الرهيبة التي تجتاح العالم واصفا لها بعض الحلول مثل التحكم في الجنس ووضع قيود اقتصادية وضغوط اجتماعية على العائلات التي يزيد حجمها عن عدد معين من الافراد .

ويتساءل اخيرا عن فائدة الابحاث التي تجريها على القردة (كالابحاث الطبية والسيكولوجية) وتعليمها اللغة وغيرها ، ويجيب على ذلك بقوله ان الشمبانزي حيوانات زكية يمكن ان تنجز أعمالا معقدة بمهارة فائقة ، فالانتخاب الصناعي الذي يمكن ان نقوم به على مخ الشمبانزي لمدة الف جيل مثلا لاشك انه يمكن ان يفيد كثيرا ويؤدي الى تطور ذكاء تلك الحيوانات بشكل غير عادي ، وبذلك يمكن الانتفاع منها والحصول على خدماتها للانسان ، كما انتفعنا من قبل بالدرفيل بتوظيفه في اعمال الجاسوسية تحت الماء ، وبالافيال كآلات حربية في الحروب القديمة ، وكذلك الحصان والكلب فلنتصور الشمبانزي يوما ما يسيطر على العالم ويطلب حقوقا متساوية كما في كوكب القرود لبيربول Bierre boulle .

وأخيرا يختتم المؤلف الفصل الأخير من كتابه قائلا إنها كلها تخيلات واحلام غير مشروك في احتمال حدوثها ، فحقيقة علم اليوم هى خيال الأمس ، والعلم يتقدم باستمرار ، فربما يستطيع الانسان بناء المدن تحت الانهار والمحيطات ، وزرع الصحراء واذابة الجليد القطبي ، وربما يستطيع اللعب بالمادة الوراثية ، فيشكل حيوانات جديدة ونباتات جديدة وعقاقير جديدة وامراض جديدة ، كلها تخيلات ولكنها ممكنة الحدوث . . ويتضح من خلال هذا العرض ان الموضوع الذى يتناوله الكاتب ليس بجديد في مجال الدراسات الانثروبولوجية والبيولوجية (وخصوصا البيولوجيا الاجتماعية) فمعظم تلك الموضوعات التي تطرق اليها بالبحث سبقه اليها العديد من العلماء ، وتناولوها بطريقة اكثر تعمقا ، ومن وجهة نظرى تعارض ، هناك بعض السلبيات اود ان اشير اليها سواء من ناحية التحليل او العرض .

اولا : طالما ان اغلب الادلة والحقائق التي يتضمنها الكتاب قامت على الدراسات الحقلية التي قام بها المؤلف بنفسه على تلك الانواع مستعينا في ذلك بالمنهج المقارب . . ٥لأحوجصنصخرق وقغاحي كان من واجبه عقد بعض المقارنات بين الانسان وبين الجماعات الحيوانية التي تعيش على الصيد والقنص كالذئاب والكلاب البرية والأسود ، فاللحم يعتبر عنصرا هاما في الغذاء الانساني ، وقد اثبت السجل الحفري ان اكل اللحوم واستخدام الادوات ثم حدوثهما في اولى مراحل

انفصال الانسان عن القردة العليا ، طالما انه وصف الانسان بانه صائد جامع .

ثانيا : نظرا لقصر المدة التي امضاها المؤلف في دراسة سلوك تلك الحيوانات فانه لم يستطع ان يمدنا بصورة متكاملة عن حياتها ، بالاضافة الى الاسلوب الوصفي الشاعري الذي اتبعه في وصفها فجاءت الفصول الستة الاول من الكتاب اقرب الى ادب الرحلات منها الى الدراسات العلمية المتعمقة ، بالاضافة الى انه لم يقدم العديد من النواحي التشريحية التي يتشابه فيها الانسان مع تلك الحيوانات ، وانما تناولها بصورة سطحية عرضية في ثنايا الكتاب .

ثالثا : لم يستطع المؤلف ان يقدم لنا تحليلا قويا لشبكة العلاقات الاجتماعية المعقدة داخل العائلة البشرية ، وانما اقتصر على وصف العلاقات السطحية التي تنشأ بين افراد العائلة كعلاقة الأم بالطفل ، والأب بالأم ، فلم يتناول علاقة الطفل بأقاربه وبأصدقائه ، وكذلك علاقة الاب او الام بالجيران الاقارب والاصدقاء ، ولاعلاقتهم كذلك بالوحدات الاجتماعية الاكبر كالعشيرة والقرية والقبيلة والمجتمع ككل ، وربما يمكن ان نعزو هذا الى انه عالم حيوان وليس متخصصا في الانثروبولوجيا ولاغيرها من العلوم التي تهتم بالانسان والمجتمع .

ومع ذلك فقد استطاع المؤلف ان يتناول العديد من المشاكل الاجتماعية والسيكولوجيه والسياسية التي يعاني منها الجنس البشري ككل واضعا لها بعض الحلول التي تدل على سعة اطلاعه والمامه بالعديد من افرع العلم الاخرى التي تبعد عن مجال تخصصه واهتمامه .

***